روايات

WALID SAIF

وليد سيف

النار والعنقاء

2

صقر قريش

الأهلية

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

صقر قريش (ج٢)

(روايـة)

وليد سيف

الكتاب الأول

الفرار الكبير

بعد عامين من أعمال الملاحقة والقتل في أنحاء الشام، بدا أن فرق المسوّدة قد بدأت تسكن عن المطاردة. والحق أن ذلك لم يكن لأن القوم قد شُفيت قلوبهم وذهب غيظ صدورهم. ولكن لأنهم في هذين العامين كانوا قد توصّلوا إلى جلّ الأموية وأفنوهم. وصار عليهم الآن أن يترصّدوا تاليهم على سعة وهدوء. لعلهم يبدأون في ترك حذرهم والخروج من مخابئهم والتوصّل إلى بعض أصحابهم ومواليهم، وقد ضاق عليهم العيش في جحورهم مع القلّة.

وكان يحيى بن معاوية قد لقي مصير إخوته الذين قُتلوا بدمشق إذ توصّل إليه المسوّدة في إحدى قرى الشام. وبقي الوليد بن معاوية مختفياً في البادية.

أما عبد الرحمن بن معاوية، فرأى ألا يلبث في مكان واحد طويلاً، وانتهى به التنقل إلى أطراف قرية عمّار، ومعه ولده سليمان، وأخوه الأصغر هشام، وأختاه أم الأصبغ وأمة الرحمن، والخادمان بدر وأبو شجاع.

- إلى أين يا سيدي؟

سأله بدر إذ رآه قد قرّب جواده ومعه عدّة الصيد، وتابع:

- كأنك تريد الصيد. ألا تخشى..

لم يتم بدر عبارته إذ قفز عبد الرحمن على ظهر جواده وانطلق به. وبعد ساعة من التجوّل في البريّة دون أن يصيب شيئاً من الصيد، سمع وقع حوافر جواد يقترب من خلفه فأوجس خيفة في نفسه، وفكّر في الفرار لولا أن انقشع الغبار عن بدر.

ابتدره عبد الرحمن بالسؤال:

- ما الذي جاء بك؟

- الذي جاء بك يا سيدي.. أنا أيضاً طلبت نفسي اللحم، وقد ملّت نفسي من الخبز والزيت والخلّ.

استوقفته كلمة «أيضاً». وأدرك القصد. ففي لقائهما الأول على الطائر الذي أصاباه معاً، أحب عبد الرحمن أن يفرّق بين نفسه والرجل، وأنه وهو الأمير، لا يخرج للصيد لحاجة الطعام، وإنما يخرج تريُّضا ومتعة. فأولى به أن يترك له الطائر. والآن يخرج كلاهما للغاية نفسها: حاجة الطعام:

قال عبد الرحمن:

- ولكني لم آذن لك أن تلحق بي.

أجاب بدر:

- الخادم يكون حيث يكون سيّده.

قال عبد الرحمن:

- ولكنك تدرك الخطر.

قال بدر:

- ليست حياتي بأثمن من حياتك يا سيدي، فما يصيبك شيء حتى يصيبني أولاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس عبد الرحمن على عتبة البيت ينظر إلى بدر الذي جلس يشوي أرنبين تمكّنا من اصطيادهما. فجأة نهض عبد الرحمن واقترب من بدر الذي فزّ واقفاً، فأمره أن يعود إلى ما كان فيه. وبعد هنيهة صمت، قال عبد الرحمن:

- أنصت يا بدر. قد التحقت بخدمتي وأنا في حال الغنى والعز والإمارة والأمان والمنعة.. والآن..

تريّث لحظة ثم تابع:

- لم يعد في وسعي أن أعطيك أجرك كما ترى. ولسنا في أمان..وما ندري، قد يصبّحنا المسوّدة أو يمسّوننا. ونحن إذا أخِذنا فإنا نؤخذ بأنسابنا وماضي خلافتنا، وإنما يغرم الرجل على قدر مغنمه. وأنت رجل لا ناقة لك في هذا ولا جمل. فلماذا تُهدِف نفسك للقتل معي؟ ولذلك آمرك أن تجمع متاعك وتنصرف من الصباح.

نظر بدر إليه متمعَّنا، وفجأة أطلق ضحكة خفيفة.

قال عبد الرحمن متعجباً:

- هل قلت ما يضحك؟

- لا يا سيدي.. ولكن.. بئس المولى الذي يُقبِل على سيده مع إقبال دهره، ويُدبِر عنه مع الإدبار. مع ذلك، من قال إن دهرك في إدبار؟

- أبَعْدَ الذي وقع لقومي تقول هذا؟

@ - إياك أعني يا سيدي، لا بني أميّة على الجملة. ولقد سمعتك تقول لأهل بيتك: «العزيمة الآن أن نبقى أحياء. ولكن، لا حياة لمن رضي المذلّة والخنوع.. أريدهما معاً: الحياة والكرامة، ووراءهما ما هو أعظم». فلما قيل لك: «أي عظمةٍ هذه التي تتحدث عنها الآن بعد ذهاب دولتنا ومصارع قومنا؟» كيف أجبت يا سيدي؟ قلت: «هذا هو الفرق بين رجل لا يرى من الدنيا غير يومه، فيتصور مستقبله على قدره، ورجل يرى حال يومه ظرفاً لا يدوم، فيرى ما يريد من مستقبله، بدلاً من أن يريد ما يرى!» أليس هذا قولك يا سيدي؟

قال عبد الرحمن:

- وتحفظه؟

- لا أنسى شيئاً سمعته، لا سيّما حكمة توافق عقلي ونفسي. وقد صدقتَ يا سيدي.. إنما يغرم الرجل على قدر مغنمه.. ويغنم على قدر مغرمه. وأنا مستعد لأن أغرم على قدر المغنم الذي أرجو.

ازداد عبد الرحمن تعجباً وسأل:

- مغنمك؟ أي مغنم؟

- مغنمي يا سيدي ليس في خبر الأمس أو اليوم.. ولكنه في خبر الغد معك إن شاء الله.

أرسل عبد الرحمن بصره بعيداً، وقال:

- وأينا يعرف خبر الغد؟

قال بدر:

- نعرف منه بقدر ما نُؤَمّل فيه، وبقدر ما نبذل له. وهذا والله مذهبك، وهو، عفوك يا سيدي، مذهبي أيضاً، وإن كنت المولى والخادم.

نهض بدر واقفاً ونظر في وجه سيّده وقال:

- ألا ترى يا سيدي! أجري عندك مؤجّل. ولسوف آخذه أضعافاً في وقته إن شاء الله.

هزّ عبد الرحمن رأسه وشرد ببصره نحو الغرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الرمد يعاود عينيه بين الفينة والأخرى. وقد جاءه شديداً هذه المرّة، وكان إذا أصابه تجنب الخروج في ضوء الشمس، وحمل نفسه على القعود في غرفة مظلمة يغطي نوافذها أو طاقاتها ويعمد إلى خرقة سوداء فيجعلها على عينيه. وهذه المرّة علّق ساخراً:

- علاجي في خرقة سوداء!! شعار بني العباس.

قال بدر مبتسماً:

- وكذلك جل الدواء يا سيدي، نعافُه ونكرهه، وقد يكون فيه الشفاء. وإني أعرف بعض الأعشاب إذا نُقِعت في الماء، ثم رُطِّبت العينان بذلك النقيع خفّ الداء بإذن الله.

- وطبيب أيضاً؟

- من عزّ عليه الطبيب، تعلَّم أن يستطبّ لنفسه ولغيره. فائذن لي، هداك الله، أن أخرج إلى البريّة فألتقط منها.

كان الوقت عصراً حين اندفع ولده سليمان ذو الرابعة من عمره راكضاً مرتجفاً هلعاً، وتعلّق بأبيه يهزه:

- أبتِ، أبتِ.

دفعه عبد الرحمن عنه ليجنبه العدوى وهو يقول:

- ما دهاك أيها الفتى!

ولكن الطفل انعقد لسانه، ولم يحسن إلّا جذب ثوب أبيه وهو يشير إلى الخارج. فجأة تنبه عبد الرحمن وقفز من مكانه:

- يا إلهي! أهم المسوّدة؟ الرايات السود؟

هز الطفل رأسه متعلقاً بثوب أبيه. جذبه أبوه ووضعه في ركن الغرفة وقال:

- امكث هنا.. لا تتحرك من موضعك.

وإذ مضى نحو الباب، انفتح عن أخيه هشام داخلاً مهرولاً يلهث ويصيح:

- النجاة يا أخي.. رايات المسوّدة.

وفهم منه عبد الرحمن أنه رآهم عن بُعد يقبلون على القرية. فأدرك أنهم لا يعرفون بيته حتى اللحظة، ولكنهم لن يلبثوا طويلاً في السؤال والاستقصاء حتى يعرفوا فيقصدوا إليه. وهم يعرفونه بأوصافه.

اضطرب البيت بساكنيه، وأخذت أختاه ترتجفان من الرعب وتبكيان. وأسرع إلى صندوق فاستخرج منه صرة نقود كان يدّخرها لمثل هذا اليوم. وقال لأختَيْه:

@ - إذا وجدكما بدر، فاطلبا منه أن يلحق بي إلى الأجمة القريبة من الفرات إنه يعرفها.. وهم لا يقتلون النساء والأطفال.

ثم مسح على رأس ولده بحنان غامر وقال:

- لا أدري متى أراك يا سليمان وأين، إن كتب الله لي البقاء. أريد أن أقبّلك، ولكني أخشى عليك الرمد.

كان سليمان يبكي بصمت. وكذلك أم الأصبغ وأمة الرحمن.. نظر إليهما عبد الرحمن وقال:

- هذا أوان الفراق.

سألت أم الأصبغ؟

- إلى أين؟

قال:

- إلى القدر الذي كتبه الله لي، إلى مكان قصيّ بعيداً عن هذه الديار.. فإن أنجاني الله وبلغ الكتاب أجله، أرسل إليكم من يحملكم إليّ، ولو كنت في آخر الدنيا.

ثم ضرب على ذراع أخيه هشام وقال:

- أنت معي.. فقد بلغت سن القتل!

وهرولا خارجين، وأردفه عبد الرحمن على جواده، وانطلق بأقصى سرعته.

دخل الليل عليهما وهما مختبئان بين أشجار الأجمة. كان هشام راقداً على الأرض يرتجف من شدّة البرد، فخلع عبد الرحمن رداءه وغطّاه به، بينما بقي جالساً يتجمع على نفسه من شدة البرد.

حين تسللت أشعة شمس صباح عبر الأشجار، كان النوم قد غلب على عبد الرحمن، فاستلقى إلى جانب أخيه. ثم فتح عينيه في نصف إغماضة إذ تناهى إليه صوت أقدام تمشي بهدوء على ورق الشجر اليابس المتساقط عن شَجَره، وكان الصوت يقترب ثم يبتعد، وكأن صاحبه يدور في المكان باحثاً عن شيء لم يعيِّن مكانه. وحين عاد أخيراً إلى الاقتراب إلى مسافة خطرة، هبّ عبد الرحمن بحركة سريعة شاهراً سيفه وملوَّحا به، حتى سمع صوت بدر:

- على رِسْلِك يا سيدي. أنا بدر.

كان هشام قد استيقظ على الحركة. وقال عبد الرحمن لبدر:

- لو قتلتك لما لُمت نفسي.

حافظ بدر على روح المداعبة على الرغم من كل شيء، وقال:

- ومن أين لك أن تجد خادماً مثلي؟

كان معه صرة طعام من الخبز والقديد، وقربة ماء. وضعها أمام الأخوين:

- هيا. لعل الجوع قد بلغ منكما.

لم يمدّ عبد الرحمن يده إلى الطعام، وكان جفناه متورمين وقد ساءت حال عينيه، ووضع كفيه عليهما ليداري أشعة الشمس. وقال لهشام:

- دونك الطعام يا هشام، تبلّغ منه، فما ندري ما يكون من أمرنا بعد الآن.

ثم سأل بدراً:

- كيف فعلت أختاي وولدي؟

- لم ينلهم شرّ، إلّا الخوف عليكما. وهم الآن في مأمن. وقد أرسلتْ أم الأصبغ معي هذا.

واستخرج صرّة من الذهب والجوهر، وقال:

- هذا بقي معها من جوهرها، أرسلْته لك.

هز عبد الرحمن رأسه شارداً، وقال بنبرة مشبعة بالأسى:

- بارك الله بك يا أم الأصبغ.

ثم رفع رأسه وخاطب بدراً:

- تعرف مكان أبي عوف، محمد بن حسّان؟

كان أبو عوف تاجراً يخفي ولاءه لبني أميّة، وكان عبد الرحمن يصله ويكرمه ويشتري منه كلما نزل في تلك الناحية.

وحين جاء به بدر ومعه عبد ه، خفّ إلى عبد الرحمن وقبّل يده بإجلال كما كان يفعل دائماً، وقال:

- مولاي أبا سليمان.. حمداً لله على سلامتك.

- لا تتعجّل حديث السلامة يا أبا عوف.. هل..

قاطعه أبو عوف:

@ - لا لم يشعر بنا أحد. فأنا أحرص الناس على سلامتك يا سيدي.

ذهب عبد الرحمن ببصره المثقل إلى عبد أبي عوف، فقال أبو عوف مطمئناً إياه:

- هذا عبد ي سلمان. أستَأْمِنه على أهل بيتي.

هزّ عبد الرحمن رأسه هزّة خفيفة وقال:

- أنت تاجر مقيم في هذه الناحية، فلا يشكّ أحد فيمَ تشتري. وإلّا كنت كفيتك مؤونة الجهد، ونهض بدر بحاجتي.. ولكني أخشى أن عيون المسوّدة تراقب الغريب الذي يشتري متاع السفر الطويل وعدّته وركائبه.

- أنا رهن إشارتك يا سيدي.

مدّ عبد الرحمن له يده بصرة من النقود، فتراجع أبو عون وقال مستنكراً:

- معاذ الله يا سيدي.. إنما نحن صنائعكم.. ومهما يَجُرِ الزمان فإننا نبقى مواليكم.

قال عبد الرحمن مصرًّا:

- خذها. لا آخذ شيئاً إلّا بحقّه.. هيا. سيرافقك بدر كأنه بعض خدمك، ولا تُشْعِرُنَّ بكم أحداً.

ولكن سلمان، عبد أبي عوف، لم يستطع أن يقاوم إغراء الجائزة التي وضعها المسوّدة على رأس عبد الرحمن وأعلنوا بها للناس: عشرة آلاف دينار، وهي كافية لأن يشتري بها حريّته. وكان أبو عوف قد

اكتفى عنه بصحبة بدر، فسرّحه لعمل آخر من أعمال بيته. ولكنه بدلاً من ذلك قصد إلى معسكر المسودة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إلى أين؟

سأل عبد الرحمن أخاه هشاماً إذ رآه يهمّ بالابتعاد عنه، فأومأ أنه يريد أن يقضي حاجته. ثم توارى بين شجر الأجمة.

حين طالت غيبته أكثر مما ينبغي، بدأت الوساوس تطوف بعبد الرحمن. وتردد أولاً في الطواف بحثاً عنه خشية أن يضلّ أحدهما عن الآخر. ولكن حين تطاول الأمر أكثر من ذلك واشتدت به المخاوف على أخيه اضطر إلى التحرك والبحث. ثم أخذ ينادي باسمه بصوت مكتوم، وتصاعد قلقه شيئاً فشيئاً.

والحال أن هشام الشديد الحياء، كان قد انتبذ من الأجمة مكاناً بعيداً بعض الشيء. فلما فرغ من حاجته ضلّ طريقه إلى موضع أخيه فأخذ يدور في الأجمة على غير هدى وقد أخذ منه القلق كل مأخذ، وهذا زاده تيهاً، حتى وجد نفسه وقد صار على حافة الأجمة. وهنا تنبه لثلة من فرسان المسوّدة مقبلين من بُعد نحو الأجمة. فارتد داخلاً يركض بأقصى سرعته بين الأشجار فَزِعاً لا يعرف له وجهة يولي وجهه إليها، فكان كلا الأخوين يطوف مهرولاً هنا وهناك، حتى سمع هشَام صوت أخيه عبد الرحمن ينادي باسمه، فأسرع في اتجاه الصوت. ولم يتسنّ لعبد الرحمن أن يعبّر عن ارتياحه للقيا أخيه إذ رأى فزعه وهو يشير إلى جهة ما دون أن يقدر على التقاط أنفاسه والكلام.

سأله عبد الرحمن:

- ماذا؟ المسودة؟

هز هشام رأسه واستطاع أخيراً أن يطلق لسانه بصوت متقطع:

- قد صاروا قريباً.. يقصدون الأجمة.

التفت عبد الرحمن يميناً وشمالاً، ثم هتف بأخيه:

- الفرات. هيا.

جذب أخاه وانطلقا راكضين بأقصى سرعة ممكنة.

حين بلغا النهر، كان المسوّدة قد رأوهما فجدّوا للّحاق بهما. ولكنهما ألقيا بنفسيهما في النهر قبل أن يدركوهما. وناضلا للسباحة نحو الضفة الأخرى. وما هي حتى بدأ التعب والإرهاق يغلبان هشاماً، فتباطأ عن أخيه في السباحة، وأخوه من أمامه يحثه على المتابعة. وإذ وصل المسوّدة إلى ضفة النهر وترجّلوا ينظرون، صاح قائدهم:

- ارجعا ولكما أمان أمير المؤمنين.. ارجعا لا بأس عليكما.

تابعا السباحة، لكن هشاما ازداد بطئاً وقد تثاقلت ذراعاه واتسعت المسافة بينه وبين أخيه. ثم توقف هشام في الماء وقد بدأ جسمه يخذله وصار يتلفت بين أخيه والمسوّدة على الضفة. وصاح قائدهم من جديد وقد تبين له الآن حال الأخ الأصغر:

- لكما عهد الله وذمّة أمير المؤمنين، إن رجعتما لا يمسكما منا سوء. هيّا..

انقلب عبد الرحمن في الماء لينظر أخاه فوجده قد توقف عن السباحة وبدا حائراً. فصاح به:

@ - ما يوقفك يا أخي.. الحق بي.. الحق بي.. تابع السباحة.. لا تلتفت إليهم.

بقي الفتى في مكانه متحيراً يقلب بصره بين أخيه الذي صار أبعد عنه من الضفة التي يقف عليها المسوّدة. فلم يكن هشام قد قطع غير الربع من عرض النهر. وتابع عبد الرحمن صياحه راجياً أخاه أن يلحق به.

- لا تغترّ بأمانهم.. قد جربناه من قبل.. نشدتك الله يا أخي.. تابع.. تابع..

جاء صوت القائد من مكانه على الضفة.

- بلى والله إنه لأمانٌ حق هذه المرّة.. أعطيك ميثاق الله أيها الفتى.. أقبِل.. أقبِل. قد انتهى خوفك وعذابك.. ولن تقوى على بلوغ الضفة الأخرى فتغرق.

بعد لحظة تردد أخرى بدأ هشام يسبح عائداً إلى الضفة التي يقف عليها الجند. وجاء صوت عبد الرحمن هذه المرة جريحاً مشروخاً متفجعاً.

- ارجع إليّ يا حبيبي.. ارجع إليّ يا حبيبي.. ارجع إليّ يا حبيبي.

وانكسر صوته مع التكرار الأخير وقد يئس من الاستجابة، ثم لم يملك إلا متابعة السباحة نحو الضفة الأخرى. فوصلها مع وصول أخيه إلى موضع الجند، وخاض القائد في الماء وجذبه. وما إن صار على الأرض حتى انهار على ركبتيه لاهثاً منهكاً.

همّ أحد الجند أن يسلّ سيفه، فحدجه القائد بنظرة صارمة ينهاه. ثم تقدم القائد إلى حافة الماء وأرسل نظرة إلى الضفة الأخرى، حيث كان عبد الرحمن قد خرج من الماء وانحنى بجسمه من التعب واتكأ بيديه على ركبتيه وهو ينظر إلى الضفة الأخرى وقلبه يخفق بشدة حتى ظن أنه يخرج من صدره.

ارتد القائد قليلاً وجذب هشاماً من أعلى ثوبه من خلف عنقه وأوقفه بالقوة على الرغم من ارتخاء ساقيه، وصاح بعبد الرحمن:

- هذا أخوك في أيدينا يا ابن معاوية. هل تهمّك حياته حقاً؟ إذن ارجع إلينا إن كنت حريصاً عليه.

صاح عبد الرحمن من مكانه من بين لهاثه:

- قد أعطيته الأمان بلا شرط، ومعه ميثاق الله.

أجاب القائد:

- نعم، أعطيتكما الأمان معاً بلا شرط، وليس لواحد منكما فقط. فإما رجعتَ إلينا فتنجوان معاً، وإما نظرت إلى مصرع أخيك بعينيك. ماذا قلت؟

أخذ هشام يرتعش بشدة وهو يرسل نظره المُنهك نحو أخيه على الضفة المقابلة. ولم يكن عبد الرحمن أقل منه انتفاضاً وهو ينظر بعينين تدوران في محجريه.

وصاح القائد من جديد:

- هاه! ماذا قلت؟ انظر إلى أخيك! هل تراه جيداً من مكانك. إنه يرتعش كالطائر المبلول.. وهو ما زال غلاماً حَدَثاً.. هل يفرّط الرجل بدمه؟

صاح عبد الرحمن بقدر ما بقي عنده من قوة:

- قد علمتُ أني لو رجعت لقتلتمونا معاً.

أجاب القائد من موضعه:

- لا تعرف ذلك على وجه اليقين. فإن لم ترجع كان عليك أن تتساءل عن هذا حتى آخر عمرك، والموت أهون منه إن كنت تحب أخاك حقاً. فهل تحمل دمه على عنقك أبدَ الدهر؟

مرّت هنيهة من الصمت والترقب. ثم بدا اليأس على وجه القائد، فالتفت إلى جنده وقد أسْقَط الفتى من يده فنزل على الأرض ورأسه إليها، وقال القائد:

- لن يرجع هذا القرشي المضريّ.

ثم ألقى نظرة أخيرة على الغلام وقال:

- ألا تناشد أخاك أن يفديك وينقذ عنقك من الضرب؟

ثم عاد يصيح بعبد الرحمن:

- للمرة الأخيرة يا عبد الرحمن.. رجوعك أو عنق أخيك.

نزل عبد الرحمن على ركبتيه وقد تودّع من أخيه، وخاطب نفسه من هول الموقف:

- سامحني يا أخي.. سامحني.. ولكني أعلم أن أمانهم كاذب.

لم يتريث القائد بعد تلك اللحظة، وسلّ سيفه بينما تكوم الغلام على نفسه، ثم أهوى بسيفه عليه، ولطخ رشاش دمه أدنى ثوب القائد.

أغمض عبد الرحمن عينيه وقد فاضتا من الدمع الآن حتى اخضلت بها لحيته، ثم شخص ببصره إلى السماء وقال منتحباً:

@ - أعنّي يا ربّ بظهر قويّ، واربط على قلبي حتى يبلغ الكتاب أجَله.

ثم تحامل على نفسه، واستجمع ما بقي من قوته، وبدأ يمشي مبتعداً عن الضفة منحني الظهر.

أرسل القائد نحوه نظرة أخيرة وهو يبتعد وقال:

- إن كان له أجل، فسوف يعيش على رغم سيوفنا، وإلا فهو ميت بها أو بغيرها. وددت لو كنت بمثل قوته وصبره.

وتحرّك نحو جواده.

أما عبد الرحمن فلبث هائماً على وجهه في الشعاب. وفجأة انهار جالساً على صخرة ووضع رأسه بين يديه، وقال:

- سامحني يا هشام.. كنت مخيراً بين أن أموت معك، أو تموت وحدك. وما دمتُ حياً، ستبقى صورتك حيّة في نفسي، ومعها ثأر لا ينام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جُنّ جنون صالح بن عليّ الذي كان يخيّم في تلك الديار، ويتولى بنفسه بث العيون والسرايا حين علم بأن القوم أوشكوا أن يدركوا عبد الرحمن بن معاوية، ثم نجا منهم. فأمعن في تقريع قائد السريّة. وكان يريد عبد الرحمن بن معاوية على نحو خاص لينكلّ به أولاً ثم يقتله كما فعل أخوه عبد الله بن عليّ بأبان بن معاوية في دمشق، ففضلاً عن أنه حفيد هشام بن عبد الملك وسليل الأسرة المروانية، وهي ألدّ الخصام، فقد كان يكتم في نفسه سبباً آخر، إذ نُميت إليه نبوءة مسلمة بن عبد الملك فيه، فأراد أن يظهر بطلانها ويبدّد ما يعلق من أوهامها، ربما لنفسه وقومه أولاً. ولذلك شدّ في الطلب وبثّ المزيد من السرايا والعيون، وخصّ الطرق إلى فلسطين وفيها. فإذا كانت وجهته المغرب، فلا بد أن يقصد إليها أولاً ثم إلى سيناء حتى مصر وإفريقية.

أما عبد الرحمن فظلّ يتتبع الشعاب المستورة وقد بلغ به الجهد والإعياء وقلة الزاد. وساء حال عينيه المصابتين مع انكشافه للشمس، ومن أثر الماء الذي خاض به. ولكنه كان يدرك أنه لا يملك ترف التوقف، وكان قد بلغ منه العطش الشديد حين رأى بركة ماء في أرض صخرية، فانكبّ على ركبتيه يشرب منها ثم يحثو بعض الماء على عينيه.

وبينما هو على ذلك سمع وقع حوافر الخيل. رفع رأسه ودقق النظر بصعوبة، وما هي حتى أحاطت به ثلة جديدة من المسودة ولم يكن له مهرب. فبدا أنه سقط في يده، وحانت النهاية، وأخذ يدور على نفسه بين المسودة الذين ترجّلوا عن خيولهم. وفجأة سمع الجميع وقع جواد مقبل بسرعة، وراكبه يصيح:

- أخيراً عبد ي الآبق.. خلّوا بيني وبين عبد ي الشقيّ.

لم يكن ذلك غير بدر الذي ترجّل عن جواده فوراً أمام دهشة الجميع، وأقبل على عبد الرحمن صائحاً به:

- هل ظننت أنك تستطيع أن تفرّ مني أيها العبد الذي لا خير فيه؟ ولم يكفك هذا حتى ارتكبت ما أوجب أن يحيط بك هؤلاء الجند.

ثم التفت إلى الجند وتابع:

- أي جرم ارتكب عبد ي هذا سوّد الله وجهه؟ ما هنئت به منذ اشتريته ودفعت فيه مالاً كثيراً.. لا بارك الله في الذي غرّني به.. والله لو وجدته..

قاطعه قائد السرية بغلظة:

- من أنت؟

- أنا أبو العباس. فضل بن محمد، تاجر من قنسرين، أشتري الحبوب وأبيعها، وأقدم على القرى وقت الحصاد و..

قاطعه القائد من جديد:

- أجب على قدر السؤال.

- العفو يا سيدي.. العفو.. صدقت.. من كَثُر كلامه كثُر غَلَطُه، والبلاء كما قيل مُوَكّل بالمنطق، ولسان الإنسان حصانه...

صاح به القائد وقد تصاعد غيظه:

- اصمت..

- نعم.. العفو يا سيدي.. العادة غلّابة، والطبعُ..

استدرك على نفسه:

@ - العفو، العفو. ولكني شديد الغضب من كثرة ما عانيت من هذا العبد . فاعذرني يا سيدي. والآن، إن كان عبد ي هذا قد غَرِم شيئاً فأنا ضمينه، إلّا أن يكون قد أزهق نفساً بغير حق، أو هتك عرضاً، فخذوه لا ردّه الله، وعوضي فيه عند الله.

نقّل قائد السرية نظره بين بدر وعبد الرحمن الذي كان في هيئة مزرية أعانت بدر على ادعائه. ثم قال القائد:

- أنت متأكد أن هذا عبد ك؟

- وهل يخفى العبد على سيّده.. يا سيدي؟ والله لو اختفى بين ألف رجل لعرفته برائحته..

يقترب من عبد الرحمن يشمّه مشمئزاً ويتابع:

- اخ خ خ. أحمله على الاغتسال فيأبى، كأنه القط الذي يكره الماء. انظروا إليه. ويظن بعض الناس أنني أجيعه و..

نفخ القائد بقوة مستنكراً كثرة الكلام، فعاد بدر إلى الاعتذار:

- المعذرة.. المعذرة يا سيدي.. ولكن. لم تقل لي أي حماقة ارتكبها هذا الشقيّ الأحمق.. أعني غير فراره مني؟

قال القائد:

- إننا نبحث عن رجل من بني أمية.

قال بدر:

- وهل بقي منهم من أحدٍ قتلهم الله؟ لقد أخذهم الله بذنوبهم وسلّط عليهم سيوف أئمتنا رضي الله عنهم، حتى صاروا أثراً بعد خبر، وأراحنا الله من بطشهم وظلمهم.

صاح به القائد مهدداً:

- تصمت أم أقطع لسانك؟

- بل أصمت يا سيدي.. أصمت، فأنا أحتاج إلى لساني.

قال القائد معيًّنا طلبه:

- عبد الرحمن بن معاوية.

قال بدر:

- عبد الرحمن بن من؟

- عبد الرحمن بن معاوية.. حفيد هشام بن عبد الملك، لا ردّه الله.

قال ذلك وهو يدقق النظر في عبد الرحمن الذي طفق يمسح عينيه، وفجأة انطلق بدر في قهقهة عالية متصلة، فاتجهت إليه أنظار الجند متعجبين، وكان يشير إلى عبد الرحمن وهو يتابع الضحك:

- هاهاها.. تعني؟.. هاهاها.. هذا؟ اشتبه عبد ي بأمير أمويّ! والله ما نال هذا العبد إطراءً خيراً من هذا..

ثم توجه بالكلام إلى القائد متابعاً الضحك والكلام:

- صحيح يا سيدي أن الأمويّ قد باء بغضب الله وسخط أمير المؤمنين أيّده الله. ولكنه أمير على كل حال. والله يا سيدي لقد هممت أن أقول: هذا هو عبد الرحمن بن.. كائناً من كان، كي تقتلوه وتريحوني منه. ولكن ذلك أقرب إلى المكافأة منه إلى العقاب. فأن يموت الإنسان بصفة أمير أموي أشرف له من حياته هذه.. أمير أمويّ؟ هاهاهاها.

ثم أشار إلى عبد الرحمن إشارة ازدراء وتحقير:

- هل تسمع أيها الأحمق؟ أمير أمويّ! هاهاها.. هذه هيئة أمير أمويّ! لا والله ما يفقه ما يدور حوله. انظروا إليه، إنه أقل عقلاً من أن يفهم الطرفة إذا وقعت.

كان قائد السرية قد ضاق ذرعاً بكثرة الكلام دون طائل، فاعتلى جواده، وكذلك فعل أصحابه، وقبل أن ينطلق خاطب بدراً:

- إذا رأيت شاباً فاراً هائماً على وجهه فدلّنا عليه، وإلا كان السوط لك.

وانطلق مبتعداً، بينما لاحقه بدر بالكلام:

- سأفعل، سأفعل يا سيدي.. أريد أن أصيب أجراً مع أئمتنا المهديين.

وإذ اطمأن إلى غياب الجند، ارتد إلى عبد الرحمن واحتضنه:

- سيدي ومولاي.

دفعه عبد الرحمن عنه، وقال بغيظ:

- ماذا أبقيت من ألفاظ الشتيمة والإهانة لعبد ك الآبق؟

أجاب بدر وهو يضحك:

- ألفاظ الشتيمة قد أنجتك يا سيدي. أليس كذلك؟

@ قال عبد الرحمن:

- أفما كان يكفيك الكلمة والكلمتان حتى تستحضر كل تلك النعوت والصفات؟ الآبق.. الشقيّ.. الأحمق الذي لا خير فيه والذي تعرفه برائحته المنتنة من بين ألف رجل؟ ثم تطلب السوط لتؤدبني به.. والله لقد هممت أن أفصح عن نفسي فأهلك وأهلكك معي على أن أسمع خادمي ينعتني بكل تلك الصفات القبيحة.

- يا سيدي.. الضرورات تبيح المحظورات، وبعد أن اضطررت إلى أن أدعي أنك عبد ي، فقد صارت النعوت الأخرى من اللواحق.

قال عبد الرحمن وهو يتفحّصه بقدر ما تسمح به عيناه المتورمتان:

- ولكن بدا لي أنك مستمتع بعدّها. لم أرَ في وجهك الكراهة التي تكون مع الضرورة!

ضحك بدر من جديد وقال:

- ولذلك انطلت عليهم يا سيدي.. وهذه لغة السادة مع عبيدهم.

- أنا لا أفعل هذا؟

- ذلك لأنك أمير في قلبك أولاً.. والآن يا سيدي، فلنعجّل قبل أن يراجع القوم أنفسهم ويبدو لهم غير الذي ظنّوا.. أبو شجاع ينتظرنا بالركائب.

قال عبد الرحمن متعجباً:

- أبو شجاع؟ خادم أم الأصبغ؟

قدّم جواده لأميره فامتطاه بصعوبة لفرط ما كان فيه من التعب والإرهاق. وأخذ بدر بزمام الجواد وسار به على قدميه.

وسأل عبد الرحمن:

- ولكن، كيف تتبعت أثري حتى وجدتني؟ ما ظننت أني ألقاك.

- أحْسِن الظن بخادمك يا سيدي.

- وما الذي جاء بأبي شجاع معك؟

- أختكم السيدة أم الأصبغ.. أصرت على أن يلتحق بك.

- ما حاجتنا به وهو رجل كبير؟

- نعم، ولكنه يعرف المغرب والأندلس.

- وما أدراك أن هذه وجهتي؟

- قلت لك يا سيدي.. أحسِن الظنّ بخادمك بدر.

ألحّ بدر على سيدّه أن يعصب عينيه بخرقة سوداء وقد اشتدّ عليه الرمد. قال عبد الرحمن:

- وكيف أرى طريقي وأعرف وجهتي؟

أجاب بدر:

- أنا أرى لك يا سيدي.. على الوجهة التي تطلبها.

لم يعجبه معنى الجواب. ولكنه كان مضطراً.

وبعد يومين من المسير والتوقف في الشعاب والطرق الخالية، سأل عبد الرحمن وهم يستأنفون السير، وقد ربط بدر جواده بجواد سيده من خلفه:

- أين تمضي بنا؟

- أنا أمضي بالأمير؟ إنما أنا خادمك يا سيدي، أمضي معك، لا أمضي بك.

- ألا تحسن الجواب من المرة الأولى؟

- وأين لذة الحديث والأخذ والردّ يا سيدي؟

رفع عبد الرحمن العصابة السوداء قليلاً عن عينيه، وأرسل نظرة المُثْقَل في الخلاء الممتد، ثم قال:

- كأنك تمضي إلى الشمال!

- هو ذاك يا سيدي.

- ولكننا نريد الجنوب.

- وهذا ما يعرفه المسوّدة. ولذا نمضي للشمال أولاً، ثم نتحول إلى الجنوب.

- ألا تستشيرني فيما تفعل أولاً؟

أشار بدر إلى عيني عبد الرحمن وقال محذراً، يحثه على تغطيتهما:

- عينيك! عينيك يا سيدي!

لم يملك عبد الرحمن إلا أن يفعل كارهاً، لا لتغطية عينيه بالعصابة السوداء، ولكن لأن تحمله الضرورة القاهرة على أن ينقاد لخادمه. وفي المقابل ابتسم بدر ابتسامة عريضة، وكأنه يستمتع بما هيأت له الضرورة القاهرة نفسها، أن يتولى قيادة سيده الأمير!

@ كالعادة بقي سالم أبو شجاع صامتاً معظم الوقت، يكتم خوفه وهواجسه في المصير المهلك الذي يتربص بهم جميعاً. وعجب في نفسه كيف يحافظ بدر على مرحه في تلك الظروف، بل إنه لم يره في أحوال الأمن والعافية في مثل هذا المرح. وكان بدر لا يفتأ في الطريق أو المبيت يصفر بمهارة مُعجِبة صفيراً منغَّما جميلاً، كأن فمه فم آلة موسيقية.

وعلى الرغم من طابع التسلية والمرح الذي يرافق الصفير، فإن اللحن الوحيد الذي كان يصفر به، كان يبعث من الشجى بقدر ما يثير من الطرب.

وبينما كانوا يخبّون بمطاياهم في الخلاء بين الجبال والشعاب الموحشة، وكان بدر على عادته يصفر بتلك النغمة الشجية، علّق عبد الرحمن أخيراً بنبرة متهكمة:

- وقت مناسب للطرب!

ضحك بدر ضحكة خفيفة وقال:

- ألا يعجبك صفيري يا سيدي؟ لقد تدرّبت عليه كثيراً حتى أتقنته.. كنت أخرج للصيد وحدي أياماً، فأستعين بالصفير على الوحدة.. إنه يصرف عن الهمّ، وله منافع أخرى.

ثم أردف قائلاً وهو يبتسم:

- أنادي به الفتاة المليحة من خِدْرها، دون أن يتفطن أهلها.

تدخل أبو شجاع مؤنّباً:

- تأدّب.. أنت تخاطب الأمير.

- ها.. أبو شجاع تكلم أخيراً.. والأميرُ لا يعشق؟

- الأمير إذا أراد امرأة لم يُخرجها بالصفير على غفلةٍ من أهلها، بل تُعرض عليه وتُهدى له.

- وأين لذة الفوز؟ أين لذة الترقب والانتظار وابتداع الحيلة؟ ولكن.. كيف لك أن تعرف يا أبا شجاع؟ لعلك لم تعرض لفتاةٍ في حياتك قطّ. جرّبه مرة واحدة.

- لم أصبُ في شبابي، أفأصبو بعد هذه الشيبة؟

- يشيب الشعر، فهل يشيب القلب؟

- والله إنك لفاسق. ألا تستحي من أميرك؟

- وهل يجب أن يكون العشق فسقاً يا رجل؟ أمرٌ ركّبه الله فينا، فهل نغالب فطرة الله.

تدخل عبد الرحمن لأول مرة في الحوار الجاري:

- نغالب نزغات الشياطين. الطعام ضرورة، ولكن سرقة الطعام من عمل الشيطان.

قال بدر:

- نعم، إلّا حين لا يجد المرءُ قوت يومه، وألزمته الضرورة، وهو يرى الأمراء والكبراء يتنعّمون ويبطرون، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

هنا صاح به أبو شجاع:

- ما أصابك أيها الرجل؟ هل نسيت أنك في صحبة أمير؟

- العفو.. العفو.. ولكنّ أميرنا ليس كالأمراء. وآخر ما يُتَّهم به التنعّم والبطر.

قال عبد الرحمن بنبرة مشوبة بالسخرية:

- بارك الله بك أن برّأتني من التهمة.. أم أحمد الظروف التي حالت بيني وبين مقارفة إثم التنعّم والبطر؟

وقال أبو شجاع لبدر:

- ما شاء الله.. نحن فيما نحن فيه، وأنت في مزاج رائق.

توقف بدر فجأة وذهب ببصره في اتجاه معيّن وهو يردّ على أبي شجاع:

- ليس بعد!

وأشار بيده.

كان ثمة مجموعة من جند المسودة على مسافة بعيدة مترجلين عن خيولهم يتحادثون فيما يبدو من بعيد.

أحسّ عبد الرحمن من الصمت المفاجئ، أن ثمة خَطْباً ما، فسأل:

- ما بكما قد..

قاطعه بدر ليسكته:

- اش ش ش.

هنا نزع عبد الرحمن العصابة عن عينيه وهو يقول بغضب:

- تُسكِتني لا أبا لك.

ثم تبيّن له الموقف. ورأى الثلاثة جند المسوّدة يقفزون على خيولهم فيما بدا أنهم لمحوهم. وكانوا قد بلغوا فم أحد الشعاب الكثيرة التي تحيط بها الجبال. فانطلق الثلاثة بأقصى @سرعتهم ودخلوا الشِّعب القريب. وحين وجدوا أن الشعب تتفرّع منه شعاب أخرى أشد ضيقاً دخلوا في أحدها، ثم استتروا وراء حاجز من الصخور الضخمة. وما هي حتى اقترب وقع حوافر خيل المسودة في الشعب الرئيس الأعرض، ومضوا يجوزونه دون أن يلتفتوا للشعاب الفرعية، أو لعلهم دخلوا بعضها وارتدوا عنها بسرعة.

لبث الثلاثة في أماكنهم حتى انقطعت الأصوات تماماً ودخل الليل. ومع ذلك آثر بدر أن يستطلع لهم أولاً بحذر وهدوء، حتى اطمأن أن المنطقة خلت منهم.

قال عبد الرحمن وقد جلسوا في الخلاء الموحش حول نار خفيفة:

- يجب أن نقطع أرض فلسطين في أسرع وقت. لم يعد ثمة مكان آمِن حتى نبلغ مصر.

قال بدر:

- ما زال حال عينيك يشتد سوءاً، فلا بد أن نجد طريقة لعلاج عينيك إذا أردنا أن نصل إلى أي مكان.. فالطريق إلى مصر يقضي بعبور الصحراء، ولن تصمد عيناك لحرارة الشمس مع الغبار والرمال. فلنصب بعض النوم الآن يا سيدي.. وفي الصباح نرى رأينا إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ عبد الرحمن يمشي في خلاء محاذٍ للنهر. وفجأة رأى غلاماً يقف مستديراً عنه على بُعد مسافة. نظر متمعناً، وبدا له الغلام شبيهاً بأخيه هشام من الخلف، فلما صار قريباً منه تأكد أنه هشام، فهتف به من خلفه:

- هشام! أخي، حبيبي هشام!

ولكن هشاماً بقي ثابتاً في مكانه مستديراً عنه.. أمسكه من كتفيه وهزّه ثم أداره نحوه، وإذ بالدم يتدفق من عنقه ويضخ على صدر عبد الرحمن وقد اكتسى وجهه لون الموت، وبدا محجراه حفرتين من العتمة والسواد.

تراجع عبد الرحمن إلى الخلف منخلع القلب، بينما تحدث هشام:

- لماذا تركتهم يقتلونني يا أخي؟

- لم يكن في وسعي أن أعمل شيئاً يا أخي.

- بلى كان في وسعك أن تنقذني.

- سامحني يا هشام.. سامحني يا أخي..

ثم بدأت صورة هشام تتراجع إلى الخلف وبهتت حتى تلاشت تماماً، بينما كان عبد الرحمن يمدّ يداً متجمّدة وراءه، ثم نظر إلى ثيابه الملطخة بدماء أخيه!!

صحا بدر على سيّده وهو يشهق بقوة فَزِعاً، وقد استوى قاعداً من رقدته. سأل بدر:

- عاودك ذلك الحلم؟ لا بأس عليك يا سيدي.

وصل الثلاثة إلى إحدى القرى المنفردة في ضحى اليوم التالي. وكان لا بد الآن أن يصيبوا بعض الراحة والمؤونة. وأهم من ذلك أن يجدوا حكيماً يمكن أن يقدّم علاجاً لعيني عبد الرحمن قبل أن يتابعوا المسير إلى جنوب فلسطين.

خرج بدر وحده أولاً ليستطلع المكان فلم يجد فيه أثراً للمسودة، ووجد خاناً صغيراً يمكن أن ينزلوا به ولو لليلة واحدة.

قادهم أبو صالح، صاحب الخان، إلى غرفة مكتظة بالنزلاء، وكانت على قدر كبير من القذارة والفوضى. فاعترض بدر، وطالب بغرفة للثلاثة فقط.

قال صاحب الخان:

- بخمسة دراهم على الرأس في الليلة، لا تتوقع أفضل من هذا.

قال بدر مستنكراً:

- وخمسة دراهم على الواحد، في هذا المكان؟ مع كل هؤلاء الناس.

قال صاحب الخان:

- إن وجدت خيراً من هذا الخان فاعمد إليه يا سيدي.

قال بدر بإصرار:

- يجب أن يكون لديك غرفة أخرى لنا.. أعني لنا وحدنا.

حك صاحب الخان لحيته ثم قال:

- ليس عندي للنزلاء غير الذي رأيت.. ولكن، إن كان لا بدّ فإن عندي غرفة ينزل بها بعض ولدي، فإن شئت أفرغتها لكم، لعلّي أصيب بكم أجراً.

قال بدر متهكماً:

- أجر؟ في الدنيا أم الآخرة؟

- (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا).

@ - وكم نصيبك من الدنيا يا..

- أبو صالح.. خادمكم أبو صالح.

- كم نصيبك من الدنيا يا أبا صالح؟

- عشرون درهماً على الواحد في الليلة.

- وما أبقيتَ لغيرك من الدنيا؟

- ما قسم الله لهم.

- أرنا الغرفة.

قادهم إلى الغرفة. كانت ضيقة وليس فيها غير الحصير وبعض الأغطية المتهرئة. قال بدر متهكماً:

- عشرون درهماً على الواحد في هذه الغرفة الوضيعة؟ لا بأس به نصيباً من الدنيا، فكيف بالآخرة؟

بدا الضجر على صاحب الخان، فقال متأففاً:

- يا سيدي، أنا رجل كثير المشغلة، فإن شئتَ..

قاطعه بدر مستسلماً:

- شئنا.. شئنا. اتركنا الآن، ومُر لنا بطعام وشراب.

تلبث الرجل في مكانه، فقال بدر:

- ما يؤخرك؟

- الدفع مقدماً يا سيدي.

- لِمَ؟ هل تخشى أن نغافلك فنغادر قبل الدفع؟

- المعذرة يا سيدي.. ولكني لا أعرفكم. وقد غافلني بعضهم فحلفت بالله يميناً مغلَّظا لا ينزل أحد عندي حتى يدفع أجر كرائه مقدماً، فأعِنّي على برّ يميني يا سيدي.

قال بدر ساخراً:

- نعم، حتى لا تخسر الدار الآخرة!

أخرج بدر صرّة نقود، وأخذ منها بضعة دنانير ذهبية وضعها في يد الرجل وقال:

- هذه تعدل دراهمك، لمبيتنا وطعامنا وعلف ودوابنا.

تأمل الرجل في الدنانير الذهبية سعيداً ومتعجباً في الوقت نفسه، ثم نظر إلى عبد الرحمن ولحظ عينيه، فقال:

- لا يبدو صاحبك بخير.

قال بدر:

- هل تعرف رجلاً حكيماً يعالج عيني صاحبي من الرّمد؟

- أعرف يا سيدي، ولكنه يقيم في قرية أخرى، فإن شئت خرجت إليه فجئتكم به.. ولكن هذا يقتضي مني أن أترك عملي وأهلي.

فهم بدر القصد، فقال:

- ائتنا به، ولك أجرك فضلاً عن أجره.

حين خرج صاحب الخان، علّق عبد الرحمن لأول مرة:

- ما علمتُ قبل الآن أن في الناس رجالاً بهذا اللؤم والجشع.

قال بدر:

- هذه هي الدنيا على الحقيقة يا سيدي، لا تلك التي ألفتها داخل القصور.. ومع ذلك، هل هذا الرجل الدنيء أشد شَجَعاً ممن كانوا يطلبون صلتكم من أكابر القوم، وعندهم من المال والضياع ما يغني ألوف المساكين؟ أم هو أشد ظلماً من بعض الرؤساء وأهل القصور الذين اقتتلوا على المُلك واستباحوا دماء الخلق؟ إلّا أنها تسمّى حرباً، ويخرج المنتصرون منها أبطالاً. وكلهم يزعم أنه في جهاد، ويتأوّل كلام الله على حدّ غرضه. ثم يصيح كل فريق: لسنا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فكلّهم في اعتبار نفسه من أهل الجنة، والآخر في اعتباره من أهل النار. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بيته الملحق بالخان، قالت الزوجة مؤنِّبة:

- ومنذ متى كان لك أولاد حتى تخليَ غرفتهم لبعض النزلاء؟ ألا تتقي الله يا رجل وتكف عن الكذب وقد كبرت و..

لم تكمل إذ سمعته يحادث نفسه وقد سرح بتفكيره بعيداً:

- كيس فيه دنانير ذهب! ويرضون النزول في هذا الخان الوضيع! ثم إذا خرجت ووقفت @أتسّمع، خوطب أحدهم بسيدي ومولاي! ثم كلام عن العامة كأن المخاطَب كان بعيداً عن مخالطتهم.. وكلام آخر عن الرؤساء وأصحاب القصور وحروبهم.

هزّ رأسه يميناً وشمالاً وهي ترقبه، وأردف قائلاً:

- لا والله، ما حقيقة هؤلاء كظاهرهم!

ثم بدا كأنه قد تفطّن لشيء، وتنبّهت ملامحه، ثم تابع الحديث وهو يهز يده وإصبعه:

- هو ذاك، هو ذاك وربّ الكعبة!

التفت إليها وقال:

- هل تذكرين ما أخبرتك به ذلك اليوم؛ المسوّدة الذين طلعوا على السوق؟ الأمير الأموي الهارب؟ له جديلتان وفي عينه مرض؟ وجائزة قدرها عشرة آلاف دينار لمن يدلّ عليه؟

رمت جانباً ما كان بيدها وقد تغيّر وجهها وقالت مستنكرة عليه:

- وقد يتشابه الناس أيها الرجل!

- نعم.. ولكننا لا نعرف على وجه اليقين حتى نختبر.

- تدلّ عليه؟ تدلّ على رجل مطلوب حتى يُقتَل، وليس له ذنب إلّا أنه من أبناء خلفائنا بني أميّة.

- كانوا خلفاءنا.. كانوا.. أيتها المرأة.

- نحن من أهل الشام، وقد عشنا حياتنا لا نعرف لنا ملوكاً غيرهم.

- أنا لست من أهل الشام.

- أنا من أهل الشام.. وأنت ما زلت مقيماً في أرض الشام منذ سنين، أكلت من خيرها حتى صرت كبعض أهلها. وحتى لو لم تكن شامياً، كيف تكون سبباً في سفك دم محرّم.

- أما أنه دم محرّم أو مباح، فيقرره من صار ولياً لأمر المسلمين.

- وأين المروءة والتذمم، وقد نزل الرجل في جوارك؟

- عشرة آلاف دينار! لو مكثت العمر كلّه في هذه القرية الوضيعة ما جمعت نصف هذا المقدار.

صاحت بقوة هذه المرّة:

- لا وربّ الكعبة، لن تَسلم الرجل للقتل.. أمِنْ أجل مال زائل تورد نفسك النار؟

- إن لم يكن لمغنم المال، فلدفع مغرم القتل عنا. ألا تفهمين يا امرأة؛ ما أعلنوا الجائزة لمن يدلّ عليه، إلّا وأعلنوا معها العقوبة لمن يتستّر عليه.

وأمَرّ بيده على رقبته بإيماءة الذبح، وأردف:

- فهل تفضّلين الموت في سبيل رجل غريب لا صلة لنا به؟

أجابت بلهجة قاطعة:

- نعم، أفضِّل الموت على الخيانة وسقوط المروءة.

هنا غيّر أبو صالح من لهجته متظاهراً بأنه رجع عن رأيه:

- لعلّك على حق.. نعم، أنت على حق. ما الذي يبقى من المرء إذا اشترى الدنيا بالآخرة؟ ما عيش الرجل إذا سقطت مروءته؟ أستغفر الله العظيم.. قاتل الله الشيطان، كيف ينزغ في قلب الإنسان؟ ولكن الحمد لله الذي رزقني امرأة صالحة تذكّرني إذا نسيت.

ومضى ليخرج، فسألت:

- إلى أين؟

- أستكمل أسباب المروءة يا أم صالح. فقد وعدت القوم أن آتيهم برجل خبير يعالج من رمد العينين.. وهذا يعيش في قرية أخرى بيننا وبينها فرسخان أو ثلاثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمسى الناس على سريّة من المسوّدة يدخلون القرية مسرعين، حتى أحاطوا بالخان من كل ناحية. وما هي حتى اندفعوا داخل الخان وأخرجوا كل نزلائه إلى الساحة. ولكن أبا صالح الذي وصل الآن يلهث قال:

- ليسوا من هؤلاء يا سيدي.. الحقوا بي.

ثم قاده إلى حجرة الثلاثة. وإذ وجدوا المكان خالياً نظروا في أبي صالح الذي بدا عليه الاضطراب والحيرة:

- كانوا هنا.. أقسم بالله كانوا هنا.. يجب أن تصدّقني يا سيدي.. لم أكذبكم الخبر.

تابعوا التفتيش والبحث في سائر المكان، حتى وصلوا إلى بيت أبي صالح حيث توجد زوجته، فقال:

- هذا منزل حُرَمي يا سيدي.

@ هنا أطلّت أم صالح من الباب وقالت:

- ما الذي يجري هنا؟

عاد الجند إلى ساحة الخان وخاطب قائدهم النزلاء الذين جُمِعوا هناك:

- كيف يخرج من هنا مع صاحبيه ومتاعهم وركائبهم دون أن يلحظ أحد منكم؟ هل تعلمون عقوبة من يتستّر عليه؟

اقترب أبو صالح من القائد وهمس له:

- ألا ترى يا سيدي أن من الأجدى أن تعجّلوا وراءهم قبل أن يبتعدوا؟

بعد لحظة صمت وتفكير، أومأ القائد لجنده بالركوب، وانطلقوا بالسرعة التي جاؤوا بها. وكانت أم صالح تراقب الموقف من خلف نافذتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشاغلت أم صالح بغزل الصوف إذ دخل عليها زوجها يقلّب رأسه محتاراً عابساً وقد بدت عليه خيبة الأمل الشديدة:

- ترى كيف عرفوا؟ من أنذرهم؟ أعني لم أحدِّث أحداً بخبرهم ولا..

توقف عن الكلام، وأرسل إليها نظرة مستريبة تحاشتها مستمرّة في عملها، وتابع مستدركاً:

-.. إلّا أنتِ! هل من المعقول أن تخونني زوجتي فتنذر القوم بخطتي؟!

هنا رفعت رأسها وخاطبته بحدّة:

- خطّتك؟ ألم تكن خطتك أن تستكمل أسباب المروءة فتخرج فتأتيهم بالطبيب؟

- وكيف عرفتِ أني أضمر غيرها؟

- وهل يحتاج الأمر إلى فطنة؟ أنا أعلم الناس بك.

تصاعد غضبه واقترب منها، فتركت غزلها ووقفت في مواجهته وقالت بقوّة وتحدٍّ:

- بل كيف سوّلت لك نفسك أن تخون الله في دم رجل بريء، سواء أكان أميراً أم أجيراً.

هنا لطمها أبو صالح لطمة عنيفة فألقاها أرضاً وهو يصيح:

- أيتها الخرقاء الحمقاء!

همّ أن يركلها بقدمه لولا أن فوجئ بصوت عبد الرحمن يقول:

- اضربها مرة أخرى وأنت ميّت.

التفت أبو صالح وقد أخذته الصدمة وأدرك أن عبد الرحمن كان مختبئاً خلف الستائر، وبرز بدر من خلفه، وسلّ سيفه متهدداً.

أخذ أبو صالح يقلب بصره بين زوجته والرجلين، ثم صاح بها بصوت مضطرب:

- أنتِ! ماذا؟ ما الذي يجري؟ هذان كانا مختبئين في منزل حرمي؟ لا أصدّق عيني.. أوَ قد بلغ بكِ أن تخفي عندك رجالاً غرباء ليسوا من محارمك؟

هنا سمع صوت شقيقها عكرمة داخلاً من باب جانبي:

- أنا من محارمها.

ازداد أبو صالح دهشةً واضطراباً:

- عكرمة!

- نعم عكرمة. وقد حذرتك قبل الآن أن تلطم أختي.

كان شاباً طويلاً قوياً مفتول العضلات. فرفع أبا صالح عن الأرض مرة واحدة وأخذ يدقّه بالحائط وهو يصيح به:

- ألم أفعل؟

قال أبو صالح:

- اتركني..

ردّد عكرمة وهو يتابع دقّه بالحائط:

- ألم أفعل؟

- بلى.. بلى.

دقّه عكرمة من جديد بمزيد من القوة والعنف:

- فلِمَ لم تمتثل؟

قال أبو صالح متوسّلا:

- ثورة غضب.. أطغاني الشيطان..

- بل أنت الشيطان.

ودقّه من جديد، وصاح أبو صالح:

@ - لن أعود إليها.. لك عليَّ يمين الله.

قذفه عكرمة إلى الأرض وقال:

- بالطبع لن تعود إليها، إن كنتَ حريصاً على حياتك. فإما أن تطلّقها، وإما أن تستقيم.

أخذ أبو صالح يتحسس رأسه ويصلح من هندامه، بينما التفت عكرمة إلى عبد الرحمن وبدر وقال:

- أظنهم قد ابتعدوا الآن.. وصاحبكم ينتظركم مع المتاع والركائب حيث اتفقنا، وستجدون بعض أصحابي ينتظرونكم عند الباب الخلفي ليحملوكم إليه، وقد جمعت لكم حاجتكم من الزاد.

أرسل عبد الرحمن نظرة امتنان إلى أم صالح وقال:

- سأحفظ لكِ هذا الجميل ما حييت أيتها المرأة التي تُعلِّم الرجال المروءة..

وذهب ببصره إلى أبي صالح الذي تحاشى نظراته.

صحبهما عكرمة إلى الباب الخلفي، وقبل أن يمتطي عبد الرحمن دابته سمع عكرمة يقول:

- سيدي الأمير.

توقف ملتفتاً، وتقدّم منه عكرمة وأخذ يده وقبّلها باحترام، وقال:

- سوف تبقى الشام وفيَّة لذكرى خلفائها من بني أمية يا سيدي.

بعد أيام من المسير في طرق وعرة غير مطروقة، جلس الثلاثة يريحون في مكان موحش منعزل لا يسمع أحدهم فيه حِسًّا. وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب. ولم يكن قد طرأ أي تحسن على عيني عبد الرحمن.

فتح بدر قِرْبَة ماء وهَمَّ أن يضعها على فمه، ولكنه توقف وقدّمها لعبد الرحمن:

- تشرب يا سيدي؟

ثم تمثّل قول الله: (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا).

قبل أن يتناول عبد الرحمن القِرْبَة من بدر، تعجّل أبو شجاع بقِرْبَة الأمير الخاصة به، وهو يلقي على بدر نظرة تأنيب:

- هاك يا سيدي.. هذه خاصّتك.

نقّل عبد الرحمن بصره بين الرجلين والقِرْبتين، ثم مدّ يده وتناول قِرْبة بدر وشرب منها وردّها إليه، أمام تعجب أبي شجاع الذي لمح بدراً يرسل إليه نظرة خاصة مع ابتسامة خفيفة.

ثم عمد أبو شجاع إلى صرّة الزاد، فأخرج منها بعض الخبز والقديد ووضعها أمام أميره، وتراجع متنحياً.

نظر عبد الرحمن في الطعام، ثم في خادميه وقال:

- ما بكما لا تتقدّمان؟

قال أبو شجاع:

- حتى يفرغ الأمير.

- وتجلسان هناك تنظران إليّ حتى أفرغ؟ هيا..

تقدّم بدر فوراً دون تردد، بينما تأخر أبو شجاع متردداً متحرجاً. فقسم له عبد الرحمن من الخبز ومدّ له به يده:

- هيا اقترب. الطاعة خير من الأدب.

بعد هنيهة قصيرة قال عبد الرحمن بنبرة التأمّل:

- ألا والله إنها الآن لمغرم.. الإمارة.. لم تشفع لي عند رجل جشع لو رآني في دولة آبائي لقبّل الأرض بين يديّ.

علّق بدر:

- إنما يقبِّل الأرض بين يدي الإمارة والسلطان، رَغَباً أو رَهَباً، لا محض المودّة لذات الأمير. فإذا ذهب السلطان، لم يعد في ذات الأمير ما يرغب فيه الطامع، أو يَرْهَبه الخائف، إلّا من عصم ربّك، وقليلٌ ما هم.

قال عبد الرحمن:

- كما قلت يا بدر في ذلك الخان. كانت الإمارة حجاباً يحفظني من الناس، ويحجب نظري عنهم. وكنت أحسب أنني اكتسبت من العلم والحكمة ما يجعلني أكثر علما من عامة الناس الذين لم يُتح لهم ما أتيح لي من المؤدِّبين. ولكن المؤدِّبين كانوا يُعلمونني كيف أكون أميراً.. كيف أكون مختلفاً عن عامة الناس. والآن أدرك جهلي بهم، ومعه جهلي بالحياة وأحوالها، ونحن نحسب أننا ظاهرون عليها، قاهرون عليها بسلطاننا.

ثم ذهب ببصره إلى البعيد متأمِّلاً، وتابع بنبرة ذاتية:

@ - خانني رجل، ووفت لي امرأة لا ناقة لها عندي ولا بعير، وتعرّضت بذلك لسخط زوجها ونقمته.

قال بدر معلِّقاً:

- من قال إن المروءة لا يختصّ بها إلا الرجال. إنها طبائع يا سيدي.. ومعادن.. فمنها الذهب ومنها المعدن الخسيس.

قال عبد الرحمن وقد اكتسى وجهه بالحزن:

- لقد والله ذكَّرتْني بأختي أمّ الأصبغ.. ترى ما فعل الله بها وبأمَة الرحمن، وأخي الوليد.. و.. ولدي سليمان!

قال بدر:

- سوف يجمع الله بينكم بخير يا سيدي.

- حقاً؟ ما زال الطريق طويلاً.

- على قدر الغاية الكبيرة يا سيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهب أبو شجاع في النوم، بينما بقي عبد الرحمن مستلقياً مستنداً إلى راحلته يحدِّق في النجوم. كذلك كان بدر الذي تحوّل بجسمه نحو عبد الرحمن، ثم قال:

- ألا تنام يا سيدي قليلاً. لعلنا نتابع السير في آخر الليل وبرده. ذلك أحسن لعينيك.

بقي عبد الرحمن صامتاً يحدِّق في السماء. ثم اعتدل بدر جالساً وأخذ ينظر في السماء أيضاً. ثم سأل:

- أين نجمتك يا سيدي؟

- نجمتي؟

- إذا حدّق الرجل في نجوم السماء، لا يلبث أن يصوِّب نظره على نجمة واحدة من بين النجوم.

- نجمي سهيل يا بدر.

وأشار بيده، وتابع:

- هل تراه؟ يلمع ويختفي.. كَرَفّة العين.. فلا هو يمنعك ولا هو يمنحك. فيبقيك على البحث والشوق والترقّب.. تريد أن تُثَبِّته لتتمعّن فيه، فيأبى.

أكمل بدر عنه:

- ولكن بين ظهوره وغيابه كلمح البصر.. فحين يغيب تلك اللمحة القصيرة من السماء، تبقى صورته في الذهن. أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك.

مرّت لحظة صمت وتأمّل قبل أن يسأل عبد الرحمن:

- ونجمك يا بدر؟

- سهيل يا سيدي.

- أنتَ أيضاً؟

- أنا أيضاً.

قطع تأملهما شخير أبي شجاع. فضحكا معاً ضحكة خافتة.

في دمشق، كان عبد الله بن عليّ يتميّز غيظاً وهو يعاتب أخاه صالحاً:

- ظفرنا بمن هو أعتى منه، ولحقنا بمروان بن محمد في أقصى صعيد مصر حتى قتلناه، ويعجزنا عبد الرحمن بن معاوية؟ وقد جعلنا على رأسه جائزة تغري الولد بأن يُسْلم والده.

قال صالح:

- لعلّ الأقدار التي أظفرتنا بمُلك بني أميّة، هي التي تحجبه عنا.

- هذا كلام نقوله لنسوّغ عجزنا.. ولم نبلغ هذا بعد.. ولكن كلما أوغل في الجنوب واقترب من مصر قلّ أملنا في الظفر به. والأرجح عندي بعد هذا الوقت أنه صار في جنوب فلسطين، فنحن نعرف وجهته. أريد رأس ابن معاوية، ومعه حلمه في الوصول إلى الأندلس وامتلاكها.

- الأندلس لا تدين لأحد خارجها.. فلا هي لنا ولا هي لبني أميّة.

- حتى الآن.. أما إذا ملكها أحدهم، فقد قلّ رجاؤنا في أن نحوزها يوماً.. وأخطر من ذلك أن يتحقق حلمه، وتَنْفَذ إرادته، فذاك هو الفوز.

ثم اقترب عبد الله بن علي مواجهاً أخاه، وتابع بنبرة مختلفة:

- لم تعد المسألة بيننا وبينه مسألة بني العباس وبني أميّة. قد انتهت دولة بني أميّة هنا @إلى الأبد، ونحن أصحاب الخلافة بلا منازع. ولكنها غدت عندي مسألة رجل لرجل: رجل يملك السيف والسلطان والعساكر في بلاد الشام.. ذاك هو أنا، ورجل لا يملك إلّا إرادته، وغاية يطلبها، ونبوءة يصدّقها.. ذاك عبد الرحمن ابن معاوية. فهل يغلب حلم رجل واحد فارٍّ على وجهه آلاف السيوف؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

صحّ ظن عبد الله بن عليّ. فقد كان الثلاثة قد بلغوا جنوب فلسطين. وحين مرّوا بأرض يعمل فيها بعض الفلاحين في تذرية الحبوب، وحَزْم القش الجاف في كتل كبيرة، تحوّلوا إليهم، وقال بدر:

- نريد أن نبتاع طعاماً لنا وعلفاً لدوابنا.. هل نجد هذا عندكم؟

تقدّم صاحب الأرض ونظر في الثلاثة، ولحظ أنّ عين عبد الرحمن اليسرى منغلقة أو شبه منغلقة. وقال:

- ليس عندنا طعام للبيع.

بدت خيبة الأمل على وجه بدر، وقبل أن ينفتل الثلاثة بخيولهم استأنف أبو عثمان:

- ولكن للضيافة، فنعم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس عبد الرحمن وصاحباه على الأرض بين الفلاحين، وكان هذا وقت غدائهم، وجيء بقصعة واحدة كبيرة من طعام أشبه بالعصيدة، وقال أبو عثمان:

- المعذرة، فهذا جهد المقلّ.. سمّوا على بركة الله.

قال بدر:

- وخير الضيافة جهد المُقِل..

تردّد عبد الرحمن. فقد كان الطعام غريباً وكان عليه أن يغمس يده فيه مع الآخرين. وأخيراً لم يجد إلّا أن يشارك في غمس يده، فوجده طعاماً لذيذاً على غير ما يوحي منظره. وكتم بدر ابتسامته. ثم قال أبو عثمان وهو يشير إلى عيني عبد الرحمن:

- إن لم يدرك صاحبكم عينه، ذهب بصره.

توقف عبد الرحمن عن تناول الطعام، وتباطأ بدر وأبو شجاع. وقال بدر:

- وكيف العمل، ونحن لا نعرف طبيباً في هذه الأنحاء.

قال أبو عثمان:

- لعل في وسعي أن أساعده.. أعني.. أحاول.. والشفاء من الله تعالى.

سأل بدر:

- تعرف كيف تطبب العيون يا..

- أخوكم أبو عثمان.. لست طبيباً كما ترى. ولكني اكتسبت خبرة من بعض المجربين.. وهذا مرض يكثر في هذه الأنحاء.. والقش والتّبن يزيدانه سوءاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بيت أبي عثمان أخذ يتفحّص عيني عبد الرحمن، ثم هزّ رأسه وقال:

- أما اليسرى فقد فسدت. وكل ما أرجوه أن أستطيع وقف الفساد عند هذا الحدّ. فإن كان محظوظاً بقي له منها بعض البصر، وإلّا فعوضه عند الله. وأما اليُمنى فالأمل أن تُشْفى إن شاء الله.

ثم جاء ببعض الأعشاب المخصوصة وغلاها مع الماء في قِدْر. حتى إذا بردت بقدر معلوم أخذ يغمس فيها بعض الخِرَق النظيفة ويمسح بها عيني عبد الرحمن برفق، وابنه عثمان يساعده. ولما فرغ من ذلك ثبّت ضمادة على كل عين ثم عصب عليهما بخرقة داكنة اللون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قرية صغيرة من بيوت اللّبن والقش، ولا يزيد ساكنوها على مائتين، تحيط بها السهول وتتفرق فيها أشجار السنديان والبلوط، وبعض مزارع الزيتون.

وفي المساء جلس الثلاثة في الساحة المفتوحة أمام بيت أبي عثمان بين عدد من الفلاحين، وكان عبد الرحمن معصوب العينين لا يرى شيئاً مما يدور حوله. وسأل بدر:

- كيف تراك تحسّ يا سيّد..

استدرك على نفسه بسرعة ولم يكمل كلمة «سيدي»:

- يا أبا سليمان.

@ اكتفى عبد الرحمن بهز رأسه، بينما تدخّل أبو عثمان قائلاً:

- قد بردت الحرارة فيهما، ولو قليلاً.. أليس كذلك؟

قال عبد الرحمن:

- بلى.

قال أبو عثمان:

- هذه علامة خير.

بعد لحظات سأل أبو عثمان:

- لم نسألكم عن عملكم.

تولى بدر الجواب:

- كنا تجاراً، وهلكت تجارتنا.

قال أبو عثمان:

- أحسن الله عِوَضكم. المال يفنى يا أخا الإسلام، وكذلك الجاه والرياسة والسلطان، ويبقى الإيمان والتقوى ومخافة الله. كما قال الله تعالى: (ما عندكم يفنى وما عند الله باق).

قال بدر:

- صدقت يا أبا عثمان.

تابع أبو عثمان:

- لا أحد يحب الفقر، ولكن، أحياناً حين يرى الرجل أحوال الدنيا، ويرى ثرياً قد هلك ماله، أو عزيز قوم جارت عليه الأيام فَذَلّ، أو سلطاناً ذهب عنه سلطانه، يحمد الله أنه لم يملك شيئاً من هذا، حتى لا ينكسر قلبه إذا فقده. فإنما تكون الفجيعة على قدر الفَقْد. ومن أَلِف المكان العالي لم يُطِق الحياة في المكان الوطيء.

قال أحد الحضور، وكان إمام القرية وواعظها:

- وأيّ مَثَل على هذا أعظم مما شهدناه بأنفسنا.. أين كان بنو أميّة، وأين أصبحوا؟ وقد غَدَت قصورهم خاوية على عروشها.. وهم بين قتيل وشريد، وكانوا ملء السمع والبصر.. ملوك الدنيا.. صدق الله (وتلك الأيام نداولها بين الناس)، (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء. بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير).

هنا تدخل عثمان الذي كان في مثل عمر عبد الرحمن. وكان ذا رأي وعقل، مع شيء من حدّة المزاج، فقال:

- لا آسف على من مضى، ولا أفرح بمن أقبل. كلهم سواء.. وليس المقتول بأحسن من القاتل، فإنه لو ظفر بعدوّه لفعل به الشيء نفسه.

قال أبو عثمان يخفف من اندفاع ولده:

- لا تشتدّ بالحكم يا ولدي.. فالحكم لله.

قال عثمان:

- ليس هذا ما يدين به الملوك والسلاطين، وإن تسّموا بالخلفاء.. يحكمون بأهوائهم وأغراضهم ثم يقولون: حكم الله.. وكلٌّ يؤوّل حكم الله على هواه.. السلطان هو السلطان.. سواء أكان أمويًّا أم عباسيًّا، أو غير هؤلاء وأولئك.

قال أبو عثمان:

- ليس الخلفاء والسلاطين سواء يا ولدي.

تابع عثمان جداله بالاندفاع نفسه:

- منذ تعطّلت الشورى، وصار المُلك جبريًّا، صاروا سواء. أين هم من سيرة الراشدين؟ أين هم من سيرة الفاروق الذي قال: «إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوِّموني»؟ ثم خلف من بعدهم من يضع المصحف بيد، والسيف بيد، ثم يقول: بايعوا على هذا، وإلّا فهو هذا. لا أخصّ بني أميّة دون من خَلَفَهُم في زماننا.

قال أبو عثمان:

- ومع ذلك، فإن بني أميّة هم الذين فتحوا الدنيا ومكّنوا لدولة الإسلام من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب والأندلس.. ودخل الناس في دين الله أفواجاً من مختلف الشعوب والأمم. وهكذا الدنيا والناس يا ولدي.. تعرف منهم أشياء، وتنكر عليهم أشياء، ثم مردّهم إلى الله.. وما أدراك يا ولدي لو كنتَ في مكان أحدهم أن تفعل مثلما يفعلون؟

كان جواب عثمان حاضراً:

- وإذن، فيجب أن يكون عندئذٍ بين الناس من يقول فِيَّ كقولي هذا في السلاطين @المتجبّرين.

قال أبو عثمان:

- هذا ولدي عثمان.. حميّة الشباب.. كنا يوماً مثله.. والآن دعونا من هذا الكلام، لا نريد أن نثقل على ضيوفنا بحديث المُلك والحكم.

كان عبد الرحمن في هذه الأثناء ينصت مطرقاً، بينما كان بدر يسترق إليه النظر بين الفينة والأخرى. ثم توجه أبو عثمان بالكلام لأحد الحضور:

- أفلا تروّح عنا يا زيد، فإنّ القلوب تمَلّ. أين طنبورك؟

مدّ زيد يده ليتناول طنبوره الذي كان يضعه في كيس خلفه، وفزّ إمام القرية واقفاً يقول:

- إذا حضرت آلة الشيطان، أدبر شيخ القرية.

ومضى مبتعداً، وضحك الجلوس.

أصلح زيد طنبوره وضبط أوتاره. ثم انطلق يعزف بمهارة. وحين توقف بعد وصلة قصيرة مع إطراء الحضور، مدّ بدر يده قائلاً:

- هل لي أن أتفحّص طنبورك.

سأل زيد:

- أَلَكَ علمٌ به؟

- قليلاً.

تناول الطنبور منه، وشدّ بعض أوتاره، وتروّى في تجريب ميزانه، والآخرون يراقبون. وفجأة بدأ بعزف بديع مدهش أزرى بعزف زيد. حتى إذا فرغ أعاد الطنبور إلى صاحبه، بينما رانَ على الحضور صمت الذهول والدهشة، قبل أن يطلقوا صيحات الإعجاب.. وتساءل صاحب الطنبور:

- قليلاً!

قال أبو عثمان:

- تاجر يجيد هذا العزف؟ ما أحسب أن «مَعبد اً» نفسه كان يحسن خيراً من هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصرّ أبو عثمان على أن يبقى الثلاثة في ضيافته بضعة أيام حتى يستكمل علاج عبد الرحمن. فكان يكرر له في كل يوم عملية التنظيف والغسل وتغيير الضمادات. وبدا التحسّن واضحاً في كل يوم، حتى ذهب الاحمرار والألم وصعوبة النظر والتحديق. وأخيراً قرّر أبو عثمان أنه بلغ الغاية الممكنة ولا مزيد. أما العين اليمنى فقد نجت، وأما العين اليسرى فلن تسوء أكثر مما لحق بها من ضرر دائم ذهب بالكثير من قدرتها على الإبصار حتى قاربت على العَوَر، فلا يرى بها وحدها عبد الرحمن الناس والأشياء إلّا أشباحاً وظلالاً، حتى يصير شديد القرب منهم، غير أن عينه السليمة تعين عينه الأخرى، ودفع الله ما كان أعظم.

عندئذٍ قرر عبد الرحمن أن يستأنف الرحلة مع صاحبيه في صباح اليوم التالي.

وبينما كان بعض الفلاحين يعملون في الحقول التقطت أبصارهم ثلّة من المسودة يتحركون على بُعد في الخلاء. فركض أحدهم بأقصى سرعته نحو القرية.

بعد حين وصل المسودة أطراف القرية، ووقف أبو عثمان وولده وجمع من الفلاحين في الساحة يرقبون دخولهم، حتى وصلوا إليهم. وكان معهم رجل من أهل المكان ساقوه معهم قسراً ليكون دليلاً ومعرِّفاً. فلما توقفوا أمام الناس، سأل القائد دليله:

- هل تعرف هؤلاء؟

أجاب:

- نعم. هم أهل المكان.

ثم وجّه القائد كلامه للآخرين، وكان يتقدمهم أبو عثمان:

- هل شاهدتم ثلاثة رجال مجهولين يعبرون من هذه الأنحاء؟ أحدهم في عينيه مرض شديد، وله جديلتان.

أجاب أبو عثمان دون أن يظهر عليه شيء من الاضطراب:

- هذا مكان يمرّ به أو قريباً منه كل أنواع الناس يا سيدي، والقوافل القادمة من مصر والذاهبة إليها.. ولا ندقق فيهم.. فلهم أعمالهم ولنا أعمالنا.. ولكن ما شأن هؤلاء الثلاثة؟

دقّق القائد فيه النظر مستطلعاً وجهه وملامحه، ثم قال:

- ألم يبلغك خبر الأمويّ الفارّ؟ عدو أمير المؤمنين أعزّه الله.. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

تحركت ملامح أبي عثمان وولده، وتبادل الآخرون النظرات، وسُمِعت بعض @الهمهمات.استعرضهم القائد بأنظاره وقال:

- ما الذي أفهمه من هذا؟

أسرع أبو عثمان بالكلام بصوت ثابت وقد تمالك نفسه:

- ذكرتَ ذلك الأمويّ يا سيدي.. فكيف لا تصيبنا الدهشة والعجب؟أعني هذا أمر جلل لا يمرّ على أسماعنا مرّ الخبر المألوف.

قال القائد متوعًّدا:

- أما من يعرف خبره ويخفيه عنا، فليس له عندنا إلّا السيف، ونحرق داره. وأما من دلّنا عليه، فقد استحقّ الجائزة: عشرة آلاف دينار.

ثم استعرض الحضور ليرى أثر كلامه فيهم، وكان جلّهم من فقراء الفلاحين في أسمالهم البالية ونعالهم المقطّعة. ثم توقف ببصره عند عثمان الذي كان مختلفاً بثيابه الحسنة، وكرّر القول:

- عشرة آلاف دينار.. هل تسمعون قولي؟ أو الموت!

قال أبو عثمان:

- لو عرفنا بهذا من قبل يا سيدي، لتركنا أعمالنا وقعدنا في كل ناحية ندقق في العابرين. فمن يفوّت على نفسه فرصة كهذه؟ عشرة آلاف دينار تغنينا عن الشقاء والكدّ أبد العمر.. لا حول ولا قوة إلّا بالله.

عاد القائد يتفحّص الجميع، ثم أشار إلى جنده أن يفتشوا في المكان.. وبعد حين رجعوا دون طائل. وإذ همّوا بالانصراف، التقط بصر القائد أكواماً هائلة من القش والتبن، كل منها في حجم الغرفة. اقترب منها بجواده، ثم ترجّل عنه وسلّ سيفه وأخذ يغرزه في مواضع متفرّقة منها، بينما كان أبو عثمان

وولده يراقبان وهما يداريان قلقهما. ولم يشعرا بالارتياح حتى ارتد القائد إلى جواده واعتلاه، وانطلق بأصحابه حتى خرجوا من المكان، وأبو عثمان والآخرون يشيعونهم بأنظارهم حتى غابوا عن الأبصار.

عندئذٍ تحرك أبو عثمان حتى اقترب من أكوام القش وقال:

- قد ابتعدوا.

هنا برز عبد الرحمن وبدر وأبو شجاع من داخل الأكوام، ينفضون ما علق على أجسامهم منها، وخاطب أبو عثمان عبد الرحمن:

- حقاً أنت الأمير عبد الرحمن، حفيد الخليفة هشام؟

هزّ عبد الرحمن رأسه بالموافقة. ولم يكن قد أفصح عن نفسه حين طلب الاختفاء مع صاحبيه على عجل. كل ما تعلل به أنه كان من موالي بني أميّة، وكان له بلاء معهم. فإذا عرفه القوم أخذوه. ويكفي أن يعرفوا أنه غريب عن المكان ليشكّوا في أمره.

تقدّم منه أبو عثمان وانحنى له بإجلال:

- سيدي الأمير. العفو يا سيدي إن كان قد بدر منا ما لا يليق بحق الأمير إذ كنا نجهلك.

قال عبد الرحمن:

- بل طوقتم عنقي بدَيْن لا يسعني الوفاء لكم به أبد العمر. وقد كان في وسعكم أن تُسلّموني بعد أن عرفتم حقيقتي منهم، وعلمتم بالجائزة، على ما أنتم عليه من رقة الحال وقلة المال.

- وبئس المال الذي يُسقط المروءة ويحلق الدين.

فجأة تنبّه أبو عثمان إلى لطخة دم كبيرة على ثوب بدر جهة فخذه:

- قد أصابك سيفه.

التفت عبد الرحمن من فوره إلى بدر ليرى ما رأى أبو عثمان ولكن بدراً قال مطمئناً:

- ليس شيئاً. إنما هو خدش شطب عن الجلد.. اللعنة عليه.

هرع أبو عثمان لينظر في الجرح، وكرّر بدر:

- كما قلت.. ليس شيئاً.

- ومع ذلك يحتاج إلى تنظيف وضماد حتى لا يفسد.. ادخلوا.. ادخلوا الآن.. كيف كتمت صيحة الألم؟

قال بدر مبتسماً:

- وأعطيه حاجته؟ قتله الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في موقف الوداع، قال أبو عثمان:

- كنا نحب أن تمكثوا معنا أياماً أخرى يا سيدي حتى تصحّ عيناك تماماً، ويلتئم جرح @خادمكم.. ولكن لا آمن أن يراجع أحد أصحابنا نفسه فتغرّه الجائزة ويطغيه الشيطان.. فإن النفوس تتقلّب.. وقد خُلِق الناس من ضعف.. ثم يلتمس لنفسه المعاذير.

قال عبد الرحمن بلهجة عميقة مبطّنة ملمّحاً إلى كلام عثمان في ذلك المجلس:

- بلى.. يقول في نفسه: السلطان هو السلطان، كلهم سواء. وليس المقتول بخير من القاتل.

أطرق عثمان محرجاً وقد فَهِم المغزى. وقال بدر مستحثًّا سيده:

- ننطلق يا سيدي.

هزّ عبد الرحمن رأسه، وألقى على أبي عثمان نظرة امتنان عميقة. وقال أبو عثمان:

- كما نصحت لكم يا سيدي. لا تسلكوا طريق البحر، فهو طريق المسوّدة. أما الصحراء فهي آمن لكم وإن كان طريقها صعباً. فإذا بلغتم حَدّها، فالتمسوا لكم دليلاً من أهلها.. فهي غرّارة.

مدّ عبد الرحمن يده واستخرج صرّة الجوهر التي أرسلته إليه أخته أم الأصبغ، وتناول واحدة منها، ومدّ به إلى أبي عثمان:

- هل تقبل مني هذه الهديّة يا أبا عثمان؟

قبض أبو عثمان على يد عبد الرحمن وضمّها بقوة على قطعة الجوهر، وردّها إلى الخلف وقال:

- هذا هو الحَدّ بين المروءة والغرض يا سيدي. فأحْسن الظنّ بي رعاك الله.

قال عبد الرحمن ممتنًّا:

- أحسن الله جزاءك يا أبا عثمان. أنت رجل طيب القلب والسريرة، وأمثالك قليل في هذا الزمان.

ثم مدّ إليه يده مصافحاً، وحين همّ أبو عثمان أن يقبّلها سحبها عبد الرحمن بسرعة. وبدلاً من ذلك عانقه بحرارة. ثم امتطى جواده متهيئاً للانطلاق، عندئذ أسرع إليه عثمان ليستوقفه وقال:

- سيدي الأمير.

أطرق عثمان لحظة قصيرة، ثم رفع إليه رأسه وقال بنبرة الاعتذار:

- كلامي في تلك الليلة! عن تجبّر السلاطين.. لعلي قد غَلَوْتُ يا سيدي وأسأت.

قال عبد الرحمن مبتسماً:

- لا تعتذر يا عثمان. فقد نطقت عن حق وصدق. وقد تعلمت منكم أشياء كانت أبصارنا منصرفة عنها.. ونعم، إن السلطان ليُغوي أصحابه إلّا أن يتداركهم الله برحمته. وهذا أبوك، ما رأيت مثله في قصور جدّي.. فهو عندي فوق السلاطين.. اعتنِ به وأحْسِن صحبته.

مدّ له عثمان يده مصافحاً.. ثم رفع عبد الرحمن يده بالتحية، وانطلق مع صاحبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

حين بلغ الثلاثة حدّ فلسطين الجنوبي، ورأوا أرض سيناء دونهم، توقف عبد الرحمن واستدار بجواده وسرّح بصره في المدى. نظر إليه بدر وأبو شجاع، وتفهّم بدر الموقف.. هذا آخر العهد بأرض الشام.. واكتسى وجه عبد الرحمن بحزن عميق.. ثم أنشد من شعر قيل في وداع نجد، فحوّره الآن لوداع الشام:

قفا ودّعا شاماً ومن حلّ بالحمى

وقَلّ لشامٍ عندنا أن يُوَدّعا

ثم قال يخاطب الأرض التي كانت في مُلك آبائه:

- والله إنكِ لأحب أرض الله إليّ.. ولولا حكم الأقدار لما تركتك أبداً.

قال بدر مواسياً:

- الأندلس شبيهها كما يقال.

قال عبد الرحمن:

- وليس الشبيه كالأصل.

بعد لحظة أخرى من النظر والتأمّل قال:

- ولكن نعم.. نحملها معنا إلى هناك.

أشار إلى رأسه وموضع قلبه:

- فإن لم نكن فيها، فهي فينا.

@ ثم انتقل بجواده، وتابع المسير.

وما إن انقضى بعض الوقت حتى أخذ بدر يصفر صفيره المعتاد بذلك اللحن الشجيّ. ولكن أبا شجاع لم يكن ممن يستخفه النغم. فقال:

- ألا تكف عن هذا الصفير؟

أجاب بدر:

- الرحلة طويلة يا أبا شجاع، فوطّن نفسك على احتمال صفيري.. أو جرّبه، فقد يعجبك.

- لا يليق مع مروءة الرجال.

- وما مروءة الرجال التي يذهب بها الصفير يا أبا شجاع؟

ثم التفت إليه وقال:

- تبسّط أيها الرجل، تبسّط.

- سبحان الله! كدنا نُؤخَذ مرتين أو ثلاثاً، وما زال الخطر يحدّق بنا، ثم تقول: تبسّط!

- وهل يردّ الانقباض خطراً أو قدراً؟ وإن كان العمر قصيراً وهو محفوف بالمخاطر أفليس الأولى أن نختلس منه لحظة الصفو قبل فواتها؛ على أنه لا فَوْت يا أبا شجاع، فإن ما أخطأك ما كان ليصيبك، وما أصابك ما كان ليخطئك. رُفِعت الأقلام وجَفَّت الصحف. وإني لأرى الأندلس من وراء الأفق.

- أين نحن وأين الأندلس؟

أشار بدر إلى رأسه:

- هنا.. هنا الأندلس. ولسوف يحقق الأمير غايته إن شاء الله، ويصحّ خبر النبوءة فيه، فإن لم تكن نبوءة فرؤيا يجعلها ربّي حقاً. ونحن معه، نلزم ركابه.

والتفت إلى عبد الرحمن:

- أليس كذلك يا سيدي.

اكتفى عبد الرحمن بأن هزّ رأسه وقال لأبي شجاع:

- دعه يا أبا شجاع.. دعه يصفر كما يشاء.

ابتسم بدر راضياً وخاطب أبا شجاع:

- هل سمعت الأمير؟..

وعاد للصفير بنغمات شديدة العذوبة.. وحين شعر بسيّده ينظر إليه بطرف عينيه مبتسماً، اجتهد في تجويد صفيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الدليل الذي توصّلوا إليه في أحد المضارب:

- أين وجهتكم؟

قال بدر:

- أرض مصر.

- ولماذا لا تسلكون طريق الساحل؟ فهو أسهل وأقرب للعمران.

أجاب بدر وقد ضاق صدره بالسؤال:

- لا تكثر السؤال.. خذ أو فَدَع.

قال الدليل تمهيداً للمساومة:

- لا بأس. ولكن الطريق طويل وصعب المسالك. والدليل الذي يقودكم سيعود أدراجه المسافة كلها.

- كم تطلب؟

- مائة درهم، وزاد الطريق، وثمن الراحلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مسيرة يومين في الخلاء المجدب الفسيح التي تتقلب طبيعته بين الرمال والحرّات الصخرية السوداء والجبال الداكنة الموحشة، جلس الثلاثة يريحون مستندين بظهورهم إلى سروج خيولهم وقد دخل الليل. بينما اضطجع الدليل متنحياً عنهم وبدا أنه سبقهم إلى النوم. وكان البدر مكتملاً دون غيمة تصد نوره الذي أضاء المكان.

كان المنظر جميلاً على الرغم من وحشته. أحب بدر كعادته أن يبدد الصمت فقال لأبي شجاع:

- هاه يا أبا شجاع.. قد خبرتَ الأندلس فحدّثنا.

- عمّ أحدثك؟

- سمعتُ أن في نسائها جمالاً فتَّانا.

@ نفخ أبو شجاع مستنكراً. فقال بدر:

- ما بك؟ لا تقل لي إنك عشت فيها أعواماً ولم تلحظ نساءها!

- وما الذي ذكَّرك بالنساء هنا.. في هذه الصحراء الموحشة.

- سبحان الله! متى يذكر الإنسان الطعام؟ حين يجوع. ومتى يذكر المال؟ حين يفتقر إليه.. ومتى يذكر أهله؟ حين يغيب عنهم. ومتى يذكر النساء؟

تريّث معلَّقا كلامه بقصد للحظة قصيرة، واستأنف:

- في كل الأوقات!

ضحك وأردف:

- ولكنه أشدّ ذكراً لهن حين يفتقدهنّ.. وفي حال الوحشة.. وعندما يكون في صحبة رجل مثل أبي شجاع يحسب الانقباض من التقوى. والانبساط من ضعف الدين!

أطلق ضحكة أخرى.. وفاجأه أن يسمع عبد الرحمن يشاركه بضحكة خفيفة لم يكن ليتوقعها منه. فزاده ذلك تبسَّطا. واستأنف:

- الحمد لله أن أبا شجاع لا يتصدّر للفتوى. وإذن لجعل السرور إثماً وانقباض النفس برًّا ومعروفاً، فضيّق واسعاً، وفتن الناس عن دينهم إذ دعاهم إلى قهر فطرتهم.

ضحك من جديد، وتوجه أبو شجاع إلى عبد الرحمن بالشكوى:

- هل يرضيك هذا من خادمك يا مولاي؟

هبّ بدر معتدلاً في جلسته وهو يضع يده على فمه ويومئ لأبي شجاع ألا يخاطب سيّده بما يفصح عن منزلته على مسمع من الدليل.

بدا أبو شجاع حائراً لم يفهم المغزى، فأومأ بدر إلى الدليل محذًّرا. واضطر إلى أن يميل نحو أبي شجاع ويهمس له بمقصده، حتى فَهِم أخيراً. ثم سُمِع عبد الرحمن يقول بنبرة هادئة:

- يا أبا شجاع.. القلب يتمنّى، ويُصَدّق ذلك العمل أو يكذّبه.

قال بدر مؤيِّداً:

- هذا هو القول. أسعد الله أبا سليمان.

قال أبو شجاع:

- إذا صحّ رأيي فيه، فالذي يفيض به يتعدّى التمنّي إلى الفعل. والله أعلم.

قال بدر:

- هاه! الله أعلم. أما أنت فلا تشهد على ما لا تعلم.

ثم أجالَ بدر نظره في الصحراء التي يضيئها نور البدر، وقال:

- يسأل أبو شجاع ما الذي ذكرني بالنساء! أليس الشيء بالشيء يُذكَر؟ وأي شيء أشبه بالمرأة من الصحراء؟

وتحسس رملها الناعم مستأنفاً وأخذ قبضة منه.

- هل تجد أنعم من رملها؟ على أن أحمق الرجال من يغترّ بنعومتها. فإن لم تحسن التأتّي لها أرتك من بأسها ما يهون معه بطش الرجال؟ رياح سافية تعمي البصر، وشمس حارقة، وعطش قاتل، وكثبان تغيّر مواضعها، ورمال تبتلعك بلا رحمة.

أسقط الرمل من قبضته ببطء، بينما علّق أبو شجاع:

- أنت في حالكٍ لو نظرت إلى أي شيء، لوجدت فيه شبهاً بالمرأة.. فالرغبة تفعل هكذا.

قال بدر مبتسماً:

- صدقت في هذه يا أبا شجاع.. النخلة طولها، والمها عيونها، والظبية التفاتتها، والمطر دموعها، والعواصف غضبها، والخزامى أنفاسها، وعود الخيزران قوامها، وتقلّب الليل والنهار تقلّبها بين الإقبال والإدبار، وإن شئتَ زدت.

- لا، لا تزدْ.

- ونَعَم، الرغبة تفعل هكذا.. بل تفعل كل شيء. إذا اقترنت بالإرادة.. وهما معاً سيصلان بنا إلى الأندلس، إن شاء الله. وعندها نعاين نساء الأندلس بأنفسنا، ونستغني عن الخبر منك.. فليس الخبر كالعَيان.

هنا سمع صوت عبد الرحمن يقول بنبرة عميقة ذاتية وهو ينظر في السماء:

- نعم. ليس الخبر كالعيان!

ما لبث الثلاثة أن غلب عليهم النعاس وذهبوا في النوم. وكان عبد الرحمن وبدر قد راضا نفسيهما على صرف أسماعهما عن شخير أبي شجاع.

ولكن الدليل الذي كان يتظاهر بالنوم العميق كان ينتظر ذلك الشخير وأنفاس الآخرَيْن الثقيلة ليتأكد من أنهم غرقوا في النوم.

@ رفع رأسه بهدوء من رقدته ونظر تجاه عبد الرحمن. تريّث قليلاً ثم بدأ يتنقّل بخفة على ركبتيه محاذراً أن يصدر عنه نَبْأة مسموعة. وكان قد جرّد سيفه قبل الرقود كيلا يضطر إلى سلّه.

وحين صار قريباً من عبد الرحمن الذي كان مضطجعاً على جنبه ووجهه إلى الجهة الأخرى من الدليل، تحوّل عبد الرحمن بجسمه بحركة سريعة مفاجئة وفزّ من مكانه معتدلاً، وسُمِعت صرخةٌ من الدليل.

فزّ بدر وأبو شجاع من الفور فزعين على الصرخة، ليريا الدليل يتراجع مترنحاً، يضع يده على موضع الطعنة القاتلة التي عاجله بها عبد الرحمن، ثم سقط أرضاً. وهرع بدر يتفحّصه، فوجده قد فارق الحياة.

أرسل بصره إلى عبد الرحمن وقال:

- ما خرج اللعين إلّا وهو يريد الغدر والسلب.. يرجع بالغنيمة دون جهد المسافة.. قتله الطمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عليهم الآن أن يتابعوا سفرهم دون دليل إلا نجوم الليل ومسار الشمس في النهار.

قال بدر مواسياً وقد رأى وجوم عبد الرحمن الشديد:

- لا بأس يا سيدي.. سيجعل الله لنا مخرجاً.

قال أبو شجاع الذي يغلب التشاؤم على مزاجه:

- إلّا أن يكون قد كُتِب علينا الهلاك في هذه الصحراء.

قال بدر:

- لا تتطيّر يا أبا شجاع.

- وتسمّي هذا تطيُّرا؟ انظر حولك! ما ترى؟ لا شيء.. لا شيء.. كيف لنا أن نهتدي في هذه الصحراء بعد أن ذهب الدليل؟ وبعد قليل ينفد الماء والزاد. أَرِنا الآن فطنتك!

ردّ بدر:

- أرنا أنت يقينك.

سمع الآن صوت عبد الرحمن يسكتهما بنبرة رادعة:

- ألا تصمتان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقي عبد الرحمن صامتاً واجماً شارد الفكر مسيرة ذلك النهار، حتى إذا حميت عليهم الشمس نزلوا يستظلون عند صخرة سوداء عظيمة أدنى جبل بركاني صغير أجرد. ثم تبادلوا قِرْبَة الماء يحتسون منها حسوات صغيرة لا تطفئ عطشاً كي يبقوا منه لأطول وقت ممكن. لبث عبد الرحمن على حاله مطرقاً شارداً حتى نطق أخيراً دون أن يرفع رأسه في بوح ذاتي:

- ليس التيه في الصحراء هو ما يشغلني..

نظر إليه خادماه مستطلعين، ثم زاد قائلاً:

- لم أقتل رجلاً من قبل.. أعني قبل ذلك الدليل الخائن.

قال بدر مواسياً:

- ذلك لأنك لم تحتج إلى قتل رجل قبل الآن.. وما قتلته ظلماً، إنما كنت تدفع عن نفسك.. وعنّا معك؟

تريّث بدر لحظات، ثم تابع:

- وإن كنت تطلب مُلْك الأندلس يا سيدي، فسوف تجد نفسك تواجه أقواماً لا خيار لك معهم.. فإما حياتك وإما حياتهم.

تدخّل أبو شجاع وقد ضاق بكلام بدر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! نحن هنا لا ندري هل نعيش إلى غد، وأنت تتحدث الآن عن مُلك الأندلس؟

همّ بدر أن يردّ عليه، ولكنه توقف إذ التقط بصره شيئاً في البعيد، فقام واقفاً ودقّق النظر، ثم صاح وهو يشير إلى جهة ما:

- الفرج! الفرج! هناك.

كان ثمة عدد من الفرسان يخبّون على خيولهم من بعيد.. وتقدّم بدر مهرولاً يلوح لهم بذراعيه ويصيح:

- هنا.. هنا..

ثم بدا أن الفرسان قد أبصروا بهم فأقبلوا عليهم، وتعجّل بدر إليهم مستقبلاً، حتى توقفوا @أمامهم. وهتف بدر مبتهجاً:

- الحمد لله الذي ساقكم في طريقنا.. قد غدر بنا الدليل، وضَلَلنا طريقنا.

ولكن كما قيل، ليس كل ما يتموج في الصحراء ماءً! فقد فوجئ الثلاثة بالفرسان يسلّون سيوفهم ويحيطون بالثلاثة وهم في حيرة واضطراب.

وقال قائدهم ضاحكاً:

- نعم، الحمد لله الذي ساقنا إليكم.. خشينا أن ينقضي النهار دون أن نخرج منه بغلّة اليوم!

لم يكونوا غير مجموعة من قُطّاع الطّرق. وما هي حتى كان الثلاثة موثقين بالحبال وراء ظهورهم وقد أجلِسوا على الأرض. وطفق القائد يفتش أمتعتهم حتى عثر على كيس الجواهر. وحين نظر فيها أطلق صيحة الظفر:

- وأي غلّة! دعاء الأبوين! هاهاها..

ثم توجه إلى الثلاثة:

- من أين لكم هذا الجوهر الثمين؟ هل أنتم قُطّاع طرق مثلنا؟ لا تبدو عليكم سمات الثراء.. هل معكم غيره؟

ثم أمر أصحابه أن يفتشوا ثيابهم. وما هي حتى استخرجوا صرة الدنانير الذهبية من ثوب عبد الرحمن. نظر إليها القائد وقال:

- أي نهار خير وبركة هذا؟ دنانير ذهب أيضاً؟ وما الذي يُخرج رجالاً بهذا المال إلى الصحراء، وقد كان في وسعكم أن تخرجوا في قافلة محروسة.. ولكن ما لنا وأسباب تعسكم، فإنها أسباب سعدنا.

بعد أن وضع المال والجوهر في متاع فرسه، سأل أحد أصحابه:

- ما نصنع بهم؟

- لا شيء. الصحراء تفعل..

وإذ همّ أن يمتطي فرسه، توقف والتفت إلى الثلاثة متفكراً وقد بدا له شيء. حكّ لحيته وقال:

- لعلنا نستطيع أن نصنع شيئاً!

اتجهت إليه أنظار الجميع ترقُّبا. وتابع:

- أخذنا مالهم. وإلى ذلك نستطيع أن نحوّلهم إلى مال؟ أعني.. نبيعهم عبيداً.

ثم خاطب الثلاثة متهكماً:

- ذلك أرحم بكم من الموت البطيء هنا.. و.. من يدري؟ لعل أحدكم أن يكون له بعض حظ يوسف النبي في مصر!!

وأطلق وأصحابه ضحكات ساخرة، وأحبّ أحدهم أن يجاريه في التظرّف فقال وهو يشير إلى الثلاثة:

- ولكن، أرجو أن يكون حظنا في بيعهم أحسن من حظ السيّارة الذي عثروا على يوسف، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة!

ضحكوا من جديد، وقال قائدهم وهو يهز صرة الدنانير الذهبية التي بقيت في يده:

- قد تَعَدّينا ذلك قبل البيع! إنما هي زيادة في الخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قادهم رهط اللصوص على الخيول موثقين عبر طرق متعرّجة تحاذي الجبال السود، وبعد مسيرة ساعات، توقفوا وتنحّى اللصوص جانباً يتحاورون همساً. وقال قائدهم:

- لا يحسن أن نطوف بهم بعد هذا الموضع، حتى نجد من يشتريهم. والرأي أن يبقى أحدنا يحرس عليهم، ونمضي نحن نبحث عمن يشتري.. ولعلنا نجد قافلة من التجار، فبعض هؤلاء لا يسأل عن أصل الحال، إنما تهمّه المنفعة والربح. ولكن نوثق أرجلهم أيضاً.

ثم أنزلوهم عن رواحلهم وأجلسوهم على الأرض متقاربين، وأوقفوا عليهم أحدهم، وانطلق سائرهم مبتعدين.

ابتعد حارسهم مسافة ليتبوّل مستدبراً عنهم، حين همس أبو شجاع لبدر مستهزئاً به:

- وكنت تحدِّث عن امتلاك الأندلس! نعم هذا هو الفرج الذي صحت به!

ثم التفت إلى سيّده وقال:

- العفو يا سيدي.. لو استطعت أن أفتديك الآن بنفسي لفعلت.

عاد حارسهم وهو يصلح ثوبه، وهنا صاح به بدر:

- قل لي.. ما ثمن الرجل منا؟

@ - أطبق فمك.

- بمائة درهم؟ هاه! نعم، ربما كان ثمني أنا مائة درهم.. ولكن، انظر إلى صاحبي هذا.

وأشار إلى أبي شجاع، وتابع:

- من يشتري كهلاً مثله لا يحسن شيئاً من عمل العبيد؟ والجواهر والدنانير التي أخذها صاحبكم كم ينالك منها؟

قال الحارس مهدِّداً:

- قلت لك: أطبق فمك، وإلّا قتلتك.

- هيا اقتلني واخسر ثمن رأسي.. ما بالك تقول ثم لا تفعل؟ هه! ألأنك نذل جبان وتخشى إن قتلتني وضاع ثمني أن يقتلك رئيسكم ذاك؟ نعم.. هناك دائماً قائد وأتباع.

- ألا تصمت، قطع الله لسانك؟

- أفلا أدلّك على خير من هذا؟ هل تحب أن تكسب لنفسك أضعاف ثمن الجواهر وتلك الدنانير التي سلبها منا رئيسكم؟ أعني أضعافها.. وتستطيع أن تستغني بها عن السرقة وقطع الطريق مع ما فيهما من المخاطر حتى آخر عمرك.. بل تستطيع أن تشتري بها من الإبل والمواشي ما يضيق به الوادي ويجعلك سيّد عشيرتك، وتتزوج بها أجمل النساء وأعلاهنّ نسباً.. عشرة آلاف دينار.. هل تسمع؟ عشرة آلاف دينار.

تنبهت ملامح الحارس الآن، وأكثر منه ملامح عبد الرحمن وبدر. وتابع بدر وهو يومئ برأسه إلى عبد الرحمن:

- هل تعرف من هو هذا الشاب؟ إنه الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك!

اكتسى وجها عبد الرحمن وأبي شجاع بتعبير الصدمة الصاعقة، بينما ازداد اهتمام الحارس، واستأنف بدر دون فاصل:

- هل تعرف ماذا يعني هذا؟ إنه عدو بني العباس.. وهو فار طريد، ما زالوا يلاحقونه منذ فَصَل عن داره في الشام، ووضعوا على رأسه جائزة مقدارها عشرة آلاف دينار، لمن يدلّ عليه أو يأتي به إليهم حيًّا.

صاح به أبو شجاع من أعماق صدره:

- أيها النذل الحقير.. كيف تشي بسيدك؟ لا والله ما اطمأنت لك نفسي يوماً، وإن بدا منك غير الذي تبطن.

ردّ عليه بدر:

- اخرس أنت.. أنا خادمه كما أنت، ولستَ أحرصَ عليه منّي، ولكن، أن يموت مولانا كريماً بسيوف المسودة خير له من ذل العبودية، وهو الأمير ابن الخلائف.

ثم عاد ينظر إلى الحارس.

- قد رأيت الجوهر.. أذاك جوهر يكون مع غير الأمراء؟ ولماذا يقطع أمثالنا الصحراء بذلك الجوهر والمال؟ لماذا لم نسلك طريق الساحل إلى مصر وهو آمن وأسهل لعامة الناس؟ ولماذا لم نخْرج في قافلة فنكون في مَنَعة بدلاً من أن نعرّض أنفسنا للأوباش والسفلة من أمثالكم؟ لا تصدّقني بعد؟ لا بأس.. هل أدلك على خاتمه الذي نقش عليه اسمه؟

قال الحارس:

- إن كنتَ صادقاً، فنعم.

- انظر تكة سرواله، فإنه يخفيه هناك في ثنيّتها قد خاط عليه.

تردد ثعلبة لحظة، ثم سلّ سيفه واقترب من عبد الرحمن، وإذ انحنى ليتحسس ثنيّة السروال، فاجأه بدر بطعنة من سكين في خاصرته، فتراجع منصدماً والدم يضخ من موضع الطعنة، وقد ارتسمت على وجهه الصدمة. وبسرعة هائلة عمد بدر إلى قطع الحبل الذي يوثق قدميه، واندفع إلى الحارس الذي كان يترنح في مكانه، وعاجله بطعنات أخرى سريعة حتى أجهز عليه. ثم ارتد إلى عبد الرحمن وأبي شجاع وفكّ وثاق عبد الرحمن. ثم وقف على أبي شجاع وتريّث ينظر إليه. قال أبو شجاع مستعجلاً إياه:

- هيا.. ما يوقفك؟

قال بدر:

- أنا نذل حقير؟ ما اطمأنت نفسك لي يوماً؟ أُبطِن غير الذي أُظهِر؟

ثم ابتسم بدر ونزل إليه وفكّ وثاقه:

- لا بأس، إكراماً للأمير، لا لك.

كان عبد الرحمن ما يزال منذهلاً مما وقع بتلك السرعة:

@ - كيف فعلتها؟ أعني وثاق يديك.. تلك السكين.

- أما السكين فأربطها على ساقي تحت سروالي. وأما وثاق يديّ، فما زلت منذ أركبونا أعالجه وأحكه على حديدة سرج الحصان خلف ظهري. ثم انظر هذه الصخرة التي كنت أستند إليها..

كان بعضها ناتئاً وحادًّا كالشفرة.. وقال بدر:

- الحظّ يسير في ركابك يا سيدي.

أرسل أبو شجاع بصره في الخلاء الممتد وقال:

- ما زلنا نجهل موقعنا من الأرض.

قال بدر:

- أفضل مما كنا نعرفه قبل لحظة.. يجب أن نبتعد قبل أن يرجعوا.

وتحركوا إلى مطاياهم. ولكن بدراً لم ينس أن يلتقط قِرْبَة ماء الحارس القتيل، وصرّة زاده، وبعض الدراهم التي وجدها في جيبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كفّ بدر عن الصفير منذ وقت، ولو أراد لما وسعه ذلك، وقد جف فمه وانتفخت شفتاه وتشققتا من لفح الشمس والرمال السافية أحياناً مع العطش. كذلك كفّ عن التندّر والتظرّف ومناكفة أبي شجاع الذي كان أسوأهم حالاً بحكم سنّه وضعف جسمه. وكان الزاد قد نفد بعد أيام من التيه، وكذلك الماء، إلّا من حفرة ماء وجدوها في أحد الوديان من بقية جريان الماء فيه في الشتاء قبل أن يجف بعد انقضاء الموسم. وكان ماء الحفرة مختلطاً بالرمل والطين وأوشاب الطبيعة القاسية. ولكن، لم يكن لديهم خيار إلا أن ينكبّوا على الحفرة ويحتسوا منها ما يكفي لحفظ أرواحهم ومتابعة المسير على الأقدام الآن وقد نفقت دوابهم واحدة تلو الأخرى. واستطاع بدر أن يمسك بعض الزواحف ويعود بها إلى صاحبيه. قال أبو شجاع بصوت ثقيل بينما كان بدر يعمل على سلخ جلدها.

- تتوقع منا أن نأكل هذا؟

بعد أن أتم بدر سلخها، قطع من إحداها وقال:

- إنه لحم.. والعرب تأكل الضبّ في الصحراء.

والتقم بدر القطعة وأخذ يمضغها، وبدا التقزز على وجه أبي شجاع:

- ونيِّئ أيضاً؟

قال بدر:

- الشواء يزيد العطش.. أما النيّئ ففيه رطوبة نحتاج الآن إليها. لا بأس.. له طعم الدجاج.. ليس كريهاً أبداً..

هنا فوجئ بسيّده يقول:

- أين أدبك يا بدر؟ ألا تقدّم لأميرك أولاً؟

ابتسم بدر، وقدّم لسيّده.. وبينما أخذ عبد الرحمن يمضغ ذهب ببصره إلى أبي شجاع مع إيماءة تشجيع.. وناوله بدر قطعة فأخذها ووضعها في فمه بعد تردد، وأخذ يمضغ وقد أغمض عينيه وانقبضت عضلات وجهه تقززاً. وقال بدر:

- من أكل هذا الآن، حريّ به أن يأكل غداً على مائدةٍ تليق بالأمراء والخلفاء وأعيان دولتهم.

ولكن، بعد يومين آخرين من التيه، بلغ بهم الإعياء كل مبلغ، حتى صاروا يجرّون سيقانهم جرًّا. وفجأة انهار أبو شجاع على الأرض، حاول عبد الرحمن وبدر أن يرفعاه، فقال بصوت ضعيف لا يكاد يبين:

- لا أستطيع يا سيدي.. لا أستطيع.. قُضِي الأمر وبلغت أجلي.. تابعا السير دوني.

قال عبد الرحمن:

- إما أن نعيش معاً، أو نموت معاً. هيا.

تعاون عبد الرحمن مع بدر في رفعه عن الأرض، ثم أسنداه إليهما من جانبيه يجرّانه وقد خذلته قدماه تماماً.وبشق الأنفس وصلا به إلى جانب هضبة صغيرة منفردة، بدت وكأنها كانت تائهة في ذلك الخلاء مثلهم، حتى انقطع بها الرجاء فتجمّدت هنا إلى الأبد. وما إن وصلوا حتى انهاروا جميعاً على الأرض، يحاولون التقاط أنفاسهم. وبدا أن أبا شجاع لن يصمد بعد الآن طويلاً.

أغمض كل من عبد الرحمن وبدر عينيهما المنتفختين المثقلتين وهما يسمعان أنفاس أبي شجاع تزداد خفوتاً إلّا من حشرجة أشبه بالأنين. ولأول مرة توقف خيال بدر عن الذهاب بعيداً إلى الأندلس والمآلات السعيدة المنشودة. ولأول مرة أيضاً، طافت الشكوك في ذهن عبد @الرحمن حول نبوءة مسلمة بن عبد الملك، أو رؤياه كما كان يحب أن يصفها ليتجنب ما يلابس النبوءة من محاذير دينية. وما لبث النوم أن غلب عليهم جميعاً.

لم يطل الوقت حتى استيقظ عبد الرحمن على صوت بدر قادماً من بعيد:

- سيدي!

لم يغيّر عبد الرحمن من ضجعته ولم يُعَنِّ نفسه بفتح جفنيه، واكتفى بالغمغمة. وعاد صوت بدر الثقيل:

- السراب.. هل يتراءى في غير صورة الماء؟

ازداد ذهن عبد الرحمن تنبهاً، وحمل لسانه الجاف على السؤال:

- ماذا تعني؟

- هل يمكن أن يتمثل السراب في قافلة ورجال وجِمال؟

هنا فقط رفع عبد الرحمن نصفه الأعلى، ونظر إلى حيث يشير بدر.

فرك عبد الرحمن عينيه وعاود النظر إلى ما بدا له عن بُعد مثل ظلال مشوّهة، حتى تلاشت غشاوة عينيه تدريجياً وصارت الرؤية أكثر وضوحاً، فقال:

- ما أعلمه أن السراب لا يتمثّل لشخصين بالصورة نفسها في الوقت نفسه.

هنا هبّ بدر مستجمعاً قواه التي أمدّها الأمل بالمزيد، وأخذ يهرول جهة القافلة متعثراً وهو يلوّح بيديه..

وكان أبو شجاع قد استيقظ على الحركة، فحمل نفسه على الميل بجسمه والنظر بعينين شبه مغمضتين، وسمع صوت عبد الرحمن يقول:

- اصمِد يا أبا شجاع.. اصمد.. قد نجونا بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

[redacted] لم يبخل عليهم أهل القافلة بالطعام والشراب وحُسْن الضيافة. ومكث بدر يعاود شرب الماء حتى قال عبد الرحمن:

- ألم تروَ بعد؟

- لا أدري.. دعني أرَ.

ثم ضم شفتيه ليطلق صفيره المعتاد الذي توقف عنه منذ أيام، فخرج بدون صعوبة. عندئذٍ قال:

- بلى.. لعلي قد رويت.

وضحك وضحك معه بعض أهل القافلة الذين وقفوا عليهم. وكان من الطبيعي أن يسألوهم عن حالهم، فذكر لهم بدر أنهم كانوا خارجين في تجارة وقافلة صغيرة، فعَدا عليهم قُطّاع الطرق وقتلوا أصحابهم ودليلهم. واستطاعوا الفرار، ثم تاهوا حتى قيّض الله لهم تلك القافلة.

وفي هذه الأثناء كان أحد الرجال يدقق النظر في عبد الرحمن، وأخيراً سأل:

- كأني رأيتك أيها الفتى في مكانٍ ما.. لا أذكر أين!

دارى عبد الرحمن مخاوفه من افتضاح أمره، وتدخل بدر كالعادة بلسانه الذّلق وبديهته الحاضرة:

- هذا يحدث كثيراً يا سيدي. تشتبه الوجوه، حتى ليُخيَّل لي أحياناً أن لجميع خلق الله صوراً معدودة ولو كثرت، وأن رجلاً ما، في مكان ما من هذه الأرض يشبهني تماماً. وقد يكون من جنس غير جنسي، وله لسان غير لساني، فإن كان ذاك فإني أتساءل: ما عساه يفعل الآن؟ يقاتل عدواً أم يلاعب زوجة مليحة! أرجو له الثانية.

ضحكوا. ثم سأل الرجل نفسه:

- هل لنا أن نسأل من أين أنتم؟

أجاب بدر:

- آه.. من حمص!

قال الرجل متحمساً:

- حمص! أعرفها جيداً.. لطالما تاجرت فيها.. لعلي رأيت صاحبك هناك.

قال بدر:

- ربّما.

وتابع الرجل:

- لي فيها أصحاب كثيرون.. من تعرفون منها؟

@ أجاب بدر:

- من نعرف؟ آه.. الحق يا سيدي أن أصولنا من حمص. ولكن أهالينا هاجروا بنا إلى البلقاء ونحن صغار. فنشأنا هناك.

قال الرجل:

- تلك هي الديار التي نَشَأَتْ فيها دعوة خلفائنا بني العباس.. الحميمة أعني.. حيث لبث أئمتهم يدبّرون ويوجهون الرسل إلى خراسان، وعيون بني أمية غافلة عنهم، حتى وقع القول، وصحّت الأخبار، وانحدرت الرايات السود من خراسان كما كانوا يحدّثون. ووُضع السيف في بني أمية حتى صاروا أثراً بعد عين.. فسبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر.

دارى عبد الرحمن مشاعره أن يُنبئ عنها وجهه. وردّد:

- سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيراً ظهرت أسوار الفسطاط بمصر. وأناخت القافلة في موضع أمامها. ودّع عبد الرحمن وصاحباه أصحاب القافلة شاكرين لهم صنيعهم فيهم. ومضوا نحو بوابة السور. نظر بدر متأملاً وقال:

- أخيراً مصر.. ادخلوها بسلام آمنين.

قال أبو شجاع الذي لا يفارقه القلق، وكأنه جُبِل على ذلك:

- كيف نفعل فيها وقد أخذ اللصوص مالنا؟

أخرج بدر صرة الدراهم التي انتزعها من اللص الذي وقف عليهم حارساً حتى تمكن بدر من استغفاله وقتله. وهزّها:

- كأنك لم تتنبه إلى أني أفرغت جيب ذلك اللص اللعين الذي قتلته. كما تدين تدان.

ثم استدار عن صاحبيه ودسّ يده تحت سرواله واستخرج صرّة أخرى كبيرة، وعاد يهزها أيضاً أمام صاحبيه مبتسماً:

- هل تذكرون الدليل الذي خاننا وقتله سيدي أبو سليمان؟ كنا قد دفعنا له نصف أجره معجَّلا كما اشترط.. فهل كنت أتركها في متاعه بعد غَدْره ومقتله؟ وهي نصف ما في هذه الصرّة، أما النصف الثاني فهي من حرّ مالي.. ادخرتها من أجوري في خدمة الأمير.

سأل أبو شجاع متعجباً:

- ولكن، كيف لم يصل إليها قطاع الطرق.

قال بدر مبتسماً:

- كنت قد أخذت حيطتي، فأخفيتها هنا تحت سروالي..

أشار إلى موضع عورته، وهو يتابع:

- في هذا الموضع الذي لا يفكر فيه غيري.. وامرأتي مستقبلاً!

وأطلق ضحكة قوية..

ابتسم عبد الرحمن، واكتفى أبو شجاع بنظرة تأنيب، وقال:

- لا يمسك من تلك الدراهم غيرك، أو تنقعها أولاً بالماء والصابون والخلّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- غرفة للكراء.. غرفة للكراء.

كأن هذا الصبي المنادي قد قُيِّض لهم لييسر عليهم مهمة البحث عن مكان ينزلون فيه، دون أن يضطروا إلى نزول أحد الخانات التي تزدحم فيها الأقدام ويكثر المقيمون والداخلون والخارجون ممن قَدِموا الفسطاط من أصقاع وبلاد مختلفة. وهذا ما كانوا يرجون تجنبه. فمصر قد دخلت في خلافة بني العباس واستقامت لهم.

قادهم الصبيّ إلى حيّ شعبي بسيط مزدحم، حتى وصل بهم إلى فتاة تناهز العشرين من عمرها. ولم تكن ثيابها البسيطة لتخفي جمالها. وخاطبها الصبي:

- هؤلاء السادة يريدون الغرفة.

تأملها الثلاثة، وكان بدر أكثرهم تمعُّنا فيها. ومدّ الصبي يده لها، فأعطته قطعة نقد صغيرة، وانطلق راكضاً:

سألها بدر بنبرة تنم عن الاستغراب:

- أنتِ صاحبة الغرفة؟

قالت بلهجة تنمّ عن قوة نفسها:

- ما بك تسأل كأن في الأمر عجباً!

- لا.. ولكن.. أليس لك رجل يكفيكِ؟

@ قالت عابسةً بأسلوب رادع مُقْتَضَب، تريد أن تكفه عن السؤال:

- لا، ليس لي رجل.

علّق بدر بصوت خفيض وأسلوب مُبطَّن:

- آه هذا أفضل!

نظرت إليه مستنكرة:

- ماذا قلت؟

- لا شيء.. لا شيء.

وكانت قد سمعته، فقالت:

- نعم، هو كما قلت.. ما حاجتي إلى الرجال؟

قال بدر:

- ما هذا قصدت.

قالت بلهجة قاطعة:

- هذا ما قصدت أنا. أما مقاصدك فلا تعنيني.. والآن هل أقودكم إلى الغرفة؟

كانت غرفة صغيرة بسيطة، ليس فيها من المتاع إلا أقلّه وأوضعه. وحين رأتهم يتفحصون المكان، ضربت بقدمها على الأرض متضجّرة وقالت:

- ماذا؟ هل ستقضون النهار كله في معاينتها كأنها قصر الوالي؟

قال بدر:

- ولِمَ ضيق الصدر وقلة الصبر يا..

لم يكن في خاطرها أن تشبع فضوله بذكر اسمها، واكتفت بالقول بالنبرة الحازمة نفسها.

- لا يجمل بي أن أطيل الوقوف معكم فيظن الناس بي الظنون.

قال بدر:

- قطع الله ألسنتهم.

- وقطع أسباب الظنون.. والآن إن شئتم فاكتروا، وإلّا فدعوا.

سأل بدر:

- كم؟

- ثلاثة دراهم للرأس في كل ليلة، وتُدفع مقدَّما عن مجموع الليالي التي تنوون قضاءها.

لم يكن مبلغاً كبيراً، ولكن بدراً أحب أن يطيل الكلام معها

- أف ف ف.. كثير.

قالت وقد نفد صبرها.

- إذن تفضلوا بالخروج، ولا تعطلوا عملي أكثر من هذا.

قال بدر:

- على رسلك لا تغضبي.. لا بأس.. إن لم تكن الغرفة تستحق الأجرة، فتشفع لها صاحبتها!

قال عبارته الأخيرة متودداً. فردّت بلهجة صارمة رادعة:

- لا تُسمعني هذا الكلام، وأرني نقودك.

أعطاها النقود وقال:

- هذه عن ثلاث ليالٍ، فإن قررنا الزيادة أعلمناك.

قبل أن تخرج من الباب، لاحقها بدر بالسؤال:

- لم تسمّي نفسك لنا.

أجابت دون أن تلتفت إليه:

- كما سمّاني أبي.

وتابعت المشي، واستدرك عليها من جديد:

- نريد ماءً نستحمّ به من وعثاء السفر.

قالت وهي تخرج:

- دونكم حمام السوق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الثلاثة أكثر إعياءً من أن يغالبوا النوم، فتوافقوا على الرقود ساعة قبل أن يخرجوا لحاجاتهم. ولكنهم لم يتمّوا تلك الساعة، حين تنبهوا من رقادهم على صوت أحدهم يعالج الباب بالمفتاح، قبل أن

يتنبه إلى أن الباب ليس مقفلاً، واندفع إلى الداخل، ليفاجأ بالثلاثة ينظرون إليه مستطلعين، وقد قبض بدر على سيفه متأهباً، ولم يكن الرجل أقل دهشة وصدمة @منهم، وابتدره بدر:

- من أنت؟

أجاب الرجل:

- بل من أنتم؟ وما الذي تفعلونه في بيتي؟

نهض الثلاثة فوراً وقد ازدادوا تعجباً. وقال بدر:

- ماذا تعني بيتك؟ قد اكترينا الغرفة من صاحبتها.

صاح الرجل:

- ويلكم، لا أعلم لها صاحباً غيري.. هيا اخرجوا وإلّا صحت حتى تجتمع عليكم شرطة البلد.

تبادل الثلاثة نظرات الخيبة والصدمة. وهز بدر رأسه:

- غرّتنا ابنة اللئيمة!

حين خرجوا بمتاعهم، أطلق بدر فجأة ضحكة خفيفة وقال:

- نجونا من جند المسوّدة، ثم من قُطّاع الطرق، وغلبنا الصحراء القاتلة، ثم غلبتنا امرأة محتالة.. هاها.. كنت أشبّه المرأة بالصحراء، وأجدر بي أن أشبه الصحراء بالمرأة.. فهذا أبلغ.

تريّث لحظة، ثم عدل إلى نبرة أخرى:

- وما يزيدني ذلك إلا إعجاباً بها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحجرة الجديدة التي تمكّن بدر أخيراً من اكترائها بعد أن استوثق من صاحبها واستشهد عليه الناس، وقف بدر وأبو شجاع يرفعان ملاءة يمسك كل منهما طرفاً منها، ليسترا سيدهما عبد الرحمن وهو يغتسل. وأحب عبد الرحمن أن يتهكم ببدر، فقال:

- كل تلك المواهب التي ظهرت منك يا بدر، ثم تحتال عليك امرأة؟

ابتسم بدر وقال:

- العفو يا سيدي.. ولكنا كنا معاً، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنك الخبير بالنساء، كما تدّعي.

- ومن مأمنه يؤتي الحذر، كما قالت العرب.

بعد أن فرغ عبد الرحمن من اغتساله وجفف جسمه وارتدى ثيابه، سأل أبو شجاع بدراً:

- كم بقي معك من الدراهم؟

- ما يكفي حاجتنا حتى نخرج من الفسطاط، مع الاقتصاد بالنفقة.

- ومن أين لنا أن نشتري الركائب ومتاع الرحلة إذا كنا سنتابع إلى الغرب.

- ألتمس عملاً.

- أي عمل؟

قال بدر متهكماً:

- ولاية مصر. ألا تراني أهلاً لها؟

ردّ أبو شجاع مستهزئاً:

- اطلبها من خليفة بني العباس، بما لَكَ عنده من الصلة والبلاء.

قال بدر بنبرة جادّة:

- لا أسأل أحداً حظي، ولكن أكسبه كسباً.. أما الذي يعطيك مِنَةً، فيأخذه متى شاء كما أعطاه. ألم ترَ ندماء الملوك؟ يقرِّبهم أسيادهم ويرفعونهم إلى أعلى المنازل، ثم إذا تغيّرت قلوبهم عليهم، لم يسعهم إلّا أن ينكبوهم ويردّوهم أسفل سافلين.

كان عبد الرحمن ينصت متمعناً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السوق اشترى بدر خبزاً وضعه في جراب معه، ثم توقف عند بائع تمور، وأخذ يتفحّص البضاعة، حين تناهى إلى سمعه لغط وهرج وصياح من جهة ما من السوق، فالتفت إلى جهة اللغط، وبدأ عدد من أهل السوق يتجمّعون ويتقدّمون إلى موضع الضجيج يستطلعون الخبر. وسُمِع رجل يصيح هناك:

- محتالة.. محتالة.

تبعه صوت امرأة تصيح:

- ابتعد عني قتلك الله.

لم تكن تلك المرأة غير الفتاة التي احتالت على بدر وصاحبيه. وكان الرجل يمسك بذراعها @ويشدّها بغلظة، وهي تتابع الصياح:

- اترك يدي يا ساقط المروءة.. يا ناس.. يا أهل الإسلام.. ألا ترون إلى هذا يمسك بذراع امرأة غريبة ليست من حُرَمه؟ أين الدين؟ أين..؟

صاح الرجل:

- والدّين أن تحتالي عليّ فتأخذي مالي بالباطل؟ والله لا أتركك إلّا عند صاحب الشُّرَط.

تَلَفَتت بوجهها في الناس، وقالت تستغيث وتثير الحميّة:

- يا قوم! من يُخلِّص امرأة ضعيفة من هذا الكذّاب المتسفّل؟ أين الشهامة؟ إنما أراد السوء، فلما صددته ادّعى عليّ.

اختلطت أصوات الشهود ودمدماتهم، وقد حاروا فيمن يصدقون منهما. وصاح الرجل:

- لا تصدّقوها. قد احتالت عليّ وأكْرَتني غرفة ليست لها.. عندي الشهود.. وليحكم القاضي فيها.

ثم جذبها بشدّة بالغة وهي تقاوم وتحاول التفلّت منه:

- يدَك عني قطعها الله، إنك تؤلمني.

- سنرى من ستُقطع يده.

هنا سُمِع صوت بدر:

- قد سمعتَ السيدة. أفلت ذراعها.

اتجهت إليه أنظار الحضور وهو يتقدّم نحو الخَصْمين، وكانت زينب أكثر الجميع دهشة وهي تتبادل نظرة مع بدر الذي تابع قائلاً للرجل:

- إنها امرأة. وليس من مكارم الأخلاق ما تصنع بها الآن.

صاح الرجل به متحدياً وقد تصاعد غضبه:

- ومن أنت أيها المتطفّل الصفيق حتى تعلّمني مكارم الأخلاق؟ لعلك شريكها في..

قاطعه بدر وهو يهز إصبعه فيوجهه محذِّراً:

- هاهاه! احذر غضبة الحليم أيها الرجل. والآن لماذا لا تُفلِت ذراعها؟

قال ذلك ومدّ يده وقبض على ذراع الرجل وضغط بشدة، وانقبضت ملامح الرجل ألماً، فأفلت يده. وسأل بدر من فوره:

- كم أَخَذت منك كما تدّعي؟

- خمسة عشر درهماً.

دسّ بدر يده في جيبه واستخرج النقود وعدّها، ثم أخذ بيد الرجل فوضع الدراهم فيها.

- هاك ما تدعيه، وعليه زيادة، وبذلك ينقضي الأمر.

قلّب الرجل بصره بين النقود في يده وبين بدر، ثم مدّ يده يردّها إليه وهو يقول:

- لا، حتى أسلمها للشرطة، وينظر القاضي في أمرها. فالعقوبة أشفى لصدري.

مدّ بدر ذراعه وشدّ على قبضة الرجل وضمّها على النقود، وضغط بشدة بكلتا يديه، وتمعّر وجه الرجل من الألم، بينما قال بدر:

- أنا على يقين أنك ستُقَدّم العقل والحكمة.. خذ المال، وانصرف راشداً.

ثم مالَ برأسه عليه وهمس له:

- لو كنت مكانك لسترت وسكتّ.. أما سمعت القول المأثور: «يغلبن كل كريم، ولا يغلبهنّ إلّا لئيم»؟

تلفّت الرجل حواليه، فلم يجد الفتاة الآن، فقد اغتنمت فرصة انشغاله مع بدر، وانسلّت من المكان وغابت عن الأنظار. فسُقِط في يده، ولم يعد له خيار إلّا أن يحتفظ بالنقود ويمضي في حال سبيله. وبدأ الجمع في التفرّق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن استكمل بدر شراء حاجياته، حمل كيسه وخرج من السوق إلى زقاق داخلي ضيّق، حتى إذا بلغ منتصفه، برزت له الفتاة من فم زقاق آخر يتقاطع معه، ووقفت أمامه، فيما بدا أنها كانت تتبعه. نظر إليها متفحصاً، وابتدرته بالسؤال:

- لماذا؟

- لماذا! ربّما لأنني رقيق القلب.. وضعيف أمام النساء.

- ولكني احتلت عليك وسرقت مالك.

- وبئس ما فعلتِ. ألا تستحين؟ امرأة في مثل جما..

استدرك على نفسه قبل أن يتم كلمة «جمالك»، وعدل إلى غيرها.

- امرأة حسنة الخِلقة مثلكِ، كيف تكون سيئة الخُلُق؟ هيا، عودي إلى بيتك واستغفري @لذنبك.

تابع طريقه، وأخذت تشيّعه بأنظارها مع طيف ابتسامة تنمّ عن الإعجاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حجرة الثلاثة صاح أبو شجاع ساخطاً:

- ماذا؟ بدلاً من أن تعينه عليها، وتستردّ مالك منها، تدفع عنها غرمها؟ ما أنت؟ أحمق!

قال بدر:

- ربّما.. وربما لأني رقيق القلب وضعيف أمام النساء!

- وتعدّ تلك من النساء؟

قال بدر بنبرة خاصة وقد شرد ببصره:

- وأي امرأة؟ لو استقامت على الطريقة.

- إذن اذهب واخطبها، فإنها تليق بك.

- لو كانت إقامتنا هنا طويلة، لاستأذنت الأمير وفعلت.

نفخ أبو شجاع مستيئساً منه:

- والآن، ماذا عسانا نفعل وقد أهلكتَ من المال القليل ما أهلكت؟

قال بدر بثقة:

- سأتدبّر الأمر.

كان بدر قد وضع الخبز والتمر أمام سيّده الذي قسم من الخبز وناول كل منهما قطعة، بينما تابع أبو شجاع معلّقًا على بدر ومتهكماً:

- نعم، لعل السماء تمطر علينا ذهباً وفضة. كيف لا، والأقدار ترعانا وتسير بنا إلى الغاية الموعودة!

ظهر الامتعاض على وجه عبد الرحمن، وأرسل بدر إلى أبي شجاع نظرة تأنيب، فشعر بالحرج، واعتذر قائلاً:

- العفو يا سيدي.

لم يُكمِل الثلاثة طعامهم حتى سمعوا طرقاً على الباب. نهض بدر وفتح الباب ليجد الفتاة واقفة هناك. وبدت الدهشة على الجميع. ولكنهم ازدادوا دهشة حين مدّت يدها بصرّة نقود إلى بدر:

- هذا مالك. أو مالكم.. لا أدري.

ثم ارتدت مبتعدة.. توقف بدر ينظر في أثرها، ثم خرج وراءها مسرعاً حتى أدركها واستوقفها:

- كيف عرفتِ مكاننا؟

- تَبِعتُك من بعد.

تابعت المشي، ولكنه لاحقها:

- انتظري.

التفتت إليه:

- استرجعتَ مالك. أليس كذلك؟

رفع بدر صرّة النقود وهزّها:

- ولكن هذا يزيد عما أخذتِ مني.

- هو مالك الذي أخذته منك، والذي غرمته عني لذلك الرجل.

- أما الذي أخذتِه مني، فنعم. وأما الذي غرمتُه عنك، فإني لا أستردّ مالاً أعطيته حبًّا وكرامة.

- وأنا لا أقبل الصدقة والعطيّة.

- سبحان الله! تستحلّين مال الاحتيال والسرقة، وتترفّعين عن العطيّة؟

- لو اخترت ذلّ التسوّل والسؤال، لما عمدت إلى الاحتيال.

- ولا شيء غير هذا أو ذاك؟

- لا تعظني، وارجع عنّي.. لا يرانا الناس!

قال بدر ضاحكاً:

- تخشين التهمة ومقالة الناس؟ يا..

أجابت هذه المرّة:

- زينب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

على الرغم من ملابسات الظروف التي تعارفا فيها، فقد وقع بدر في نفسها كما وقعت في نفسه. وكان له بالفعل طريقة مع النساء. وما كان لييأس بسرعة كما في كل أموره.

جلسا في إحدى الرياض التي يرتادها الناس للنزهة، وكانت تتلفت يميناً وشمالاً وقد زايلتها الآن رباطة الجأش وسلاطة اللسان، وغلب عليها الحياء. وكأن مظهر الصلابة الذي كانت تتقمّصه قبل ذلك كان خاصاً بمهنة الاحتيال.

قالت:

- لا أدري لماذا رضيت أن أخرج معك.

قال بأسلوب الدعابة:

- هل يمكن أن يكون ذلك لشدة ظرفي ووسامتي؟.. والآن لماذا لا تخبرينني عن نفسك؟

- لقد عرفت عني ما يكفي.. محتالة.

- هل أجْبَرك أحد على ذلك.

استرجعت ملامحها الآن بعض الصلابة، وقالت بنبرة حازمة:

- لا يملك أحد في الدنيا أن يجبرني على شيء.

بعد لحظة صمت، عاد بدر يسأل:

- حقاً ليس لك أحد يكفيك الحاجة؟

أطرقت شاردة الفكر لبضع لحظات أخرى وقد اكتسى وجهها بملامح الحزن، ثم قالت:

- كان لي زوج. وكان في حرس الوالي أيام بني أميّة. ولما جاء جند بني العباس، خرج يقاتل عن مولاه. و.. قُتِل.

تريّثت قليلاً ثم تابعت:

- حاولت أن أمنعه من الخروج.. توسّلت له. قلت: هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. دولة تذهب، ودولة تجيء.. ما الفرق عندنا بين بني أمية وبني العباس؟ وقد انهزم بنو أمية في عقر دارهم، فلا أمل لهم في حفظ مصر.. ولكنه أبى.. يقول: لا خير في الرجل إذا أقبل وقت الطمع، وأدبر وقت الفزع. فرّ الوالي، وقُتِل زوجي دونه، وخلّاني وحيدة بلا معيل، مع أمٍّ مقعدة.

قال بدر:

- فلماذا لم تعملي بيدك؟ أليس ذلك أكرم من..

قاطعته:

- ما عملت في دار إلا طمع بي صاحبها.. وماذا لأمثالي غير الخدمة؟ فقلت في نفسي: إذا كان الرجال هكذا، يطلبون بمالهم الحرام، فمالُهم عندي حلال. وأحفظ نفسي وأعيل أمّي.

- ليسوا كلهم كما تصفين.. ولا يُرَدّ الحرام بالحرام.

- عدتَ إلى الوعظ؟

- إنما يعظ الإنسان من يهمّه أمره، ويرجو له الخير.

تأملته بنظراتها وقالت:

- ولماذا يهمّك أمري؟

- لأنك قد أعجبتني و.. بلغتِ من نفسي!

- أنا؟

وأفلتت ضحكة خفيفة، وأردفت:

- معجب بامرأة محتالة؟

- بل أعجبت بك منذ وقعت عيني عليك.. كرهت ما صنعتِ بنا، ومع ذلك أعجبتني قوّة قلبك ولسانك.

أطرقت لحظة، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه بوجه متنبّه:

- هل تدري؟ لم أعرف اسمك بعد.

- بدر.

تعجّب إذ رآها تضحك.

- ما يضحك من اسمي؟

- بدر! هذا اسم إذا كان للذكر فهو من أسماء العبيد وخدم الأمراء. بدر.. ياقوت.. مرجان! أعني هل سمعت برجل من سادة العرب له اسم من هذه الأسماء؟

@ لحظت أنه شرد ببصره بعيداً، واكتسى وجهه بملامح الجدّ والتفكير؛ فقالت:

- ضايقتُك؟ لا تبدو من النوع الذي يهزّه شيء.. ومع ذلك أعتذر منك إن فعلت.

- لا تعتذري.

- لم تحدِّثني عن نفسك. من أين جئت؟ ماذا تفعل؟ ماذا تطلب؟

قال بنبرة عميقة:

- مطلبي غايةٌ لا تُسَمّى.. دونها قبائل العرب وغير العرب.

تأملته بعمق، ثم أرسلت بصرها في الفضاء وقالت:

- ليس الرجل بنسبه على كل حال.

قال مؤيِّداً:

- نعم.. ليس الرجل بنسبه.

- حين رأيتك تخف إلى نجدتي وتقول: السيدة، تحرك في نفسي شيء غريب. لم ينادني أحد بهذا يوماً.. ذكرت أحلامي حين كنت صبية صغيرة: أن أتزوج أميراً أو سيًّدا من عِلْيَة القوم، فأكون السيدة العزيزة المصونة.. ثم نظرت في حالي والرجل يمسك بذراعي ويصيح في الناس.

حين التفت إليها وجد دموعها الآن تنحدر على خديها:

- تبكين؟

- أين تذهب الأحلام؟ ولماذا ينقسم الناس، فشقي وسعيد، سيد وخادم.

هزّ رأسه متعاطفاً متفهِّما وقد لامس الكلام موضعاً عميقاً من روحه. وقال متأمِّلاً:

- نعم، لماذا ينقسم الناس؟ سيد وخادم! أمير ومولى! ولا فرق بينهما إلّا أن الأول قد ورث السيادة مع توابعها، دون أن يكتسبها اكتساباً.

توقف لحظة قصيرة، ثم استدرك قائلاً بنبرة قويّة:

- ولكن، لا عذر للخادم أن يبقى خادماً إذا اقتنع أن في داخله سيًّدا وأميراً. فإذا تجرّد الأمير من حظوظ الإمارة، وصارت عليه مغرماً لا مغنماً، ولم يعد له غير همّته ومطلبه وغايته، فقد استوى مع الخادم الذي يقاسمه الغاية والطلب.. فكلاهما الآن لا يملك غير مواهبه وعزيمته، وليس له إلّا ما يستقبل من أيامه دون ما يستدبر. فهما على صعيد واحد، أمام اختبار القدرة والإرادة، حيث تظهر معادن الرجال، فإما الذهب والفضة، وإما المعدن الخسيس.

أخذت تتأمّله بعمق، كأنها تستطلع دواخله. فقد بدا الكلام الذي استرسل به غريباً ينم عن أمر كبير يطوي عليه جوانحه. ولكنها آثرت ألّا تُفْرِط في السؤال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية ازداد كل منهما تعلّقًا بالآخر وشغفاً به، دون أن يخوضا في حديث الحب والغرام والهيام. ينوب عن ذلك كلّه شوق اللقاء ولهفته والرغبة في العناية والاهتمام وإبداء الحرص الصادق على الآخر. وإذ صار يعمل في حمل البضائع ونقلها مع القوافل ومراكب التجارة، كانت تأتيه بالغداء

الذي تعدّه بنفسها. وفي أوقات الفراغ يتجوّل معها في الرياض وفي الأسواق، فيشتري لها الزلابية وأنواع الحلوى وما يستحسنه من الثياب والقماش والمناديل على قدر وسعه. وقد زادها كرم نفسه إعجاباً به. وأعجبها أكثر من ذلك أنه، على الرغم مما بدا منه في أول أمرها معه من الجرأة في مخاطبة النساء وتلميحات الغزل، فإنه منذ تواترت اللقاءات بينهما كان شديد الحرص على أن يحتفظ بمسافة بينهما، إذا جلسا في مكان ما، ولم تبدُ منه بادرة واحدة للمس يدها. فتأكد لها صفاء سريرته وحُسْن نيّته، وأن عِفّته فرع من مروءته.

وإذ كانا يتمشيان قريباً من ضفة النيل في يوم رائق جميل، بدا عليها بعض الوجوم والسهوم والحزن. فأحبّ أن يغيّر ذلك المزاج فقال:

- يوم جميل!

قالت وهي ترسل بصرها إلى النهر العظيم، وقالت بنبرة يشوبها الأسى:

- لو كان يدوم.

قال:

- ولذلك ينبغي على المرء أن يغتنم لحظة الصفو قبل ذهابها.

سألت بنبرة تأمّلية ذاتية:

- لماذا يجب أن تذهب؟

- ليأتي غيرها، وربما أجمل منها.

@ - لا أدري إن كان لقائي بك نعمة أم نقمة!

- لماذا تقولين هذا؟

- أشدّ من الشقاء الذي أَلِفتُه قبل لقائنا، زوال النعمة بعد اختبارها.

أطرق صامتاً وقد أدرك مغزى كلامها. فقالت:

- أعلم أنك ستغيب عني.. وجهك وجه مسافر إلى غاية بعيدة.

تابع صمته وأرسل بصره في الأفق البعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد إلى الحجرة وجد أبا شجاع وحده، فسأل:

- أين الأمير؟

- اشتاقت نفسه إلى الصلاة مع الناس، فخرج إلى المسجد.

- لماذا لم تخرج معه؟

- خشينا أن ترجع من.. صولاتك وجولاتك، فلا تجد أحداً، فيقع في نفسك السؤال.

تجاهل بدر الغمز المقصود في ذكر الصولات والجولات، وقال:

- ولكن، هل يأمن مخالطة الناس؟ أعني هذه الآن ولاية عباسية.

- لم نسمع أنهم يشتدّون في طلب بني أمية فيها..

- ومع ذلك، فالحيطة أَوْلى.

نزل بدر جالساً، ورمقه أبو شجاع وقال معرًّضا به:

- لا أراك تأخذ الحيطة في..

قاطعه بدر:

- أنا لست الأمير.

- ومع ذلك أراك أحياناً تتصرّف وكأنك نسيت منزلتك منه!

- هل تريدني أن أُقَبِّل يده ونحن في الفرار والتخفّي، والعيون تحيط بنا في كل جانب؟

- لا.. ليس هذا.. أعني..

تردد لحظة ثم تابع بأسلوب المواربة:

- أحياناً يُخيَّل إليّ أنك سعيد بحال التخفّي والفرار، لأن هذا يسوّي بينكما.. كما تظنّ، ويعفيك من رسوم الخادم مع أميره.

قال بدر متبرًّما:

- وهل الأمير في الحال الذي هو عليه، أحوج إلى خدمة العبد أم إلى خدمة الصاحب والمعين؟ والإمارة التي تتحدث عنها ليست الإمارة التي استدبرها، فقد ذهبت تلك إلى الأبد، إنما هي الإمارة التي يستقبلها ويسعى إليها.. ونحن معه!

تفحصّه أبو شجاع بنظرة متشككة:

- تُراك تخدمه فقط، أم تخدم نفسك أيضاً؟ بل ربما أولاً.

تمالك بدر نفسه وكتم ضيقه. ولم يكن يعلم قبل اليوم أن أبا شجاع ينطوي على بعض المكر. وقال:

- أحسن الخدمة وأشدّها إخلاصاً ما اجتمعت بها الغايتان: غاية مولاك وغاية نفسك، فأنت تدفع عنه دفاعك عن نفسك، وتطلب لنفسك فيما تطلب له، فلا تخذله إلا بقدر ما تخذل نفسك. فأيّ بأس في هذا؟

- إنك والله لشديد الطموح.

- وهل الطموح عيب في الرجال؟

- حينما يرتقي الرجل مرتقىً لم يُقْدَر له.

- وما أدراك أنت بما قُدِّر لي؟ هل اطلعت الغيب؟

- بل اطلعت الماضي الذي كان، والحاضر الذي هو كائن.. أنت خادم.. فلا يغرّنك حالك الآن مع الأمير.. فالأمير يبقى هو الأمير وإن تَجَرَّد من سلطانه، والخادم هو الخادم وإن وَحّده الخوف مع أميره!

- سبحان الله! يقاسمه الخوف والمغرم، ولا يقاسمه الأمل والمغنم!

قال أبو شجاع مستخفًّا:

- هه! الأمل والمغنم! أي مغنم؟ أحقاً تأمل في أنه سيملك الأندلس، فتصيب أنت نصيبك منها معه؟

- أينا الآن أكثر وفاءً في خدمة الأمير؟

- أنا لا أخدمه على شرط مستقبل لا ندركه، وغيب لا نبصره، وحلم يتصور في المخيّلة.. @إنما أخدمه وفاءً لحق الماضي، وحق أخته أم الأصبغ التي ندبتني لمرافقته. وغاية ما أؤمّله له، أن يصل إلى مكان آمن بعيداً عن طلب المسوّدة.. أما مُلك الأندلس! يحوزه وحدَه؟!

- ذلك لصغر أحلامك.. ولذلك ستبقى خادماً أبد الدهر. ولن ينزل الجزيرة وحده.

قال أبو شجاع متهكّما:

- كلّا، فأنت معه! وأنت كثير!

نهض بدر وقد نجح أبو شجاع في استفزازه، وقال بدر:

- نعم، أنا كثير. وأخشى إن بقيت معك أن أصير قليلاً.

ومشى ليخرج، ولكن أبا شجاع لاحقه بلمزة أخيرة موجعة:

- هيا، اخرج إليها، وتكاثر ما شئت!

توقف بدر واستدار إليه وقد بلغ منه الغضب الآن وقال بنبرة الوعيد وهو يهز إصبعه في وجه أبي شجاع:

- إياك أن تذكرها مرّة أخرى بسوء. هل تعي قولي؟ لست وإياها في موضع التهمة والريبة.

سكت أبو شجاع، وخرج بدر. وعقّب أبو شجاع ساخراً:

- محتالة، وليست في موضع التهمة والريبة! وهو يطلب غاية الأمير ويصاحب محتالة!

في المسجد كان عبد الرحمن يجلس في حلقة شيخ واعظ. وكان يقول:

-.. ومن قصّر به عمله، لم يرفعه نسبه. والله تعالى يقول: (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون). والله تعالى خلق الناس من نفس واحدة فقال: (خلق الناس من نفس واحدة. فمستقر ومستودع. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) ، ثم جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليتفاخروا في الأنساب، ولا ليتناكروا ويتنابذوا، وإنما يتفاضلون بالتقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وفي استباق الخيرات: (فاستبقوا الخيرات). ويوم القيامة يتجرّد الإنسان من عُصْبَتِه ونسبه، ولا يقدّمه إلا عمله، فالله تعالى يقول: (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)، ويقول سبحانه: (ونرثه ما يقول ويأتينا فردا)، ويقول: (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم. وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء. لقد تقطع بينكم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون).

كان عبد الرحمن ينصت متدبِّرا، وعلى الرغم من أنه قرأ هذه الآيات عشرات المرات من قبل، فكأنه يسمعها الآن للمرة الأولى، فوقعت معانيها في نفسه موقعاً عميقاً. وحدّث نفسه وهو يخرج من المسجد ويضع نعليه أن التلاوة وحتى الحفظ، غير التدبّر. ولسبب ما شعر بأن كلام ذلك الواعظ والآيات التي استشهد بها، وإن كان كلّه خطاباً عاماً للناس، فإن الله قد ساقه إلى تلك الموعظة بعينها ليستمع إليها وكأنه المخصوص بها في تلك الساعة. فزاده ذلك طمأنينةً ويقيناً بأن خِيرة الله تهديه وتسوقه إلى ما قُدِّر له.

ولكن السكينة التي خرج بها من المسجد لم تطل حتى واجهت اختباراً جديداً، حين سمع لغط الناس وتدافعهم إلى جهة معيّنة، وسَمِع طبول المنادي تُضرَب لجمع الناس!

نعم، المسوّدة من جديد! وهذا مناديهم يصيح في الناس.

- يا أهل الفسطاط.. يا أهل الفسطاط.. اعلموا أن أمير المؤمنين أبا العباس قد كتب إلى واليه على مصر أن يشدّ في البحث عن طرداء الظلمة من بني أميّة الذين التجأوا إلى مصر، وظنوا أنهم صاروا في منجاة من نقمته وعقابه. وقد أمر واليه أن يُخرِجهم من مخابئهم فيقتلهم ويرسل برؤوسهم إليه. فمن علم بأحدهم وتستّر عليه فقد باء بغضب أميرِ المؤمنين وواليه، فحقَّ عليه الموت. اسمعوا وأطيعوا.

استدار عبد الرحمن ليرجع إلى حجرته مسرعاً، فاصطدم بصره ببدر واقفاً ينتظره. ثم مضى الرجلان ودخلا بعض الأزقة دون أن ينبسا ببنت شفه.

فجأة تباطأ بدر، ونظر خلفه.. وكان بعض الناس يمشون في الزقاق.. هزّه عبد الرحمن ليتابع المسير:

- ما بك؟

- ألم تشعر بأن أحداً يتبعنا؟

قال عبد الرحمن:

- هكذا يحدث حين تخشى الشرّ.

- ربّما..

وتابعا السير. والحقّ أن عبد الرحمن ما قال ذلك إلّا ليجادل نفسه في المقام الأول. فقد شعر بما شعر به بدر. وتكرّر ذلك غير مرّة في طريقهما إلى الحجرة، وتراءى لهما في إحدى @المرات شخص لم يتبيّنا ملامحه قد أسرع إلى التواري حين التفتا وراءهما. وتنامت شكوكهما وغذّا السير. حتى إذا وصلا باب الحجرة شعرا بحركة من جديد، وهذه المرة لم يشكّا في أن ثمة من يلاحقهما، حين شاهدا عن بُعد رجلاً يتوقف إذ التفتا إليه، وانحنى متظاهراً بأنه يصلح نعله.

ودخل الاثنان الحجرة. وأغلقا الباب. وما إن مرّت هنيهة حتى طُرق الباب. سلّ بدر سيفه مستعداً لكل طارئ، بينما اتجه عبد الرحمن بنفسه إلى الباب وفتحه بسرعة، وقبل أن يتفطن الرجل هناك، كان عبد الرحمن قد جذبه بقوة من أعلى ثوبه ودخل به، وأغلق الباب بقدمه، ودفع الرجل إلى الحائط بعنف وهو يصيح به:

- ما شأنك؟

وقبل أن يجيب الرجل، صاح بدر الذي انضم إلى سيّده مُشهِراً سيفه:

- قد عرفتُه.. هذا هو الرجل الذي شبّه عليك في تلك القافلة وألحّ بالسؤال.. دعه لي يا سيدي.. قد خمّنت أنه يريد شرًّا.

ضغط عبد الرحمن على عنقه، وصاح به:

- ما وراءك؟

تمكّن الرجل من النطق بصعوبة:

- خيراً يا سيدي. اسمعني أولاً..

أرخى عبد الرحمن قبضته، وفوجئ بالرجل يقول بإجلال:

- مولاي الأمير عبد الرحمن بن معاوية.

وإذ تراجع عبد الرحمن ينظر إليه مستغرباً، انحنى له الرجل، ثم تناول يده وقبّلها. ثم قال:

- خادمكم أبو موسى عبد الله بن محمد من موالي سادتنا بني أميّة.

بقي عبد الرحمن وبدر متأهّبين. وسأل عبد الرحمن متشككاً:

- كيف أعرف أنك صادق فيما تدَّعي؟ ولماذا لا أذكرك إن كنت كما تزعم؟

- لم أرَك إلا مرّة واحدة عابرة يا سيدي قبل سنين، وكنتَ أصغر سناً.. وذلك عند سيدي الأمير عبد الملك بن عمر بن مروان.. فأنا من مواليه.. وهو أرسلني أتقصّى خبرك هنا في الفسطاط.

قال عبد الرحمن مندهشاً:

- تعني عبد الملك بن عمر هنا، في فسطاط مصر؟

- نعم يا سيدي، مع أولاده وبعض أبناء عمومتكم. وقد لحقت به مع تلك القافلة، وكان قد سبق إلى مصر. فلما رأيتك شبّهت عليك ثم ما زلت أقلّب صورتك في رأسي حتى ذكرتك، أو رجح ذلك عندي. أعني قد تغيّر مظهرك مع تقدّم العمر وما لقيته في سفرك ذاك.. و.. لم يكن هذا في عينك..

وأشار إلى عينه شبه العوراء، واستأنف:

- فلما حدثت مولاي عبد الملك بن عمر، أمرني أن أخرج في كل نهار فأبحث عنك حتى أجدك فأستيقن من خبرك. وما زلت على ذلك منذ أيام، أتمشى في الأسواق والخانات والحمامات والمساجد، حتى لمحتك اليوم في صلاة العصر، فانتظرت حتى خرجت، ومضيت في أثرك، لا أريد أن أكلمك أمام الناس خشية أن ترتاب بأمري فيتنبه القوم، وقد سمعوا نداء المسودة كما سمعناه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أقبل عبد الملك بن عمر على عبد الرحمن مادًّا ذراعيه محتفياً بدخوله عليه:

- أبا سليمان.. أبا سليمان! أخيراً جمع الله بيننا.

وعانقه بحرارة. وكان عنده بعض أبنائه وعدد من بني أميّة الفارّين من المذبحة. فتعاقبوا جميعاً على السلام والمعانقة.

وكان بدر وأبو شجاع قد تخلّفا عن سيدهما عند الباب، ولما تنبه عبد الرحمن إلى نظرات عبد الملك نحوهما، قال:

- هذا خادمي بدر. وذاك أبو شجاع سالم، خادم أختي أم الأصبغ.

أشار عبد الملك المرواني، كما شاع اسمه، إلى مولاه أبي موسى الذي جاء له بعبد الرحمن، وقال:

- اصحبهما إلى خَدَمنا يا أبا موسى، فليعينا في إعداد المائدة.

@ خرج بهما أبو موسى، بينما جلس الجميع. وكان من الطبيعي أن يدور الكلام عن محنة بني أميّة. وكان عبد الملك في زهاء الأربعين من عمره. وكان معروفاً بالصرامة والشدّة والشجاعة، فلا يحابي ولا يجامل ولا يباطن، وينطق عما في داخله دون مواربة. ولم يكن ليكافئ ميله إلى البطش وقت الضرورة إلّا وفاؤه المشهور.

وبعد أن تذاكروا فيما جرى عليهم من زوال مُلْكهم والبطش بهم، دون أن يتغافلوا عن أخطاء قومهم الفادحة التي مهّدت لعدوّهم ومكّنت له، قال المرواني:

- لئن لم يذكروا أرحامنا فيهم، وكلنا يرجع إلى جد واحد: عبد مناف، فما بالهم قد تغيروا على أبناء عمومتهم الأقربين من بني هاشم، فبدأوا الآن بالبطش بهم وبكل من يواليهم، وهم الذين كانوا يزعمون أنهم قاموا علينا ثأراً لمصارعهم؟ ولكن السلطان لا دين له ولا نسب. وقديماً قالت العرب: المُلْك عقيم. نعم، يورّثه الرجل لأولاه بعد أن يستوفي عمره فيه، ولكن إن نازعه إياه ولده قبل الأوان قتله ولم يذكر دمه.

قال عبد الرحمن:

- ألا يصحّ هذا فينا أيضاً يا أبا عبد الله؟ وقد كنا ملوكاً!

أجاب المرواني دون تردد وبنبرة لا اعتذار فيها:

- بلى.. بلى، لا أنكر. هذا شأن السلطان، وربّما كان هذا من قدر السلاطين الذي لا مفرّ منه، إمّا أنت وإما خصمك، ولا خيار بينهما إلّا ترك السلطان على الجملة. فإن كان لا بدّ فابدأ بخصمك قبل أن يبادر إليك، وخذه بالظنة قبل اليقين، واقتل فرخ الأفعى في بيضه. وهذا ما لم يفعله قومنا بدعوة بني العباس بعد أن فشا خبرها.. وهو الدرس الذي لا نستطيع الآن الإفادة منه بعد أن ذهب سلطاننا.

ثم قال مستدركاً وهو يصوّب بصره إلى عبد الرحمن:

- إلّا أن يُقَدِّر الله لنا من يحيي مُلكنا!

تنبّهت ملامح عبد الرحمن، ولكنه لم يعلّق. وتابع المرواني:

- والآن يا أبا سليمان.. قد سمعت نذير المسوّدة هنا. وكنا قبل ذلك نظن أننا صرنا في مأمن بعيداً عن الطلب والعيون. وقد نميَ إليّ أنهم يُحكِمون رصد الخانات، ويسألون عن بيوت الكراء للمسافرين والقادمين الطارئين. وهم أشدّ طلباً لك.. والرأي ألّا تتلبث في الفسطاط.. ولكن، لا يحسن بنا أن نخرج دفعة واحدة، ولكن نرتحل تفاريق على فترات. فما خطتك؟

أجاب عبد الرحمن:

- وهل أمامنا غير الغرب؟

- قد سبقنا إلى القيروان نفر من قومنا، وهم هناك في أمان.

واستدرك فوراً:

- حتى الآن! فولاية إفريقية ما تزال خارج سلطان بني العباس. وفيها عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد استقل بحكمها، كما فعل ابن عمه يوسف الفهري في الأندلس. إلّا أن الصميل بن حاتم هو المتحكم بيوسف هناك.

قال عبد الرحمن:

- رأيته في رصافة جدّي هشام حين وجه إلى المغرب طالعة بلج.

تابع المرواني:

- إذا وصلت القيروان وصاحبها عبد الرحمن بن حبيب، فأظهر له الودّ والملاينة، وأنه لا مطمع لك في بلده. فقد علمت أن في الرجل غدراً. وهو وإن لم يعلن بطاعة بني العباس، فإنه يخشى من تكاثر بني أمية عنده، حتى لا يطمعوا في بلده باعتبار الأصل.

قال عبد الرحمن:

- غايتي أبعد من القيروان يا أبا محمد.

- الأندلس؟

هزّ عبد الرحمن رأسه، وعاد المرواني يتفحّصه، ثم سأل بأسلوب مبطّن:

- هل تطلب منها أكثر من العيش الآمن يا أبا سليمان؟

سكت عبد الرحمن، ولكن ملامحه أوحت للمرواني بالجواب الذي كان يحب أن يتلقاه. فهزّ رأسه هزّة الرضا، وقال:

- هذا ظني بك يا أبا سليمان. وأنت حقيق بها. واذكر أنه حتى العيش الآمن لن يتاح لك بدون سلطانك.. أعني أمثالنا كُتِب عليهم ألّا يأْمنوا في سلطان غيرهم مهما يُظهروا الزهد والموادعة. يكفي أن تكون أميراً أمويًّا حتى يخافك صاحب السلطان على ملكه، فيدبّر عليك وأنت في دارك وأهلك وولدك. ألا ترى يا أبا سليمان؟ قَدَرُ أمثالنا أن نعيش سلاطين فوق @الأرض، أو نكون تحتها. فإذا قُدِّر لك ما نحب، التحقنا بك، فكنا معك شوكة وقوة.. وأنت سيدنا منذ الآن.

قال عبد الرحمن:

- وأنت كبيرنا منذ الآن.

- ولكن اسمع نصحي وامضِ إلى غايتك منذ الغد. وهذا أبو موسى يعدّ لك الركائب ومتاع السفر ومالاً يكفيك منذ الليلة. فإذا كان من الصباح وقف في انتظارك خارج الفسطاط في موضع يسمّونه «مَعين الظمآن». وهذه داري، إن شئت قضيت فيها الليلة.

شكره عبد الرحمن معتذراً بأن في الحجرة التي اكتراها بعض حاجاته، وأنها على أي حال في حيّ لفقراء الناس، وأن ظنّ المسودة ينصرف إلى الدور الكبيرة والأحياء الغنيّة باعتبار المنزلة.

هنا برز الخادم يدعو الحضور إلى المائدة في صالة مجاورة.

وإذ جلسوا إلى المائدة، وقف أبو شجاع وبدر مع سائر الخدم للقيام على أمر السادة. وكان بدر شديد التوجم والعبوس، بينما كان أبو شجاع ينظر إليه بطرف عينه وعلى وجهه طيف ابتسامة ماكرة. وكان قد أدرك سبب وجومه منذ أمر المرواني أن ينضمّا إلى الخدم لإعداد المائدة. ها هو الرجل الذي لم يفارقه روح الدعابة والتظرّف في أحلك الظروف في أثناء المطاردة وغدر الناس والصحراء وعدوان اللصوص، ينقلب مزاجه إلى العبوس والتجهّم حين صار في دار حسنة تعجّ بالوفرة، وليس فيها إلا أقارب لعبد الرحمن مع مواليهم! ولكنه هنا ارتد في لحظة واحدة إلى صفة الخادم وعمله.

ووجد أبو شجاع في الموقف فرصة للنكاية والتشفّي. فحين بدآ العمل مع الخدم تحت أمر كبيرهم، تعمّد أبو شجاع أن يقترب من بدر، وهمس له:

- هل وعيت الآن قولي؟

أشاح عنه بدر وقد فهم مغزى السؤال الذي يتّصل بالحوار الذي جرى بينهما سابقاً في الحجرة. ولكن أبا شجاع، الذي تبيّن لبدر في الآونة الأخيرة فقط أنه أكثر دهاءً مما كان يظنّ، أصرّ على أن يزيد في النكاية، فهمس من جديد:

- أما أنا فلا أشعر بالضيق.. لأني لم أعش في الوهم.. هم هناك.. ونحن هنا.. سادة وخدم.. هذا أول الأمر وآخره.. أما صحبة الخوف والصحراء فأمر عارض.. ولا يضرّني ذلك، لأني علمت أنها

حظوظ قسمها الله.. وكل مُيَسّر لما خَلِق له.. فلا أذهب ببصري بعيداً.

قال بدر وقد تنامى سخطه:

- ذهب الله ببصرك. ألا تصمت؟

حين رأى المرواني عبد الرحمن لا يمدّ يده إلى الطعام، قال يستحثّه:

- الطعام يا أبا سليمان.

التفت عبد الرحمن إلى بدر وأبي شجاع حيث يقفان، وقال:

- هيا إلى المائدة معنا.

رفع المرواني رأسه مستغرباً مع شيء من الاستنكار، وقلّب بصره بين عبد الرحمن والخادمين. فأضاف عبد الرحمن وهو يومئ برأسه إليهما:

- هذا خير من الزواحف النيئة التي أكلناها معاً في الصحراء.

وإنما أراد بذلك أن يُسمِع المرواني ليسوّغ موقفه الغريب عليه.

تردد بدر وأبو شجاع، فأردف عبد الرحمن بلهجة آمرة هذه المرة:

- عزمت عليكما.. ألا تطيعان أميركما؟

وشدّد على لفظ «أميركما»، وكأنه أراد أن يوازن بين تواضعه لخادميه ومنزلته منهما!

حين ودّعه المروانيّ، وكان قد دخل الليل، مالَ عليه مبتسماً وهمس له:

- رحم الله مسلمة بن عبد الملك. الأمر الآن إليك، فإمّا أن تصدّق خبره، وما أن تكذّبه! عسى أن يكون الأول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صاروا على مسافة من حجرتهم في عتمة الليل، توقفوا إذ رأوا مجموعة من الرجال يتحركون كالأشباح أمام الحجرة، واستطاعوا أن يميّزوا أنهم من المسوّدة! فبدأوا في التراجع بهدوء. ولكن المسوّدة تنبهوا لهم دون أن يميّزوا وجوههم. فصاحوا بهم أن يتوقفوا. ولم يملك الثلاثة إلّا الهرب بأقصى سرعة ممكنة. ولحق بهم المسوّدة، ولكنّ تداخل الأزقة الضيقة والتواءاتها أعانتهم، وحملت المسوّدة على التشتت والتوزع بين الأزقّة دون طائل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

@ كانت زينب تستعدّ للنوم حين سمعت طرقات متوالية على باب الفناء، فهرعت إليه ووقفت خلفه متخوّفة وسألت:

- من؟

جاءها صوت بدر ملحًّا:

- افتحي يا زينب.. افتحي.. أمر عاجل.

ما إن فتحت الباب حتى اندفع الثلاثة داخلين وهي في حال من الذهول والدهشة، وأغلقت الباب من خلفهم بسرعة، بينما توالى لهاثهم. وإذ همّت بالسؤال، قال بدر متعجًّلا بين لهاثه:

- لا تسألي الآن.

جاءتهم بماء وقالت:

- يقال إن الماء ينفع الخائف.

قال بدر:

- لسنا خائفين.

كتمت ضحكة خفيفة وأخذت تستعرضهم بنظراتها على ضوء المصباح. ثم فاجأتهم بالسؤال:

- أيّكم الأمير الأموي؟

وإذ رأت ملامح الدهشة على وجوههم، أردفت:

- لست غبيّة.. قد اختبرتم دهائي حين احتلت عليكم.. واليوم سمعت المنادين، ورأيت الجند يتجوّلون في الأحياء.. والناس يتحدثون عن أمير من ولد خلفاء بني أميّة.. والآن تطرقون عليَّ في جوف الليل في أمر عاجل، وتدخلون على عجل لاهثين، وأنا امرأة لا بعل لي وليس عندي أخ يحفظني.. ولا أعرف منكم إلا بدراً..

وأرسلت نظرة إلى بدر، وهي تتابع:

- هذا إن كان بدر هو اسمه الحقيقي! وإذن، أيكم الأمير؟

التفت بدر إلى عبد الرحمن. تأمّلته زينب وقالت:

- سيدي الأمير.. لا تُرَع، فوالله لا يصلون إليك عندي ولو جاء الوالي نفسه.

قال بدر مداعباً:

- وماذا عساكِ تفعلين إذا طرقوا عليك؟ تقابلينهم بالسيف؟

- هناك ما هو أبلغ من السيف.. أشق صدري وأنشر شعري وأصيح في الناس.. فإنهم يفزعون للعِرْض أكثر مما يفزعون لدماء الخلق. والآن، اقضوا أنتم الليلة في هذه الحجرة. وأنا أخرج إلى فناء

البيت بحاجتي حتى يأتي الصباح.

تحدّث عبد الرحمن لأول مرة:

- لا يكون هذا.. نخرج نحن إلى الفناء.

قالت بنبرة قاطعة:

- لا وربّ الكعبة.

وقامت من مكانها وهي تتابع الكلام:

- كم مرة في العمر ينزل داري أمير أمويّ من أبناء الخلفاء؟ ومن يصدّقني بعد حين إذا قصصت عليه الخبر؟ أعني بعد أن يتطاول الزمان عليه! أحسبهم عندئذٍ يقولون: عجوز خرفة. واعذرني يا سيدي أن الحال لا يسمح بأفضل مما عندي.

شيّعها عبد الرحمن مبتسماً وقد بدا عليه الإعجاب، أما بدر فبدا معتدًّا بها وألقى نظرة خاصة على أبي شجاع الذي حاول تجنبها.

لحقها بدر إلى الفناء بعد هنيهة.. ووقفا صامتَيْن يتأملان في السماء المرصعة بالنجوم، ثم قالت زينب بصوت هادئ:

- الآن فهمت مغزى كلامك ذلك اليوم عن السيد والخادم.. الأمير والمولى.. والغاية الواحدة، واختبار العزيمة والمقدرة دون سند من نسب أو جاه موروث.

ثم التفتت إليه تتأمله بنظرة مفعمة بالحب:

- ومع ذلك.. أنت في نظري الأمير.

ابتسم على الرغم من طيف الحزن الذي غلّف وجهه لقرب الفراق. وقال:

- وأنت في نظري أميرة، ولا كل الأميرات.

كتمت ضحكتها:

- أنا.. أميرة!!

وعادت تنظر في السماء:

@ - إذن هو الفراق غداً. كنت أشعر بأن هذا لن يطول.

- لولا ما تعلمين الآن، لما فارقتك أبداً، ولكان لنا شأن آخر، وقد كنتِ تقولين ذلك النهار إنك لا تدرين هل كان لقاؤنا نعمة أم نقمة، والآن أنا أتساءل بالسؤال نفسه، أخشى أن تُبطّئ بي ذكراك عن غايتي.. أعني غاية مولاي وغايتي.

- بلِ ينبغي أن تَعَجّل بك. عسى أن أسمع بعد حين أن الرجل الذي مرّ في عمري مرّ السحاب النديّ، فأظلّ قلبي وروحي، قد غدا رجلاً عظيماً.. أميراً كما ينبغي له.. عندئذٍ فقط، أتعزّى عن افتقادك. عد الآن إلى صاحبيك، لا تراني أبكي.

ارتد داخلاً إلى الحجرة بينما ترقرقت الدموع في عينيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن قدّمت لهم فطورهم في صباح اليوم التالي، أصرّت أن تخرج لتستطلع الطرق وأبواب المدينة لهم، قبل أن يخرجوا. وسألها بدر ألّا تتأخر في ذلك، فثمة من ينتظرهم خارج المدينة.

لاحقها أبو شجاع بنظرات مستريبة، حتى غابت، وأبى إلا أن ينغّص على بدر:

- كيف نأمن أنها لن تدلّ علينا؟أعني..

قاطعه بدر بنبرة غاضبة وهو يهز إصبعه في وجهه:

- ثقتي بها أكبر من ثقتي بك!

- هه! من أحبّ لم يبصر.

- ومن خلا قلبه من الحب لم يَسَعْه أن يعاشر الناس.

تدخّل عبد الرحمن بصرامة:

- صه! كلاكما!

صمت الاثنان ونَكَسا رأسيهما خجلاً من سيدهما. وبعد لحظات التفت عبد الرحمن إلى أبي شجاع وقال بالصرامة نفسها:

- إذا كانت عندك طريقة أفضل، أو مخرج آمَنُ لنا، فهاته، وإلّا فاصمت.

قال أبو شجاع بنبرة اعتذار:

- إنما أخشى عليك يا سيدي.

- ثمة فرق بين اليقظة والفَزَع. والثاني أنكى من سيوف العدوّ.

أثلج كلامه صدر بدر.

لم تتأخر زينب كثيراً في العودة إليهم، وابتدرت بالقول:

- قد وقفوا عند الأبواب يتفحصّون العابرين.

انقبضت وجوههم حائرين فيما عساهم أن يفعلوا، وقال أبو شجاع:

- ما العمل الآن؟ إنهم يعرفونك بصفتك يا سيدي.

قالت زينب:

- لا أعرف غير طريقة واحدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبرت زينب الطرقات في رفقة امرأة منتقبة الوجه، حتى خرجتا من باب المدينة حيث يقف جنود المسوّدة ينظرون في العابرين. وحين صارتا على بُعد من أسوار الفسطاط همّ عبد الرحمن أن يخلع ثياب المرأة الذي اضطرته الضرورة إلى التخفي بها فوق ثيابه كما اقترحت زينب. ولكنها أسرعت تنهاه:

- ليس بعد يا سيدي، نشدتك الله.

بعد مسافة أخرى، قالت:

- الآن فافعل يا سيدي.

أسرع إلى خلع العباءة والنقاب. وأفلتت زينب ضحكة خفيفة وقالت:

- لا بأس عليك يا سيدي.. الثياب لا تغيّر حقيقة من يرتديها.

نظر إلى ثيابها البسيطة وقال بنبرة خاصّة:

- حقاً.

وكان بدر وأبو شجاع قد سبقاهما، كل على حدة. وكان أبو موسى ينتظر بالركائب والمتاع على بُعد مسافة منظورة. وقد حان الآن وقت الوداع، فقال عبد الرحمن وهو يرمق زينب بنظرة امتنان عميقة:

- ارجعي من هنا يا سيدتي.

هزت الكلمة أعماقها، وأردف:

- لن أنسى صنيعك ما حييت، فلك عليّ سابقة الفضل والمنّة. وإن أمّة تضيّع امرأةً مثلك @لتحتاج إلى تقويم وإصلاح عظيمين.

أطرقت حياءً، وقالت:

- لم أسمع مثل هذا القول في حياتي، يا مولاي.

- تلك تهمة للقائلين الذي لا يُنزلون القول في منزله.

ثم تحوّل ببصره إلى بدر الذي كان يقف قريباً يراقب، وقال:

- وإني لأُشفِق الآن على بدر. فمثلُك يُفْتَقَد يا زينب.

قالت مودّعة وهي تنحني له:

- كان الله معك يا مولاي.

وارتد عنها إلى حيث ينتظر أبو شجاع وأبو موسى، ليترك لها ولبدر المجال للوداع.

كانت دموعها تنحدر بغزارة، وقال بدر:

- لا تجعلي الأمر أصعب عليّ يا زينب.

تمعّنت في وجهه من خلال دموعها، وقالت:

- تذكّر. سأنتظر أخبار الأندلس.

- سوف تصلك إن شاء الله.

ثم ابتسم وقال:

- لن تعودي إلى ذلك العمل!

امتزجت ابتسامتها مع ملامح الحزن:

- تُبْتُ، علم الله.

- هيا. امضي.. لا أحب الوداع، فإنه يضعف قلب الرجل.

حين رآها لا تتحرك، عاد يقول:

- ما يوقفك؟

- لماذا لا تمضي أنت أولاً.

- لا بأس، نمضي معاً، كل إلى وجهته، فإذا فعلنا لا يلتفت أحدنا وراءه نحو الآخر.

هزت رأسها، ثم مضيا، كل في اتجاه.

اعتلى الثلاثة جيادهم، ومضى أبو موسى ومن معه في حال سبيلهم.. ولم يسيروا غير مسافة قصيرة، حتى توقف بدر، وانثنى بجواده مرتداً، ينظر إلى الجهة التي مضت فيها زينب. فرآها تقف على تلّة رملية صغيرة تقتفيهم بأنظارها.

التفت أبو شجاع من مكانه ونادى بدراً:

- هيّا.. لا تترك سيدك ينتظر.

مال عبد الرحمن من ركابه وضرب على يد أبي شجاع:

- اصمت!

رفع بدر يده ملوِّحاً لها عن بُعد، ثم رآها ترفع له يدها وتلوِّح له، قبل أن تنحدر عن التلة وتغيب وراءها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

نهار جديد

وعمر جديد

ودرب يؤدّي لدرب جديدْ

ولي نجمة في الفضاء البعيدْ

وخلف المسافات وعدٌ وعيدْ

أرى ما أريد

أرى ما أريد

أرى الصولجان وتاج الذَّهبْ

أرى قامةً مثل نخل العرب

أرى العنفوان وثوب القَصب

أرى ما أشاء

أرى منزلاً مشرعاً للضياء

أرى صهوة البحر والكبرياء.

أرى ما أشاء

@ أرى مهرةً أُسْرِجَتْ للرياحْ

أرى موطناً للغناء المباحْ

أرى وردة أينعت في الجراح

أرى آخر الليل بدءَ الصباح

أرى ما أريد

أرى نجمةً أقبلت من بعيد

وخلف المسافاتِ وعد وعيد

أرى ما أريد

أرى.. ما أريد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرحلة من جديد!

ولا ثمّ إلا ثلاثة رجال يقطعون البراري التي تتقلّب في مشاهدها تقلّب الحياة بين مطالع الشمس ومغاربها.. جبال ووديان وسهول وفضاء مفتوح على الأحلام والآمال والمصائر المجهولة.. وسكون لا يبدّده إلّا صفير بدر المعهود. وكلما ازدادوا توغُّلا في أرض إفريقية نحو الغرب، ازدادوا شعوراً بالسكينة والأمان. ولم يعد صوت الطبيعة الذي يأتي على غير ميعاد ليجعلهم يجفلون مخافة أن يكون المسوّدة في أثرهم. وحتى القرى الصغيرة التي تنام على سفوح الجبال بدت آمنةً مأمونة نقيّة السريرة، نقاء الهواء في تلك الأصقاع، وقد انقطعت في عزلتها عن أطماع ذوي السلطان القاتلة، وأخبار قيام الدول وسقوطها!

ذهبت أسباب الخوف والتلفت والقلق وقد صاروا بعيداً عن سيوف المسوّدة وعيونهم.

جلس عبد الرحمن ناصباً ركبتيه يطوقهما بذراعيه، وقد التحف بغطاء يقيه برد الليل في الخلاء، بينما كان بدر يقرفص عند موقد النار يغذيه ببعض الحطب. وأما أبو شجاع فكان يضطجع جانباً وقد ذهب في نوم خفيف متقطع.

أخذ عبد الرحمن يتأمّل بدراً في ضوء النار الموقدة، وقد بدا ساهماً شارد التفكير. قال عبد الرحمن:

- تكابد الشوق؟

تَقَلّبت ملامح بدر، وقال:

- زينب؟ قليلاً..

وإذ لحظ أن عبد الرحمن لم يقتنع بالجواب كما دلّت ملامحه ونظراته أردف بنبرة اعتراف:

- أجل.. كثيراً إن شئت.. يا سيدي. وليس على قلب المرء بمستعتب.

مرت هنيهة صمت، بينما تابع عبد الرحمن التمعّن في بدر، حتى شعر هذا ببعض الحرج.

- بدر!

- مولاي!

- من أنت؟

اعتراه خليط من الدهشة والحيرة في السؤال المفاجئ، وردّ بعفوية:

- خادمك يا سيدي.

- حقاً من أنت؟ أعني وقع سهمي إلى جانب سهمك في تلك الرمية، في ذلك الزمان الذي يبدو الآن بعيداً مُمْعِناً في القِدَم.. ثم اقتحمت عليّ منزلي تطلب الالتحاق بخدمتي.. ثم حين تغيّر الزمان عليّ وعلى قومي وصارت الإمارة مغرماً قاتلاً، آثرت لزوم ركابي.. ورأيت منك في هذه الرحلة ما رأيت..وها نحن هنا في هذا المكان الموحش الغريب من أرض إفريقية.. ومع ذلك لا أعرف عنك، قبل ذلك كلّه، إلّا أنك بدر. من أين جئت؟ من أبوك ومن قومك؟ وما كنت تفعل؟

ابتسم بدر وهزّ رأسه يميناً وشمالاً، وقال:

- أليس عجيباً يا سيدي أني دخلت في خدمتك منذ سنين، ثم قضى الله أن نتقاسم الخبز والخوف وزواحف الصحراء. ولم تسألني يوماً عن أهلي ومنبتي وسيرتي حتى الساعة، كأني تخلّقت من الفراغ والعدم؟!

- الآن أسأل.

- وما جدوى الإجابة يا سيدي؟ لو شئت أن أخبر عن نفسي غير الذي رأيتَ مني وترى، لفعلت وإن لم تسأل. يتسمَّى الناس بآبائهم وينتسبون إلى قبائل وعشائر.. ويحفظون أنسابهم ومآثر أجدادهم حتى يصلوا بها إلى أيام العرب في الجاهلية.. وأنا اخترت أن أكون بدراً، فحسب. ليس ورائي ما ينفعني حتى أستدعيه، وأمامي ما يستطيعه بدر وحده في صحبة @سيّده ومولاه.. فليبقَ الأمر هكذا يا سيدي.. أنتسب لنفسي ومولاي.. فإذا صرت معك شيئاً مذكوراً في أخبار الرواة، لم يذكرني الناس إلّا باسم: بدر. وكفى.

ذهب عبد الرحمن في التفكير والتمعّن، ثم قال:

- فليكن.. بدر.. وكفى!

بعد هنيهة أخرى من الصمت والتأملّ، قال بدر:

- حسبك يا سيدي أن تعلم أني روميّ الأصل!

نظر إلى وجه سيده ليرى وقع الكلام عليه. واكتفى عبد الرحمن بالقول:

- هكذا قدّرت.

وزاد بدر:

- كان بوسعي، لو شئت، أن أدعي لنفسي نسباً في ملوك الروم. ولكن ما العبرة! وما الفرق؟ لساني لسانك، وديني دينك. ونحن هنا ليس معنا إلّا الله.

رانَ الصمت من جديد، إلّا من أصوات الطبيعة الليلية. ثم عاد بدر يحرك الحطب ويصفر.

قال عبد الرحمن:

- ألا تعلمني الصفير يا بدر؟

عاد بدر يتأمل سيده مبتسماً وقال:

- الصفير! تتعلم الصفير؟ سهل.. فقط ضم شفتيك، واجعل لسانك في فمك يعترض مجرى الهواء.. وانفخ.. هكذا..

حاول عبد الرحمن، فلم يخرج منه إلا صوت احتكاك النفخة دون صفير.

ضحك بدر:

- حاول مرة أخرى يا سيدي.. أعني ربما احتجت إلى محاولات كثيرة.. فهو لا يُعلَّم بالوصف.. إنما بالتجربة وتكرار المحاولة.. ثم.. تصل وحدك، ثم تجده سهلاً.

حاول عبد الرحمن مرتين أخريين، فلم يخرج منه إلا ما خرج في المحاولة الأولى. وضحك بدر من جديد:

- لن تتقنها في جلسة واحدة، فلا تيأس يا سيدي إن كنت ترغب حقاً في ذلك.

أومأ عبد الرحمن بيده أنه سيحاول مرة أخيرة الآن، ونفخ.. جاءت البداية كالسابق، وقبل أن يضحك بدر من جديد، تحول النفخ إلى صفير شديد الإتقان والبراعة والانسياب دون جهد، وأتى باللحن الذي يصفره بدر على أحسن وجه مع زيادة في المدّ والتلوين، بينما طغت الدهشة على بدر. توقف عبد الرحمن، وسأل ببراءة مصطنعة:

- هكذا؟

لبث بدر لحظة متجمّد الملامح من الدهشة، ثم انطلق بضحكة قوية وقد أدرك حقيقة الموقف:

- لا وربّ الكعبة. بل كنت تتقنه من قبل! قد غررتني. نعم، وحق الله قد غررتني.. بل أنت أمهر مني!

ابتسم عبد الرحمن، وعاد يصفر من جديد، وما لبث بدر أن تابعه في الصفير بتناغم تام بينهما.

غيّر أبو شجاع مضجعه منزعجاً. وقبل أن يتبين له أن سيده يشارك في الصفير، خاطب بدراً بضيق:

- ما هذا يا بدر؟ ألا تراني نائماً؟

وحين تنبّه إلى واقع الحال، أسرع إلى الاعتذار:

- العفو.. العفو يا سيدي.

وانقلب إلى الجهة الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أخيراً وصل الثلاثة إلى القيروان، حاضرة ولاية إفريقية التي تمتد من المغرب الأدنى حتى حدود المغرب الأوسط نواحي تلمسان.

ولم يجد عبد الرحمن صعوبة في التوصل إلى أقربائه من بني أميّة الفارين الذين تكاثر جمعهم في القيروان. وهذه المرّة اكترى داراً كبيرة ليستقبل بها زواره من قومه، من المال الذي زوّده إياه عبد الملك المرواني في الفسطاط. وقد كان المرواني محقاً في نصيحته لعبد الرحمن ألّا يأمن صاحب ولاية إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهريّ، سليل عقبة بن نافع @الذي فتح تلك الديار، وابن عم يوسف الفهري صاحب الأندلس منذ سنين، على أن يوادعه ويلاينه. وكشأن الأندلس، كانت ولاية إفريقية تتبع الخلافة بالاسم فقط. وكان عبد الرحمن بن حبيب يقيم قبل ذلك في الأندلس واجتهد وسعه أن يحوزها. فلما عجز عن ذلك نزل ولاية إفريقية، وجمع حوله القبائل وحارب خوارجها حتى أخمد ثوراتهم، ثم حازها لنفسه. فلما رأى ذلك مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، أقرّه عليها. حتى إذا دالت دولة بني أميّة، رأى أن يكتب بالطاعة لبني العباس، وأن يخطب لهم في المساجد، على ألّا ينازعوه سلطانه فيها. ولكنه في الوقت نفسه لم يمنع توافد بني أمية الفارّين من المذبحة. إذ لم يكن له ولاء إلّا لسلطانه. فإن حاول بنو العباس عزله، استعان عليهم بمن عنده من بني أمية ومواليهم، وهم كُثر، وإنْ تطلّع الأموية إلى ملكه مالَ عليهم مستعيناً بالعباسية. ولذلك بث عليهم العيون في بلده، يرقبون حركتهم وكل من يدخل عليهم. فما كان وصول عبد الرحمن ليغيب عنه. وهو المقدّم بين الأمويّة لنسبه في بيت الخلافة، وأجدر بأن يتطلع إلى حكم ولاية كانت في مُلك آبائه، وتولّى صاحبها بعهد من خليفتهم الأخير. ولذلك كان على عبد الرحمن ألا يتباطأ في زيارته، وإلا ظنّ به الظنون.

ولمّا دخل عليه عبد الرحمن، استقبله بحفاوة ظاهرة. وكان من اللافت تشابه المظهر بينهما. فكلاهما يرتدي البياض ويرسل شعره في جديلتين! وحين رأى عبد الرحمن كاهناً يهودياً في مجلسه، عرفه. فقد رآه مرّة عند مسلمة بن عبد الملك، وكان مثله ينظر في النجوم. ولكنه تظاهر بأنه لم يميّزه. وتأكد له الخبر الذي نُمي إليه عن عبد الرحمن بن حبيب!!

أبدى ابن حبيب أسفه على مصارع بني أمية في المشرق وذهاب دولتهم. ثم أحب أن يسوِّغ موقفه مع بني العباس، فقال:

- نعم، كتبت لأبي العباس اتقاءً لشرّه. وما تضرّ كلمة تقولها لتدفع شرًّا أنت في غنى عنه. على الأقل، لا نرى الرايات السود هنا. وهؤلاء أبناء عمومتك ما زالوا يتوافدون علينا لا يضايقهم أحد. والرجل الحكيم لا يتعرّض للعاصفة وهي في أوج إقبالها. ألا توافقني يا أبا سليمان؟

أجاب عبد الرحمن بأسلوب مقتضب:

- كما قلت.

واستأنف ابن حبيب بأسلوب مبطّن:

- وفي مثل هذه الأحوال العاتية، يقنع الرجل أنه نجا. وأنت واحد من هؤلاء المحظوظين يا أبا سليمان.. هنا لن يصل إليك المسوّدة.. وقد عزمت أن أُسْكِنك داري هذه، لتكون في جواري وفي عافية

عندي.

اعتذر عبد الرحمن عن النزول عنده وقد أدرك أنه لم يُرِدْ بذلك إلّا حجزه تحت نظره. وما لبث أن استأذن في الخروج، وكان آخر ما ودّعه به ابن حبيب أن قال:

- ولكن، لا تنقطع عن زيارتي في كل حين، وإلّا ظننت أنك كاره لنا.

فهم عبد الرحمن مغزى التهديد المبطَّن.

ولما خلا ابن حبيب بالكاهن اليهودي، عاجله بالسؤال:

- هل فطنت إلى ما فطنتُ إليه من الموافقات؟ كلانا اسمه عبد الرحمن، وكلانا من قريش، وهو من أبناء الملوك، وأنا كذلك إذ مَلَك جدّي عقبة بن نافع هذه الأرض.. وله ضفيرتان، ولي مثلهما. فأينا صاحب النبوءة التي أخبرتَ بها؟ أينا يملك الأندلس ويورثها عقبه؟

أجاب الكاهن:

- أما الخبر فقد نقلته عن مسلمة بن عبد الملك حين صحبته زمناً في الشام. وأما ضفيرتاك فقد اتخذتهما أنت بعد أن ذكرت لك الخبر تيمناً أن تكون أنت صاحب النبوءة.

- هل ذكر مسلمة بن عبد الملك أن صاحبها هو حفيد هشام هذا؟

- ذكر ما أخبرتك: رجل اسمه عبد الرحمن من أبناء الملوك وله ضفيرتان. ولم يزد على ذلك أمامي.

- إذن، فإني قاتله لا محالة. أريد الأندلس.. لطالما أردتها حتى لو قاتلت عليها ابن عمي يوسف هناك الذي ساقها إليه الصّميل بن حاتم، دون جهد منه. ولن يأخذها هذا الأمير الشارد دوني.

- وما الجدوى من قتله؟ فإنك إن قتلته فما هو صاحبها، وإن غُلِبتَ على تركه، فإنه هو. وهذا سرّ النبوءة وقوتها، إن تمكّنت من منعها فما هي بنبوءة، ولا تستيقن من حقيقتها حتى تغلبك. فاتركه.

أطرق ابن حبيب متفكراً.

@ أما عبد الرحمن فكان قد عرف من قبل أن ابن حبيب قد بلغته النبوءة فأحب أن يتقمّصها، ويلبس لها لبوسها. وبعد أن رأى منه ما رأى وسمع ما سمع، خرج من عنده وقد امتلأ صدره بخليط من الهزء والكره. ورجح عنده أنه سيراجع نفسه فيه حتى يدبّر عليه، فيتخلص من منافس قويّ، ويفوز برضا بني العباس أن أرسل إليهم برأس الأموي الذي ما زالوا يجدّون في طلبه أكثر من أي أموي آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في مقر أبي العباس السفاح في الأنبار، كاد أن يخرج من اللوم إلى التوبيخ وهو يخاطب عمّيه عبد الله بن عليّ، وصالح بن عليّ في أمر عبد الرحمن بن معاوية الذي أعجزهما وتمكن من الفرار من الشام، ثم من مصر، حتى بلغ الآن القيروان على الأرجح وصار خارج سلطانهم. ولكن عبد الله بن علي ذكّره أن صاحب ولاية إفريقية قد كتب له بالطاعة، ولو في الظاهر. وأشار عليه أن يكتب له بأنه يختبر صدق ولائه برأس ابن معاوية، فإذا فعل، كتب له عهداً بولاية إفريقية له ولعقبه لا ينازعهم عليها أحد، وله كل خراجها، وإن استمدّهم أمدّوه.

تدخّل صالح بن عليّ فأشار على ابن أخيه الخليفة أن يستطلع رأي أبي مسلم، فلعله يرسل إليه من يغتاله في الخفاء، وهو الخبير بطرق القتل غيلةً، كما فعل مع أبي سلمة الخلّال.

عندئذٍ اعترض أبو جعفر الذي كان حاضراً، وكان يُكِنُّ لأبي مسلم كرهاً عميقاً، فقال:

- أنت أيضاً يا عمّاه تعتقد بأبي مسلم المعجزات! أفكلما شقّت علينا مهمة ندبناه إليها؟ فكيف نلومه بعد ذلك إن ظن بنفسه أنه صاحب الدولة دوننا، وأنه لا أحد يُغْني غَناءَه، حتى صار يظهر في خراسان بمظهر الملوك في شوكته وحرسه وحشمه. فوالله ما نضرب به عدواً إلا عظمت قوته وزاد غروره، فنصنع منه عدواً في المستقبل دونه عبد الرحمن بن معاوية الذي لا يرجو الآن غير النجاة. ولا يملك إلا نفسه يخشى عليها الغائلة، ونبوءة أطلقها مسلمة بن عبد الملك يجب أن نعتقد بكذبها وبطلانها.

قال أبو العباس:

- المشكلة أن نبوءته من نبوءتنا.. كان نصفها الأول لنا: زوال ملك بني أمية في المشرق، وبقي النصف الذي له. فقد وُلِدَ النصفان من رحم واحدة.. كأنهما التوأمان.

تلفت أبو جعفر في المكان، ثم قال:

- لا أحد هنا غيرنا، إذن نقول: نحن أول من أفشى في الناس تلك النبوءات عن قيام دولتنا.. وقد فَعَلت فعلها وصدّقها كثير من الناس، بل ربما بعض بني أمية أنفسهم، فتحمّس بها من كان كارهاً لبني أمية، وانخذل بها من صدّقها منهم. أما في حكم الدين، فقد علمنا أن التنبؤ بالغيب حرام وكذب على الله الذي لا يعلم الغيب إلّا هو.

قال أبو العباس:

- صدقت، ولكن نجاحنا في شطرها الأول، يلهمه أن يجتهد كما اجتهدنا ليصيب غايته كما أصبنا غايتنا، ثم يجمع الناس على ظنهم بها كما جمعنا. أليس من مفارقات الدهر أن يستلهم العدوّ عدوّه، فكأنه توأمه المفارق؟

قال أبو جعفر:

- على كل حال، فإن الرجل قد صار في أقصى الأرض، ولعلنا نبلغه يوماً إن لم ينقض خبره قبل ذلك. أما أبو مسلم فهو المتمكِّن في جوارنا، وجلّ عساكرنا من جند الخراسانية، فلو أمرهم غداً أن يخرجوا

علينا لأطاعوه. وكيف تطمئن إليه وقد رضي أن يغتال أقرب الناس إليه مودة: أبا سلمة الخلال، وإن كان ذلك بطلبنا. وما فعل إلّا عن أمر نفسه أن يتخلّص من كل منافسيه. وقد كان له ذلك، فليس فوقه الآن غيرنا يتطاول إلى منازلهم.

قال أبو العباس:

- ومع ذلك. إن كان هذا الذي تقول في نفسه، فليس من الحكمة أن نظهر له الجفاء والعداوة الآن، فكأننا نستعجله ليُخرِج ما نكره ونحذر، وما زالت خلافتنا في أعوامها الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والحق، أن القوم لو اطلعوا على أبي مسلم في تلك الساعة لوجدوا في أنفسهم منه مثل الذي في نفس أبي جعفر.فقد كان يتفقد مرو الشاهجان كما يحب أن يفعل بين الفينة والأخرى. ولم تكن الغاية الحقيقية الاطمئنان على أحوال الناس، ولكنه كان يستمتع حقاً باستعراض سلطانه وقوته وهو في زينته وعسكره وأعوانه وخدمه، وأن يرى الناس يصطفون على جانبي الطريق يلوحون له بالرايات وأغصان الشجر وينثرون عليه الزهور، والسعيد من استطاع أن يلمس يده التي كان يمدها للناس من حين إلى آخر، وأن يتلقى أعوانه الرّقع من @أصحاب الحاجات، وهي التي لن ينظر فيها بنفسه. وكان العجم أكثر الناس حماساً وهتافاً له من طوع أنفسهم. فها هو رجل فارسي منهم، قد صار أخيراً ملكاً على بلادهم، بل صاحب دولة الخلافة وإن لم يكن الخليفة. فبدا لهم أنه جدّد ملك الأكاسرة في الإسلام، وحق لهم الآن أن يستعلوا به على العرب الذين قَبِلوا منهم الإسلام وأبغضوهم في الوقت نفسه، أو هكذا كان كثير منهم. فمنذ القادسية وفتح المدائن ظلوا يعيشون مفارقة مزعجة ثقيلة: رضوا بالإسلام، وكرهوا حامليه إليهم، وخرجوا من دين المجوس وظلوا مع ذلك يحنّون إلى دولة الأكاسرة وأمجادها. والحق أن سياسة بني أميّة قد أسهمت في تعزيز تلك المفارقة.

ولما عاد إلى قصره بعد تلك الجولة بدا سعيداً معتزًّا بنفسه، بينما كانت زوجته جلنار تتناول منه عباءته وعمامته وهو يتحدث:

- لو رأيتِ إقبال الناس وتعظيمهم لي، كلهم يريد أن يلمس يدي.

ولكن جلنار لم تكن لتستخفها تلك الأمور، وقد علمت أن غرور القوة يمكن أن يذهب بصاحبه في آخر المطاف. نعم، كانت تحبه على الرغم من كل شيء، وتخاف عليه من نفسه، ولذلك قالت تعلّق على كلامه:

- وهل تعرف الناس يا أبا مسلم؟ أعني.. هؤلاء الذين يخرجون إلى موكبك؟

- كيف لا أعرفهم وقد جئت من أوساطهم؟

- هذا في الزمان القديم. أين أنت الآن منهم؟ أنت في عش النسر.

- والنسر أَحَدُّالطيور بصراً.

- نعم، إلا أنه لا يرى غير الفرائس، ولا تراه الطيور إلا مفترساً. فكيف يكون الحب بينهما ودونك ودونهم حِرابٌ وحجّاب.

- وهؤلاء الناس الذين يحتشدون لي إذا خرجت ويتدافعون إلى موكبي، كلهم يريد أن يلمسني، ليعود إلى أهله فيقول: بهذه اليد صافحت أبا مسلم.

- بعضهم يتعبد القويّ وإن كان يخافه، وبعضهم يداريه خوفاً أو طمعاً، وجُلّهم يخرج بأوامر عسكرك، فإن لم يفعلوا أُخِذوا.

- أنا لا أطلب من عسكري أن يُخرِجوا أحداً من الناس.

- ولكنهم يفعلون على كل حال. وأنت لا تخالط إلّا بطانتك. وهؤلاء يسمعونك ما تحب، ويصوّرون لك محبة الناس، حتى تظل في رضا منهم.

كان يصبر على حجاجها كما لا يصبر على أحد. فهي زوجه التي لا خطر منها، ويعلم أن غرضها هو غرض الزوج المحبّة التي تشفق على زوجها وتخشى عليه مغبة أفعاله. وربما كانت تلمس بكلامها بقية مطمورة من نفسه اللوّامة.

ومع ذلك فقد شعر بالضيق من كلامها الذي أفسَد عليه زهوه:

- ماذا تريدين بهذا الكلام؟ قولي خيراً، أو فاصمتي.

لم تردعها لهجته الصارمة عن المضي في كلامها:

- هذا هو الخير.. ما قلته لك، لأنه الحقيقة التي لا تحب سماعها، وأنا أولى الناس بأن أصارحك به، حبًّا لك، وضنًّا بك، فإن أول ما أوقع بالرجل أوهامه.

ردّ منفعلاً:

- أوهام! أوهام! هذا القصر الذي تعيشين فيه وهم! هؤلاء العساكر الذي يحيطون بنا وهم؟

- ولماذا يحيط بك كل هؤلاء العساكر إذا كنت مطمئناً إلى محبة الناس؟

- لا تخلو الدنيا من أهل المطامع والشرور، والموتورين.

- وما أوْتَرَهم عليك؟ أليس هو الدم الذي أرقتَه؟ وإن كانوا قلة من الناس، فهل تحتاج إلى ألوف العساكر حول القصر؟

تصاعد غضبه:

- ألا تصمتين أيتها المرأة؟ قد سئمت حديثك. وما أدراكِ أنت بأمور السلطان ولم تُخْلقي له؟ إنما صرتِ إلى هذا بي.. بي أنا وإلّا لكنتِ الآن في ذمة أحد التجار الذين يقبّلون ركبتي، إذا منحتهم شرف لقائي.

نزل جالساً، وتابع:

- لا.. لم تُخلقي لمثل هذا. ولا أرى إلّا أن المسافة تتباعد بيننا، ولا سبيل إلى أن ترتقي إلى مكاني في الذروة.. ولا ألومك.. كل ميسر لما خُلِق له.

تأملته بوجه ساكن ونظرة متفحصة، وقررت المجازفة بإغضابه:

- صرت تنظر إليّ من عَلٍ يا أبا مسلمّ أم أقول: يا إبراهيم بن ختكان!

اهتزت ملامحه:

@ - ماذا؟

- هل يخجل الرجل من الاسم الذي سمّاه إياه أبوه؟ وهل يخجل من نسبته إلى أبيه حتى يمحو اسمه فكأنه لم يكن؟

وقف مواجهاً وقال وهو يهز إصبعه في وجهها:

- قد جاوزتِ حدّك يا ابنة أبي النجم.

- هل تقتلني أنا.. أيضاً؟

- لا.. ولكني أعرف ما هو أفضل.

أرسلت إليه نظرة عميقة مستطلعة، تترقب أن يفصح أكثر، وأشاح عنها وقال:

- قد عزمت على خطبة امرأة تكون كفئي!

اضطربت ملامحها، ولكنها تمالكت نفسها:

- إن لم تعد تراني كفئاً! فمن تكون كفئاً لك ؟ ليس فوقك الآن إلا دار الخلافة!

رمقها بنظرة دالّة مع ابتسامة غامضة. فصاحت وقد فهمت المغزى:

- ماذا؟ تخطب امرأة من أهل الخليفة؟

أجاب بثقة:

- أمينة بنت عليّ، عمة الخليفة، وأخت عبد الله بن عليّ وأخيه صالح.

تجمّدت ملامحها من الصدمة لبضع لحظات، ثم انطلقت في ضحك متّصل مرتفع، وهو يحدّق بها متعجباً. نزلت جالسة وهي تهز رأسها يميناً وشمالاً وتتابع ضحكها:

- افعل يا أبا مسلم.. افعل.. افعل يا عبد الرحمن بن مسلم كما سمّاك الإمام. أو.. يا إبراهيم بن ختكان، كما سماك أبوك. قد بلغت الذروة حقاً.. وهي الأعلى.. إلا أنها الأخطر، فليس بعدها إلّا السقوط مرة واحدة إلى قعر الوادي.. وها أنت تضع قدمك فيما وراء الذروة.. في الفراغ المؤدي إلى الهاوية. ولو كنا في حال أخرى، لسمعتني أبكي وأولول.. وربما أتوسل.. وربما أفكر في الانتقام.. ولكن من عجائب الدهر ومفارقات الأيام أن يكون انتقامي لنفسي هو عين انتقامك مني.. نعم.. أمينة بن عليّ.. عمة الخليفة أبي العباس السفّاح.. أمينة بنت عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم! هاشم، يا إبراهيم ابن ختكان، وإن صرتَ عبد الرحمن بن مسلم بأمر الإمام. بالإمام صعدت، وبالإمام تهوي.. وكأني الآن أشهد مصرعك.. يا إبراهيم بن ختكان! صدق القائل، إن نشوة السلطان تذهب بالعقل أكثر مما تفعل خمرة الكرم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرّة لم يسع أبا العباس السفاح أن يُسَكِّن من غضب أخيه أبي جعفر الجارف، وهو يصيح:

- عمتي أمينة!

ثم استدار إلى عمّيه عبد الله وصالح:

- أختكما.. هل صدقتم الآن قولي فيه؟ هذا الأعجميّ الأفّاق الذي صنعناه على أعيننا، وكان يحمل نعالنا.. غلام السرّاجين.. سأقتله.. وحق الله سأقتله.

قال أبو العباس:

- لست أقل غضباً منك. ولكن، لن تفعل شيئاً مما تقول وأنا الخليفة.. والعزيمة أن تكتم غيظك الآن، ولكل شيء ميقات وأجل. ولكن، لا نجيب كتابه، وكأن شيئاً لم يكن.

دار أبو جعفر على نفسه وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ. ثم قال:

- لا بأس.. أمْتَثِل لأمرك الآن يا أخي.. ولكن اسمعوا هذا مني، فإني أقسم بالله العظيم إذا أحياني له، فلسوف أبطش به بطشته بسليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وألحقهُ بأبي سلمة الخلّال. فوالله إن بني أمية لأهون الآن عندي منه، فهم أندادنا وإن كانوا أعداءنا.. أما هذا الأعجمي المغتر، فهو الصاحب الذي يهون مع قبحه العدو!

جلس أبو العباس وقد بدا عليه الإعياء الشديد، وقال:

- إن كان لا بدّ، فذلك بعدي يا أبا جعفر.

قال أبو جعفر:

- أطال الله عمرك يا أخي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين خرج عبد الله بن عليّ من ذلك اللقاء، لبث واجماً شارد التفكير. ولم يكن منشغلاً بالكلام على أبي مسلم الآن. وإنما بتلك التلميحات والإشارات التي أوحت بأن أبا جعفر سيخلف أخاه. وكان يطمع أن يكون الخليفة من بعده. أليس هو الذي هزم مروان بن محمد في @الزاب فأنهى بذلك مُلك بني أمية، ومكّن لدولة بني العباس؟ أليس هو الذي تتبع الأمويين في كل ناحية حتى استأصل شأفتهم؟ فمن أحق بها منه؟ وطوى صدره على غرض مقيم لا يبارحه! لا.. ليس القضاء على بني أمية آخر هموم السلاطين الجدد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القيروان، كان عبد الرحمن يتأهب لاستقبال أبناء عمومته في المساء. فنادى بدراً وأبا شجاع ليتوَّلوْا الإعداد للمناسبة. فلم يظهر له أولاً إلا بدر. وحين سأل عن أبي شجاع، أجابه بدر بأنه متوعّك بعض الشيء. والحقيقة أنه لبث كذلك منذ وصلوا القيروان. وكأن الرحلة الطويلة وما لَقَوْا فيها قد ظهرت آثارها أخيراً حين صاروا في راحة وأَمَنَة. وقبل أن يعلّق عبد الرحمن على كلام بدر، برز أبو شجاع يمشي متثاقلاً شاحب الوجه، فابتدره عبد الرحمن بالسؤال:

- ما بك؟

أجاب:

- لا شيء يا سيدي.. مُرْني.

تدخل بدر:

- بل إنه محموم.

ردّ عليه أبو شجاع بضيق:

- قلت إني بخير.

تدخّل بدر من جديد:

- أنا أكفي عني وعن أبي شجاع، فليأخذ قسطه من الراحة يا سيدي.

قال أبو شجاع بشيء من الانفعال، يخاطب بدراً:

- لم أشْكُ لك حتى تكفيني، قم أنت بعملك، وأنا أقوم بعملي كما يأمر سيدي.

لم يملك بدر إلّا أن يستسلم وقد رأى إصراره.

وحين باشرا العمل، لحظ بدر أن أبا شجاع ينضح عرقاً، ويترنح بحركته، حتى كاد أن يُسقِط طبقاً من يده. فعاوده بالكلام:

- لماذا العناد أيها الرجل.. ليس على المرض بمُسْتَعْتَب.. اذهب وارقد قليلاً وأنا أكفيك. وإن كنت تخشى عتب الأمير، فلا أحسبه يفعل بعد الذي لقينا معاً في هذه الرحلة.

اكتفى أبو شجاع بأن يهز رأسه متشككاً، وتابع العمل. وقال بدر:

- عنيد.. عجوز وعنيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان أبو شجاع يقدم كأساً من الشراب لأحد الضيوف على سماط الطعام، سقط الكأس من يده واندلق الشراب على ثياب الضيف ونهض عبد الرحمن مستفزًّا حرجاً:

- ما هذا أيها الـ..

أمسك لسانه عن إتمام الشتيمة. وقال أبو شجاع معتذراً:

- العفو يا سيدي.. العفو.

ثم أخذ بمنديل ليمسح آثار الشراب على ثوب الرجل، فزاد الأمر سوءاً، وتدخّل الضيف ليخفف من حرج الموقف:

- لا بأس.. لا بأس.

صاح عبد الرحمن:

- وأي بأس.. انظر ما تصنع يداك يا أبا شجاع!

كان بدر يراقب الموقف وقد داخله الضيق والأسف. ولم يكن يظن قبل الآن أنه يشفق على أبي شجاع، على الرغم من الاختلاف والمناكفة.

ثم انتقل القوم إلى المجلس يتحاورون في أحوالهم وحال صاحب إفريقية عبد الرحمن بن حبيب منهم، وكيف بدا منه المزيد من الجفاء والريبة في الآونة الأخيرة، حتى شدّد عليهم العيون. ولعل عيونه الآن تراقب دار عبد الرحمن، وتُحصي الداخل والخارج منها. ولكن ماذا بعد القيروان وولاية إفريقية إلّا مضارب القبائل حتى المغرب الأقصى؟ وفيهم فلول الخوارج من زناتة الذين لم ينسوا ثاراتهم مع عُمّال بني أمية الذين أخمدوا ثوراتهم. ولكنهم مع ذلك لم يعلنوا بتأييد المسوّدة، إذ يستوي عندهم كل مُلْك موروث، إلّا ما يتوافق الناس عليه بالشورى ليكون الحكم لله وحده!

@ وبينما كان الحوار جارياً، سمع الحضور شخيراً مرتفعاً من جهة أبي شجاع الذي كان يجلس عند الباب في انتظار أوامر الخدمة،ثم غلبته الحمى والنعاس والإعياء. وانفلتت بعض الضحكات من الحضور. وفجأة نهض عبد الرحمن، وأخذ بيده إبريق ماء ودلقه على أبي شجاع الذي فزّ مذعوراً مشوَّشا. وتصاعدت ضحكات الحضور. وفي هذه اللحظة دخل بدر وتنبه إلى الموقف، ونقل بصره بين سيده وأبي شجاع، ثم أخذ بيد أبي شجاع ليعينه على النهوض وهو يقول:

- إنه محموم.

قال عبد الرحمن بقسوة غير مألوفة:

- والماء علاج المحموم.

سحب أبو شجاع يده من يد بدر، واتجه إلى الغرفة المجاورة، ولحقه بدر دون أن يستأذن سيده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ يرفع السَّرْج ويثبّته على ظهر جواده، وقد جمع متاعه للرحيل. اقترب منه بدر واجماً، وقال بلهجة صادقة:

- لا تفعل يا أبا شجاع.

- قد رأيت ما فعل بي! وأمام ضيوفه.. وأنا في هذه الشيبة! هه! وكنت تقول إن العلاقة بيننا قد تعدّت علاقة السيد بالخادم بعد الذي لقيناه معاً! آن للغريب أن يعود إلى دياره، فوالله ما فارَقَت الشام خاطري منذ خرجنا منها.. وأنا رجل كبير. وأفضِّل الموت في بلدي على العيش الرغد في المكان الغريب.

- ليس الآن يا أبا شجاع، وقد صرنا قريباً من الأندلس.

- الأندلس! هه! إنه لا يأمن جوار عبد الرحمن بن حبيب هنا في القيروان.. وهي أقرب منالاً من الأندلس. وفيها من موالي بني أمية كما في الأندلس.

أطرق بدر هنيهة ثم حاول للمرة الأخيرة:

- ألا أستطيع أن أقنعك بالعدول عن رأيك يا أبا شجاع.

ثم أردف وقد أدركه اليأس وقال بنبرة مشبعة بالعاطفة:

- قد تستغرب قولي.. ولكن يعزّ عليّ فراقك يا أبا شجاع.. أعني.. ربما اختَلَفت طباعنا وافتَرَقت غاياتنا.. وقد ألفت صحبتك.. خرجنا ثلاثة، وكنت أرجو أن نصل إلى آخر الطريق ثلاثة أيضاً.. سوف أستوحش لغيابك.. أعني.. حقاً.

رمقه أبو شجاع بمودّة وامتنان كما لم يفعل من قبل. وقال:

- أعرف.. أنت رجل شهم وطيب يا بدر.. وسامحني إن بَدَر مني ما كان يسوؤك.

- لا عليك.

- وأميرنا كذلك علم الله أني أرجع عنه بلا ضغينة أحملها منه. وأعذره فيما يكابد بعد رغد الإمارة في ظلّ جدّه.. أخبِره بذلك. وأحسن صحبته.

أكمل أبو شجاع إعداد جواده ومتاعه، وحان وقت الوداع. وقبل أن يعتلي جواده، استدار إلى بدر، ومدّ ذراعيه على وسعهما وقال:

- ألا تعانق عمّك العجوز أيها الفتى؟

تعانقا بحرارة.. ومضى أبو شجاع في حال سبيله، يشيعه بدر بنظرات الأسف. ثم إذ استدار عائداً إلى الدار، التقط بصره عبد الرحمن خلف النافذة المطلة، يراقب الموقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيراً بدا أنّ ابن حبيب، صاحب إفريقية، قد حزم أمره. فقد انقطع عبد الرحمن عن زيارته منذ زمن. فعلم أنه لا يثق به إلا بقدر ما يثق هو بعبد الرحمن، وهو الذي ما زال يستقبل بني أمية في داره كما تجيء به العيون. وذلك أدعى للريبة. وأخيراً وصله كتاب أبي العباس السفاح بكلامٍ ظاهره الوعد، وباطنه الوعيد. فقال للكاهن اليهودي:

- كنت تقول: إذا قتلته فليس هو المقصود بخبر الحدثان. وإن نجا فإنه هو. أحسب أننا لن نعرف حتى أحاول قتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الهزيع الأخير من الليل كان جوادان يبدّدان سكون الليل بوقع حوافرهما، وقد صارا على بُعد فراسخ من القيروان في اتجاه المغرب. والحقيقة أن عبد الرحمن كان منذ وقت قد جهّز عدة السفر ليكون بوسعه الخروج من فوره حين يأتيه النذير المتوقع. وقد جاء.

شقشق الفجر وبدأ الأفق يتضرّج بحمرة الشفق، بينما هبّت نسائم الفجر العليلة عليهما وهما @يقطعان البراري، وفجأة أخذ بدر يدور بجواده متفنناً في حركة احتفالية، قبل أن يتابع انطلاقه مع سيّده وهو يبسط يديه يميناً وشمالاً كأنه يطير بجواده في الهواء العليل ويطلق صيحات السعادة.

قال عبد الرحمن متعجباً:

- أي بهجة في الفرار من عدو ما يلبث أن يرسل جنوده وراءنا؟

- بل هي البهجة في كل ما يقربنا إلى الأندلس، يا سيدي.

تلبث لحظة ثم تابع بنبرة الاعتراف:

- وإن شئت الصدق يا سيدي، فإني أسْعدُ الآن مما كنت في دارك بالقيروان.

- أَلِفتَ الترحال؟

- بل ألفت صحبة الأمير وقربي منه.

- وفي الدار، لا صحبة ولا قرب؟

- بلى.. ولكن الأمر مختلف هنا.. وليس غيري في رفقة الأمير.. أعني.. أعني.. تعرف مقصدي يا سيدي.

لم يفت عبد الرحمن المعنى. فهنا يجتمع الخادم مع سيّده على صعيد، في المنشط والمكره والحلم الكبير، بدلاً من أن يرتدّ إلى صفة واحدة، صفة الخادم الذي لا يسعه حتى أن يشارك في الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام، لاحت لهما من بعيد مضارب حيّ من أحياء زناتة في نواحي تلمسان في المغرب الأوسط. وإذ أبْصَر بهما أهل الحيّ مقبلين خرجوا ينظرون رجالاً ونساءً وصبياناً.. وما هي حتى ركب عدد من فرسان القبيلة على عجل، وانطلقوا نحو الفارسين القادمين بمهارة لافتة تنبئ عن تمرّسهم بالفروسية وركوب الخيل، وكأنهم وُلِدوا على صهواتها. رأى أهل القبيلة فرسانهم يصلون إلى الزائرين ويتبادلون معهم بعض الحديث، ليعودوا معاً نحو المضارب.

كان في انتظارهم الآن شيخ الحيّ، أبو قرّة وزوجته التي وقفت خلفه، بينما تجمّع الآخرون حول شيخهم. وبعد أن عرَّفهم عبد الرحمن نفسه، صاح أبو قرّة في القوم:

- هل سمعتم؟ هذا ضيفنا ابن الملوك.. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وأمّه من أبناء عمومتنا نفزة في المغرب الأقصى وأحواز طنجة.. فله خؤولة فينا نرعاها، نحفظه بما نحفظ به أولادنا وأهلنا.

هنا انطلقت زغاريد النساء ترحيباً بالضيف الكبير، وقادهما أبو قرّة إلى خيمة كبيرة مشرعة. وأسرعت أم قرّة فجاءتهم بقِرْبَة لبن وصبّت لهما. وقال أبو قرّة:

- هذه أختكما تكفات.. أم قرّة.. زوجي.

قال عبد الرحمن:

- بارك الله لك في بيتك وزوجك.

- سنهيئ خيمة لك ولصاحبك. واعلم أنك عندنا في حرز مصون حتى تنقضي غمّتك، وينقطع الطلب.

بدا التعجب على وجه عبد الرحمن:

- الطلب؟ نحن بعيدون عن سلطان المسوّدة يا أبا قرّة.

- لم أعنِ المسودة الذين سمعنا بهم وعرفنا ما وقع بكم منهم، فأولئك قد انقطع هنا ما بينك وبينهم.

- فأي طلب؟

- يا أبا.. سليمان. إن لنا فراسة ننافس بها فراسة العرب. وصاحب السلطان حتى هذه الديار، هو صاحب القيروان.

هز عبد الرحمن رأسه معجباً بفراسة الرجل، وقال:

- لم تخطئ يا أبا قرّة. أرجو ألا نكلفكم ما لا تطيقون.

- ما لا نطيقه يا أبا سليمان أن نخفر ذمة جارنا ونضيّع ضيفنا.. أنت عندنا في منعةٍ وسعة، فطب خاطراً.

ثم نادى في الرجال:

- اذبحوا لضيفينا، وقدّموا الكبِد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل المساء، اجتمع أهل الحيّ برجالهم ونسائهم وصغارهم في ساحة ترابية واسعة، وقد أوقدت نار عظيمة في الوسط. وجلس عبد الرحمن وبدر على جانبي أبي قرة على حشايا @صوفية خشنة. وانطلقت النساء بالزغاريد دون توقف يجاوب بعضهن بعضاً. وبَدَيْن في ثيابهن التقليدية مهرجاناً من الألوان البهيجة. ويغطين رؤوسهن بخمر طويلة ملونة أو بيضاء تتدلى إلى أطراف أيديهن وخصورهن، ويعصبنها بأطواق من الحلي المعدنية الثقيلة المرصعة أحياناً بحجارة كريمة مختلفة الألوان، وتتدلى حتى الجبين. ويطوّقن أعناقهن بحلي ضخمة متدلّية حتى الصدر من حلقات الخرز الكبيرة أو النحاس والفضة. وكذلك تتدلى أقراطهن الضخمة الطويلة المعدنية حتى الكتف. ويطوّقن خُصورهن بحزام عريض محلّى بالخرز وسلاسل النحاس أو الفضة. وقد ترتدي بعضهن رداءً خارجياً يتدلّى إلى أدنى الساقين، أو قفطاناً مطرزاً فوق الثياب يصل إلى الركبة أو أدناها. وبدت أيديهن ملونة بالحناء الذي يتخذ أحياناً أشكالاً مرسومة بعناية، وهذا إضافة إلى الوشوم الكثيفة المدقوقة على ظاهر الكف والذراع، وربما كذلك على الخدين والجبين في نقوش صغيرة.

وما لبث بعض النساء والرجال أن بدأوا بالضرب على الدفوف، بينما بدأ آخرون في النفخ بالمزامير، وارتفعت أصوات النساء بالغناء بلغة القوم التي ما كان عبد الرحمن ليفهم منها إلا بضع كلمات تعلّمها من أمّه «راح».

ثم بدأ الرقص الذي شارك فيه الرجال والنساء دون تقارب أو تلامس.

كان المشهد جميلاً مبهجاً كاد يُنسي عبد الرحمن وبدراً كل ما لقياه من الصعوبات والمحن.

ثم أقبلت امرأة متوسطة السن وأومأت إلى عبد الرحمن أن يقوم للرقص، فشعر بالحرج، وأومأ معتذراً، حتى بعد أن حاول أبو قرّة أن يحثه على ذلك.

ثم تحوّلت إلى بدر، فلم يتردد، وانخرط في الرقص بحماس، على الرغم من خَرَقه في مسايرة حركة الراقصين وخطواتهم.

ثم مالَ أبو قرّة على عبد الرحمن وهمس له:

- العادة أن يقوم الضيف إلى حلبة الرقص إذا دعي إليها. وإلا عدّها القوم انتقاصاً.

بعد هذا وجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى القيام والدخول في الحلبة على استحياء. وضحك بدر، حين رأى سيده أكثر خَرَقاً منه، إذ اكتفى بالتمايل وضرب الأرض بقدميه دون اتساق، وعلى غير اتفاق مع الإيقاع. أما بدر، فكان الآن قد التقط الإيقاع وضبط حركاته عليه بقدر كبير. وازداد المشاركون حماساً حين رأوْا أميراً أموياً من أبناء الخلائف يشاركهم عاداتهم، فارتفعت الأصوات والزغاريد والموسيقى وصوت الدفوف والأغاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن قلة من أبناء الحيّ، لم يشاركوا سائر إخوانهم في إظهار البهجة بنزول الضيف الكبير في مضاربهم. وكان ذلك لسبب خاص بهم.فاختلى بعضهم بأبي قرّة، وقال قائلهم، واسمه ميمون:

- قد علمتَ يا أبا قرّة أنا على مذهب الخوارج، وإن ركَنّا إلى القعود الآن.. وكان بيننا وبين عُمّال بني أمية ما تعرف، فكيف نؤوي هذا الأموي عندنا ونمنعه، ونهدف نحورنا لرماح صاحب القيروان؟

نظر فيهم أبو قرّة عابساً، وقال:

- تراجعونني في ضيفي وقد لجأ إلينا وصار في جوارنا؟ أين مروءة زناتة ومُغيلة؟ وهو بعد لم يكن له أمر ولا ذنب في قتالكم، حتى تنالوا منه على وِتر. أما الذي حمل السيف عليكم وأرهقكم بجنده زمناً طويلاً، فصاحب القيروان الذي أخذها جبراً.. وهو الآن من يطلب ضيفنا.. فهو أحق بأن تتصرف نقمتكم إليه، وألا تعينوه على طلبه.

قال ميمون:

- معاذ الله يا أبا قرّة أن نخفر ذمتك وذمتنا ونسلمه وهو في جوارنا. ولكن، نزوّده ونرفده، بل نرافقه حتى يصل إلى أخواله نفزة، فهم أولى به. وبذلك نحفظ ذمتنا، ونطيع مذهبنا في الوقت نفسه.

قال أبو قرّة بنبرة حازمة قاطعة:

- لا والله لا أفعل وقد جاءنا طريداً برأسه، وله خؤولة في نفزة وهم أبناء عمومتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقبل أحد الفتيان الرعاة مسرعاً على مهره حتى وصل الحيّ وهو يصيح:

- عساكر.. عساكر.. رأيتهم يقبلون من بعيد.

خرج أهل الحي عن بكرة أبيهم ينظرون، وقد تجمّعوا حول أبي قرة في الساحة أمام خيمته، حتى وصل عساكر ابن حبيب. وسأل:

- أين شيخكم؟

@ أومأ أبو قرّة برأسه، وقال:

- وأنتم؟

- ألا تميّز عسكر الأمير عبد الرحمن بن حبيب، صاحب إفريقية.

- اعذرني، فنحن حيّ صغير من زناتة نُكثر الترحال، ولا نتعرّض لعساكر الأمير فنعرفهم. ونحن هنا في أقصى حدود إمارته. ولكن، ما خبركم؟

- نطلب عدواً فارًّا من الأمير.. وهو من بني أميّة.. عبد الرحمن بن معاوية، في عينه عوار، وله جديلتان. لعلّه مرّ بكم ولم تدركوا حقيقته.

قال أبو قرة بثقة وثبات:

- لم نره ولم نسمع به.

- هل أنت على يقين أنكم لم تشاهدوه؟

هنا سمع صوت ميمون الخارجي وقد برز بين الحضور:

- في مثل هذه الحال، لا يكون الرجل إلّا مستيقناً أو كذاباً.

أوجس أبو قرّة في نفسه خيفة، حتى تابع ميمون الكلام:

- وشيخنا أبو قرّة إذا حدّث صدق، فإن كذّبته فكأنما تكذبنا جميعاً..وقد علمتم صدقنا في الحرب والسلم. وما كان لنا أن نؤوي رجلاً من قوم قاتلناهم وقاتلونا دهراً. فإن كان لك عندنا حاجة الضيف وعابر السبيل، فأهلاً ومرحباً، وإلّا فامضِ راشداً.

انبسط وجه أبي قرّة ارتياحاً ورضاً.

ثم اتجه القائد بنظره إلى الخيمة الكبيرة التي لم يُفتح من بابها إلا شق صغير، فرأى أم قرّة جالسة في آخر الخباء وقد ارتدت عباءة واسعة فضفاضة تتكوّم خلفها وكانت امرأة جهمة الجسم وكبيرة السن. وكانت تعمل على منوال الغَزْل. ولم يكن ليتبيّن ملامحها جيداً من مكانه.

سأل القائد:

- أهذه دارك.

- نعم.. خباء زوجي.

ولكن الخباء كان واسعاً، فلا يرى من داخله إلّا ما وقع عليه بصره من الخارج. وفجأة ترجّل عن جواده وتقدّم إلى باب الخباء لينظر فيه ما غاب عن بصره. وهنا صاحت أم قرّة:

- ما بالك أيها الرجل تدخل عليّ خبائي؟ ألا تستحي؟ وأين أنت من هذا يا أبا قرّة؟

تراجع القائد من فوره خجلاً، وصاح أبو قرّة بزوجه:

- لا بأس عليك يا أم قرّة.. أنا هنا.. ولو شئت لاعترضته.. وقد علمت أنه يريد أن يتفحّص سائر المكان، فما زال في شك من أمرنا.. وأنت على كل حال في عمر أمّه.. أو ربما جدّته!

صاحت من جديد دون خوف:

- بل سوّد الله وجهه.. لا يدخل خباء المرأة ذو مروءة.

التفت أبو قرة إلى القائد:

- دونك الحيّ فانظر فيه.. ولكن لا تعرّض نفسك لمثل ما تعرّضت له الآن. فإنا قوم ذوو أنفة، ونساؤنا كرجالنا.. كما رأيت.

لم يطل الوقت حتى يئس الجند فانطلقوا مبتعدين، حتى إذا اطمأن أبو قرّة إلى غيابهم، دخل خباء زوجه واقترب منها وقال:

- قد ذهبوا!

هنا خرج عبد الرحمن من تحت عباءة أم قرّة الممتدة خلف عجيزتها! وقد بدا عليه الحرج الشديد! وما هي حتى انطلق أبو قرّة وزوجته في ضحك متّصل. وقال عبد الرحمن:

- اكتموا هذا عني، ستر الله عيوبكم.

قالت أم قرّة:

- وماذا عني؟ أنا أحوج إلى كتمانه، والله لا يبقى رجل ولا امرأة في الحيّ إلّا وضحك مني دهراً. أخبّئ أميراً خلف عجيزتي؟

قال أبو قرة:

- وماذا عني أنا؟ فأنت زوجي.

قالت:

- لا بأس، فهو كولدي..

قال أبو قرّة:

- والضرورات تبيح المحظورات.

@ قالت أم قرّة:

- وما لا يُدرَك بالقوة يدرك بالحيلة.. والآن قد رأيتم مكر النساء فاحذرونا، فإن قوتنا فيما تعتقدون من ضعفنا.

ثم استدركت وهي تهز إصبعها في وجه أبي قرّة مؤنِّبة:

- أما أنت.. فتقول: ربما في عمر جدته! في عمر أمّه، نعم. أما جدته؟

ضحك أبو قرّة وابتسم عبد الرحمن، ثم اتجهت أم قرّة بنظرها إلى باب الخيمة الذي أُشرِع الآن على وسعه، وكان بدر يقف هناك في ثياب القوم حتى لا يميّزه الجند عنهم. وأشارت أم قرة إليهِ وقالت:

- كلنا يطلب الكتمان والسرّ في هذا الحدث لسببه. الأمير لمنزلته، وأنا وأبو قرّة من مقالة الناس.. وهذا الفتى؟

ضحك بدر وقال:

- أنا خادم الأمير، و.. صاحبه! وما يضرّه يضرّني، وما ينفعه ينفعني.

قالت أم قرّة:

- نِعْم الأمير وصاحبه.

إذ توقفوا عن الضحك، أرسل عبد الرحمن إلى أبي قرّة وزوجه نظرة امتنان عميقة:

- لن أنسى لكما صنيعكما هذا ما حييت.. لكما على ذلك عهدي.. وأنا أول من يتحدث فيه ولا يكتمه، فهو خبر الفَضْل من صاحب الفضل، والمروءة من أصحاب المروءة، وليس في كل هذا شيء مما يخجل به المرء. فبارك الله بكما ولكما. الآن أنا أشد فخراً بأمي «راح» رحمها الله، أن كانت من هذه الأرومة العظيمة.

خرج الحيّ كلّه يشيّع عبد الرحمن بن معاوية وبدراً. وأصرّ أبو قرّة أن يرافقهما ثلة من فرسان الحيّ حتى يصلا بهما إلى حيث تنتهي ولاية إفريقية ويبدأ المغرب الأقصى.

رفع عبد الرحمن يده بالتحية وقد اعتلى وصاحبه جواديهما واستعدا لبدء المسير. وهنا انطلقت أم قرّة بزغرودة طويلة، فجاوبتها سائر النساء، ومضى الركب في طريقه.

وحين وصلا أقصى حدود ولاية إفريقية والمغرب الأوسط، ارتد فرسان الحيّ المرافقون عائدين إلى ديارهم، وقد اطمأنوا أن الضيفين الطريدين صارا الآن في مأمنة من جند صاحب الولاية. وتابع الصاحبان سيرهما نحو الغرب. وصاح بدر صيحة الفوز. ولكن عبد الرحمن لم يواكبه فيها، إذ بقي شارد التفكير. وحين نظر إليه بدر مستطلعاً، قال بعد هنيهة قصيرة بلهجة تأملية:

- تالله ما تعلّمت في هذه الرحلة. كانت قصورنا منتهى العالم.. والآن..!! هاأنذا الآن في رفقة روميّ، لم يصبر معي على أهوال هذه الرحلة غيره. وكنت قبل قليل في جوار حيّ من بربر زناتة، حفظوني بأرواحهم، وأخفتني سيّدتهم خلف عجيزتها ولم تبالِ ولم يبالِ زوجها سيد الحيّ. حفيد هشام بن عبد الملك، تحت عباءة امرأة وخلف عجيزتها! ولا بديل إلّا الموت! ثم رافقنا إلى الأمان ثلة من فرسانهم، بينهم ذلك الفتى ميمون الذي قيل لي إنه كان من الخوارج الذين قاتلهم عُمّالنا في هذه البلاد. وكان بوسعه أن يشي بي عند صاحب إفريقية. وقبل ذلك في فلسطين خاصمت امرأة زوجها النذل الذي وشى بي من أجل الجائزة، فأخفتني عندها وعرّضت نفسها لسخطه وسوء خلقه. وفي مصر، أبانت فتاة محتالة عن أحسن ما في الإنسان من المروءة، فآوتنا ثم احتالت لإخراجي بثياب النساء إلى المكان الآمن.. زينب.. فمنالذي فرّق بين الناس: عرب وروم وفرس وبربر، ورجال اختصوا أنفسهم بأوصاف المروءة والنخوة، ونساء اختصوهن بصفات الجبن والكيد والمكر!! ثم إذا فرغنا من التفريق في العرق واللون واللسان، انشغلنا بالتفريق بين قيسي ويمني وربَعَي.. ثم ضيّقنا القسمة في

مضر وحدها، فقرشي وغير قرشي.. وأخيراً تتقسم قريش بين هاشمي وأمويّ.. وبين هذا وذاك مصارع الرجال، والكل يحسب أنه يُحسِن صنعاً! تالله ما الذي فعلناه بالإسلام الذي يُسوِّي بين الأسود والأبيض، والعربي والأعجمي، ويذكِّرنا أننا كلنا لآدم، وآدم من تراب؟ قُتِل الإنسان ما أكفره.. قتل الإنسان ما أكفره!

كان يتحدث بحزن صادق، صرفه عن لحظة الاحتفال بأنه أخيراً قد تحرّر في هذه الأصقاع البعيدة من عبء الطلب،ولم يعد يخاف شيئاً من ورائه، وليس له إلّا ما يستقبل من الأرض والأيام والأحلام، وما يطلب لنفسه. منذ الآن، هو الطالب لا المطلوب، وعليه أن يحرّر عقله ووجدانه من ذكريات الجحيم الذي خلّفه وراءه في المشرق.

ولكن جحيم المشرق، وإن سكنت نيرانه عن بني أميّة، فإنه لم يستوفِ نصيبه بعد من قادة الثورة الذين سعّروه!

@

- تبدين جميلة اليوم!

كانت تجلس إلى مرآتها تأخذ زينتها، فنظرت إليه عبر المرآة متعجبة من إطرائه غير المعهود.

- ما بك؟ أَلمّت بك الحمّى.. أم..

قال أبو مسلم:

- ألا يطري الرجل زوجه إذا رآها تتجمّل له؟

لم يستخفها كلامه، وقالت:

- أما أني أبدو جميلة اليوم، فأنا جميلة دائماً.

- وقديماً كان في المرأة الغرور!

علّقت بأسلوب يبطن بعض التهكّم واللمز:

- بعض ما عند الأمير الذي لا يُنازَع. وأما أن يطري الرجل جمال زوجه، فلم أسمعك تقولها من قبل، فوقع في نفسي الشك.

- لكل شيء أول.

- ظننت أنك بلغت معي الآخر.

ثم عدلت إلى نبرة أخرى:

- وأما أنني أتجمّل لك، فقد علم الله أني أتجمّل لنفسي، لا لك.

- جميلة، وسليطة اللسان، أليس من العجيب أن أبا مسلم الذي لا يجرؤ حتى الخليفة عليه، تتجرّأ عليه زوجه؟ صدق الشاعر:

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراكَ له

وهن أضعف خلق الله أركانا

- ذلك أنك لو قتلتني، لما زدت في أمجادك، بل كانت سبَّة عليك. فقد صار ضعفنا قوة.

- بل مكر الليل والنهار.. هذا ما تحسنه النساء، ومضت به القصص والأخبار.

قالت بلهجة مبطنة:

- لا سيّما قصص الضرائر!

أرادت أن تعرّض به وبخطبته لأمينة بنت عليّ، عمة الخليفة.

- إلا أني كنت راضية بأن تكون ضرّتي عمّة الخليفة، لولا أنها ترفعت عنك، وترفع عنك قومها، حتى إنهم لم يتكلفوا الردّ على كتابك.. بل ذاك هو الردّ. أنت أهون عندهم من أن يردّوا.. يا للناس! قد سوّى الإسلام بين البشر جميعاً.. سواسية كأسنان المشط..

وتأمّلت المشط بيدها. وتابعت:

- ولكن البشر لا يسوّون بين البشر. نعم، يقّدمونك في الدعوة والدولة طالما أنه يخدم أغراضهم. ويطلقونك على أعدائهم كما يطلق الصيّاد صقره على طريدته.. ولا أحب أن آتي بمَثَل آخر تكريماً لصاحب الدولة أبي مسلم..

أرادت بذلك مثل كلب الصيد.. وأردفت:

- أما أن تخطب منهم؟ هنا يفضلون أن يقدّموا عليك رجلاً أبله شريف النسب منهم، وإن كنت أبا مسلم، صاحب الدولة والشوكة.

بلغ كلامها من نفسه، ما أرادت أن يبلغ من النكاية. فقال:

- تعرفين كيف تُعملين بي سيفاً لا يملكه غيرك.

هَمّ أن يخرج، فاستوقفته:

- إذن فقد عزمت على الحج هذا العام! أريد أن أحجّ معك فأقضي فرضي، وأستغفر الله لي ولك. فهناك فردوس في غير هذه الدنيا يا أبا مسلم، لا يُملَك بالسيف والجبروت.. هناك لا سلاطين ولا أبيض ولا أسود، ولا أصفر ولا أحمر، ولا عربي ولا أعجمي.. وهي والله فرصتك للتوبة!

أطرق وقد اعتراه التفكير والوجوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج أبو مسلم للحجّ في موكب عظيم من الحرس والحاشية والخدم وضاربي الطبول، وكان كلما مرّ بقرية خرج الناس ينظرون إلى جمع لم يروا مثله من قبل. وحين وصل الأنبار أناخ فيها ليسلِّم على الخليفة قبل أن يتابع طريق الحج.

@ ودخل عليه في حاشيته، وقبّل يده، ولم يلتفت إلى أبي جعفر الذي كان يجلس إلى جانب الخليفة، وقد بدت البغضاء بينهما.. ثم قال أبو العباس السفاح:

- ما حاجتك إلى كل هؤلاء الجند يا أبا مسلم وأنت في طريق الحج. قد علمت أن طريق مكة لا يتحمّل العسكر، وأنت في مأمن ومنعة في سلطان خليفتك.

- إني وترت بعض الناس يا مولاي وأنا أمكّن لدولتكم، أدام الله عزّها. ولا آمن على نفسي. وللجند عمل في السلم كما لهم في الحرب. فإذا كنا في الطريق إلى الموسم أصلحنا أحوال العرب والبدو، ومهّدنا لهم ما خرب من الطرق، وحفرنا الآبار، وأعطيناهم ما يُصلِح شأنهم، وكل ذلك منسوب إلى دولتكم يا مولاي.. ونحن لكم تَبَع، فلو شئتم استعملتمونا على الموسم.

التفت السفاح التفاتة سريعة إلى أخيه أبي جعفر، وقال:

- لولا أن أبا جعفر يريد الحج، لاستعملتك على الموسم يا أبا مسلم.

- أمير المؤمنين أعلم.. وأمره مطاع.. أستأذن منك يا مولاي.

ونهض وقبّل يد الخليفة، ثم استدار للخروج، متجاهلاً أبا جعفر، فهتف الخليفة منبِّهاً:

- مولاك! مولاك لم تُسلّم عليه.

وكان يشير إلى أبي جعفر. ولكن أبا مسلم ردّ بصلافة:

- قد رأيته. ولكنه لا يُقْضى في مجلس الخليفة حقُّ أحدٍ غيره.

وتابع سيره خارجاً غير آبه، مُخلِّفاً أبا جعفر يتميّز غيظاً، وألقى نظرة دالّة على أخيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج أبو مسلم إلى معسكره حانقاً. فقد كان يرجو أن يولّيه الخليفة إمارة الموسم، وكانت شرفاً عظيماً. وحدّث نفسه أن أبا جعفر ما اختار الحج هذا الموسم إلا ليصرف عنه ذلك الشرف ويُخمِل ذكره. فأخذ على نفسه أن يسبقه في الطريق وفي كل مأثرة حتى يزري بموكبه وأعماله بين الناس. وعلى الرغم من أن الخليفة أمره أن يقلّل من عدد الجند والمرافقين إلى خمس مائة فقط، فقد تجاهل ذلك وتابع بالألوف التي خرج بها من مرو الشاهجان، حتى كان آخر القافلة لا يرى أولها، والطبول تضرب بين يديه على طول الطريق، إلى جانب نافخي الأبواق. وكان أينما وصل أو حلّ خرج أهل المكان لمشاهدة الموكب العظيم، ولينالهم من عطاياه الكثيرة: أكسية وملاحف وعباءات وأقمشة

وعمائم وأموال وغير ذلك من حاجات الناس. ثم تَمَدّ خوانات الطعام الهائلة بالشياه المشوية والمطبوخة في قدور عظيمة، ليصيب منها من يشاء دون استئذان.

عمل الجند على إصلاح الطرق الخربة وتمهيدها، وعلى حفر آبار الماء وإصلاح ما خرب منها، فكانوا يعززون جدرانها بتثبيت الخزف بين خطوط الآجر واللّبن في طي البئر لكي تشتد، ويبنون على فتحة البئر ما يحفظه من انزلاق التراب والرمل والتآكل مع عوامل الطبيعة والريح. فعظم الرجل في عيونهم وأكثروا من الدعاء له، واستلّ بذلك سخيمة من كان يبغضه عن بُعد، لِما سُمِع من إسرافه في القتل، حتى قال قائلهم: «هو المكذوب عليه».

وبذلك حقق أبو مسلم مراده من الإزراء بموكب أبي جعفر الذي خلّفه على مسافة كبيرة وراءه. فكان إذا وصل أبو جعفر مكاناً وجد أن أبا مسلم قد سبقه بالمآثر والعطايا. وكان موكبه دون موكب أبي مسلم بكثير، فلم يلتفت إليه الناس. وكل ذلك زاده غيظاً وحقداً على أبي مسلم.

وعلم أنه ما فعل هذا إلّا نكايةً به وانتقاصاً منه وتعظيماً لنفسه عليه.وكفى بتقدّم موكبه عليه في طريق الحج استخفافاً وإزراءً به. وكان قد بلغه أن أبا مسلم ما يزال يهزأ به فيقلد طريقته في الكلام، ويلوي بذلك لسانه فيُضحك من حوله.

وتساءل أحد أصحاب أبي جعفر:

- لقد والله حِرت في الرجل. أهذا من فرط جرأته أم من الحمق؟ وإلّا فكيف يفعل هذا في حق أخي أمير المؤمنين، وهو المأمول لخلافته؟

قال أبو جعفر:

- هما معاً.. الجرأة وعمى البصيرة الذي يورثه الكِبْر وأوهام القوة. وكذلك الصغار إذا كبروا فجأة وتجبّروا وانطاعت لهم رؤوس من كانوا من قبل يُحقِّرونهم.. فيحسبون ألّا أحد يقدر عليهم. وإني قاتله يوماً. أقسم برب الحجّ والحجيج.

أما أبو مسلم، فدخل على زوجه جلنار في قبتها وهو يضحك. وكانت تقرأ في كتاب الله. ولما سألته في ذلك قال:

- شفاء صدري من أبي جعفر الذي أبى إلّا أن يحج هذا العام نكايةً بي، فلنَرَ الآن أينا أعلى صوتاً وأكثر نفيراً.

@ هزت رأسها بأسف:

- هذا والله قول الله في حج المشركين: (وما كانت صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية).. يا رجل! أنت مقبل على بيت الله الحرام في ثياب الإحرام التي يستوي فيها الناس جميعاً،ولا ترى في الحج إلّا مناسبة للتفاخر والتنافس وإظهار السطوة؟

- هو الذي اضطرني إلى هذا.

- وتحتج بهذا أمام الله؟ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إلامَ يبقى بنو العباس مرتقاك في الدنيا وحجتك عند الله في الآخرة، فإذا ذكرت الدماء التي سفكتها قلت: عملت بوصية الإمام إبراهيم، فإن كانت وزراً فعليه وزرها. وهذا قول الله تعالى في اختصام أهل النار: (وقالوا ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من النار والعنهم لعنا كبيرا). والآن تقول، أبو جعفر اضطرني إلى هذا.

- وتحفظين كل هذا من القرآن؟

- وإن شئت زدّتك. فاتق الله يا أبا مسلم، وتب إلى الله قبل الفوت، ولا تقنط من رحمة الله فإنه يغفر الذنوب جميعاً.

نزل جالساً متفكراً، بينما كانت أصوات التلبية الجماعية تأتي من الخارج.

رأى نفسه في حرّة واسعة من الصخور السوداء، وقد انتشرت فيها جماجم القتلى، ومع ذلك كانت عيونها سليمة تدور في محاجرها وتلاحقه بأنظارها.. انتابه الرعب، فهرول محاولاً الابتعاد عنها. ولكنها كانت على مدّ البصر، وفجأة وجد أمامه أبا سلمة الخلّال واقفاً ينظر إليه بالمودّة التي ألفها منه، ومدّ الخلّال يده كمن يريد أن يساعده على الفرار من ذلك الخلاء الأسود الموحش، فلما أعطاه يده متلهفاً تيبست يد أبي سلمة وبدت عيناه الآن حجرتين من السواد، وصار الدم يشب من رقبته، حاول أن يسحب يده منه ليتابع فراره ولكنه لم يستطع إفلات يده مهما يحاول.

فزّ من فراشه فزعاً يلهث. وصَحَت جلنار على صيحته. نظرت إليه وأدركت أنه كان كابوساً مزعجاً، بينما أخذ يعصر رأسه بين يديه. وفجأة غلبه النشيج. وكان أمراً شديد الغرابة في نظرها. فزحفت إليه وربّتت على كتفه تهدئه.. وقال أخيراً:

- هل يغفر الله لي يا جلنار؟

تَلَتْ قول الله: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا).

مرت لحظات صمت، قبل أن يتحدث أبو مسلم بأسلوب غير معهود من البوح:

- بلى كنت غلاماً سرَّاجا، أخدم الكبراء والصغراء، ويمرّ بي السادة، فأسأل ما الذي جعلهم فوقي وليس لهم نصف عقلي وعلمي. كنت أشعر هنا في قرارة نفسي أن الله وهبني من المواهب ما أستطيع أن أسود به الدنيا.. فيمتزج الغضب بالطموح. وأتوهّم أن في عروقي دماً من ملوك آل ساسان، يريد أن يشتعل ليحرق أو يضيء. ثم رأيت الأقدار تحملني إلى الإمام دون تدبير مني، ورأيت نفسي أتقدّم عنده، فوقر في نفسي أنني مقدّر للعمل العظيم، وأن الله قد اختارني من دون الناس لأكون صاحب الإمام، وكنت أنظر إليه في جلاله وهيبة قرابته من رسول الله، وعلمه وفقهه، فيقشعر بدني، وأتوّهم أني أرى هالة من نور تحيط به. فلما أمرني أن أقتل من أرتاب به ولو بالظنّة، لم أتساءل.. أليس هو الإمام الذي يحمل أثراً من بيت النبوّة؟ وما هي حتى بدأت أرى أن طلب السلطان في هذه الدنيا يغلب طلب الآخرة، وأن الدعوة مطية توصل إلى الدولة، وبدلاً من أن يكون عمل الإنسان في الأرض

سبيله إلى الفردوس الأعلى، ينقلب الحال في الحقيقة، فيصبح الكلام على الفردوس الأعلى سبيلاً إلى التمتع بفردوس الأرض، فلما تكشف لي هذا، وانقشعت الأوهام، أصابتني صدمة عنيفة.

علّقت جلنار:

- وبدلاً من أن يردّك ذلك إلى الحق، زدت عنفاً وطلباً للسلطان.

- إذا كان الإمام المهديّ وأهله هكذا، فهي إذن لمن غلب، والغالب هو الذي يُعَرِّف الحق ويؤوِّل الآيات على هواه وغرضه.

- أول التوبة الندم يا أبا مسلم.. فإذا وصلت الكعبة، فتعلّق بأستارها، وقل، ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقضى موسم الحج، ومن جديد نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر، فتقدّم بموكبه العظيم في طريق العودة.

وهنا وقع ما سيقلب الأمور رأساً على عقب.

مات أبو العباس السفاح في قصره في الأنبار، والحجيج ما زالوا في طريق العودة. ووصل @الرسل إلى أبي جعفر وأبي مسلم بالخبر، مع وصية أبي العباس باستخلاف أخيه أبي جعفر الذي استعجله الرسول بالعودة.تلقى أبو جعفر التعزية بأخيه من أهل معسكره، وبويع له بالخلافة. أما أبو مسلم، فانقبض للخبر انقباضاً شديداً. ولم يكن ذلك أسفاً على وفاة الخليفة الأول، بقدر ما كان ضيقاً من تولّي عدوّه الأول أبي جعفر. فقد كان يرجو أن تتصرف الخلافة إلى أحد الأعمام، أو إلى الأمير عيسى بن موسى، ابن أخي السفاح. وكان مقرَّبا منه لا يكاد يفارقه. وكان رجلاً ودوداً طيب النفس، وكان أكثر بني العباس تودًّدا لأبي مسلم.

لم يستمع أبو مسلم إلى نصائح أعوانه في أن يرجع طريقه ليلقى أبا جعفر فيعزّيه ويهنئه ويبايعه. وقال:

- لا تبلغ مداراتي له هذا المبلغ، فيطمع بي، ويظن أني أرهبه.

بل إنه لم يرضَ أن يقيم مكانه حتى يلحق به ركب أبي جعفر. ولم يزد على أن كتب إليه يعزيه في أخيه، دون أن يهنئه بالخلافة. فقد رأى أن يؤخر التهنئة يومين. وكان رأيه أن ذلك أدعى بأن يرهب جانبه، فإن إظهار المسكنة يُطْمِع به مبغضه. أما إن أراه أنفة وصلابة منذ أول الأمر، فتكون غايته بعد ذلك أن يأمن جانبه، وله ظهير عظيم من جند الخراسانية، وهم عماد الدولة وشوكتها.

وضرب أبو مسلم معسكره خارج الأنبار، ينظر ويترقب ما يكون من أمر أبي جعفر حين يصل وينزل في دار الخلافة.

ولئن كان أبو مسلم قد ساءه حقاً أن تؤول الخلافة إلى غريمه أبي جعفر، فإن رجلاً من بيت الخلافة كان أكثر منه غيظاً وقهراً ورفضاً: عبد الله بن عليّ، عم الخليفة الراحل والخليفة الجديد. وكان إذ بلغه الخبر معسكراً في بلدة «نصيبين» في الصائفة. فجمع عسكره، وأعلن فيهم أن أبا العباس لم يوص لأخيه، ولو فعل لكان أول من علم به. وإنما هو أمر بُيِّت بليل، وتواطأ عليه رجال مع أبي جعفر. وأما الحق فإنه حين وجّه أبو العباس لقتال مروان بن محمد في الزاب قال لأهل بيته: من أنْتَدِب منكم فيسير إلى مروان، فهو وليّ عهدي، ثم انتدبه دون غيره، فهو بذلك ولي عهده وصاحب الأمر بعده، ثم حمل العساكر على بيعته، ولحق بهم قوم من أهل الشام.

وما كان أبو جعفر ليصبر على ذلك، وإن كان العدو الآن عمّه الذي هزم جيوش مروان بن محمد، وأنهى بذلك حكم بني أميّة. فالآن يقاتله مرغماً كما قاتل هو بني أميّة، وإلّا انفرط عقد الخلافة في أول عهدها.

وكان أبو مسلم ما يزال معسكراً خارج الأنبار. فأرسل إليه أن يأتيه في أمر عمّه الذي خلع الطاعة، قبل أن يتسع الخرق على الراتق، وتذهب الفتنة التي أطلّت برأسها بالأخضر واليابس. وما كان أبو مسلم ليفوّت فرصة كهذه تزيده تمكيناً واعتداداً بنفسه وقوته. فها هو الخليفة الجديد، على ما بينهما من بغضاء، لم يجد غيره لقتال عمّه، وحفظ خلافته!

وحين عاد إلى معسكره أفضى إلى جلنار بما ندبه إليه أبو جعفر، متفاخراً، وأن ذلك إقرار منه بقوته وحاجته إليه.

ولكن جلنار نظرت إليه متشككة وقالت:

- يضرب عمّه بك، أو يضربك به.. سيّان عنده! ألم يخطر لك هذا؟ فأيكما هُزِم أو قُتِل، فقد تخلّص من عدو له، وهانَ عليه بعد ذلك أن يصرف همّه للعدو الآخر.

- ربّما.. ربما كان هذا غرضه. ولكني لن أُهزَم ولن أُقتَل، فإذا فرغت من عبد الله بن عليّ، خرجت منها الأقوى، وزادت خشية أبي جعفر مني، وجنح إلى مودتي وإرضائي. إنه يقدّر، وأنا أقدّر، فلنرَ من منا يصيب التقدير.

هزت جلنار رأسها أسفاً:

- ما أسرع ما نسيت توبتك، وزايلك أثر الحج.

- لا والله ما نسيت. ولكن هل التوبة أن أعتزل أمور الحكم والسياسة؟ وإذا ذهبت الدولة، سامها كل طامع، وذهبنا معها. وهي حرب وقتال، والقتال غير القتل. ولا أكون أحرص على دم عبد الله ابن علي من ابن أخيه.

- ألا ترى يا أبا مسلم؟ ما زال هذا الأمر يمضي على سُنّة بيّنة، وإلى وجهة واضحة. انتصرت الدعوة وبطشت بأعدائها أولاً، ثم إذا فرغت منهم ارتدّت على بعض أهلها وأصحابها، حتى لم يبقَ كبير من غير بني العباس سواك. الآن وصل الخلاف إلى بيت الخلافة نفسه، ليتواجه فيه أقوى رجلين من أهل

الدعوة والدولة: عبد الله بن علي، وأنت. فأيكما غلب الآخر، كشف نفسه ليكون التالي والأخير. عندئذ فقط تنتهي الثورة، وتبدأ الدولة حقاً، ولها رجال غير رجال الدعوة!

شرد في التفكير، وقد وقع كلامها في نفسه. وقد أثبتت مع الأيام أنها امرأة حكيمة بعيدة @النظر. ثم قال بنبرة تأمليّة رقيقة:

- كلامك يضعفني يا جلنار.. أتعلمين لماذا؟ لأنه حق. يردّني إلى أصل فطرتي.. فطرة الإنسان قبل أن تغيّرها أحوال الزمان ومقتضيات السلطان. فلا تنبعث من جديد إلّا بقدر ما تُضْعِف صاحب السلطان. ولكن السلطان أسير سلطانه.. يصنعه أولاً ثم يصير صنيعة له، لا فكاك من مطالِبه وإن أراد. فأي خيار بقي لي؟ فلو أني تجرّدت منه، لم أبِتْ ليلتي آمناً بعد الذي خلفته ورائي من الثارات والضغائن والأحقاد. فالسلطان وحده هو الذي يحميني الآن من أعدائي، وهو الذي يهدّدني بالقتل في الوقت نفسه.. إلّا أن يشاء الله.. فلتكن مشيئته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صار لا بدّ أن يرسلها إلى مرو الشاهجان في قافلة خاصة من الحرس والخدم، ليتفرغ لقتال عبد الله بن علي. وقبلَ أن تنطلق القافلة بها، أرسلت إليه نظرة عميقة من فتحة هودجها. وبعد أن مضت القافلة بها قليلاً، لحق بها حتى حاذى بعيرها، فأزاحت ستارة الهودج وأطلت عليه. تبادلا نظرة أخيرة بلا كلام. ثم توقف يشيعها بأنظاره. ولأمر ما، شعرت في أعماق روحها أنها لن تراه مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتصر أبو مسلم على عبد الله بن علي انتصاراً حاسماً. وفرّ عبد الله على وجهه. وانقطعت إلى الأبد آماله في الخلافة. والتجأ إلى أخيه عيسى في الكوفة. وكان عيسى أكثر بني العباس طيبة وموادعة وليناً. وقد آثر الاعتزال بنفسه بعد أن شهد الإسراف في القتل. بل أمّن عشرات من بني أمية الذين التجأوا إليه، واشترى دماءهم من ابن أخيه السفاح، فقَبِل منه، وأقرّ أمانه. ولسوف يختفي عبد الله بن علي عند أخيه عيسى سنوات عديدة، حتى يتمكن أبو جعفر الذي تلقّب بالمنصور، أن يستدرجه، وينزله في بيت ناءٍ، ثم يدبّر هدم البيت عليه ليكون قبره!

أما الآن، فقد فرغ أبو جعفر لخصمه الأخير: أبي مسلم الخراساني، ليداويه بدائه. ويسقيه مما أسقى غيره. وقد علم أنه لن يظفر به إذا رجع إلى خراسان واعتصم بها. فكان أول ما فعل أن أوفد له وزيره أبا الخصيب وهو ما يزال في معسكره في نصيبين ليحصي ما حوى معسكر عمّه المنهزم من الأموال والخزائن، فيردّها على الخليفة.

جُنّ جنون أبي مسلم الذي صار الآن أكثر جرأة وتحدياً وصاح بالرسول:

- أمين على الدماء، خائن في الأموال؟ أمَا وجد أبو جعفر غيري يستغضبه؟ لماذا لم يخرج بنفسه إلى قتال عمّه ليحوز المال والخزائن بنفسه؟ وما له ولهذا؟ إنما له الخُمس، لا أكثر.

قال أبو الخصيب:

- هذا مال أمير المؤمنين دون الناس، وليس سبيل هذا سبيل مالٍ له منه الخَمس، فهو ما لعمّه.

- ومن أين أتى عمّه بالمال؟ هاه! أفلا قعد في بيت أبيه في الحميمة حتى يأتيه ماله؟

قال أبو الخصيب بنبرة حازمة:

- قد غلوتَ يا أبا مسلم، ولا يُرَدّ على الخليفة بهذا القول.

صاح أبو مسلم بغضب جارف:

- يا ابن اللخناء! هل جئت تعلّمني الآداب السلطانية؟ والله لأقتلنك.

وسلّ سيفه، واضطرب أبو الخصيب مذعوراً:

- على رسلك، إنما أنا رسول.

تدخل أحد أصحاب أبي مسلم:

- كما قال يا أبا مسلم.. والرسول لا يُقتَل.

هدأ أبو مسلم وأغمد سيفه. وهنا وجد أبو الخصيب نفسه مضطراً للمداورة والتراجع والتودّد:

- عَجلت أيها الأمير.. إنما أمَرني أن أحصي ما وجد في معسكر الناكث، ثم أسلّمه إليك، لتعمل فيه برأيك.. ولكي تعلم حُسْن ظن الخليفة بك، فهذا كتاب منه لك.

فضّ أبو مسلم كتاب أبي جعفر، وإذا به:

«.. إني قد وليتُك الشام ومصر، فهما أفضل من خراسان. وإذا جاءك كتابي هذا، فسر إلينا حتى نقضي لك حقك جزاء ما وفيت في قمع الناكث عمّي عبد الله»؟

رفع أبو مسلم رأسه عن الكتاب وقد ازداد عبوساً وقال:

- أهو يولّيني الشام ومصر مكان خراسان، وخراسان لي؟

سكت لحظة، ثم خاطب أبا الخصيب:

@ - اخرج وانتظر حتى أوافيك بجوابي.

وإذ خرج أبو الخصيب تلفت أبو مسلم في أصحابه وقال:

- قد أضمر الشرّ، وبيّت الغدر. يريد أن يصرفني عن خراسان ليحول بيني وبين شيعتي وجلّ أنصاري. ولكن، خاب فأله. بل نمضي إلى خراسان، فنمتنع بها حتى يفتح الله بيننا وبينه.

قال أحد أصحابه ناصحاً:

- إن شئت فافعل. ولكن لا تغلظ له الردّ، ولايِنه ولاطفه وأظهر له الطاعة والولاء.

ولكن أبا مسلم لم يستطع أن يقاوم ما احتشد في نفسه من المشاهدات والتجارب في سنوات الدعوة والثورة حتى الآن. وكأنه أراد أن يدوّن شهادته الأخيرة للتاريخ. ويحرّر نفسه من عبء الدماء المسفوكة باسم الأئمة المهديين الذين بشروا الناس أنهم يملأون الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

ولم يصدّق أبو جعفر عينيه وهو يقرأ كتابه:

«من عبد الرحمن بن مسلم، إلى أبي جعفر، عبد الله بن محمد. أما بعد، فإني اتخذت أخاك إبراهيم إماماً. وكان في قرابته لرسول الله -صلّى الله عليه وسلم- ومَحَلّه من العلم على ما كان. ثم استخف بالقرآن، فحرّف معانيه طمعاً في قليل من الدنيا. قد نعاه الله لأهله، ومُثِّلتْ له ضلالته على صورة العدل. فأمرني أن أُجرِّد السيف، وآخذ بالظِّنّة، ولا أقبل معذرة، وأن أسقم البريء، وأُبْرِئ السقيم، ووَتر أهل الدين في دينهم، وأوطأني فيهم بالإفك والعدوان. ثم إن الله بحمده ونعمته استنقذني بالتوبة، وكَرّه إليَّ الحَوْبَة؛ فإن يَعف فقديماً عُرف ذلك منه، وإن يعاقِب فبذنوبي، وما الله بظلّام للعبيد. ثم إني أبليت ما أبليت في طاعتكم والذود عن دولتكم، حتى لم يبقَ لأمير المؤمنين، أكرمه الله، عدو إلّا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أنّ أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت. فإن أرضاك ذاك، فإنّا كأحسن عبيدك. فإن أبيت إلّا أن تعطي نفسك إرادتَها، نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك، ضَنًّا بنفسي. وإني ماضٍ إلى خراسان. فانظر رأيك».

رفع أبو جعفر المنصور رأسه عن الكتاب. ولم يستطع أن يُمسِك عضلات وجهه عن الارتجاف من فرط الغضب والذهول معاً. أوَقد بلغ به الأمر أخيراً أن يطعن في دين الإمام إبراهيم الذي قدّمه ورفعه حتى صار إلى ما صار إليه؟ قد خرج من نقض الطاعة إلى نقض الدعوة واتهام أغراضها! وتلك لَعَمْر الله قاصمة الظهر. قد صحّ فيه إذن ما كان بعض الناس يلمزون به، وإنما هو ذو هوى ساساني كسرويّ في باطن حقيقته، ثم وجد دعوة يمتطيها للثأر لدولة قومه الغاربة، وإحياء أمجادها.

لا، لا ينبغي أن يصل إلى خراسان مهما يكن الثمن. ولا سبيل إلى ذلك بقتاله. فلا بدّ من الحيلة والملاينة والملاطفة حتى تذهب وحشته ويسكن خاطره، وأن يستعمل المنصور على ذلك رجالاً لهم عند أبي مسلم صحبة قديمة. فكان أول من أرسل إليه جرير بن يزيد، فأدركه في حلوان من أرض العراق. فاجتهد وسعه في إرضائه وطمأنته، وأن الخليفة يريد مذاكرته في أشياء لا يحتملها الكتاب، وأنه راضٍ عنه كل الرضا، ويريد أن يزيد في مكافأته لبلائه الطويل، ثم ذكّره بما كان بينهما من الصحبة والمودّة والنُّصرة بنفسه، وأنه ما كان ليأتيه بهذا لولا صدق الغرض، وأنه يضنّ به كما يضنّ بنفسه. ولكن أبا مسلم أبى وبقي على ارتيابه. فقال جرير:

- إن ارتبت بي، فمن بقي من حولك لا ترتاب به؟ وما الحياة بعد ذلك. ولكن، أنْصِت إلى نصيحة أخيك نشدتك الله. لقد فشا الأمر بين الناس، وعرفوا أن الخليفة يأمرك بالقدوم عليه، وتأبى. وذلك يطعن في هيبة الخليفة والخلافة. وأمير المؤمنين ضنين بك، وفي الوقت نفسه ضنين بكرامته وهيبته. فقد صار همّه أن تأتيه ولو يوماً واحداً. والصديق يا أبا مسلم من صَدَقك.. والصدق يا أبا مسلم هو أنك

ركبت قبيحاً حين عصيت أمر الخليفة. والنعمة إنما دامت عليك بالطاعة. وقد صَدَقتُك فصدِّقني أنت. إنّ أمر القوم لم يبلغ بك ما تكره. وإنما لك إن عصيته خراسان، ولا تدري من يخرج عليك فيها من أهل دعوتهم ومواليهم، أما إن أطعت أمير المؤمنين، فخراسان وغيرها من البلاد لك، بعهد أمير المؤمنين، وأنا على ذلك ضمين. فما قولك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج جرير من عند أبي مسلم بخيبة الأمل. فقد أصر الرجل على أن يتابع مسيره إلى خراسان. وما هي حتى أتبعه المنصور برجلين من ألصق الناس بأبي مسلم، وهما مثله من أعاجم خراسان: أبو حميد المروزي، والنقيب أبو مالك، وكانا في مجلس السبعين أيام الدعوة. وتولّى أبو حميد الكلام. فذكره بالصحبة والعهد بينهما، وما كان من ثباتهما معه في أخذ @خراسان. فما كان ليغّشه الآن فيما يدعوه إليه. وقرأ عليه كتاب أمير المؤمنين يُعلِمه فيه أنه رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد، إن صلح وراجع على ما يحب. بل إنه قد عزم على أن يولّيه ما وراء بابه، ليريح نفسه. ثم قال:

- إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله، وخلاف ما عليه رأيه فيك، حسداً وبغياً. يريدون إزالة النعم وتغييرها. فلا تفسد ما كان منك. ولو كان قد ظهر شيء مما يقولون لكنا أحرى الناس أن نعرفه، فنحن نلزمه نهاره وبعض ليله.

تروّى أبو مسلم هنيهة مطرقاً متفكراً. ثم بدا أنه عزم على رأيه، فقام وقال:

- لا.. ارجعا إلى صاحبكما. فليس من رأيي أن آتيه.

تبادل أبو حميد وأبو مالك نظرة سريعة. ثم قال أبو حميد:

- قد جئناك بالنصيحة يا أبا مسلم. وقد صدقناك ما قلنا. ولكن، بقي منها شقها الآخر، وكنت أرجو ألا أضطر إلى قوله.. إنما يريد أمير المؤمنين أن يستنقذ هيبته وكرامته، ويستخلصك لنفسه في الوقت نفسه. فإن أبيت فإنك لا تترك له مناصاً إلّا أن يستنقذ هيبته بكل ما يقدر عليه. وهو يقول لك: إن مضيت عاصياً ولم تأتني، فإني أقسم بالله ألا أكل أمرك إلى سواي، ولأسعين في طلبك وقتلك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك!

لأول مرة تهتز ملامح أبي مسلم وتضطرب جوانحه. ويجتهد أن يكتم خوفاً داهمه على الرغم منه. وإذ خرج أبو حميد وصاحبه من عنده، نزل جالساً مطرقاً وقد اشتد وجومه.

ولكن الحجة القاطعة، ستأتيه بعد ساعات، حين دخل عليه رسول من نائبه على خراسان: أبي داود، خالد بن إبراهيم، ومعه كتاب منه يقول فيه: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه -صلّى الله عليه وسلم- ، فلا تخالفنّ إمامك، ولا ترجعنّ إلا بإذنه، ولا تحُوج أصحابك هنا أن ينقلبوا عليك، وفاءً بحق أمير المؤمنين، وتقديماً لعهد بيعته على أمرك».

وكان ذلك بأمر من المنصور.

قضي الأمر إذن. ولم تعد خراسان بالمكان الذي يعتصم به.

فنادى أحد رجاله وأمره أن يلحق بأبي حميد وأبي مالك، فيستوقفهما حتى يلحق بهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنفس المنصور الصعداء.. وقال في نفسه: أخيراً!

وعلم أن أبا مسلم قد جاء معه ببعض حرسه. وأنه ما جاء إلا مضطراً على حذر وتوجّس. فأمر ألا يُدخلوا عليه أحداً من جماعته، وأن يتلقاه وزراؤه بالمودة والموادعة والتوقير، ويُسكنوا خواطره.

ثم دعا برئيس حرسه عثمان بن نهيك وأربعة من أقوياء الحرس. فأمرهم أن يرفعوا المقاعد من مجلس الخليفة إلّا مقعده ومقعداً آخر إلى جواره، وأن يختفوا وراء الستر في ظهريهما. فإذا عاتب أبا مسلم فعلا صوته، فلا يخرجون، حتى يصفق بيديه، فيخرجوا من وراء الستر فيضربوا عنقه ويقطعوه بسيوفهم تقطيعاً.

وحين وصل أبو مسلم ساحة القصر أحسن وزراء المنصور استقباله، وكان فيهم الثلاثة الذين راجعوه فيه. وبينما تقدم ماشياً نحو الباب، أقبل عليه رجل من أهل القصر اسمه سلمان بن سعيد كان يعرفه من قبل. فصافحه بحرارة، وقال:

- سيدي أبا مسلم. حمداً لله على سلامتك.

حيّاه أبو مسلم وتابع مشيه، ولكن الرجل لحق به وقال:

- سيدي الأمير.. لي حاجة عندك، بارك الله بك.

توقف أبو مسلم ونظر مستطلعاً، وأردف الرجل:

- كنت عند أمير المؤمنين، ورجوته أن يستعملني على «كسكر». فقال: راجع الأمير أبا مسلم، فقد قررت أن أوّليه ما وراء بابي من كل البلاد، فضلاً عن خراسان. فإن شاء استعملك على «كسكر».

انبسط وجه أبي مسلم، وسكنت خواطره، وقال للرجل:

- أوَقَدْ قال؟

- نعم. فقد صار الأمر إليك. فما تقول يا سيدي؟ ولا والله لا أخذلك.

انتفخ الآن صدر أبي مسلم، ونصب جسمه، وقال بثقة:

- سأنظر في أمرك بعد لقاء أمير المؤمنين.

حيّاه سلمان شاكراً.. وتابع أبو مسلم سيره. ثم تبادل سلمان مع رجل آخر نظرة خاصة غامضة، وهزّ له الأخير رأسه هزّة الرضا أنه أحسن التظاهر بما عُهد إليه، ليدخل أبو مسلم على الخليفة مطمئناً

مرتاح الخاطر.

انتظر أبو مسلم بعض الوقت في الدهليز، قبل أن أُذِن له. فلما سار إلى الباب، اعترضه صاحب الباب:

- يعطيني الأمير سيفه.

ولم ينتظر امتثاله للطلب، فسحب سيف أبي مسلم بنفسه.

اعترض أبو مسلم مستغرباً:

- ما كان يُصنع بي مثل هذا!

- ليس ذلك إلا لخير. وهو عامٌّ لكل من يدخل على أمير المؤمنين.

ولم يتنبه صاحب الباب إلى خنجر مشدود إلى حزام أبي مسلم، يختفي تحت عباءته.

انحنى أبو مسلم لأمير المؤمنين، ثم أخذ بيده فقبّلها. وأشار أبو جعفر إلى المقعد المجاور.

- دونك يا أبا مسلم.

جلس أبو مسلم منتظراً أن يبتدر الخليفة الكلام. وأخيراً قال:

- كدت تمضي قبل أن نلتقي فألقي إليك ما أريد. قاتل الله من سعى بيننا بالسوء.

قال أبو مسلم مؤيِّداً:

- نعم، قاتلهم الله.

- قد أبليت بلاءً حسناً في قتال عمّي الناكث لعهده.

- ما فعلت إلّا ما أمرني به مولاي أمير المؤمنين.

- وكعادتك دائماً، أحسنت العمل.

مرّت لحظات صمت ثقيلة. وأخيراً تجرّأ أبو مسلم على الكلام:

- يا أمير المؤمنين، استُخِفّ بي وأُخذ سيفي.

- ومن فعل بك هذا قبّحه الله؟

- صاحب بابك.

- لأُقَرِّعَنَّه. إنه لا يميّز منازل الرجال. كنا قد أمرناه ألا يدخل علينا أحد بسيفه، ولم نقصد من هو في منزلتك يا أبا مسلم.

التقط بصر أبي جعفر طرف الخنجر المشدود إلى حزام أبي مسلم فميّزه. فقال:

- أخبرني يا أبا مسلم عن نصلين أصَبْتَهما في متاع عبد الله ابن عليّ.

- هذا أحدهما الذي عليّ.

- أَرِنيه.

نزع أبو مسلم الخنجر وناوله لأبي جعفر، الذي لم يكلف نفسه تفحّصه، وعمد من فوره إلى دسّه تحت فراشه. فأوجس أبو مسلم في نفسه خيفة. وهنا تحول أبو جعفر بكلامه وأسلوبه إلى طريقة أخرى شديدة:

- هل تذكر يا أبا مسلم حين جيء بك لتخدم الإمام في الحميمة؟ وما هي حتى استصلحك ورفعك وقدّمك على شيوخ الدعوة ونظرائها ونقبائها.

ازداد أبو مسلم توجساً:

- أذكر.

تابع أبو جعفر بغضب متصاعد:

- وإذ بغلام السرّاجين، إبراهيم بن ختكان، يصير أبا مسلم، عبد الرحمن بن مسلم، وصاحب الدعوة والآمر في خراسان، وسار فيها سيرة الملوك الغالبين. وكان حقاً عليك أن تحفظ لأئمة الدعوة حقهم ومنازلهم.

- قد فعلت يا مولاي.

- فعلت؟ فعلتَ ماذا؟ أنا أُعَدِّد عليك ما فعلت. قتلت لاهز ابن قريظ، ثم سليمان بن كثير، نقيب نقبائنا، وشيخ دعوتنا، وأنا عندك في خراسان، لم تستأذني فيه. وأعجب من ذلك إقصاؤك لي في دهليزك بخراسان مستخفاً بحقي، فتكارهتَ على تسهيل إذني وفتح الأبواب لي، ثم كتابك لي تبدأ بنفسك، ثم تذم أخي الإمام إبراهيم وسيرته، وقولك إنه أوطأك الناس بالإفك والعدوان، وحَملَك على الإثم. وهو الذي صَنَعك! ثم تعاليك عليّ في الحج وكسوتك الأعراب، ثم خطبتك أمينة بنت عليّ. لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يا ابن اللخناء.

قال أبو مسلم محتجاً بقوة:

- إنه لا يقال لي هذا، بعد بلائي وعنائي.

هبّ أبو جعفر صائحاً:

- يا ابن الخبيثة! إنما عملتَ ما عملتَ بدولتنا. ولو كان الأمر إليك ما قطعتَ فتيلاً.

هنا أدرك أبو مسلم أنه استَدرج إلى داهية عظيمة، بينما أخذ أبو جعفر يفتل شاربه ثم يفرك @يديه وهو يحدّق في أبي مسلم بنظَرات ملؤها الحقد. وفجأة انهار الطاغية الذي ظن أنه لا يُقهَر، وذهب جبروته واعتداده مرة واحدة، واعتراه من الجزع والخَور مثل الذي اعترى سليمان بن كثير حين تيقّن أن أبا مسلم قاتلُه، فنزل على ركبتيه متوسِّلا متذلِّلا:

- لا تُدْخلنّ على نفسك ما أرى. فإن قَدْري أصغر من أن يبلغ شيء من أمري منك هذا المبلغ!

هنا صفق أبو جعفر، فبرز عثمان بن نهيك وسائر الحرس الذين اختبأوا معه خلف الستار، وعاجل عثمان أبا مسلم بضربة من سيفه لم تقع منه في مقتل، فزحف بسرعة وتعلّق بساق أبي جعفر في حركة يائسة لعله ينال منه، فدفعه هذا بقدمه، بينما انهال عليه الحرس بسيوفهم على جسده دون تعيين، وهو يصرخ:

- وانفساه! ألا قوّة؟ ألا مُغيث.

صاح أبو جعفر بالحرس:

- اضربوا ابن اللخناء وقطّعوه.

واصلوا ضربه بسيوفهم وأمعنوا في ذلك وهو ما يزال ينتفض ويتقلب كأنه يدافع الموت حتى لم يبقَ منه شبر لم يُصب بضربة سيف، وأخيراً وضع عثمان بن نهيك سيفه في موقع قلبه ونزل بثقل جسمه عليه حتى خمدت أنفاسه، وانقطع حسّه.

نظر أبو جعفر إلى جثته بتشفٍّ وازدراء، وقال:

- لفّوه في مسح، وصيّروه ناحية حيث شئتم.

ثم أخذ نفساً عميقاً، وقال:

- الآن انتهت أسطورة أبي مسلم.. الآن تبدأ دولة بني العباس، خالصةً لهم من دون الناس.

ومضى خارجاً.

ولكن أسطورة أبي مسلم قد بدأت حقاً بموته! حين ظهر جماعة من الخراسانية يقولون: لم يمت. إنما رفعه الله، وسوف يعود يوماً ليستوفي قدره وأجله.

كذلك تعمل المخيّلة عند بعض العامة إذ تقدّس أبطالها وترفعهم فوق مراتب البشر. وما أسرع ما تتحوّل الأوهام والرغبات إلى عقائد راسخة، تتأسى بها عن غياب بطلها المقدس، بالقول برجعته.

نعم، الآن فقط انتهت ذيول ثورة بني العباس، وبدأت دولتهم. ولسوف تتفتح عن حضارة عظيمة تضيء الدنيا بعلومها وآدابها وعمائرها وزهوها، وتشغل بذلك الناس عن أنهار الدم التي روت تربتها الأولى! وهكذا النار، لا تضيء حتى تحرق! حتى يدور الزمان دورته فتنطفئ جذوتها، ويذوق ورثتها من العذاب مثل ما أذاق آباؤهم البعيدون أعداءهم.

وسبحان الذي يخرج الحيّ من الميت، فعلى بُعد آلاف الأميال في المغرب، كان الفتى الأموي الفارّ، يقترب من المكان الذي يرجو أن ينجز فيه وعده، لينبثق كالعنقاء بنفسه وبإرث آبائه من رماد النار التي أحرقت قومه وكادت أن تحرقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان الأفق الغربي يشعشع بشمس الأصيل، حين كانا يقتربان من أحواز طنجة حيث منازل نفزة هناك. وعلى الرغم من تلهف عبد الرحمن على لقاء قوم أمّه هناك، فإنه لم يستطع هو وبدر أن يقاوما نداء البحر الذي بدا إلى يمينهما تبرق أمواجه بنثار الضوء الذي ترسله عليه شمس الأصيل. فانطلقا بجواديهما نحو شاطئه بأقصى سرعة، حتى انطبعت حوافر جواديهما على الرمل الرطب، ولم يتوقفا حتى خاضا فيه راكبَيْن، ثم ترجلا وخاضا فيه بسيقانهما حتى بلغ الماء أوساطهما، وأخذا يتراشقان بالماء في طقس احتفالي. وصاح بدر:

- أخيراً بحر العدوة.. عدوة المغرب الأقصى.. وهناك.. هناك عدوة الأندلس.

وأشار بيده عبر البحر، حيث بدا لهما من بعيد شاطئ الأندلس، متلفعاً بالغموض والغواية.

ثم دار بدر على نفسه وصاح بأعلى صوته في الفضاء المفتوح:

- أين المسوّدة! أين المسودة! نحن هنا.. نحن هنا. الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.. وخادمه وصاحبه بدر.. بدر فقط!

بعد أن مرت لحظات الاحتفال بلقاء البحر الذي يفصل بين العدوتين ويصل ما بينهما في الوقت نفسه. وقفا على الشاطئ صامتَيْن يتأملان الأفق عبر البحر. ثم قال بدر بنبرة ذاتية:

- قد قطعنا طريقاً طويلاً يا سيدي.. طريقاً طويلاً.

هز عبد الرحمن رأسه، وتزاحمت في رأسه مشاهد الماضي المؤلمة، ورؤى المستقبل الذي يراه كما يريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رعاة يعودون بمواشيهم.. وصهيل خيول.. ووقع حوافر.. وأصوات مختلطة تتناهى من بعيد.. ونيران موقدة.. ثم ثلة من فرسان نفزة يقبلون على الرجلين المقبلين.. ثم يعودون بهما نحو مضارب الحيّ، حيث احتشد أهل الحيّ يرقبون القادمين..

وقف الركب عند قبة شيخ القبيلة أبي ميمون، وقد أوقدت أمامها نار عظيمة. وقال أحد الفرسان:

- أمير أمويّ، قادم من الشرق، من ولد هشام بن عبد الملك.. يقول إن أمّه منا.. فنحن أخواله.

قال أبو ميمون مرحِّباً:

- أهلاً بالضيفين على أي حال يكونان.

ترجّل عبد الرحمن وصاحبه، وسلّما على شيخ القبيلة، وقبل أن يجلسا سُمِع صوت امرأة برزت بين الجمع وتقدّمت نحو الضيفين:

- أيكما الأمير؟

أشار بدر إلى سيده. وهز عبد الرحمن رأسه هزّة خفيفة. حدّقت فيه المرأة المكتهلة وقتاً، ثم قالت:

- أنت ابن «راح»؟

ابتسم عبد الرحمن وبدر، وانبسطت أساريرهما. وقالت المرأة:

- ألا تُقْبل أيها الفتى فتقبّل يد خالتك، وإن كنتَ أميراً؟

أخذته الدهشة:

- خالتي؟

- إن كنت ابن راح، فأنا خالتك.

أسرع إليها وأخذ بيدها وقبّلها، وأخذت تتحسس وجهه بعطف، وانحدرت دمعتها. وقالت بصوت يكسره البكاء:

- إنك تشبهها.

ثم تلتفت في الناس وقالت بلهجة قوية:

- كنت أقول لكم، إن أختي راح قد انتهت عند أمير أمويّ من أبناء الخلفاء، وأن لها منه ولداً قد يصير الخليفة.. ولم تكونوا تصدّقونني. فما ظنكم الآن؟

ثم عادت تتحسسه وتربت عليه:

- ما صنع الله بأمّك يا ولدي؟

أطرق حزيناً. وفهمت المغزى. وانحدرت دموعها من جديد.

لم يطل الوقت حتى اندمج عبد الرحمن وبدر في حياة القبيلة، حتى صارا لا يُميَّزان عن سائرهم في الملبس والعادة. وعلى الرغم من أنهم ككل القبائل يطيعون شيوخهم وينزلونهم منازلهم، فقد كانوا فيما عدا ذلك سواء في المأكل والمشرب والملبس، لا تميّز فيهم فقيراً وغنياً. ولا ينفرد فيهم بيت بطعامه. وإنما يمدّون بسط الطعام بين الخيام والأخبية فيجتمع عليها أهل الجوار. وقد رأى عبد الرحمن وصاحبه من اجتهادهم في العمل ما يثير الإعجاب، فلا ترى منهم خاملاً. فثمة من يخرج برعي الماشية، ومنهم من يزرع ويحصد، ومن يعمل في الحدادة وشحذ السيوف وصنعها وصنع الرماح وعدة الخيل وسروجها، وصناعة الخزف والقدور، ومنهم من يخرج في صيد البر والبحر، فإذا عادوا بصيدهم جعلوه للحي كلّه. ولم يستأثروا بشيء لأنفسهم. فما زاد من صنائعهم خرجوا به للبيع في الأحياء الأخرى وسُبُل المارّة.

ولم تكن النساء أقل عملاً من الرجال، بين من تعمل في النَّسْج والغزل وصناعة البسط وإصلاح الخيام، والطبخ، ومخض الزبد واللبن، وصنع الثياب وإصلاحها، وصنع القلائد من المعدن والخرز

الثقيل الملوّن، وتجهيز العرائس، ودق الوشوم، وتزيين النساء بالحناء في أشكال مزخرفة.

أما تسليتهم إذا اقترب المساء ففي استعراض مهارات الفروسية التي لم يشهد الصاحبان مثلها من قبل. فيجتمع الرجال والنساء والصبية للمشاهدة. ويجتهد الفرسان في إظهار الأعاجيب، ويزداد حماسهم مع زغاريد النساء وضرب الدفوف. فهذا يميل على أحد جانبي الجواد وهو طائر به، حتى ليكاد أن يلمس الأرض، ثم يرتد إلى صهوته بثبات، وقد توضع على المضمار مناديل مثبتة على عصي قصيرة، فيكون على الفارس أن يميل إليها ويلتقطها ثم يرفع يده بها أمام الحضور. وثمة من يترك لجام فرسه، ثم يرفع قوسه ويلتقط السهام من الجراب ويطلقها في الفضاء دون أن يُبطِّئ على جواده، أو يفقد شيئاً من ثباته وتوازنه. أما @أمهرهم فيستعمل جوادين معاً فيثبت قدماً على صهوة أحدهما وأخرى على صهوة الآخر، وينطلق بهما منتصب القامة مسافة طويلة، قبل أن يجمع نفسه على أحدهما. وتنتهي العروض بالسباق.

وفي إحدى المرات دُعِي عبد الرحمن وبدر إلى المشاركة في السباق، وما كان لهما أن يمتنعا، فاجتهدا وسعهما في مجاراة المتنافسين. ولما رأى بدر أنه قد تقدّم على سيده، تعمّد أن يبطّئ قليلاً حتى جاوزه عبد الرحمن. كانت حياة جميلة مليئة بالحركة والنشاط والرضا والقناعة، على ما فيها من بساطة. أين أسلوب العيش هذا من تلك القصور المتخمة المحجوبة عن الناس والشمس والفضاء المفتوح، والمنغلقة على ما يدور فيها من الأسرار والأطماع والمكائد الصغيرة والكبيرة! ولأول مرة يستذكر عبد الرحمن قول رسول الله: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا». كان يحفظ الحديث من قبل، ولكن ثمة فرق بين أن تحفظه وبين أن تعيشه كما يعيشه هؤلاء القوم. ولكنه كان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يعيشه مثلهم إلى الأبد. ولئن كان قد استدبر إلى الأبد أخطار المسوّدة، فإنه لا يدري ما الذي سوف يستقبله من أيامه القادمة في أرض الأندلس التي جاء من أجلها، ولا يفصله عنها إلّا مجاز بحري ضيق.

وبينما كان يتجوّل مع بدر على أطراف الحيّ، رأى خالته تقبل عليه ومعها فتاة شابة جميلة. ابتدرها عبد الرحمن بالقول مداعباً:

- مرحباً بك يا خالة.. أين لبن ناقتك الطيب؟

قالت:

- جئتك بخير منه.

وأشارت إلى الفتاة.

ابتسم بدر، بينما اكتسى وجه عبد الرحمن بتعبير التعجب والحيرة. وتابعت الخالة:

- لا يليق بالرجل أن يمكث في مكان دون أن يتزوّج. وهذه أمينة، هي عندي كبناتي. فماذا قلت؟

ظهر الحرج على وجه عبد الرحمن، وبحث عن الكلمات المناسبة، ثم قال:

- نِعْمَ النساء. ما كنت لأجد خيراً منها. ولكني لن أقيم هنا طويلاً.

- وما البأس في ذلك؟ تذهب معك أنّى ذهبت.

- طريقي محفوفة بالمخاطر يا خالة.

- والمرأة الأصيلة كالفرس الأصيلة، تخوض مع صاحبها ولا تخذله.

لم يرد أن يردّ خالته بطريقة مهينة لها وللفتاة، فاكتفى بالقول:

- دعيني أُرَوِّ في الأمر يا خالة. فإذا عزمت، فلن أختار لنفسي غير التي اخترتِها لي.

التفتت الخالة إلى أمينة:

- اذهبي حتى أوافيك. فهؤلاء الشوام، عاداتهم غير عاداتنا.

وإذ ابتعدت الفتاة هزّت الخالة عصاها وقالت:

- ما بك أيها الفتى؟ مريض؟

انفلتت ضحكة قصيرة من بدر تداركها بسرعة إذ أرسل إليه عبد الرحمن نظرة تأنيب. ثم عاد يخاطب خالته:

- لست مريضاً يا خالة. ولكن سامحك الله، هل كان ينبغي أن تحرجيني وتحرجيها؟ أفما كنتِ تستشيرينني قبل ذلك؟

تعجبت الخالة من منطقه الذي يخالف ما درجت عليه من عادات قومها الأكثر بساطة وانفتاحاً.

- أُحرجك وأحرجها؟ إنها خطبة وزواج.. جئت بها لتراك وتراها، فإن أعجبتك سألناها، وإن أعْجبتَها رضيت بك، وإلّا ردّتك.

فوجئ عبد الرحمن بكلام خالته، وتحرّك في نفسه اعتداد الأمير فقال مستنكراً:

- تردّني؟

أجابت بعفوية:

- كما يمكن أن تردّها.

تدخل بدر مستنكراً أيضاً:

- ولكنه الأمير!

ردّت بالعفوية نفسها:

- الأمير عندنا حين يحكم، أما حين يخطب، فهو الرجل، وهي المرأة. ولا حرج على هذا @ولا على ذاك. وإن شاءت أن تخطبه تعرّضت له وفعلت.. وهو على الخيار.. ولا أسف ولا ضغينة. والآن، لماذا تأبى الزواج أيها الفتى؟ كم مضى عليك بلا زوج؟

- قد سمعتني يا خالة، إذا قدّمت غايتي وهمّي، لم ألتفت إلى غيرهما حتى أبلغ مرادي.

هنا تدخل بدر بلهجة مرحة:

- أنا على مذهب آخر يا خالة. أخلط هذا بذاك، بل تعينني المتعة على الشدّة، فلماذا لم تختاري لي زوجاً كما اخترتِ لابن أختك؟

فاجأته بردّها:

- قد فعلت.

التمعت عينا بدر:

- فعلتِ؟ أين هي؟

- أمامك.

- أمامي؟ لا أرى امرأة أمامي!

- وماذا تسمّيني أيها الأحمق؟

تجمّد وجه بدر من الصدمة، بينما غمزت الخالة لعبد الرحمن غمزة ذات مغزى.

وقال بدر:

- أنتِ يا خالة؟

صاحت به:

- لست خالتك. إنما أنا خالة صاحبك. ألا تراني أهلاً لك؟

- بل أنا لست أهلاً لكِ يا خالة.

هزت عصاها في وجهه وقالت بنبرة صارمة:

- قلت لك: لستُ خالتك.

- أنت خالة الأمير، مقامك من مقامه، وأنا خادمه، فلست كفئاً لك.

- سبحان الله.. كنت تقول إنك صاحبه. والآن تقول إنك خادمه. وما تقول ذلك إلا تهرًّبا مني. ألأني أكبر منك سناً بضع سنين؟ هذه خديجة أم المؤمنين، كانت أكبر سنًّا من رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- حين تزوّج بها. ألا يسعك مني ما وسع رسول الله من خير النساء!

أُرتج عليه، وانعقد لسانه لا يحير جواباً ولا يهتدي إلى مخرج. وكان عبد الرحمن قد تعمد أن يشيح بوجهه عنه ليخفي ابتسامته وهو يغالب رغبته في الضحك.

وفجأة انفجرت الخالة في ضحكة ساخرة طويلة، وأطلق عبد الرحمن ضحكته التي أطال حبسها. وإذ أدرك بدر حقيقة الموقف، انخرط معهما في الضحك.

ثم قالت الخالة:

- قد أرعبتُك، أليس كذلك؟

ثم ارتدت عنهما راجعة وهي تتابع الضحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفا من جديد على الشاطئ عند ملتقى البحرين: بحر الروم والبحر المحيط. وسرّحا النظر عبر الفضاء إلى الضفة المقابلة، حيث بدا لهما جبل طارق والبر الأندلسيّ.

قال عبد الرحمن:

- قد آن الأوان يا بدر.

- نعم آن الأوان..

ثم أردف ضاحكاً:

- قبل أن تلزمني خالتك الزواج بها.

- تسخر بخالة أميرك يا بدر؟

- فليدعُ أميري أن يعيدها الله شابّة نضرة، وأنا أول من يخطبها من الأمير.

أخذا يتمشيان على رمل الشاطئ، وقال بدر:

- لن تتزل الجزيرة بنفسك أول الأمر.

- فمن؟

- أنا.

- أنت وحدَك؟

- نعم يا سيدي.. أنت ابن الخلفاء الذين كانت تَحْكمُ باسمهم.. باسمهم فقط. وهي على الحقيقة لمن غلب. وبنسبك في بني أمية تطلبها.. وذلك سبب قوتك، ولكنه أيضاً سبب الخطر عليك إذا نزلتها بنفسك أولاً قبل أن تعرف صاحبك من عدوّك.. فيهون على صاحبها @أن يأخذك قبل أن تجمع لنفسك أنصاراً. فائذن لي أن أسبقك إليها فأنظر أحوالها، وأتوصّل إلى مواليكم فيها وإلى أصحاب الشأن.. فأرى من يكون لك، ومن يكون عليك. فإذا نزلتها بعد ذلك نزلتها على بيِّنة، وتلقّاك أنصارك في أولها.

- وتستطيع ذلك يا بدر؟

- ألم تجرّبني يا سيدي!! لقد مضينا معاً في طريق طويل.. وأعلم أنك تقول في نفسك: شؤون السياسة غير شؤون الرحلة والفرار والطريق. ولكن، جرّبني يا سيدي.. ثم انظر حكمك بي. لن تجازف بإرسالي أولاً أكثر مما تجازف الآن بنزولك.

أخذا يتمشيان على رمل الشاطئ، صامتين بعض الوقت، حتى قال عبد الرحمن:

- بدر!

- سيدي.

توقف عبد الرحمن، وعاد ينظر في البحر، وتحدث بنبرة تأمليّة:

- قد علمتني هذه الرحلة الطويلة ما لم أكن لأتعلّمه في قصر جدّي هشام رحمه الله. عرفت ألوان الناس عن قرب، واختبرت معادنهم، وخالطت العامة: خيارهم وشرارهم. فإذا حكمت، فلن أطغى، ولن أحتجب عن عامة الناس، ولسوف أقدِّم ضعيفهم على قويّهم، وأنصت لذوي الحاجة منهم بنفسي.. نعم، أريد السلطان، ولكنْ سلطاناً غير ما أَلِفه الناس وأسأل الله أن يعينني.

قال بدر:

- آمين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الكتاب الثاني

في الأندلس

حطّ مركب بدر على شاطئ الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس. وإذ نزل من المركب تحوّل ببصره عبر البحر إلى الشاطئ البعيد الذي انطلق منه في المغرب حيث كان يقف مع سيّده ينظران عبر البحر إلى المكان الذي صار الآن فيه.

كان يعرف وجهته الأولى: كورة البيرة، حيث يقيم شيخ موالي بني أميّة: أبو عثمان عبد الله بن عثمان، وصهره عبد الله بن خالد. فهؤلاء بحكم الولاء القديم لم يتحوّلوا عن ولائهم لبني أميّة. بل إنهم وأبناءهم حفظوا لأنفسهم منذ سنوات الفتح الأولى اسم الموالي، وميّزوا به عصبتهم عن سائر أهل الجزيرة، ونَأَوْا بأنفسهم عن حروب اليمنية والقيسية. وصاروا عصبة معروفة من أهل الوجاهة والثراء والمنزلة الرفيعة. واختصوا أنفسهم براية خاصة لهم، يتعاقب على حملها في مواكبهم أبو عثمان وصهره عبد الله. فكان من الطبيعي أن يبدأ بدر بهم. واستعان بسؤال الناس عن الطريق إلى منازلهم في كورة البيرة، ولم تكن بعيدة عن مكان نزوله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن فرغ أبو عثمان من قراءة كتاب عبد الرحمن بن معاوية له، هز رأسه ونظر إلى بدر، وقال:

- قد سدّد الله الأمير، حين أمرك أن تقدم علينا أولاً. فنحن أَوْلى الناس بنصرته وإعانته على طلبه. ولكن الأمير لم يفصح في كتابه: هل يريد أن نوفر له ملجأً آمناً وعيشاً طيباً في الأندلس، أم يريد الإمارة؟

قال بدر:

- إن شئت الحق يا سيدي، فهو يريد الإمارة بحق آبائه فيها. وهو لم يُفصح حتى يستطلع رأيكم.. وقد ذكر لك يا سيدي في كتابه ما لقي من عبد الرحمن بن حبيب الفهري في القيروان، وصاحب الأندلس يوسف الفهري من أبناء عمومته. ولو طلب سيدي العيش بأمان في الأندلس لما وسعه ذلك حتى يملكها أولاً، وإلّا لم يأمن أن يطلبه الفهري هنا لابن عمه في القيروان.

هزّ أبو عثمان رأسه متفهِّما:

- هذا أوان الوفاء لأمرائنا، أليس كذلك يا عبد الله؟

وتوجَّه ببصره إلى صهره الذي قال مؤيِّداً:

- بلى، بلى.

كان بدر يعلم أن الموالي وحدهم لا يملكون من العدد والعُدَّة ما يمكنهم من تحقيق الغلبة في حرب يخوضونها مع الأمير الأمويّ، وأن غاية ما يمكن أن يفعلوه، عقد التحالفات مع من يرضى أن ينحاز معهم إلى مطلب الأمير. ومن يمكن أن يكون هؤلاء غير رهط اليمنيّة الذين غلبهم الصميل ورهطه من القيسية على البلاد، وما زالوا يطوون صدورهم على طلب الثأر لمصارعهم في وقعة شقندة؟ ولذلك فوجئ بدر حين قال أبو عثمان:

- بل نبدأ بمراجعة الصميل أولاً!

تبددت دهشة بدر حين شرح له أبو عثمان أسباب رأيه. فالصميل ما زال منذ شهور تحت الحصار في سرقسطة التي ولّاه إياها يوسف الفهري ليتخلص من سطوته عليه، وليضربه باليمنيّة الحاقدين عليه، وهم أكثر أهل تلك الناحية. ولكن الصميل الداهية القويّ استطاع في السنوات الماضية أن يخضع الناس هناك ويتنعّم بخيرات الولاية الغنية، حتى ظهر رجل في قرطبة عظيم الثروة والجاه اسمه عامر بن عمرو العبد ريّ، وكان قرشياً مثل يوسف الفهري، إلّا أنه جعل نفسه شيخ المضرية، ورأى نفسه أحق بالإمارة من الفهريّ. ذلك أن نسبه في قريش أعلى من نسب الفهري. فهو من قريش البطاح، أما الفهريّ فمن قريش الظواهر. وهو تقسيم موروث من أيام الجاهلية، وبقي ملازماً لأصحابه مع الإسلام والفتوحات والانتشار في الأمصار، حتى أقصى الغرب في الأندلس! وفضلاً عن أن قريش البطاح أعلى منزلة من قريش الظواهر، فإن نسب العبد ريّ هذا يرجع إلى أخي مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله، بينما يرجع نسب الفهريّ إلى عقبة بن نافع. وليس الثاني كالأول في طبقات الرجال.

وكان بوسع العبد ري أن يخلع يوسف الفهري في قرطبة، ولكنه كان يعلم أن الصميل هو صاحب الشوكة مع رهطه القيسية. فالأولى أن يبدأ به في سرقسطة في شمال الجزيرة، بعيداً عن منازل قومه، ووسط خصومه اليمنية. فإذا غلبه هانَ عليه بعد ذلك أن يخلع يوسف الفهري. فتواطأ مع يمنية سرقسطة وأنحائها الذين وجدوا في ذلك فرصة سانحة للثأر من الصميل. فانحازوا إليه مع رئيسهم الخباب بن رواحة الزهري، وضربوا الحصار على سرقسطة. فأرسل الصميل إلى صنيعته يوسف الفهري يستنجده ويستمدّه. ولكن هذا أخذ يماطل رجاء أن يهلك الصميل، فتخلو له الأندلس. ثم يجد طريقة لإرضاء العبد ري أو @التخلّص منه. ذلك أن العبد ري المضري، قد استقوى باليمنيّة. وهؤلاء لا يريدون غير الانتقام من الصميل وقومه. فإذا ظفروا به، هانَ استرضاؤهم لِيَنْفَضّوا عن العبد ريّ الذي لا ينتمي إلى عصبتهم، ولم يجتمعوا معه إلّا نكاية بالصميل.

وعلى ذلك رأى أبو عثمان، شيخ الموالي، أن هذا هو الوقت الأفضل لكسب الصميل إلى جانبهم، بأن يخرج الموالي مع سائر القيسيّة الذين بدأوا يتقاطرون من الكور التي يتوزعون فيها، ويجتمعون للزحف إلى سرقسطة لنصرة الصميل وفك الحصار عنه. وبذلك تكون للموالي مأثرة عند الصميل يحفظها لهم، فإذا عرضوا عليه بعد ذلك نصرة عبد الرحمن بن معاوية، كان أقرب إلى القبول، وقد اشتدت نقمته على يوسف الفهري الذي خذله حين كان أحوج ما يكون إليه. فإن كان ذلك، فقد كُفي عبد الرحمن ومواليه وأنصاره الحرب، وصار الحكم إليه بأهون الأسباب.

كان رأي أبو عثمان حكيماً ومقنعاً، وعليه صار التوافق. ولكن سرقسطة في الثغر الشماليّ، والطريق إليها طويلة. والرجاء أن يصبر الصميل على الحصار الذي طال حتى الآن بضعة أشهر، إلى أن تصل النجدة من الموالي والقيسيّة معاً. وخرج بدر معهم كأي واحد منهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما في قرطبة، فكان الفهري وزوجته يستمتعان بكل ما تمنحه الإمارة من متع الدنيا وزينتها.

ذهبت أيام الزهد والانقطاع للعبادة والعزوف عن الحكم وغواياته. واستطاع سرير الإمارة أن ينفث بسحره في الفهريّ.

أما زوجته فلم تكن لتكتفي من الحلي والجواهر الثمينة والثياب الفخمة المطرزة بخيوط الذهب. ولكن متعتها العظمى كانت في الاستكثار من الوصائف والخدم والحشم وإلقاء الأوامر عليهم. وكانت تحب الخروج بنفسها في موكب فخم يحيط بها الحرس والخدم، لتتظر بنفسها في النفائس الثمينة، ويشهدها الناس في خيلائها.

واليوم عادت بجارية جديدة من سوق النخاسة اسمها حُلل لتكون في خدمتها. وكانت بارعة الجمال وشرسة الطباع في الوقت نفسه. فكانت وهي في مكان العرض والمساومة، كلما بالغ رجل في الاقتراب منها ولمسها بدعوى المعاينة، دفعته عنها بغلظة وجرأة، ولم تبالِ بنخّاسها. ولعلّ هذا بعض ما أغرى زوج الفهري بشرائها في آخر الأمر، لتستمتع بترويضها وكسر صلابتها وتقليم مخالبها.

وإذ اغتسلت بعد الدخول بها إلى القصر، بانَ جمالها الصارخ. ولما رآها أبو زيد، عبد الرحمن بن يوسف الفهري، وقعت في نفسه، أو الأصح في شهواته. فدخل على أمّه يطلب أن تهديها له. فأبت عليه بأسلوب قاطع. فإنما اشترتها لتكون في وصائفها وأهل خدمتها. وعنده ما يكفيه من الزوجات والجواري. ولقد كانت تقيم على مفارقة تبدو غريبة في ظاهرها. فبصفة المُلك الذي صارت فيه، كانت تحب أن تستكثر لنفسها من الوصائف ما تباهي به؛ وبصفة المرأة الزوج الحرّة، كانت تكره في المقابل استكثار الرجال من الجواري اللائي يجد الأزواج معهن من الأنس والمتعة والتبسّط وفنون الغزل، ما لا يفعلون مثله مع الزوجة الحرّة التي لا يليق بها إلّا الرصانة والتحفظ وعدم التبذّل.

ولذلك حذرت ولدها من الاقتراب من الجارية الجديدة حُلل، وأن فيها شراسة إن لم تستقم بالأوامر استقامت بالسوط. فما حاجته إليها؟

ولكنه قال:

- من يريد الخُلُق مع تلك الخِلْقة؟

ولم تُجْدِ توسلاته مع أمّه، حتى نزل على ركبتيه وقال على سبيل الهزل:

- إذن أقتل نفسي، فأكون شهيد العشق.

قالت تجاريه في هزله:

- وتذهب إلى الجنة، وفيها من الحوريات ما يغني عن جاريتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوكلت بها من تعلّمها فنون الخدمة وآدابها. ولكنها كانت دائمة العبوس والسخط، ولا تبدي الكثير من الاهتمام والتعاون. وكان واضحاً أنها ساخطة على استرقاقها ولو انتهى بها الأمر إلى قصر الإمارة. كانت أشبه بقطة بريّة تم حبسها، أو مهرة بريّة تأبى السّرج والترويض، وأن استرقاقها لم يبلغ منها

غير امتلاك جوارحها، لا روحها التي ظلت تقاوم الرق وترنو إلى الانطلاق في فضاء الله كما كانت في نشأتها الأولى، قبل أن يغِير قوم من البشكنس على قومها في جليقية، فتصير سبيّة عند البشكنس الذين باعوها لبعض النخّاسين، حتى انتهت @بين العرب!

ومع أن زوج الفهري كانت تستمتع بإلقاء الأوامر على وصيفاتها بأسلوب فظ ومتعالٍ، وبتوبيخهنّ لأتفه الأسباب، فقد كانت أكثر فظاظة مع الجارية الجديدة التي لا تبدي من الخضوع والتذلّل ما تبديه الأخريات. وصارت تتعمّد أن تثقلها بالخدمة والأوامر أكثر من غيرها، ثم تبالغ في إهانتها وتصغيرها دون مسوّغ. لكأنها كانت تغار من جمالها وشبابها، وإن كانت حريصة في الوقت نفسه على التجمّل بها وبأمثالها بين نساء الأمراء والأعيان. أما حلل نفسها، فعلى الرغم من أنها كانت تزداد لها بغضاً، فقد كانت حريصة على الامتثال لأوامرها على كره منها، لتتجنب التوبيخ والإهانة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ولكن زوج الفهري، سيدة القصر المحدثة النعمة، كانت تجد طريقة دائماً للنيل منها. حتى بدأ صبر الفتاة ينفد، وأخذت تحدِّث نفسها بالردّ والتحدّي، طالما أن الإهانة واقعة بها على كل حال. وماذا عساها أن تخسر أكثر مما خسرت من حريتها وكرامتها.

لم تكن قد تباطأت حين أرسلت إليها زوج الفهري لتساعدها في أخذ زينتها، ومع ذلك ابتدرتها بالقول:

- لِمَ تأخرتِ عني؟

لم تجب. ما عساها أن تجيب؟ فلو أنكرت التهمة لتعرّضت لعقوبة قاسية إن ردّت على السيدة كلامها فيما يعتبر تكذيباً لها. ولكن الصمت أيضاً لم يجنّبها ما تخشاه، إذ صاحت بها زوج الفهري:

- ما بك؟ صمّاء! هيا امشطي لي شعري.

كان قد بلغ الضيق من نفس حلل، فلم تبالِ هذه المرة في أن تترفّق في المشط وتسليك العقد بالرويّة. صاحت زوج الفهري متأوهة من الألم. وصاحت بها بصوت أشد:

- خرقاء.. خرقاء.. ألا تحسنين شيئاً أيتها الحمقاء؟ هاتِ.. قطع الله يدك.

وانتزعت منها المشط، لتمشط بنفسها.

هنا، لم تبالِ حلل أن تقول معرّضة بشعرها الخشن:

- لو دهنت شعرك أولاً يا سيدتي، لسلك المشط بسهولة أكبر. هكذا يفعلون مع الشعر الجعد.

نهضت زوج الفهري من فورها، وصفعتها بشدة:

- تعرّضين بشعري يا ابنة اللئيمة؟

قالت حلل وهي تتحسس موضع الصفعة:

- لا تسبّي أمي.

- ولمثلك أم؟

- كأمّك. وحملتني تسعة أشهر كما حملتكِ أمك. إلّا أنني كنت خفيفة عليها؟

- وقد بلغ بك أن تردّي عليّ أيتها الوقاح الصفيقة؟ والله لأؤدبّنك.. والعصا لمن عصى.

قامت خادمتان ثقيلتان بشدّ ذراعيها ومدّ جسمها على أحد المقاعد وهي تقاوم عبثاً.ثم طفقت زوج الفهري تضرب ظهرها بعصا خيزران ضربات متوالية، وهي تصرخ ألماً. وكانت ابنتها فاطمة تراقب وينقبض وجهها مع كل عصا تنزل على ظهر حلل، وكأنها تنزل على ظهرها هي. حتى لم تعد تطيق المشهد، فتدخلت وأمسكت بيد أمها وقالت:

- يكفي يا أماه. قد بلغتِ منها.

وحين اختلت بها أمها صاحت بها مؤنبة:

- لا تعترضيني في أمر أمام الوصائف والخدم، فيجرؤوا علينا. أعيذك أن تعودي إليها أبداً، هل وعيتِ قولي؟

- إن كنت كارهة لها، فبيعيها أو هبيها، بدلاً من..

- ويقال إني عجزت عن جاريتي؟ لا وربّ الكعبة، ولو دُفع لي فيها ألف دينار، حتى أروِّضها كما تُراضُ الفرس.

هنا سمع صوت ابنها عبد الرحمن داخلاً:

- لا يروض الفرس إلّا الفارس. وأنا هو يا أمّاه. ألا أكفيك إياها؟

لم تجبه إلّا بنظرة امتعاض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكوّمت على نفسها في حجرتها تنتحب بصوت خفيف. ثم توقفت ومسحت دموعها بسرعة إذ انفتح الباب ودخلت عليها وصيفة أخرى في مثل عمرها، اسمها عريب. وكانت قد شهدت ضَرْبها، وتألمت لها أشدّ الألم. أشاحت حلل عنها.وكانت تحمل معها قارورة زيت وبعض قطع @الكتان.

قالت حلل:

- اخرجي عني.. دعيني وحدي.

تقدّمت عريب نحوها على كل حال، وقالت:

- دعيني أدلك لك ظهرك بهذا الزيت، فيخف الألم.

- لم أطلب عونك. أنا بخير.

- لا، لستِ بخير. ولا تكوني عنيدة معي أيضاً، فأنا لست السيّدة.

جلست إلى جوارها، وتابعت:

- حالي كحالك. إلّا أنني أعقل منك.

- وتسمّين الخنوع عقلاً؟

- أي خنوع؟ نحن إماء.. وهذه منازلنا من مالكينا. ورُبَّ ألوف الجواري يحسدنك أنك في قصر صاحب الأندلس.

- الجارية هي الجارية، في بيت السروجيّ أو في قصر الأمير. ومن قضى علينا بأن نكون إماءً ويكنّ حرائر؟

- حروب الرجال.. ولكنك تعلمين الجواب.

- قتلهم الله. لا أستثني أحداً.. فبعد الذي لقيت من هذا الرق، لست لأحد، لا للعرب، ولا للبشكنس الذين سبوني، ولا حتى لقومي أهل جليقية. إنما أنا لنفسي فقط، ولكل من صارت إلى ما صرت إليه، ولو كانت في آخر الدنيا..

أخذت عريب تتأملها بمودة وإشفاق وإعجاب معاً. وشعرت كأنها الأخت التي لم تكن لها يوماً. ومع ذلك قالت بلهجة وادعة:

- أفهم ما في نفسك. ولكن ليس كل الإماء على رأيك وشعورك هذا. بل إن كثيراً منهنّ لو خُيِّرت بين حال الزوجة الحرّة وحالها، لاختارت ما هي فيه! تعجبين من كلامي؟ كذلك الحياة مليئة بالأعاجيب.. انظري حولك.. الحرّة للولد والنسب، أما الجارية عند الرجال فبهجة للنفس، ولذة للعين، وطرب للأذن، وزينة وظرف في المجلس.. و.. نعم، متعة في المخدع يخلع معها الرجل ثوب الحياء، ويطلق رغائبه على سجيّتها، بما لا يليق مع رصانة الحرّة. ولكي تكون الجارية ذلك كلّه، يعمدون إلى تعليمها كل أسباب الأنس: الموسيقى والغناء وشعر الحرب والنوادر والقصص والأخبار.. ويبرزونها في المجالس، ويحجبون الحرّة صوناً لها وتمييزاً لها عن الجارية. فكأن الحرّة قد صارت حبيسة حريتها، والجارية طليقة في عبوديتها. فأي مفارقة أعظم من هذه؟ ثم صارت الجارية تلد الملوك والأمراء.. فإذا صارت أم ولد، ثم ملك ولدها، ملكت معه. فتصير الجارية المملوكة مالكة.. سيدة القصر المطاعة.. هل تفهمين قولي؟ والآن.. دعيني أمسح ظهرك بهذا الزيت، فإنه مُجَرَّب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قد مرّ على حصار سرقسطة زهاء سبعة أشهر، حتى عزّت الأقوات وفرغت الأسواق، وخشي الناس الهلاك. ولكن، ما كان الصميل بن حاتم ليُسلِّم لعدوّه، إلّا أن يغلبه أهل سرقسطة على نفسه من شدّة الكرب، فيعمدوا إلى الأبواب فيفتحوها قسراً. وهذا ما كان يخشاه وقد بدأ الناس في التململ. حتى

إن ولده جوشن اقترح عليه الخروج لمناجزة القوم، فإما قدِر على إجلائهم، وإما أعذر إلى نفسه. ولكن الصميل نهره وقال:

- والله ما أخشى أن أناجزهم فأُقْتَل، ولكني أخشى الموت قبل أن أشتفي من العبدريِ والزهريّ، وقبل أن أقرع رأس يوسف الفهري بالسيف. ما يفعل رجل صديقه شرّ من عدوه، إلّا أن يصبر حتى ينال ثأره.

كانت عساكر النجدة من القيسية والموالي قد صارت على بُعد مسيرة يومين من سرقسطة. وخشي القوم أن ييأس الصميل فيسلّم قبل وصولهم. فأرسلوا فارساً سريعاً يسبقهم إلى المدينة، فيحتال حتى يصير قريباً من السور ثم يطلق سهماً يقع خلف السور، وقد لُفَّت عليه رسالة تبشِّر الصميل بقرب وصول النجدة.

وقد كان. وقرأ جوشن لأبيه الأميّ ما في الرسالة، وكانت بيتين من الشعر:

تبشّـر بالسلامة يا جدارُ

أتاك الغوثُ وانقطع الحصارُ

أَتَتْك بناتُ أعوجَ ملجماتٍ

عليها الأكرمون وهم نزارُ

تهلّلت أسارير الصميل. وقال لولده:

- ألم أقل لك.. الشجاعة صبر ساعة.

ولما وصل خبر اقتراب النجدة إلى العبدري والزهري وعساكرهما التي تحاصر المدينة، خشوا أن يحصروا بين الفريقين، فتهاجمهم النجدة من وراء، ويخرج عليهم الصميل وجنده من أمام. فقرروا رفع الحصار والتنحّي إلى ناحية يرقبون ويقدِّرون.

عبّر الصميل عن شكره العميق لأبي عثمان. وتعجّب أن ينهض إلى نجدته وهو الذي نأى دائماً بنفسه وبقومه عن صراعات القبائل. وكان الصميل قد صنع لنفسه ثروة عظيمة في سرقسطة، وإن لم تُجْدِ نفعاً حين نفدت الأقوات في الحصار. فأخرج قدراً عظيماً منها ووزّع الأعطيات على الجند، وخصّ كبار القادة بهدايا عظيمة.

ثم فوجئ الجميع بقراره التوجه إلى قرطبة مع سائر الجند، تاركاً سرقسطة بلا حامية تمنعها. ولم يكن تعجّب جماعته أكبر من تعجب العبدري والزهري. فالآن وقد أوغل الصميل في طريقه إلى قرطبة، صار بوسعهما أخذ سرقسطة بلا مقاومة، بعد إخفاقهما في ذلك الحصار الطويل! وما كان لأحد أن يدرك غاية الصميل المعروف بالدهاء.

وفي الطريق إلى قرطبة، اختلى أبو عثمان وصهره عبد الله بن خالد بالصميل، واصطحبا معهما بدراً. دقّق الصميل نظره في بدر وقال:

- لا أحسب أني أعرف الفتى!

أجاب أبو عثمان:

- ستعرفه حين نعرض لك المسألة.. يا أبا جوشن، نريد أن نحدثّك في رجل من أبناء الخلفاء.

- أيّ خلفاء؟

- نحن موالي بني أميّة يا سيدي.

أشار الصميل بيده إلى بدر مستغرباً:

- هذا من بني أميّة؟

أجاب أبو عثمان:

- لا.. هذا رسوله إلينا.. وإليك.

- آه.. عَجِبت للحظة.. فليس في وجه هذا الفتى سَمْتُ أبناء الخلفاء.

كتم بدر امتعاضه. وقال الصميل:

- أكْمل يا أبا عثمان.

- تعطينا عهدك أولاً أن تكتم الخبر مهما يكن رأيك. ونحن لك تَبَع، لا نعمل بغير رأيك.

- لكم عهدي.

- إنه فتى من ولد هشام بن عبد الملك.. عبد الرحمن بن معاوية.

- نجا من المسوّدة؟ قد كُتبت له الحياة.

- وهو حقيق بأكثر من مجرّد العيش يا أبا جوشن.. فهذه البلاد من إرث آبائه. وأنت أجدر الناس أن تذكر ذلك. فقد نزلت هذه البلاد مع طالعة بلج بعهد من هشام بن عبد الملك.. جدّ صاحبنا هذا.. فأنت أولى الناس به.

- أين هو؟

- ينتظر في عدوة المغرب، وقد لقي في خروجه من الشام عنتاً شديداً، حتى إذا بلغ القيروان طلبه صاحبها عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وهو يخشى إن نزل الجزيرة، أن يطلبه صاحبك يوسف

الفهري لابن عمّه صاحب القيروان. وهو يريد الإيواء والأمان وأن يُعطى أخماس جدّه هشام ليتعيّش بها.

ثم أردف بلهجة حذرة:

- إلّا أن يرى أبو جوشن أكثر من هذا! أو أقلّ!

أجاب الصميل دون تردد:

- إني معكما فيما تحبّان، فاكتبا إليه أن يحضر، فإذا حضر سألت يوسف أن ينزله في جواره وأن يُحسِن إليه ويزوِّجه ابنته، فإن فعل، وإلّا ضربنا صلعته بأسيافنا، وصرفنا الأمر عنه إليه.

وتوجه الصميل إلى جواده ليعتليه ويتابع المسير، ولكنه توقف في آخر لحظة واستدار ينظر إلى بدر، ثم خلع عباءته وألقاها عليه.

- هذه لك. ولو كان عليّ الآن خير منها لوهبتك إياه.

قال بدر ممتنًّا:

- لقاؤك يا سيدي أعظم غنيمة.

تخلّف عنه الثلاثة، وخاطب أبو عثمان صهره عبد الله بن خالد:

- ما ظنّك؟

@ - قطع بالإيواء والحظوة والنُّصرة، ولم يقطع بالإمارة.

- ما أحسبها قد فاتته. فهو يدرك أن حفيد هشام إذا نزل الجزيرة، فإنه لا يطلب أقل من الإمارة.

- ربما، ولكنه لم يشأ أن يلزم نفسه حتى يروّي في الأمر، وينظر حاله مع يوسف الذي خذله.. وليس لنا إلّا الصبر.. فإن كلامه يؤمّل على كل حال.

قال بدر:

- ولكنّ سيدي الأمير لن ينزل الجزيرة على ذلك الوعد من الصميل، حتى يقطع بخلع الفهري وتأميره، وإلّا عدلنا إلى شيوخ اليمنيّة.

قال أبو عثمان:

- فلا مفرّ من الحرب عندئذٍ، وليكن. ولكن نصبر على الصميل حتى يعطينا أو نيأس منه. فالصبرَ الصبر.

وقبل وصول قرطبة، فصل الموالي ومعهم بدر إلى منازلهم في كورة البيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دار الإمارة في قرطبة، كان يوسف الفهري ينتظر وصول الصميل بقلق بالغ، وقد علم شدّة سخطه عليه. فما الذي يجعل الصميل يتعجّل العودة بجنده، ويترك سرقسطة ليأخذها أعداؤه بأهون الأسباب، إلّا أن يكون سخطه على الفهري قد تقدّم على كل اعتبار!

بالغ الفهري في الاحتفاء بوصول الصميل وسلامته، واحتضنه بقوة، ولكن الصميل لم يبادله ذلك، وبقي عابساً جامد الوجه، وقال بجفاء:

- الآن تهنئني بالسلامة، وما أردت إلّا هلاكي إذ تقاعست عن نجدتي كل تلك الشهور! إن كان الصاحب مثلك، فما بال العدوّ؟ وما حالي وحالك إلّا كما قال الشاعر:

فإمّا أن تكون أخي بحقٍ

فأعرفَ منك غثّي من سميني

وإلّا فاطَّرحني واتخذني

عدواً أتقيكَ وتتقيني

قال الفهري:

- لا تسيء الظنّ يا أبا جوشن. لقد علمتَ أن اتصال الثورات في أنحاء الجزيرة قد استنفد المال والطاقة، مع ما بقي من آثار القحط الذي ضرب الجزيرة ست سنين. وما زلتُ منذ ضرب عليك الحصار أستنهض الجند والصائفة من منازلهم، وهم متفرّقون بين الثغور وكورهم، ليجتمعوا إليّ فنخرج لنجدتك. وانظر عصبتك القيسية. ألم يتثاقلوا عن المسير إليك سبعة أشهر وهم أسرع الناس إلى نصرتك؟ وحين هممت أن أخرج، تناهى إليّ أن الحصار قد رُفع.. فسكنت خواطري. ولكن، كيف أخليت سرقسطة للعبدري والزهري وعجلت إلى قرطبة؟

أجاب الصميل متهكماً:

- لتكون قسيمي وشريكي في القضاء عليهم.. لم أشأ أن أنفرد بالفضل والمجد وحدي.. أم شئتَ أن تنعم بمغانم الحكم دون مغارمه؛ تتأخر ساعة الفزع، وتتقدم ساعة الطمع. ما هذه بالقسمة العادلة.. سبحان الله! هذا الذي كان معتزلاً في البيرة، زاهداً في الدنيا.. نراوده على الإمارة فيأبى.. فلما ذاق حلاوة المُلك أطغاه الطمع.

- دعك من هذا يا أبا جوشن. إنك لتعلم أنك ما قدّمتني للإمارة إلّا ليكون لي منها الاسم والمظهر، ويكون لك الفعل والمخبر.. و.. نعم زهدت بها أول الأمر. ولكن، إن كان لا بدّ وقد أوردتني آثامها، فلتكن لي بخيرها وشرّها، ولولدي من بعد. وكما يقول المثل في الأندلس: إن كنتَ آكِلاً خنزيراً، فليكن خنزيراً سميناً!

ثم استدرك مستغفراً. وقال الصميل:

- أما الاستغفار فلله، وأما الاعتذار مني فأن تَجْمَع وأجمع، ثم نخرج معاً إلى سرقسطة ونحصرها حتى يسلّم لنا الكلاب، فنقتلهم شرّ قِتلة. ثم يسعنا أن نتحدّث عن بقائها لك ولِعقبك. هل وعيتَ قولي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

- طلبتني في أمر؟

سألت حُلل دون أن تتقدم من موضعها لدى الباب.

حدّق فيها أبو زيد، عبد الرحمن الفهري بنظرات شهوانية زائغة، وبدا واضحاً أنه أسرف في @شرب الخمر، فقال بلسان ثقيل:

- آه.. نعم.. ادخلي.

دخلت بضع خطوات فقط، وانتظرت أوامره. تجرّع كأساً، وقال:

- صبّي لنفسك.

- لا أشربه.

- لِمَ لا؟ إنه يُصلِح المزاج، و..

قاطعته:

- وحرام.

- وتمّيزين الحرام من الحلال؟

- ألستُ قد أسلمت؟

- وأنا مسلم في الأصل!

- (كل نفس بما كسبت رهينة).

- وأحفظوكِ من القرآن؟.. لا بأس عليك.. أنا سيّدك، وأحتمل عنك ذنبك.

- لا تغني عني من الله شيئاً.

- ما شاء الله. متفقهة في دين العرب؟

- بل دين الإسلام.. وهو للناس كافّة. والآن، إن كنت في حاجتي فقل، وإلّا..

قال بلهجة آمرة:

- قولي: يا سيّدي. ألم تتعلّمي الأدب بعد؟

- كما تشاء.

تحوّل بلهجته إلى التلطف والتودد:

- لا بأس عليك.. هيا ارفعي الكلفة، فذلك أدعى للصحبة.

قالت مستنكرة:

- الصحبة؟

- يهمّني أمرك يا حلل، ويسوؤني ما تفعله أمي بك، سامحها الله. ولكني أستطيع أن أدفع عنك.. فتاة في مثل جمالك تستحق أفضل من هذا.. أفضل من أن يُمتهَن جمالها في الخدمة، وأن يُهدَر شبابها بلا طائل.

- لم أَشْكُ لك يا سيدي.

- ولكني أنا أشكو.. أشكو من الملل في هذا القصر.. وأنت تشكين منه يقيناً.. فلماذا لا تؤنسين وحدتي وأونس وحدتك! هيا تبسّطي.

استدارت لتخرج، فأسرع إلى اعتراضها، وأغلق الباب.

- إلى أين؟ لم يأذن لك سيّدك.

قالت بنبرة حازمة:

- تنحَّ من أمامي، فإني لا أحلّ لك.

قال بغلظة:

- أنت جارية في هذا القصر.

- جارية أمك.

- وما لأمي فهو لي.

- لستُ متاعاً تتقاسمه مع أمك.

- أنت كذلك عندي.

- إن لم تتركني وشأني صحت حتى يجتمع عليك أمك وأبوك وأهل القصر جميعاً.

ولم تنتظر حتى بدأت بالصياح:

- يا ناس.. يا أهل القصر.

أسكتها من الفور مضطرباً:

- اششش.. اخرجي قبّحك الله.. جارية حمقاء لا تدري سبب سعدها من سبب تعسها.

خرجت.. وهو يلاحقها بتهديداته:

- ولسوف أجعلك تكابدين حتى تُقَبّلي قدمي.. هه.. جارية حمقاء. ما تظنّ نفسها؟

أخذت تفتش في صندوق جواهرها، وفي الأدراج، وفي كل موضع من جناحها، وكررت ذلك مراراً دون طائل. قد اختفى عقد الياقوت، وكان أحبّ الحليّ إليها وأثمنها.

قالت ابنتها فاطمة وقد رأت قلقها الشديد:

- أمعني التفكير يا أماه.. حاولي أن تتذكري آخر مرة كان عليك.

@ صاحت زوج الفهري:

- حاولت الطرق كلها، ولا جدوى. فلم يبقَ إلّا أنه قد سُرِق.

جمعت لها الوصائف والخادمات، فأنكرن جميعاً وحلفن على ذلك أيماناً مغلّظة. وأخيراً قالت زوج الفهري مهدِّدة متوعّدة:

- أنصتنَ جيداً. أعرف أن واحدة منكن قد أخذته. فإن لم تردَّه عليّ حتى هذا المساء، فسوف آخذكنّ جميعاً به.. تُحرمن من الطعام والشراب وتُضْرَبن حتى تعترف الخائنة منكن، أو تدلّ عليها من تعرفها..

وإذ خرجت مع ابنتها إلى الدهليز، قالت فاطمة:

- ليس من العدل أن تعاقبيهن جماعةً بالظِنّة يا أماه، حتى يتبيّن لك الفاعلة على وجه اليقين.

- لا تعلميني العدل أيتها الفتاة.

هنا سُمع صوت أبي زيد، عبد الرحمن:

- لا ظِنّة، وعندي الخبر اليقين.

كان يقف أمام باب جناحه. وتابع:

- الآن فهمت مغزى ما شهدت.. لمحتها تتسلل من حجرتك لواذاً وأنت خارجها، وتسوّي جيب قميصها على شيء قد أخفته تحته.

قالت زوجة الفهري:

- من؟

- عديني أولاً ألّا تسرفي في عذابها.. فإن جمالها يشفع لها.

بعد هنيهة، كانت الخادمات ينبشن متاع حلل في حجرتها، وهي تصيح محتجة:

- لست سارقة. أنا أشرف من أن أمدّ يدي إلى ما ليس لي.

قالت زوج الفهري:

- ولك لسان تحتجين به أيتها الخائنة..

حين لم تجد الخادمات ما يبحثن عنه، قالت زوج الفهري:

- بالطبع.. كيف توهّمنا أنها ستخفيه هنا وهو أول ما نفتش فيه؟ سنقطع يدك أيتها الخائنة. ولكن، ليس قبل أن أسترجع عقدي منك، حتى لو هلكتِ تحت العصا.

وبالفعل، لم تُلْقِ زوج الفهري العصا حتى تعبت يدها، ثم أمرت أن يُلقى بحلل في حجرتها ويُمنع عنها الطعام والشراب حتى تعترف وتُخْرِج العقد.

مضى على حلل ثلاثة أيام وهي على تلك الحال في حجرتها، يتناهشها الجوع والعطش والأوجاع الشديدة من أثر العصا. ولم تُجْدِ توسّلات فاطمة الفهري في استعطاف أمها من أجلِ المسكينة. ثم بلغ بها الأسى على حالها أن غافلت الجميع ودسّت لها بعض الطعام والشراب، مجازفةً بالتعرّض لغضب أمها.

وبعد يومين آخرين، دخلت فاطمة على أمها وقد ضمّت ذراعيها خلف ظهرها، ثم كانت المفاجأة. فقد رفعت يدها بالعقد المفقود أمام أمها التي فزّت من مكانها وقد ضجت بالدهشة والبهجة، وقالت:

- كيف استطعتِ أن تقنعيها بالاعتراف.

هزّت فاطمة رأسها بأسف، وقالت:

- ليتها كانت الفاعلة! إذن لاستحقت عقابها، ولم ينلك إثمها.

- فمن؟

دخلت زوج الفهري وابنتها على عبد الرحمن الفهري في حجرته. فنظر إليهما مستطلعاً، ثم رفعت زوج الفهري يدها بالعقد، فحاول أن يداري اضطرابه، وتظاهر بوقع المفاجأة قائلاً:

- الحمد لله.. أخيراً!

أرسلت إليه أمه نظرة صلبة:

- هل فوجئت؟ خمّن أين وَجَدَتْه أختك!

لم يعد ثمة مجال للتهرب من الحقيقة، فأطرق خجلاً، وتابعت أمّه:

- ألا تخجل من نفسك؟ أردت أن تعاقبها لأنها امتنعت عليك؟ سليل عقبة بن نافع يستحلّ الحرام، وجارية من جليقية أسلمت بعد السبي تخاف الله في دينها ونفسها؟ أين مروءة الرجال؟ أهذا هو الرجل

الذي سيخلف أباه على الأندلس؟ ربّما كنت قاسية بعض الشيء. ولكني، علم الله، لا أحب أن أظلم بريئاً، فأبوء بغضب الله.. وأخشى زوال النعمة بعد أن اختَبَرنا الله بها.. وإن كان ثمة خير فيما ابتليتنا به، فهو أن أَخْرَجَتْني من غفلتي.. وإني أتوب @إلى الله وأستغفر لذنبي.. فاستغفر أنت لذنبك.

ثم التفتت إلى ابنتها:

- اخرجي إليها وطيِّبي خاطرها وأحسني إليها.. و.. اعتذري منها عنّي.. بل اطلبي منها أن تسامحني أمام الله.

تحركت فاطمة لتخرج، فاستوقفتها أمها، ثم خلعت خاتمها الثمين وناولته ابنتها:

- واهدها هذا مني.

انبسط وجه فاطمة، وضمّت يدها على الخاتم، ثم أرسلت نظرة تأنيب إلى أخيها وقالت:

- صدق الله: (ونبلوكم بالخير والشر فتنة). والابتلاء بالخير أشدّ على الإنسان، وأهون على عمل الشيطان.

رضيت حلل بالاعتذار والمواساة. وكانت تكن احتراماً ومودّة لفاطمة لما رأت من رفقها ورقّة قلبها. وكان يكفيها أن تحتضنها حناناً على الرغم من اختلاف المنزلة، ولكنها أبت قبول الهدية، ولم تفلح محاولات فاطمة في إقناعها بقبولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ صبر بدر ينفد وقد طال الانتظار، ومضى عليه الآن ثمانية شهور دون أن ينعقد الأمر مع الصميل على اتفاق واضح. وأخيراً أخبره أبو عثمان أن الصميل والفهري يوشكان على الخروج إلى سرقسطة لحصار العبدري، وأن الفهري قد كتب إليه ليلتحق بالجيش مع رهطه. فإذا لحقوا بهم ذكّروا الصميل بوعده، فإن قطع لهم بالطلب وأعطاهم عهده، فتلكم الغاية، وإلا يئسوا منه فعدلوا إلى اليمنيّة، حتى إذا استوثقوا منهم رجع بدر إلى سيده ليأتي به، بينما يكون الفهري والصميل في حصار سرقسطة بعيداً عنهم.

وتعمّد أبو عثمان ألّا يخرج إلا بنفسه وبصهره عبد الله بن خالد، وبدر، دون مقاتلة الموالي. وحين أدركوا الفهري والصميل في جيّان وسئل أبو عثمان عن جند الموالي تعذّر بأن من كانت فيه قوّة نهض مع أبي جوشن حين كان محاصراً في سرقسطة، فتقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر ذهاباً وإياباً، فأحبوا هذه المرة أن يتقووا بجديد شعيرهم، ثم يلتحقوا بالقوم قبل أن يبلغوا سرقسطة.

وفي اليوم التالي تأخر الصميل في النوم حتى أضحت الشمس. وكان قد أثقل في الشراب ليلته الماضية. فسبقه الفهري في المسير. فلما أفاق الصميل سبّ خدمه وشتمهم أنهم لم يوقظوه قبل ذلك. وكانوا قد امتنعوا عن ذلك خشية غضبه. وكانت فرصة سانحة لأبي عثمان ليستأذن عليه قبل أن يستعد للحاق بالفهريّ. وخاطبه قائلاً:

- تذكر يا أبا جوشن الأمر الذي راجعناك به قبل شهور. وقد دخل العام الجديد.

كان أثر الخمر ما يزال فيه، فهز رأسه وسأل:

- أي أمر؟

هذه المرة آثر أبو عثمان ألا يداري في الطلب:

- الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وطلبه السلطان في هذه البلاد!

- آه.. ذاك! نعم.. أما والله إني ما غفلت عن ذلك، ولقد روّيت فيه، وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً، وفاءً بما وعدتكما من ستره.

تريّث لحظة، وبحث عن مسواكه، وأخذ يسوك أسنانه كعادته، بينما وقف أبو عثمان وصهره وبدر يترقبون. ثم استأنف الصميل:

- وقد رأيت أن صاحبكم حقيق بالأمر. فاكتبا له على بركة الله، فإذا حضر كان على هذا الأصلع أن يتخلّى له عن الأمر ويزوِّجه ابنته، فإن فعل قَبِلنا منه وعرفنا حقّه ومِنّته ويده. وإن كَرِه هانَ علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا.

تهللت أسارير الثلاثة، وهتف أبو عثمان:

- بارك الله بك يا سيد قيس وشيخ العرب.

ثم أخذ يده فقبّلها، وكذلك فعل صاحباه. واستأذن أبو عثمان بالرجوع من ذلك السفر، ليكتبوا إلى الأمير الأمويّ، ويكونوا في استقباله على ذلك العهد.

ما إن صاروا على بُعد فرسخين في طريق الرجوع، حتى أدركهم أحد فرسان الصميل، يأمرهم أن يقيموا مكانهم حتى يأتيهم. اعترتهم الحيرة والقلق. فليس من طبع الصميل أن ينهض لأحد، بل يأمر فيأتيه الناس. وما هي حتى وصل الصميل في ثلة من فرسانه، ثم انتحى بهم.

قال أبو عثمان:

@ - لعله خير يا أبا جوشن. كنا رجعنا إليك ولم تتكلّف لنا.

أطرق الصميل لحظة وحكّ رأسه تحت عمامته، وعاد يسوك أسنانه، قبل أن يتحدث دون مواربة كما هي طبيعته:

- إني منذ أتيتموني وأنا في إدارة وتفكير، فاستحسنت ما دعوتم إليه، ثم كان مني إليكم ما كان.. فلما فارقتموني روّيت فيه من جديد، وأعدت النظر والرأي. فوجدت أن صاحبكم ابن معاوية من قوم لو بالَ أحدهم في هذه الجزيرة لغرقنا نحن وأنتم في بوله. أولاد الخلفاء لا يرضون بِرسم الحكم دون خطّه وفَصْلِه، ولو أمروا الناس أن يقتلونا العشيّة لفعلوا.. وما كنت لأغركم حتى أعذر إليكم.. فإن شاء أن يأتي فنؤمِّنه ونُحسْن إليه وننزله داراً حسنة، ونجري عليه المال، على أن ينزل عن طلب الإمارة، فله على ذلك عهدنا وعهد أبينا. وإلّا فإني أول من يرفع عليه السيف. بارك الله بكم وبصاحبكم.

سكت الثلاثة كأن على رؤوسهم الطير، ثم أسرع أبو عثمان إلى القول:

- لا نخالف رأيك يا أبا جوشن.. لنِعْمَ الصاحب والجار.

وانفتل الصميل مع ثلة فرسانه عائداً بسرعة.

لم يعد الآن بدّ من مراجعة اليمنيّة، وعلى رأسهم أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي في أشبيلية. وتوصّلوا قبل اليحصبي إلى شيوخ اليمنيّة في شذونة وسائر الأنحاء في جنوب الأندلس. فكُلّهم أعطى عهده، على أن يكون مردّ الأمر إلى كبيرهم أبي الصباح الذي كان أكثرهم حماساً واندفاعاً. فلن يجد فرصة كهذه للثأر والانتقام من الصميل ورهطه، لمصارع قومه في «شقندة»، تحت راية أمير أموي من أبناء الخلفاء. فليكن يوماً كيوم مرج راهط، حين انتصر جدّه الأكبر مروان بن الحكم باليمنيّة على القيسيّة، وإن كان يرجع مع القيسية إلى جدّ واحد: مضر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لو أطعتني وتزوجت، لوجدت من يؤنِسُك بدلاً من خالتك العجوز.

بقي صامتاً واكتفى بابتسامة غامضة. وشرد ببصره بعيداً نحو البحر. ثم عادت تقول:

- تَفكِر في صاحبك وقد تأخر خبره عنك عاماً حتى الآن. هل بدأت تراودك الظنون به؟ تخشى أن يكون قد وجد في الأندلس ما أغناه عن حاجتك!

هز رأسه يميناً وشمالاً مستبعداً الفكرة. ثم قال:

- يا خالة.. كيف تعجبين من صمتي وتفكيري، وعقلي موزّع بين الذي خلفت ورائي في الشام: ولدي سليمان الذي بلغ الآن ثمانية أعوام في غيابي.. وأختيّ أم الأصبغ وأمة الرحمن، وأخي الوليد، وأبناء إخوتي الذين قتل المسودة آباءهم.. وصورة أخي هشام الذي ذبحه المسودة أمام عيني.. وبين ما أستقبل أمامي من ذلك البحر وما وراءه.. المصائر يا خالة: المصائر التي حملت أمي من هذه الديار إلى الشام لتلدني وتموت فيها.. ثم حملت ولدها من الشام إلى ديارها هذه.. فكأنه قد قُدِّر أن أتبادل وأمي الأوطان، وأن يلزمنا الشعور بالغربة مهما نبلغ في ديارنا الجديدة. هي امرأة أمير أموي في الشام.. وأنا..

توقف عن الكلام مطرقاً.. حدقت فيه وقالت:

- وأنت ماذا؟ ما تؤمّل أن تبلغ في الأندلس التي سبقك صاحبك، أو خادمك، لا أدري، إليها.. وليس معك إلا نفسك.

- معي مصيري يا خالة.

- وتعرفه؟

سكت متأملاً من جديد، ثم نهض واقفاً وقال:

- أحب أن أعتقد أنني أعرفه! بل يجب أن أصدِّق أني أعرفه.. لقد دُفِع فيه حتى الآن ثمن غالٍ.. دماء غزيرة.. وفُرْقة الأحباب والأوطان.

ومضى ماشياً صوب البحر كعادته في كل يوم منذ وقت. يتمشى على رمله، ويرسل نظره عبر الماء إلى عدوة الأندلس.

أدركته صلاة العصر هناك، فبسط رداءه على الرمل وصلّى، وحين سلّم، التقط بصره مركباً يُقبِل من بعيد.. وقف وتقدّم محدِّقاً حتى خاض بقدميه في الماء.. وحين اقترب المركب لم يصدِّق بصره حين لاحَ له بدر بين آخرين في مقدمة المركب، وشكّ أن الرغبة الشديدة تصوّر للإنسان ما يريد، لولا أن بدراً بدأ يلوِّح له وقد ميّزه الآن.. فهاجت مشاعره، وخفق قلبه، ووجد نفسه يتقدّم في الماء حتى وصل إلى ركبتيه، إلى أن رسا المركب أخيراً، وقفز منه بدر وهو يهتف:

- مولاي!

وانكبّ على يده ثم على رأسه يقبّلهما، ولم يشأ أن يمهّد للبشرى فقال من فوره:

@ - أبشر يا أبا سليمان، قد اقترب سعدك، ودنت غايتك..

ثم أشار إلى اثنين من رفاق الرحلة:

- مواليكم يا سيدي.. هذا تمّام بن علقمة.

هتف عبد الرحمن مستبشراً:

- تمّام.. فأل خير.. قد تمّ لنا الأمر إن شاء الله.

أشار إلى الآخر:

- وهذا أبو فريعة.

قال عبد الرحمن:

- فأل خير إن شاء الله.. قد افترعنا الأندلس.

تقدم الرجلان وقبّلا يد عبد الرحمن.. وعلّق بدر مداعباً:

- وبدر؟ أليس البدر فألاً حسناً في كل حين.

ربّت عبد الرحمن على كتف بدر متحبباً، وأردف بدر:

- هيا يا سيدي.. لا نقيم الليلة هنا حتى نرجع معاً. قد هبّت رياحك يا سيدي فاغتنمها.. والوقت إما أن يكون لنا أو علينا.. وسيأتيك البيان..

كان لا بدّ أن يودّع خالته وقوم أمّه الذين آووه وأحسنوا إليه. وكان آخر ما سمعه من شيخ ذلك الحيّ من نفزة:

- خذ إرث آبائك هناك.. المُلك. ولا تنسَ إرث أخوالك الذين قاتلوا عليه، الشورى والعدل.

أما خالته فكان آخر ما ودّعته به قولها:

- لعلك لا تراني بعد اليوم يا ولدي.. ولكن اذكر أن نصفك لأميّة والعرب، ونصفك لبربر هذه البلاد.. فاجمع ولا تفرّق.

شيّعه أهل الحيّ على شاطئ البحر وهو يصعد المركب، بالزغاريد والدفوف والأهازيج، ولبثوا على ذلك حتى ابتعد القارب مبحراً في ضوء القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأندلس أخيراً.. وهذا ساحل المنكّب.. والعام ثمانية وثلاثون ومائة للهجرة. وهؤلاء شيوخ الموالي على الشاطئ..

وإذ نزل من المركب، سجد لله سَجْداً طويلاً. ثم رفع رأسه وآثار الرمل على جبينه، وانتصب واقفاً، وأقبل عليه شيوخ الموالي يقبِّلون يده ورأسه، ثم يمضون به إلى حصن طرّش.. وهناك انضمّ إليهم بعض شيوخ اليمنيّة، وعلم أنهم قد أخذوا له البيعة في جنوب الأندلس، كلٌّ في جنده وكورته: تمّام بن علقمة مع جند فلسطين، ويوسف بن بخت مع جند الأردن، وجدار بن عمرو المذحجي مع أهل ريّة، وحسان بن مالك الكلبي في ريف أشبيلية. أما أبو الصباح اليحصبي، وعلقمة بن غياث، شيخ لَخَم، وأبو علاقة شيخ جذام، فبقي كل منهم على رأس جنده على أهبة الاستعداد، حتى يؤذنهم أبو عثمان، شيخ الموالي، بموقع اللقاء والحشد، فيقدموا بجندهم.

ومن حُسْن طالع عبد الرحمن، أن كل هذه التدابير قد تمّت والصميل والفهري ما زالا في حصار سرقسطة في الثغر الأعلى البعيد. ولن تبلغهم الأخبار حتى يكون حشد عبد الرحمن من الموالي واليمنيّة قد اكتمل، وهم في عافية وقوّة. أما الصميل والفهريّ فلن يرجعا إلا وقد بلغ بهما وبجنودهما جهد الحصار والقتال والسفر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لم أشكرك قبل الآن يا بدر.

قال عبد الرحمن وهو يتمشّى مع بدر في ساحة الحصن.

- وهل يُشْكَرُ المرء على ما يصنع لسيّده ولنفسه؟ على أننا لم نبلغ بعد غايتنا الأخيرة، حتى تدخل قصر الإمارة في قرطبة، وتجلس على سرير الإمارة، ليبدأ عهد عبد الرحمن بن معاوية.. أو.. عبد الرحمن الداخل!

- تساءل عبد الرحمن:

- الداخل؟

- نعم.. الأمير الأمويّ الذي دخل الأندلس وحده، وجدّد فيها دولة آبائه.

- لم أدخلها وحدي، دخلناها معاً.. بل سبقتني إليها ووطأتها لي، وعقدت التحالفات، وجمعت الأنصار.

- على اسم الأمير وإرث آبائه. ومن سيذكر مع الأمير خادماً لا يُعرَف نسبُه؟

@ - نسبك عملك يا بدر.

- ليت هذا مذهب رواة الأخبار يا سيدي.

- هو مذهبي.

- وكفى بالأمير.

تابعا المشي لحظات أخرى صامتين، ثم توقف عبد الرحمن، وذهب ببصره إلى البعيد متأمِّلاً، وقال:

- تذكر يا بدر حين وقع سهمك إلى جانب سهمي في ذلك الطير!

ابتسم بدر، وهزّ رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

في سرقسطة، وبعد شهر من الحصار، أدرك العبد ري وحليفه الزهري أخيراً الفخ الذي أوقعهما فيه الصميل، حين أخلى لهما المدينة، لينقلب الحال، فيصيرا تحت الحصار وكانا من قبل في سعة وهما يحاصران الصميل فيها. وأدركا بعد الفوت أنه كان عليهما أن يخرجا بجندهما فيناجزوا جند الصميل والفهري في قرطبة، فإذا غلبوا دانت لهم البلاد. أما الآن فهما بين خيارين: كلاهما ينذر بالهلاك. فإن بقوا في سرقسطة هلك الناس وقد نفدت الأقوات، وإن خرجوا وقعوا في يد الصائد، ولا قِبَل لهم بمناجزة الصميل. فأين المخرج؟

ولكن أهل سرقسطة ألزمهم جوع عيالهم مع طول الحصار، المخرج الوحيد الذي يستطيعونه. فما هي حتى هاجت العامّة وحملوا كل ما يقدرون عليه من السلاح، وتوجهوا إلى قصر الإمارة، وتغلبوا على حرسه، ثم أخرجوا العبد ري والزهري قسراً، وفتحوا باب المدينة، وتدفقوا نحو معسكر الصميل والفهري يقودون العبد ري والزهري موثقين.

استخرج الصميل سواكه وأخذ يسوك أسنانه، ثم بصق جانباً ما عَلِق بين أسنانه من السواك. ثم تأمّل السواك فوجده قد اهترأ من طول الاستعمال، فقذفه جانباً، واستخرج غيره، وأخذ يقشّر رأسه ثم يرطبه بريقه.

كل ذلك والعبد ري والزهري موثقين أمامه وقد أُجلِسا على الأرض. وكأنه أراد بذلك أن يستمتع باللحظة على مهل. وأخيراً نظر إليهما وقال:

- أخزاكما الله يا عدوّيّ الله؟

ثم صاح في حشود عامة سرقسطة الذين خرجوا إليه بهما:

- أيها الناس، قد وضعنا عنكم هذا العام كل المكوس والمغارم وأعشار الأرض. وأنا بذلك ضَمين.

ارتفعت أصوات الحشود تهتف باسمه. وشعر يوسف الفهري الذي كان يقف قريباً منه بالامتعاض، أن القوم لم يلتفتوا إليه، وهو صاحب الأندلس.

وبالطبع، لم يكن للعبد ري والزهري عند الصميل إلّا السيف. ولكن بعض الحكماء من قومه اعترضوا على ذلك بقوة، تعظيماً لقدر قريش التي ينتمي إليها العبد ري. وذكروا أنهم جميعاً من مُضَر، وإن افترقت مضر في فرعين: أبناء قيس عيلان بن مضر الذين عُرِفوا بالقيسية، وأبناء إلياس بن مضر الذي ترجع إليه قريش مع قبائل أخرى. فكلا الفرعين مضريٌ، إلّا أن القيسية وقفوا في تسمية أنفسهم عند جدّهم قيس عيلان، وأما الفرع الآخر الذي تنتمي إليه قريش، فأبقوا على نسبتهم لمضر ولم ينزلوا بها إلى جدّ أدنى. فإذا قيل: مضري، عرف الناس أنه من الفرع الثاني من مضر، غير فرع القيسيّة.

ولكن، لم يكن هذا وحده ما دفع أولئك النفر من قوم الصميل إلى الاعتراض على قتل العبد ريّ وحليفه الزهريّ اليمنيّ. فبعد مرور ست وأربعين سنة على الفتح والعيش في الجزيرة بدأ يتنامى عند كثير من الناس حسّ قوي بالانتماء إلى الرابطة الأندلسية الجامعة المانعة، فضلاً عن رابطة الإسلام

التي وصلت بهم إلى هذه الديار. وبدأوا يضيقون ذرعاً بصراعات القبائل التي جنت على الإسلام والمسلمين، ويستذكرون إرث آبائهم الفاتحين. وإن نسوا ذلك ذكّرهم أعداء الأمة والملّة في شمال الجزيرة. فبعد أن حاز الفاتحون جلّ الجزيرة، وألجأوا آخر المحاربين القوط إلى أقاصي جبال جليقية في شمال غرب الجزيرة، اغتنم هؤلاء حروب القيسية واليمنية وتوسّعوا في الشمال، وأنشأوا مملكة أشتوريس، حتى امتدت دولتهم في بلاد البشكنس (نافار) شرقاً، حتى البحر المحيط غرباً، ومن خليج بسكاية شمالاً حتى نهر دويرة جنوباً. وعلى الرغم من أن دولة الإسلام ما زالت تضمّ معظم الجزيرة، فإن تطور الأحداث كان ينبئ كل عاقل غيور أنه إن لم تتوقف تلك الصراعات القبلية المدمّرة، لتقوم لهم دولة قويّة تجمع الناس في أمّة أندلسية واحدة، فالمصير يمكن أن يكون قاتماً، لا يفرّق بين يمني @وقيسي، أو بين عربي وبربري ومُوَلّد، وهو من وُلِد لأب مسلم وأم مستعربة من أهل الجزيرة السابقين قبل الفتح.

نعم، كان الخوف على مصير الإسلام في الأندلس قد بدأ يراود بعض الناس منذ تلك الفترة المبكرة حتى أن أعداداً كبيرة قد غادرت الأندلس إلى المغرب في ذلك الوقت، ولما ينقضِ على وجود المسلمين خمسون سنة!

وزاد المعترضون على ذلك أن ذكَّروا الصميل بأن البشكنس قد اغتنموا فرصة الحصار فأغاروا على أراضي المسلمين في الثغر. وأن الأوْلى الخروج إلى تأديبهم حتى يرتدعوا.

وكان من قاد معارضة الصميل اثنان من مقدّمي قومه القيسية: سليمان بن شهاب، والحصين بن دجن. وكانا صارمين قاطعين في موقفهما. فلم يجد الصميل إلّا أن يبدي الخضوع لرأيهما. ثم انتدبهما لقيادة قطعة من العسكر لمناجزة البشكنس وتأديبهم وردّهم عن الثغور. ولم يُخرِج معهم ما يكفي من العدد والعُدّة، ولكنه وعد بأن يُلحِق بهم غيرهم. وانتظر حتى جاءت الأخبار بهلاكهم على يد البشكنس. وكان هذا مراده. عندئذٍ تولّى بنفسه قتل العبدري والزهري.

أخيراً غدر الصميل ببعض قومه القيسيّة وأوردهم مهالكهم، ثم خفر ذمتهم في قتل العبدري والزهري. فلما أدرك رهطه ذلك، انشق عنه قسم منهم، وغادروا معسكره عائدين إلى منازلهم وقد وغرت صدورهم عليه.

وكان ذلك كلّه يصبّ في صالح عبد الرحمن بن معاوية وأنصاره من الموالي واليمنية الذين وصل خبرهم الآن إلى قرطبة وإلى زوج الفهري! فأسرعت تبعث رسولاً إلى زوجها بالخبر وهو ما يزال مقيماً مع الصميل في سرقسطة. وكانت شديدة القلق والخوف، حتى ذهب عنها خيلاؤها. ولم تستطع «حُلَل» أن تخفي تشفّيها عن صاحبتها عريب، وأنها تتمنّى أن تفقد السيدة سلطانها وسلطان زوجها، وأن تنظر في وجهها حين تغادر القصر كسيفة الخاطر.

وحين وصل كتاب زوج الفهريّ انقبض انقباضاً شديداً. ودعا إليه الصميل على عجل وأطلعه على الكتاب، وكان فيه:

«فتى من ولد هشام بن عبد الملك يقال له عبد الرحمن بن معاوية، قد عبر البحر ونزل بكورة البيرة على الفاسق أبي عثمان، عبيد الله بن عثمان، واجتمع له رهط عظيم، فأدْرِك بيتك قبل أن يحترق».

اكتسى وجه الصميل بالوجوم، وقد استرجع الآن ما كان بينه وبين أبي عثمان دون أن يفصح به. وقال الفهري:

- إني أخاف أن يكون الله قد أنزل بنا نقمته لقتلك من قتلت.

قال الصميل باستخفاف:

- لقد كانوا أهون على الله. والرأي أن نقطع إليه من فورنا بمن معنا من الناس، فإما قتلناه، وإما شرّدناه فهرب.

قال الفهري وقد أخذ منه القلق كل مأخذ:

- أين نحن الآن؟ ما نبلغ قرطبة حتى يكون الشتاء قد دخل، وفاضت الأنهار، وسقط الثلج، فيُحال بيننا وبين كورة البيرة. هذا مع فناء الأموال والأزواد، وعجز الدواب في هذه الحملة الطويلة. وأشدّ من ذلك أولئك القوم من رهطك الذين غادرونا لفعلك في شيوخهم ثم في العبدري والزهري.

قال الصميل:

- مهما يكن، أعيد عليك. الرأي أن نبادره قبل أن يغلظ أمره. فإن لم تفعل ما أشير عليك به، فلسوف تتبيّن غلطك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والحقيقة أن الفهريّ كان مصيباً في عرض أسباب التأخّر. فما إن وصل قرطبة حتى كان المطر والثلج وفيضان الأنهار قد قطعت الطريق إلى كورة البيرة. وكل ذلك أعطى عبد الرحمن وأنصاره فرصة أعظم للحشد والتدبير على سعة من أمرهم.

لم يرد الصميل أن يبقى معطَّلا حتى ينتهي الشتاء ويسلك الطريق. فاقترح بأن يلجأوا في الوقت الحاضر إلى الملاينة والملاطفة، فيوفدوا إليه من يحمل له الهدايا، ويعطيه عن الفهري والصميل وعوداً وعهوداً تُطمِعه وتُطْمِحه. ورأيه أن عبد الرحمن فتى حدث السنّ وقريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما يُدعى إليه. فإذا اطمأنّ إلى جوار الفهري هانَ عليه أن يبطش به وبمن نصروه.

فوجئت حلل وعريب بأمر زوج الفهري بأن تعدّا نفسيهما للسفر، وترتديا خير ثيابهما، وتحملا معهما عدّة الزينة. ولكن المفاجأة الأكبر كانت حين قيل لهما إنهما ستكونان من بين @الهدايا التي ستساق إلى الأمير الأمويّ في كورة البيرة. وله أن يتسرّى بمن شاء منهما، أو يجعلهما للخدمة.

وإذ اختلت إحداهما بالأخرى، انطلقت حلل في ضحك غريب. قالت عريب:

- تضحكين؟ ونحن نخرج من أمر نعلمه إلى أمر نجهله؟

- نخرج من أمر نعلم قبحه علم اليقين، إلى أمر لن يكون أقبح من هذا على أي حال. هل رأيتِ وجه ذلك الفاسق، عبد الرحمن الفهري وقد علم بأني سأخرج إلى عدوّه وعدو أبيه؟ ألا يكفي ذلك لأضحك

وأتشفى من أعماق قلبي؟

قالت عريب:

- لا تتعجّلي بالتشفّي. فإنه رجل يطلب المُلك، ودونه وإياه المهالك. وقد أرادوا أن يتألّفوه، حتى إذا اطمأن إليهم قتلوه. فنعود مع هؤلاء سيرتنا الأولى، ربّما مع زيادة العذاب.

ثم عدلت عريب إلى لهجة مرحة:

- أينا سوف يتسرّى بها؟ إن اختار إحدانا دون الأخرى، صارت الثانية خادمة لها. وإن اختارنا معاً، فقد صارت إحدانا بمثابة الضرّة للأخرى.

ضحكتا معاً. وعقّبت حلل:

- ونسيتِ احتمالاً ثالثاً، ألا يتسرّى بأيّ منا، ويجعلنا لخدمته وحمل نعاله. فإن فعل، فلا تخشي المنافسة، فسوف أنزل لك عن كل ذلك المجد.

ضحكتا من جديد.

تولّى الخروج بكتاب الفهري وهداياه إلى البيرة كاتب الفهري خالد بن زيد، ومعه الناظر على حشم الفهري: عيسى بن عبد الرحمن، وعبيد بن علي الكلابي من قوم الصميل.

وحين اقتربوا من حصن طرش حيث يقيم الأمير وهمّوا بالصعود، توقف عيسى بن عبد الرحمن وقال:

- انتظروا.

انصرفت إليه الأنظار يستطلعون أمره، فقال:

- بأيّ رأي يعيش صاحبانا: يوسف والصميل؟ لا ندري ما يكون من ردّ الأموي حتى نراه وندفع له كتاب الأمير، ونسمع منه. أليس كذلك؟ فماذا إذا دفعنا إليه هديته: ألف دينار، وهاتين الفرسين، وهاتين البغلتين وهاتين الجاريتين، فأخذها منا، ثم ردّ اقتراح أميرنا الفهري ردًّا قبيحاً؟ أفلا نكون بهذا قد غررنا أنفسنا، فأعطيناه ما يقوى به، وما يوهن أميرنا؟ والرأي أن أقيم أنا هنا بالمال والهديّة، وتواصلان أنتما وتعرضان عليه مقترح الأمير، فإن قَبِلَ منا، دعوتماني إليه، فدفعنا إليه هديته، وإذا أبى رجعنا بها لم يغنم منا شيئاً.

أخذ صاحباه بنصيحته.

ولما دخلا على عبد الرحمن، كان عنده شيخ الموالي أبو عثمان، وصهره عبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت، وتمام بن علقمة، وبدر.

فضّ عبد الرحمن الرسالة وقرأ. وكان فيها:

«من يوسف الفهريّ أمير الأندلس، إلى عبد الرحمن بن معاوية. السلام على من اتبع الهدى وبعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكّب، وتأبّش من تأبّش إليك، ونزع نحوك من السُّرّاق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة الذين كذبوا الله فيها وكذبونا. وبه جلّ وعلا نستعين عليهم. ولقد كانوا معنا في ذرى كنفٍ ورفاهية عيش، حتى غَمَصُوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض. والله من ورائهم مُحيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أوْلى بك ممن لجأتَ إليه، وأكنفك وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد. ثم لك عهد الله وذمته ألّا أغدرك ولا أمكّن منك ابن عمي صاحب إفَريقية، ولا غيره. وإن شئت أنزلتك كورة البيرة أو كورة ريّة، ويكون لك حكم الكورتين. وأزوِّجك ابنتي. وبالله نستعين».

رفع عبد الرحمن رأسه عن الكتاب وقد اكتسى وجهه بملامح غامضة، ودفع الكتاب إلى أبي عثمان. ولما نظر فيه انقبضت ملامحه انقباضاً شديداً لما جاء فيه من التعريض والإهانة له ولأصحابه.

كان خالد بن يزيد يقف مبتسماً معتدًّا بنفسه أن الكتاب من تحبيره وبيانه. نظر إليه أبو عثمان وسأل:

- هي من تحبيرك؟

قال خالد بصلافة واعتداد:

- مَنْ غيري وأنا كاتب الأمير؟ ولسوف تعرق إبطاك يا أبا عثمان قبل أن تحبّر جواباً.

اهتزت ملامح الحاضرين لوقاحة العبارة. وحافظ أبو عثمان على هدوئه، ومشى مشيحاً عن @خالد بن يزيد، حتى إذا صار قريباً منه فاجأه بلطمة هائلة، أسالت الدم من طرف فمه، وصاح أبو عثمان:

- تعرق إبطاي يا ابن اللخناء؟

تدخّل الرسول الثاني عبيد بن عليّ مخاطباً أبا عثمان:

- إنه رسول يا أبا عثمان!

- حقًّا!

وعاجل الكاتب خالد بن يزيد بلطمة أخرى أشدّ من الأولى، كاد أن ينطرح لها، وصاح أبو عثمان في بعض الحرس:

- ضعوه في الحبس. قد جاوز حدّ الرسول. فسقط ضمانه. وأنت يا عبيد الرسولُ الآن دونه. وأنْظِرنا ساعةً حتى نجيبك.

أجمع أصحاب عبد الرحمن على ردّ المقترح، وألا يقبلوا منه إلّا أن يعتزل المُلك لعبد الرحمن ويبايعه. وقال صهره عبد الله بن خالد مؤيِّداً.

- ولا والله ما أراد بمقترحه إلّا أن يمكر بك، ثم لا يفي لك بشيء، وحتى لو أراد، فإن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون.

تهللت أسارير عبد الرحمن، وقال:

- أمّا وقد قلتم، فقد نطقتم عما في صدري. ولكني آثرت أن أسمع منكم أولاً. وكان يكفي أن يصرفني عن مقترحه ما نَعَتكم به. فأنا منكم وأنتم فيّ، ولا يسرّني أن يبسط إليَّ ثم يسبّكم، فكأنه سبّني. فإنّ الرجل من أصحابه.

سرّهم كلامه، وازدادوا له محبةً وإعجاباً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد عبيد بن علي وحده إلى حيث ينتظر عيسى بن عبد الرحمن مع حلل وعريب وسائر الهدايا. وأمر بالإسراع في العودة، وأعلمهم بمصير الكاتب خالد بن زيد. ومالت حلل على عريب وهمست لها:

- الاحتمال الرابع الذي لم يخطر لنا.

وقالت حلل متهكمة بصوت يسمعه عبيد وعيسى:

- وهل يرجع الكريم عن هديته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هي الحرب إذن، ولا مفرّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

[redacted] إذ لاحت بشائر الربيع، بدأ عبد الرحمن الحشد والزحف عبر الكور والأجناد، فكلما وصل إلى إحداها انضم إليه جندها: من كورة البيرة حيث جند دمشق، ثم كورة ريّة حيث جند الأردن، فكورة شذونة حيث جند فلسطين، فكورة مورور حيث قبائل المغرب، وأخيراً كورة أشبيلية حيث جند حمص. وما إن وصلها حتى كان جيشه قد عَظُم وتضخّم. وعند أشبيلية خرج له شيخا الحضارمة وسيّدا غرب الأندلس الجنوبي: أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي، وحيوة بن ملامس، مع رهط كبير من أتباعهما وقبائلهما.

وبادر اليحصبي إلى بيعة عبد الرحمن، ولحق به الآخرون. ثم صاح بدر في الجموع:

- الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

هتفت الحشود من ورائه:

- الداخل.. الداخل.. الداخل.

وعسكر الداخل قريباً من الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير الذي يمر بقرطبة وأشبيلية. وجمع الجيش في ثلاثة أجناد غير الموالي. ولما رأى أبو عثمان أن لكل جند لواءً يُعرَف به، ولا لواءَ لعبد الرحمن ومواليه، صاح بالناس:

- ألا نعقد للأمير لواءً نعرفه به؟

تقدّم شيخ اليمنية أبو الصباح اليحصبي، وخلع عمامته وبسطها وناولها لعبد الرحمن ليتخذها لواءً. ونادى عبد الرحمن عبد الله بن خالد، صهر أبي عثمان، ليعقد له اللواء على رأس رمح. وكان في المكان شجرتا زيتون متقاربتان، فركز عبد الله بن خالد الرمح بين الشجرتين قائماً. ثم صعد إحدى الشجرتين، وعقد الراية على رأس الرمح. وإذ نزل صاح في الناس:

@ - لم أشأ أن أُميل الرمح لأعقد اللواء، فإن رمح الداخل لا يميل.

ثم رفع الرمح باللواء إلى الأعلى يهزّه، وانطلقت هتافات الجند هادرةً باسم الداخل.

وبعد أيام وصل الصميل والفهري بجيشهما، وعسكرا على الضفة الشمالية من نهر الوادي الكبير قبالة معسكر عبد الرحمن على الجهة الأخرى.

تقدّم الصميل بجواده حتى صار على ضفة النهر، ونادى:

- أين ابن معاوية؟

وتقابل الرجلان على ضفتي النهر. واستذكر عبد الرحمن يوم رآه في مجلس جدّه في الرصافة، مع كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر، ليوجههم في حملة كبيرة إلى المغرب لقمع ثورة الخوارج البربر. ثم توالت الأحداث حتى انتهت بالصميل إلى الأندلس وإلى التحكم فيها. كان ذلك قبل

خمس عشرة سنة فقط. وها هو يلتقي به الآن مرة ثانية في أقصى الأرض وليس بينهما إلا النهر والعداوة وقرار الحرب حتى الموت أو النصر.

صاح الصميل من مكانه:

- كنا نريد أن نَصِلك ونواسيك ونبرّك، عرفاناً بحق جدّك، ولكنك أبيت. وهذه البلاد لا تتسع لنا ولك، فحق علينا قتالك. ولتجدنّ منا بأساً شديداً حتى تتمنّى لو أدركتك المسوّدة في الشام.

وانفتل الصميل بجواده مبتعداً، بينما تلبث عبد الرحمن يشيّعه بأنظاره وقد أثار كلامه عن المسودة شجونه وأحقاده معاً، وجعله أكثر تصميماً وعزيمة على القضاء على هذا الرجل الذي كان في يوم ما صنيعة آبائه وجندياً يعمل بأمرهم.

إلّا أن النهر كان ما يزال ممتلئاً من ماء الشتاء، فيتعسّر عبوره على أي من الفريقين. فكان لا بدّ من الانتظار.

ثم خطر لعبد الرحمن رأي جديد، وافقه عليه أنصاره. ذلك أن قرطبة قد خلت من الجند الآن. فلو استطاع أن يغافل الصميل والفهري بالمسير مع النهر إلى قرطبة قبل أن يتفطن القوم، ثم سبقهم إليها، لحازها دون مقاومة، وقطع ظهرهم. فأمر بإيقاد النار في الليل حتى يوهم الفريق الآخر بأنهم في معسكرهم، ثم ينهضوا إلى خيولهم بغير ضجيج. ويردف الراكب راجلاً حتى لا يبطّئهم الرجّالة. فلا يتفطن القوم لرحيلهم حتى يكونوا قد سبقوا.

ولكن، لئن كانت أصوات البشر تسكن في الليل، فإن الخيل لا تسكن جميعها مرة واحدة، فيبقى لها حميم وصهيل. فلِمَ غابت أصواتها في معسكر عبد الرحمن؟ فما هي حتى تفطّن بعض جند الصميل والفهري للحيلة. ولم يكن عبد الرحمن قد سار بجيشه غير ميل واحد أو ميلين، حتى كان الصميل والفهري وجندهما قد لحقوا بهم على الضفة الأخرى من النهر. وصاح الصميل:

- ظننت أن تغُرّنا يا ابن معاوية؟ خاب فألك. فلنرَ أينا أسرع إلى قرطبة، ستجدنا هناك في استقبالك كما يليق بولد الخلفاء!

وأطلق ضحكة مدوّية..

وهكذا تابع الطرفان سيرهما على الضفتين كفرسي رهان، حتى وصلا سهل المصارّة بالقرب من قرطبة، وضرب كل منهما معسكره على جانبي النهر نفسه: عبد الرحمن جنوبه، والفهري والصميل شماله، وقرطبة في ظهورهم، فيستطيعون التزوّد منها. أما عبد الرحمن، فليس وراءه غير الخلاء وبعض القرى الصغيرة المتناثرة. وإذ خشي نفاد الأقوات والأعلاف إذا طال الوقت، قرّر أن يكون المبادر إلى خوض النهر ليلقى عدوّه في سهل المصارّة شمال شرقي قرطبة. وطفق مع قادته يبحث عن مخاضة مناسبة حتى وجد غير واحدة منها.

كان يوم عرفة من عام ثمانية وثلاثين ومائة للهجرة. ونادى عبد الرحمن في جنده أن يجتمعوا وكأنهم يقاتلون اليوم. وقسّمهم في ثلاث قطع كبيرة: قطعة لليمانية، وأخرى للموالي، والثالثة للبربر. وبعد أن

رتب صفوفهم من خيّالة ورجّالة ونبّالة، صاح:

- على هذا نقاتل غداً إن شاء الله. وهذا يوم عرفة، وغداً الجمعة والأضحى، وأنا أمويّ، وعدوّي فهري، وجُلّ شيعتي من اليمنية، وجلّ شيعته من القيسية. وإني لأرجو أن تكون أختَ مرج راهط التي وقعت في يوم كيوم غد: الجمعة والأضحى، وكانت بين أمويّ هو جدّي الأعلى مروان بن الحكم ومعه اليمنيّة وفهريّ هو الضحّاك بن قيس، ومعه القيسية. فما بقي من الاتفاق بينهما غير النصر إن شاء الله.

كبّر القوم بحماس جارف وقد تفاءلوا بالموافقة التي ذكرها.

وكان عبد الرحمن على فرس جَموح كثيرة الحركة والقلق تحته. وإذ لحظ ذلك أبو الصباح اليحصبي من مكانه، قال لبعض أصحابه من حوله:

- غلام حَدَث، فما يُؤَمننا من أن يطير على هذا الفرس السريع غداً فنهلك.

@ ما لبث عبد الرحمن أن بلغه كلام اليحصبي الذي كان يمتطي بغلة بيضاء ثابتة. فتقدم بفرسه إلى موضعه وقال:

- يا أبا الصباح. رايتنا من عمامتك، ونريد أن نستكمل أسباب الخير من عندك. وهذه بغلتك ليس في عسكرنا أوفق منها. وإن هذا الفرس يقلق تحتي فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوسي. فخذ فرسي، وهات بغلتك. وإني أحب أن تكون تحتي دابة تُعْرف إن جال الناس.

تلوّن وجه أبي الصباح بالحرج، وقد أدرك أن كلامه قد بلغ عبد الرحمن فأحب أن يطمئن الجميع على عزم الثبات. وتبادل الرجلان دابتيهما.

كان كلام عبد الرحمن عن الموافقات بين مرج راهط وحاله الآن مع الفهري والصميل قد فشا بين عساكرهما، فانخذلت نفوسهم، وخشوا تمام الموافقة بهزيمتهم أمامه. وكان أكثرهم قلقاً الفهري نفسه. ولما رآه الصميل على ذلك، قال:

- قتل الله القائل. هذا والله كلام قد أفشاه ابن معاوية ليقوّي نفوس أصحابه، ويُخَذّل عنا نفوس أصحابنا. دلّني على قائله منا، فإني قاتله.

قال الفهري:

-ادّخر سيفك للغد أو بعد الغد. وإني لأرجو أن يكون بعد غد، حتى لا يقع التوافق.

قال الصميل:

- أما نحن فلن نخوض النهر إليهم. فإذا خاضوه هم إلينا، استقبلناهم بالسهام والرماح وهم في عرض النهر. فكيف يتمّ لهم النصر بذلك؟

بعد عصر ذلك اليوم، فوجئ عسكر الفهري والصميل، ببدر يخوض النهر إليهم وهو يرفع راية بيضاء، ويصيح: رسول.. رسول من ابن معاوية. وحين وقف بين يدي الفهري والصميل، قال:

- يقرئكم سيدي السلام، ويقول: قد فَنِيَتْ أقوات أصحابه، ويخشى عليهم الهلاك من الجوع، وقد بدا له رأي آخر فيما عرضتم عليه من قبل. فهو يرضى منكم بما قسمتم له، ويحقن دماء المسلمين. فإن رضيتم، جاءكم من الصباح غداً مستأمناً، ويعطيكم نفسه على ما أعطيتموه.

غلبت مشاعر الفرح على الفهري، ولم يحاول مداراة ذلك. فقد انزاح عنه بهذا حمل ثقيل، فنهض من مكانه هاتفاً:

- رضينا.. رضينا، الحمد لله الذي أرشده وهداه. عد إلى صاحبك وقل له: هو وأصحابه غداً ضيوفي على سماط الأضحى.

ثم صاح في أتباعه:

- أخرجوا الغنم والبقر واصنعوا الطعام في الليل ليأكل الناس من الجانبين في الغد على سماطي.

لم يكن جلّ عسكره بأقلّ فرحاً منه. إذن، فقد حلّ السلام، وانقضى أمر تلك الموافقات المقلقة مع مرج راهط. وصار بوسعهم أن يسترخوا الليلة. إلّا الصميل الذي بقي متوجًّسا، وقال للفهري:

- ألا ترى أنك تتعجّل تعجّل الملهوف!

أجابه الفهري الآن بلهجة الأمير المتحكم بنفسه:

- أنا الأمير، وصاحب الأمر. فلا تُفسد عليّ ليلتي.

هز الصميل رأسه هازئاً، ومضى إلى قبته، وهو يهمس لنفسه:

- الآن، صاحب الأمر!

باتَ الفهري ليلته في نوم هانئ. وقد انزاحت عن صدره مخاوف تلك الموافقات مع مرج راهط. ولم يدرك أنها كانت خدعة ذكية من عبد الرحمن، حتى أيقظه قبيل الفجر ضجيج وجلبة وحركة، واقتحم عليه الصميل قبته صائحاً:

- اقلب سماطك وانتض سيفك. قد مكر الأموي بك يا.. صاحب الأمر! وقد عبر النهر مع جلّ أصحابه، وما يلبث أن يكتمل عديدهم.

وما هي حتى نُفِخت الأبواق بالنفير والنذير، وهبّ أهل المعسكر إلى سلاحهم ومطاياهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن بزغت الشمس في الأفق، حتى كان الجيشان قد تصافّا: في مَيْمنةٍ وميسرة وقلب، وكان عبد الرحمن على رأس القلب في جيشه ومعه مواليه، يقابله الفهري والصميل في قلب جيشهما. وتحرّك

عبد الرحمن ببغلته أمام جيشه وصاح:

- من يحب أن يدرك معي الجمعة في قرطبة؟

هتف الجميع بحماس هادر: «كلنا».. وأعقب:

- يوم كيوم المرج.. الله أكبر.

ثم أعطى إشارة الهجوم، وتزاحف الجيشان حتى تسارعا ثم كان الصدام. وعلى الرغم من تفوق جيش الفهري بالعدد، فقد كان جند عبد الرحمن أكثر حماساً وبسالة وعزيمة، وكانت الأحقاد القديمة تغذّي اليمنيّة، وأبو الصباح يصيح فيهم:

- يا لثارات شقندة.. يا لثارات أبي الخطّار.. يا لثارات قحطان.

ولم ترتفع الشمس بقدر الرمح حتى كانت ميسرة عبد الرحمن قد أزاحت ميمنة الفهري وشتت شملها وأخذت في الفرار. وهنا شدّ عبد الرحمن مع القلب على موضع الفهري والصميل. ورأى الصميل بأم عينه ولده البكر جوشن يقع صريعاً بسهم اخترق عنقه. فترجّل ونزل إليه يضمّه ويهزّه، فلما تيقّن من موته عاد إلى فرسه، وتابع القتال. وما لبث القلب أن بدأ في التراجع والفرار، وصاح أبو زيد، عبد الرحمن بن يوسف الفهري بأبيه:

- النجاة يا أبي.

وما هي حتى صاح صائح:

- فرّ الفهريّ فرّ الفهري.

ولما أدرك الصميل أن الهزيمة قد وقعت، ولا رجاء بالنصر، لحق بالفهري فارًّا.

ولم تكن الشمس قد توسطت السماء، حين انجلى غبار المعركة عن نصر حاسم لعبد الرحمن وجنده، وارتفعت الأصوات بالتكبير، وصاح عبد الرحمن:

- جمعة الأضحى في قرطبة! وتكبيرة العيد.

دخل عبد الرحمن قرطبة وهم يكبرون بتكبيرات العيد، وقد خرج أهل قرطبة جميعاً يرقبون دخول أميرهم الجديد: عبد الرحمن الداخل.

جلس عبد الرحمن وأصحابه في الصف الأول، يستمعون إلى خطيب الجمعة الذي ذكَّر الناس بمآثر بني أميّة، وأنهم السبب في فتح هذه الديار، حتى غلب عليها من دعا بدعوة الجاهلية وحميّتها التي نهى عنها الله ورسوله، واستحلّ الدماء التي حرمها الله، حتى تعطّل الجهاد، وطمع العدو في الجزيرة وتوسّع في شمالها، وصار إلى الكرّ بعد الفرّ، وبعد أن كان محصوراً في أنحس بقاع الأرض. ثم ذكرهم بقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا)، وبقول رسوله الكريم: «فلا ترجعوا من بعدي كفاراً

يضرب بعضكم أعناق بعض». ثم دعاهم إلى الاجتماع على أميرهم الأموي ونصرته ونصيحته، حتى يضع الدماء والمظالم، ويسوّي بين الناس، فلا تفاخر بعد بالأنساب. ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ثم دعا له بالهدى والتوفيق والرشاد.

وإذ انقضت الخطبة ثم الصلاة، احتشد الناس حول الداخل يهنئون ويبايعون، حتى أقبل رجل من مواليه فاخترق الصفوف إليه وهمس في أذنه أن أبا الصباح اليحصبي وقومه اليمنية قد سبقوه إلى دار الإمارة، ليحوزوا أموال الفهري ويأخذوا حريمه. فأسرع بحرسه ومواليه، حتى بلغ دار الإمارة ودخلها، فوجد رجال أبي الصباح ينقلون المال والمتاع. وبرز أبو الصباح، وصاح عبد الرحمن:

- ما هذا يا أبا الصباح!

ما إن نطق هذه العبارة، حتى برزت زوج الفهري وابنته وسائر حرم القصر، وبينهم حلل وعريب يدفعهن بعض الرجال. وكانت زوج الفهري تضم ابنتها وتبكيان وترتجفان خوفاً. وقال أبو الصباح:

- هذا يوم يثأر الرجل لقومه. يوم بيوم، وقعة المصارّة بوقعة شقندة.

قال عبد الرحمن بنبرة حازمة:

- ما لهذا خرجنا، وما عليه تعاهدنا، ولا نبدأ عهدنا بما ينقض المروءة والدين، فيكون علينا عار الأبد.

قال أبو الصباح:

- أنت لم تشهد مصارع قومنا. فلا عار على رجل أصاب ثأره، وأَخَذَ كما أُخِذ. والبادئ أظلم.

- ما الفرق إذن بيننا وبينهم؟ لا وربّ الكعبة. بل يُرَدّ المال. فما كان لأصحابه فلهم، وما كان للدولة فللدولة. وما هذه حرب القبائل، بل حرب من يطلب الدولة ضد من يفرّقها عُصَباً.

ثم التفت إلى بدر وأبي عثمان وسائر قادة الموالي معه:

- ردّوا ما أُخِذ واحفظوه. أما النساء فنمنعهن كما نمنع حُرَمنا. وإلّا فلنرجع من حيث أتينا.

توقف النهب، ورُدّت الأموال والتحف. وخرج أبو الصباح في زمرته وقد أخذ منه الغضب، @وأخذ يردّد:

- عَصَب! عَصَب!

يعني أن عبد الرحمن قد ذكر عصبة القرشية والمضريّة التي تجمعه بالفهري.

أما عبد الرحمن، فلبث في داخل القصر ليؤمِّن النساء ويُسكِّن خواطرهن. وكن جميعاً يرمقنه بامتنان وإعجاب وتقدير لما شهدن من شهامته. وهو يصرف عنهن أنظاره حياءً، حتى قالت زوج الفهري:

- يا ابن عمّ، أحسن الله إليك كما أحسنت إلينا.

قال:

- سأخرج من القصر إلى مكان أنزل فيه، حتى لا تغادرنه على عجل الخائف الشريد. فأنا أجدر الناس بأن يعلم ذلك. ونُقيم عندكنّ من ينهض بأمركن ويحفظكن. فإذا عزمتن على الخروج في أمن وراحة، فأوفدنَ إليّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما أبو الصباح، فمكث على غضبه. وحين اختلى بأصحابه، وفيهم ثعلبة بن عبيد الجذامي، ردّد قوله:

- نعم. والله عَصَب. وهل الحرب إلّا غارة لنا أو غارة علينا؟ وهل الحرب إلّا المغرم والهزيمة أو النصر والغنيمة؟ أو هي كما قال الشاعر:

يُغار علينا واترين فيُشتفَى

بنا إن أُصبنا، أو نغيرُ على وترِ

بذاك قسمنا الدهر شطرين بيننا

فلا ينقضي إلّا ونحن على شطرِ

لم يشاركه ثعلبة غضبه ورأيه. وكان ممن ملّوا حروب القبائل، وتطلعوا إلى دولة جامعة على الإسلام والأمة الأندلسية. فقال:

- ذاك شاعر قضى في الجاهلية. وقد وضع الإسلام حميّة الجاهلية.

قال أبو الصباح:

- هذا لو كان الصميل على هذا الرأي. وقد أغوى معه ذلك الفهريّ. وإنما نعتدي بمثل ما اعتُدي علينا، وذاك هو العدل.

أطرق لحظة متفكراً، ثم التفت إلى ثعلبة وقال:

- يا ثعلبة. ما رأيك في فتحَيْن في يوم واحد؟

- وكيف ذاك؟

- قد استرحنا من يوسف والصميل، فهلمّ بنا نسترح من هذا الأمويّ، إذ لا شوكة له بدوننا. وهو بعد لم يهدأ في محلّه. فتكون الأندلس قحطانيّة.

انقبضت ملامح ثعلبة مستنكراً:

- إني أعيذك من هذا يا أبا الصباح.. وقد أعطينا الرجل عهدنا وذمة آبائنا.. وقد آنَ الأوان لأن نضع عصبية الجاهلية، ونعتصم بعروة الإسلام الوثقى. وهذا رجل لم يشهد مواقع اليمنية والقيسية هنا..

وهو أجدر بأن يجمع الناس عليه، ليكونوا أمة واحدة. وإلا فوالله لا يكون لنا مقام في الأندلس بعد حين، ولنَخْرجَنّ كما دخلنا. فاتق الله، وارضَ بهذا الأمير الأمويّ الذي قضى الله بنجاته من المسوّدة في أقصى المشرق، ليقيم دولة آبائه هنا في الأندلس. فلا تعاند مشيئة الله فتشقى.

أطرق أبو الصباح خاضعاً على مضض وموجدةٍ في صدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهيّأت زوج الفهري ومن معها للخروج إلى منزل آخر يملكه زوجها بشرق قرطبة، واسمه بلاط الحرّ. وكان عبد الرحمن قد أوقف لهن الركائب لحملهن وحمل المتاع، مع ثلة من الحرس يرافقونهنّ إلى مكان الإقامة الجديد.

كان يقف مشيحاً عنهن حياءً وتأدباً، حين قالت زوج الفهريّ:

- وفيت الذمّة يا ابن عمّ. فتأذن لنا الآن؟

- على بركة الله.

وقبل أن يبلغن باب الخروج، توقفت زوج الفهري، ثم التفتت إلى عبد الرحمن:

- هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان يا ابن عمّ؟ فهل تقبل هديّتي جزاء ما تفضّلت علينا؟

أرسل إليها نظرة مستطلعة. فذهبت ببصرها إلى «حلل» التي بدت حائرةً أول الأمر، ثم بدا أنها تفطّنت للمعنى. وقالت زوج الفهري:

@ - اسمها حلل.

اتجهت أنظار الوصيفات، وصاحبتها عريب إليها، واكتسى وجهها بحمرة الحياء، بينما أعقبت زوج الفهري:

- امضِ إلى سيّدك يا حلل.. قد وهبته إياك.

ثم خرجت مع سائر الوصيفات،ووقفت حلل في مكانها لا تدري كيف تتصرّف، وما هي حتى عادت عريب إليها واحتضنتها، وهمست في أذنها:

- قد غدوتِ سيدة القصر، فلا تنسَيْ صاحبتك عريب!

ثم أسرعت في الخروج.

لم يكن عبد الرحمن أقل حرجاً وحياءً منها. وبعد لحظات من الصمت، تبادلا النظر، وقال عبد الرحمن:

- أنتِ أعلم مني بالقصر، فامضِ فيه حيث تشائين.

مشت نحو باب داخلي، وقد ازدادت حيرةَ في أمرها وأمره. فأين مكانها منه ومن حجرات القصر الآن؟ ثم توقفت واستدارت إليه:

- أصنع لك العشاء يا سيدي؟

أجاب:

- مُري الخدم، فليصنعوا لنا عشاءً.

«لنا»! قال: «لنا». له ولها! إذن فهو يريدها امرأةً له.

ابتسمت وغابت وراء الباب.

وقف وحيداً في مجلس الإمارة يجيل نظره ثم يتمشّى فيه، حتى اقترب من سرير الإمارة، أمعن النظر فيه، ثم جلس عليه وظهره قائم كأنه لم يألفه بعد. وكان من الطبيعي أن يشرد بتفكيره إلى مسلمة بن عبد الملك وكلامه عن الأموي الذي يحيي دولة بني أمية في المشرق، بعد زوالها في المغرب، وها هو الآن أخيراً هنا!

لم يخرجه من شروده إلا صوت بدر الذي دخل عليه بعد أن فرغ من تشييع زوج الفهري وصويحباتها في ساحة القصر، ولكأنه قد قرأ ما كان يدور في ذهن صاحبه في تلك اللحظة فأخرجه من شروده بالقول:

- (قد جعلها ربي حقا).

رفع عبد الرحمن رأسه متنبهاً، بينما كان بدر يرمقه مبتسماً. ثم تقدّم بدر نحوه، فنهض عبد الرحمن، وتبادل الرجلان نظرة عميقة، وفجأة احتضن كل منهما الآخر بحرارة. وقال بدر:

- قد نجحنا يا سيدي.. قد نجحنا.. الحلم صار حقيقة أخيراً.

- بلى، قد صار حقاً.

- لم يخامرني الشك لحظةً واحدة.

- ولا خامرني.

ثم استدار بدر في المكان، وهتف بأعلى صوته بأسلوب استعراضي:

- انقضت أيام الخوف والرحلة الطويلة.. نحن الآن في قرطبة.. في دار الإمارة.. الآن قامت دولة بني أمية في الأندلس، بعد ذهابها في المشرق.

- انقضت مرحلة، لتبدأ أخرى. ولن تكون أقل عناءً وطلباً. قيام الدولة أسهل من حفظها وتوطيد أركانها.. وقد قدمنا على بلد لم تستقر أحواله يوماً، ولم تقم فيه دولة على الحقيقة.. وهذه.. هذه هي غايتنا.

- وسنحقق الثانية، كما حققنا الأولى، بإذن الله.

فجأة أخذ بدر يحجل على إحدى ساقيه، على لحن صفيره المألوف. ثم توقف وتقدم إلى عبد الرحمن من جديد، وأخذ يده وقبَّلها بإجلال:

- سيدي عبد الرحمن الداخل.. أمير الأندلس!

ابتسم عبد الرحمن، وقال:

- صاحبي، ووزيري، وقائد جيشي.. بدر!

عاد بدر يحجل على ساقه فرحاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس عبد الرحمن إلى المائدة التي رُتِّبت عليها صحاف الطعام بأناقة. بينما ظلت حلل واقفة في مكانها. نظر إليها وقال:

- ما يوقفك؟ ألا تجلسين إلى المائدة مع صاحبك؟

- أنا أَمَتُك يا سيدي.

@ - ألا تطاعم المرأة صاحبها؟

جلست بعد تردد، وكان صدرها يضج بالسعادة لما سمعت من كلامه. إنها امرأة الأمير منذ اليوم، وسيدة القصر الذي ضُربت فيه وعُذِّبت وأُهينت على يد سيدته السابقة. هل هذا حلم جميل، أم حقيقة؟ وكانت قد علمت بقصة الأمير وفراره وما لقي في نفسه وقومه. كان له حلم وهو في أقصى المشرق، والآن تعلم أن حلمه كان يسعها دون علمه ودون علمها وهي في أقصى المغرب! وقد التقى الآن الشقيّان المظلومان على أمر قد قُدِر من الرفعة والسيادة.. رجل أمير عربي أمويّ من أبناء الخلفاء، وفتاة سبيّة من جليقية! فما أعجب تصرف الأقدار!

أحب أن يؤنسها، فقال:

- أمي كذلك كانت أمةً لأبي.. ثم إذ أنجبتني صارت أم ولد. وكانت أحظى نسائه جميعاً، الحرة منهن والجارية.

- حقًّا!

ثم تجرّأت على القول:

- ولِمَ لا تكون وقد أنجبتك؟

ابتسم لها. ثم ازدادت جرأة فسألت:

- ألك زوج في المشرق؟

- توفيت رحمها الله. ولكن، لي ولد منها.. سليمان. خلّفته ورائي وله أربع سنوات. فهو الآن في الثامنة.

- ترسل إليه من يأتيك به الآن؟

- ليس بعد. حتى أُمَكِّن للدولة، فيَقْدُم على أمان.. لا أريد أن أعرِّضه للخوف مرة أخرى.

هنا، وقد زايلها الحرج، وأَنِست بمكانها منه، قدمت له قطعة طعام بيدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يرقد نائماً إلى جانب حلل، حين أخذ جفناه يرتجفان قليلاً، ثم فتحهما ببطء. وأحس حركة خفيفة، فرفع جسمه على السرير بهدوء، وفي ضوء المصباح الوحيد في الحجرة رأى طيفاً مستديراً بظهره عن الباب.. وما لبث الطيف أن عبر الباب وغاب..

نهض عبد الرحمن بسرعة وراءه إلى الرواق فوجده قد صار في آخره، ثم انفتل وغاب في رواق آخر متصل.. هرول عبد الرحمن وراءه حتى وصل الرواق الثاني فلم يجد أحداً.. اعترته الحيرة.. ثم ظهر الطيف من جديد عابراً بين آخر الرواق ودهليز آخر. فهرول عبد الرحمن من جديد. وصاح:

- قف.

انتهت به الملاحقة إلى مجلس الإمارة، وهناك وجد الطيف يقف مستديراً عنه، أمام سرير الإمارة. هرول عبد الرحمن إليه، حتى إذا صار عنده جذبه من كتفه وأداره إليه.. وهنا رأى ما خلع فؤاده.. كان ذاك هشاماً ينظر إلى أخيه بهدوء تام، والدم يشخب من عنقه، ثم سقط على سرير الإمارة وقد تدلّى رأسه إلى كتفه وانطفأت عيناه..

تراجع عبد الرحمن وأطلق صرخة هائلة بلا صوت..

لم يخرجه من ذلك الكابوس إلّا حلل تهزّه على السرير، وقد صحت على اهتزاز جسده وحشرجات صوته.

- سيدي.. سيدي.. ما بك؟

فزّ من مرقده لاهثاً، وتحوّل جالساً على حافة السرير وهو يلهث ويعصر رأسه بين يديه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

باحَ ثعلبة بن عبيد الجذامي للأمير عبد الرحمن، بمقالة أبي الصباح اليحصبي بعد أن خرج مغاضباً من قصر الفهريّ، لمنعه من نَهْب القصر واستباحة حرمه، ثم اقتراحه على ثعلبة أن يجعله فتحين في فتح، فتكون الأندلس خالصةً للقحطانية. ثم استدرك ثعلبة شارحاً:

- ولكنه رجع بعد الذي سمعه مني. وإني أخبرك بهذا، لا لأوقع بالرجل، فإنه من قومي، ولا لأحظى عندك، ولكن لتأخذ حذرك، وتتحصّن من الغيلة، فما ندري ما يبيّت الناس. وقد ألفوا أن يثب أحدهم على صاحب السلطان إن استطاع، طمعاً به. ثم إني بَرِئت إلى الله من حمية الجاهلية وعصبياتها. وأعلم أنه إما أن تنهض دولة الإسلام في الأندلس، فيكونَ الناس فيها أمة واحدة، فلا هي لقيس ولا هي ليمن، وإمّا أن نتودّع منها ونقرأ عليها السلام.

قال عبد الرحمن:

- صدقت، ووفيت الذمة يا ثعلبة. وأنت اليوم عندنا مكين أمين. ولكن نصبر على أبي الصباح ونَحْذَرُه. ونصرف جهدنا الآن إلى القضاء على بقية الفهري والصميل. وقد علمتم أنهما قد أعادا الحشد وتحصّنا في البيرة بعد أن أخرجا عاملنا عليها. ولا بدّ أن نعجل إليها @قبل أن يعظم جمعهما.. ويبقى أبو عثمان نائباً عني في قرطبة، حتى ينقضي هذا الأمر.

بقي الداخل منشغل التفكير بما نُقِل إليه من كلام أبي الصباح اليحصبي. ولم يجد غير بدر يفيض له عن صدره، وكانا يتمشيان في الساحة الخارجية لدار الإمارة:

- الآن تدرك يا بدر أن الدولة والقبيلة لا تجتمعان.. الدولة عصبة كل رعاياها، والقبيلة عصبة أبنائها.. الدولة ينبغي أن تجمع، والقبيلة تفرّق.. الدولة ينبغي أن تسوّي بين رعاياها في المغنم والمغرم، وفي الحقوق والواجبات، وتستعمل الناس فيما يحسنونه ويتقنونه، حسب ما وُهِبوا. أما القبيلة فترتب الناس حسب منازلهم من العصبة والنسب، وتطلب من مغانم الحكم وأعمال الدولة بقدر ذلك، حتى لو كان الرجل أحمق أبله لا يقدر على نفسه، وهو كَلٌّ على مولاه! فيكون شرف النسب له، ويكون عجزه وسفهه على الأمّة. بئس إذن ما يحكمون. ثم إذا اختصم صاحب الدولة مع شيخ القبيلة، انحاز إليه قومه المدوّنون في الجند، وانفضوا عن جيش الدولة، فيقع البوار، ويستقوي العدو المتربّص في الثغور. وإن كان ثمة ما نتعلّمه من أخطاء آبائنا في المشرق، فهو أن القبيلة التي تنصرك، هي القبيلة التي تستوفي حقها من قوّة دولتك، فتنقض غزلها أنكاثاً. آبائي انتصروا أول الأمر باليمنية على الفهريّة والقيسية في مرج راهط. ثم كانت اليمانية جلّ العرب الذين نصروا دعوة بني العباس في خراسان. وإن كان ثمة ما نتعلّمه من خطة خصومنا بني العباس، فهو أنهم أدركوا من أول الأمر ما فات آبائي بني أميّة. فما إن فرغوا من القيسية والمضرية في خراسان، حتى انقلبوا على أنصارهم اليمنية، فكسروا شوكتهم، وجعلوا قوام دولتهم من الخراسانية والأعاجم، ومن ليس له قبيلة يقدم ولاءه لها على ولائه للدولة وأصحابها، حتى ينصرف الولاء كله للدولة، ثم تكون الدولة للجميع، لا نهباً مقسوماً ولا غنيمة تتنازعها القبائل، ولا مائة حمى، كل واحد منها موقوف على أهله.

توقف مواجهاً بدراً وتابع بنبرة التصميم والعزم:

- وهذا ما سنفعله هنا في الأندلس. فإما أن يكون العرب عرباً حسب، وإلّا فهم قبائل تتناكر ولا تتعارف كما أمر الله.

اكتسى وجه بدر بملامح التروّي والتفكير:

- نعم.. ولكن.

رمقه عبد الرحمن مستطلعاً، وتابع بدر:

- العدل يا سيدي.. عدل الدولة في الناس مع الرحمة والشورى، فلا يستبدل الناس بطش الدولة واستبدادها ببطش القبائل بعضها ببعض. فإن السلطان إذا استبدّ بالأمر وبطش بالرعية، لم يجد الرجل له حامياً إلّا قبيلته. ولكن إذا اطمأن أن الدولة له، لا عليه، وأنها تطعمه من جوع، وتؤمّنه من خوف، لم يجد حاجة في أن يرتد إلى قبيلته ليعتصم بها.

هزّ عبد الرحمن رأسه مؤيِّداً، وضرب على ذراع بدر، وقال:

- صدقت. وأنت الآن قائد الجيش.. فاستكثر فيه من الموالي والمولِّدين والبربر.. فهؤلاء أحرى أن يكون ولاؤهم لنا، وانتماؤهم إلى الدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ الداخل زحفه إلى البيرة، حيث اعتصم الفهري والصميل مع فلول عساكرهما. وبدا الفهري لأول مرّة أكثر تصميماً واندفاعاً وتحكُّما بالرّأي من الصميل نفسه. وبعد بعض المناورات والتدابير الفاشلة التي اقترحها الفهري وألزم بها الصميل، ضاق هذا به وبخططه ذرعاً، وقد أدرك بذكائه الفطري واقع الحال، ففاجأ الفهري بالقول:

- خذ عني يا أبا عبد الرحمن. قد انقضى ملكك.. انقضى إلى الأبد.. ويحسن بك أن تسلِّم به.

صاح يوسف:

- أنت تقول هذا؟ الصميل بن حاتم صاحب السيف والصولة، يُخَذِّل؟

- من حزم الرجل أن يعرف متى يقدم ومتى يحجم، وما أول الطريق وما آخره. وإلّا ما الفرق بينه وبين الأحمق الذي يقدم في موضع الإحجام، ويحجم في موقع الإقدام؟ نعم، انقضى حكمك وحكمي معك، ولم يبقَ لنا إلّا أن نستبقي من أنفسنا وعيشنا ما يسعنا استبقاؤه قبل الفوات.

ثم أردف بأسلوب مشوب بالتهكم:

- ومن يدري؟ ربما انصرفتُ إلى العبادة والزهد آخر أيامي، على نحو ما كنت أنت في أول أيامك.. فسبحان الذي يغيِّر ولا يتغيّر!

أخيراً خرج الفهري والصميل للقاء عبد الرحمن في معسكره للتفاوض على السِّلْم والأمان. @فقال الفهري:

- نسلِّم لك المدينة على شرط الأمان لنا وللناس جميعاً، في أنفسنا وأهالينا وأموالنا ومنازلنا.

قال عبد الرحمن:

- نعطيكم هذا.. على شرطنا.. تبايعون كما بايع الناس، وتعطوننا عهد الله وميثاقه ألا تنازعونا هذا الأمر أبداً، وتحلفون عليه أمام الشهود.

قال الفهري:

- نفعل.

وتابع عبد الرحمن:

- وتقيمان بجواري في قرطبة، فينزل أبو عبد الرحمن في منزله بلاط الحرّ بشرق قرطبة، وأبو جوشن بقصره في شقندة. وتختلفان إليّ في كل يوم حتى أراكما في دار الإمارة.

هزّا رأسيهما بالموافقة، حتى جاء الشرط الأخير، إذ توجه عبد الرحمن بنظره إلى الفهري ونقل بصره بينه وبين ولديه وقال:

- وتقدّم لي ولديك هذين: أبا زيد عبد الرحمن، وأبا الأسود محمد رهينتين، يقيمان عندي في دار الإمارة، حتى تستقر الأمور وآمن أنك أقمت على شروطي، فأردّهما إليك.

اضطربت ملامح أبي زيد عبد الرحمن الفهري، وأخذ ينقل بصره بين أبيه وعبد الرحمن، وحين رأى أباه منكّس الرأس، قال له:

- أبتِ لا تفعل.

أسكته أبوه. ثم توجه إلى عبد الرحمن وقال بصوت ضعيف خانع:

- هل يجب هذا يا أبا سليمان؟ ألا تقيلني من هذا الشرط.

قال عبد الرحمن:

- لا صلح بغير ذلك.. ولكن لك عليّ أن أعاملهما معاملة الضيف الكريم، حتى يأتي الوقت فأطلقهما.. فانظر رأيك.

ولم يكن في وسع الفهري إلّا الخضوع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولدا الفهري؟ هنا في محبس؟ رهينتان؟

قالت عريب التي استلحقتها حلل بها لتكون وصيفتها الأولى.

أجابت حلل:

- ليس محبساً.. إنه جناح الضيافة المنفصل.

- ولكنهما رهينتان على كل حال.. ويقف على بابهما حرس.. فهو حبس وإن كان مريحاً.. ذلك الفاسق السفيه أبو زيد حبيس في القصر الذي صرتِ سيدته.. هل تذكرين كلامي ذلك اليوم عن الحرائر والجواري في هذه البلاد حين كنتِ في أسوأ حال من عمل زوج الفهري وابنه الفاسق هذا؟ أين صاروا وأين صرتِ؟ ألا تشعرين بالتشفّي كما أشعر أنا؟

قالت حلل:

- أقول ما قال سيدي الأمير: نشتدّ على عدوّنا، ونحسن لصاحِبنا. ولكننا لا نتشفّى إذا قدرنا.

- إذا قدرنا! ولا أراني أقدر.

وأطلقت ضحكة قوية، ولم تملك حلل إلّا أن تشاركها الضحك.

ثم قالت عريب:

- ليتني أرى وجهه الآن.

في حجرة أبي زيد وأخيه، كان الأول يتمشى ويدور بقلق وضيق شديدين. وقال أخوه أبو الأسود:

- ألا تهدأ قليلاً؟

أجاب أبو زيد متهكماً:

- وأي سبب للهدوء والسكينة أعظم مما نحن فيه؟ قصر أبينا.. كنا نروح فيه ونغدو كما نشاء ونحن سادته.. نأمر فنُطاع.. والآن نحن فيه رهينتان محتجزان.. لا نستطيع الخروج إلّا بإذن.. وإذا أُذِن لنا خرج معنا حرس.. بينما تمرح تلك الجارية حيث تشاء منه، وقد غدت سيدته. وربما أوغرت صدر صاحبها علينا ليشدد علينا.. فللنساء أفانين يسلبن بها عقول الرجال.

قال أبو الأسود:

@ - وأولها عقلك.

ردّ أبو زيد:

- أما أنت فليس لك عقل يبقين عليه أو يسلبنه! هه! تسألني لماذا لا أهدأ!! وأبونا قد رضي لنا هذا المصير.

- إلى حين.

- ما أمد هذا الحين؟ شهر؟ شهران؟ سنة؟ سنتان؟ هه.

هنا طُرِق الباب، ثم فُتِح وظهرت عريب عنده، وقالت دون أن تداري ابتسامة الهزء والتشفي:

- أمرتني السيدة أن أنظر في حاجتكما، إن كنتما تشكوان من شيء، أو تطلبان شيئاً ليس عندكما.

همّ أبو زيد أن يشتمها ويشتم سيدتها، وقد أدرك المغزى، ولكنه تمالك نفسه خشية العاقبة، وعدل إلى أسلوب يبطن التهكم:

- بارك الله في السيدة وأجزل لها المثوبة جزاء فضلها علينا وإحسانها لنا. ولماذا نشكو ونحن في نعمة ووفرة؟ نأكل كما تأكل الأنعام، وننام كما ينام البعير.. عودي إلى سيدتك فاشكري لها عنا.

أغلقت الباب. وصاح أبو زيد بغضب جارف:

- اللعنة! أحشفةً وسوءَ كيله؟ والله ما أرادت سوى النكاية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يكن أبوهما يوسف الفهري أقل ضيقاً وانقباضاً منهما، وهو يرى نفسه مضطراً إلى الذهاب إلى مجلس الداخل حسبِ الشرط، ليراه جالساً على سرير الإمارة الذي كان يجلس عليه، بينما يجلس هو

حيث كان يجلس أقل أتباعه، متأخراً في المجلس عن وزراء عبد الرحمن وقادته. ويقضي الوقت زائغ البصر، لا يكاد يسمع ما يقال.

أما الصميل، فكان أكثر تقبُّلا للوضع الجديد، فيحسن الإصغاء، ويراعي منزلة الأمير، ولا يبادر إلى الكلام تأدُّبا إلّا أن يُسأَل فيُجيب.

قال عبد الرحمن، وفي مجلسه أبو عثمان وعبد الله بن خالد، وتمام بن علقمة، ويوسف بن بخت، وثعلبة بن عبيد، سوى الصميل والفهري:

- لا أرى أن التعويل على الصوائف لحفظ الثغور يفي بالغرض. فهؤلاء يخرجون إلى الثغور شهوراً ثم يرجعون إلى كورهم وزراعتهم وأهلهم، ليعقبهم آخرون. فلا يتمرسون بقتال الجلالقة وطرقهم تمرّس العسكر الموقوفين للجيش فقط. والصائفة من عامة الناس والقبائل، يستنهضهم شيوخهم من أهل المعاقد. فإذا عادوا من الغزو طلب صاحب اللواء أعطية من غزوا تحت لوائه، فنعطيهم على قوله تكرمةً له، ثم يوزّع العطاء بنفسه حسب المراتب والقرابة، لا حسب الجهد والبلاء.

ثم توجه بنظره إلى الصميل:

- ما رأيك يا أبا جوشن.

- الرأي رأي الأمير، ونحن له تَبَع. وهذه دولتك، ونحن معك على ما تحب.

أشاح الفهري بوجهه ليخفي امتعاضه من تلطف الصميل في الجواب، وهو ما لم يكن يجده منه حين كان الأمير. وقال عبد الرحمن:

- الرأي أن يقيم على الثغور طوال العام جيش يكون أمره كله لنا. ومراتبه مراتب الجيش الدائم حسب الكفاية والبلاء، لا ننظر في غير ذلك من المراتب.

قال الصميل:

- رأي حسن.

واستأنف عبد الرحمن:

- قد آن الأوان لنوجِّه أبصارنا وجهدنا تلقاء الجلالقة ومَلِكِهم أذنونش، فنضع حدًّا لأطماعه، ولكن شرط ذلك أن نرفع أركان الدولة هنا على قواعد قوية متينة، فنرصّ صفوفنا هنا، فإن العدو لا يقوى إلّا بضعفنا واختلافنا.

استأذن الفهري في الخروج، ولحق به الصميل، ولما صار بحذائه، قال يوسف متهكماً:

- الرأي رأي الأمير.. وهذه دولتك.. ونحن لكم تَبَع!

قال الصميل:

- ألسنا كذلك الآن؟

- مرغمين لا مختارين.. ولا حاجة للإفراط في تعظيمه إمعاناً في مذلتنا.

@ - طالما أنّا قبلنا منه ما أخذ وأعطى، وعاهدناه على ذلك، فقد صار له علينا حق التعظيم كما يليق بمنزلته.

- ليتك كنت تعرف منزلتي حين كنتُ الأمير، كما تعرف الآن منزلته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما زوج الفهري فكانت كالصميل قد تقبّلت الواقع الجديد، ورضيت من الغنيمة بالسلامة والمال والمنزل الحسن، ولم يكن ليهمّها غير سلامة ولديها الرهينتين، وألا يطول الوقت عليهما في ذلك الحجز حتى يرجعا إلى أهلهما. وكانت ترى زوجها لا يقرّ له قرار، ولا تسكن له نفس، ولا يطيب له مضجع، حتى بدا كأنه يحدِّث نفسه. وكانت تراه يخرج في كل يوم مرغماً إلى مجلس الداخل وهو يغمغم بكلام غير مفهوم، متبرِّماً بذلك. فإذا رجع كان أكثر انقباضاً وعبوساً وسخطاً.

ولما رأته على المائدة لا يمدّ يده إلى الطعام، بعد رجوعه من مجلس الأمير، قالت:

- ارضَ بما قسم الله لك أيها الرجل، ولا تُذْهب نفسك حسرات على ما فات.

حدجها بنظرة قاسية وقال:

- وهل تعرفين ما قسم الله لي؟

- قسم الله لك الإمارة بعد خمول، ثم أخذها منك.

- هذا ما نعرفه من قِسمة الله حتى الآن! أعني.. ما دمنا أحياء، فما ندري ما يقسم لنا فيما بقي من أعمارنا.. أعطينا، ثم أُخِذ منا.. ومن يدري؟ ربما نُعطى من جديد!

أخافها كلامه، فقالت:

- لا يريحني هذا القول.. كأنك تفكّر في العصيان!

زادها سكوته خوفاً وقلقاً، فقالت:

- يا رجل.. اتق الله.. إن لم تذكر المواثيق التي أعطيتها على كتاب الله، فاذكر أن لك ولدين هما رهينة عنده! قد أخذنا نصيبنا منها، ثم قضى الله بغير ذلك.. ولكنا ما نزال في نعمة وخير.. دار عظيمة ومال ومتاع وخدم.

صاح محتجاً:

- وما المال وما الدار العظيمة من الإمارة؟ الأمر والنهي والسلطان وتدافع العرفاء بين يدي الأمير.. أبعد أن أخرجتموني من عزلتي القديمة، وأولجتموني دار السلطان، حتى ألف لساني حلاوة ثمرها، فكل طعام بعده مرّ، أبعد ذلك تقولين لي: ارضَ بما قُسِم لك؟ ألم تسمعوا قول القائل: السلطان في القصر أو القبر!

قذف منديله وخرج بخطى سريعة دون أن يصيب من الطعام.

التفتت زوجه إلى ابنتها وقالت:

- قد جُنَّ أبوك.. نعم والله، جُنّ الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في مضارب زناتة في أقصى المغرب الأوسط بالقرب من تلمسان، خرج أبو قرّة من خيمته إذ سمع جلبةً في الخارج، ليرى ثلاثة فرسان غرباء يتجهون إلى مكانه، يحيط بهم بعض أهل الحيّ، ويتراكض خلفهم الصبيان، حتى وقفوا عنده. وسأل أحدهم:

- أنت أبو قرّة؟

هز أبو قرة رأسه، وسأل:

- وأنتم؟

قبل أن يجيب الفارس، أشار إلى أم قرّة التي لحقت بزوجها ووقفت عند باب الخيمة ترقب:

- وهذه زوجك؟

قال أبو قرة:

- قد عرفتموني ولم نعرفكم بعد.

قال الفارس:

- نحن رسل الأمير عبد الرحمن الداخل، صاحب الأندلس إليكم.

ظهر التعجب على الجميع، وارتفع اللغط. وسأل أبو قرّة:

- وما شأن أمير الأندلس بنا، حتى يوفد إلينا رسلاً؟

قال الفارس:

- ألم تعرفه؟

@ أجاب أبو قرّة:

- كيف لرجل مثلي في هذه الديار أن يعرف أمير الأندلس؟

قال الفارس:

- الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية، الذي نزل عندكم متخفياً..

تحركت ملامح أبي قرّة وزوجه، وقالت دون تدبّر:

- ذلك الأمويّ الذي أخفيته..

واستدركت على نفسها، وأفلتت ضحكة أسرعت إلى كتمانها، وقد استذكرت كيف أخفته تحت ردائها وراء عجيزتها حين جاء عسكر صاحب إفريقية في طلبه.

قال الفارس مؤكداَ:

- هو ذاك.

قال أبو قرّة مستغرباً:

- وقد غدا أمير الأندلس؟

هزّ الفارس رأسه، وقال:

- يقرئكم السلام.. ويقول: هذا يوم يُجزى المحسنون بإحسانهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج عبد الرحمن مع بدر إلى ساحة قصر الإمارة بقرطبة لاستقبال أبي قرّة وزوجه، بعد أن عاد بهما رسله من المغرب الأوسط كما أمرهم، وأقبل متعجًّلا عليهما مادًّا يديه:

- أبا قرّة.. أم قرّة.. أم أسمّيك باسمكِ: العمّة تكفات.

قال أبو قرّة:

- أبا سليمان!

نهرته أم قرة:

- بل قل: سيدي الأمير.. ألا تعرف كيف تخاطب الأمراء يا رجل؟

قال عبد الرحمن:

- بل أبو سليمان، كما قال.

عانق أبا قرّة بحرارة، ثم أخذ يد أم قرّة يقبّلها، فسحبتها بسرعة:

- معاذ الله. الأمير يقبّل يدي؟

- بعد الذي صنعته من أجلي، صرت بمثابة أمي.

صكّت وجهها وتلفتت في المكان، وقالت:

- لم تقل للناس ما وقع منا؟

قال بدون تردد:

- بل فعلت، ولا غضاضة. ألم نتفق على هذا؟ الضرورات..

أكملت عنه:

- تبيح المحظورات!

ضحك الجميع. ثم أشارت أم قرة إلى بدر:

- وهذا خادمك بدر.

- بل وزيري وقائد جيشي.

دخل بهما إلى القصر. وأدخل أم قرّة على حلل التي كانت قد ظهر حملها. فأحسنت حلل استقبالها وعاملتها معاملة البنت لأمها. وحين لحظت أم قرّة أن «حلل» تداري ابتسامة غامضة طوال الوقت. قالت أم قرة مداعبةً:

- كأنه قد قصّ عليك قصته معي؟ كما ترين.. أنا بمثابة جدته.

ضحكت حلل، وقالت:

- نِعْمَ الجدّة! لولا ما فعلتِ لما كان الآن هنا، ولما كنت أنا حليلته، وأوشك أن أكون أم ولده. فحقّ عليه وعليّ شكرك إلى الأبد.

- رزقكما الله ولداً صالحاً وقرّة عين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذت أم قرّة تجيل نظرها في الدار العظيمة التي اشتراها عبد الرحمن لها ولزوجها في أجمل أحياء قرطبة، وأوقف لهما فيها عدداً من الخدم. وقالت:

- أبا قرّة؟ هل ترى هذا؟ هل متنا وهذا منزلنا من الجنة؟ إن كان هذا هو الموت، فلا ردّني الله إلى الحياة!

انطلق الاثنان بالضحك، وحين توقفت استمر أبو قرّة في القهقهة، وقد ظنت أنه يضحك @لكلامها. ولم تعلم أنه كان يضحك لخاطر طريف.. انحبك في نفسه وما كان ليفصح لها عنه: «كل هذا النعيم جاءنا من عجيزة أم قرّة»!!

أما خالة عبد الرحمن النفزاوية في المغرب الأقصى، فلم يدرك منها ما كان يرجوه من جلبها إليه وتكريمها. إذ عاد رسله ليخبروه بوفاتها منذ شهور. فحزن عليها حزناً شديداً، لم يصرفه عنه إلّا فرحته العظيمة بميلاد ولده من حلل، فسمّاه هشاماً تيمُّنا بجدّه، وإحياءً لذكرى أخيه الذي قتله المسودة أمام عينيه.

ثم زاد فرحه بوصول عبد الملك المرواني الذي التقاه في فسطاط مصر، مع رهط من الأموية الذين نجوا من المذبحة، وكان الطلب قد سكن عنهم. فاشتد ساعده به وبهم. وإذ اجتمعوا في مجلس الإمارة،

كان المرواني صريحاً صارماً كعادته. فقال:

- لم تخيب ظني فيك يا أبا سليمان.. وقد وعدتك أن نلتحق بك إذا صارت الأندلس إليك لنكون لك عوناً وسنداً. وها قد تحقق الوعد، فأحييت دولة بني أميّة في الأندلس.. ولك علينا عهد الله أن نقاتل دونك بأنفسنا وأولادنا. وهذه المرّة، لن نكرر أخطاء أسلافنا في المشرق. فلا نتراخى عن العدو حتى يغلظ أمره. فإن رأيت الفتنة قد أطلّت برأسها، فبادر إليها ونحن معك، ولا تأخذك الرأفة، فذلك هو العذاب الذي باطنه الرحمة، تردع عدو الغد بعدو اليوم، وتُسوّي بين الدماء، فكل من خذلك وعصاك فقد أحلّ لك دمه وإن كان ابن أبيك. ولا تعوّل على قبائل العرب، فهم يقاتلون لأنفسهم، فإن أعطوا منها رضوا، وإن مُنِعوا سخطوا. وقد خَبِرت الأندلس من ذلك ما تعلم منذ الفتح. وخبر آباؤنا منه في المشرق.

وقع كلام المرواني من نفس عبد الرحمن، فأطرق متفكراً، ثم قال:

- ذلك ما يشغل ذهني يا أبا عبد الله، وما زلت منه في حيرة. هو والله كما قلت. ولكن، كيف يمكن أن نفلّ شوكة القبيلة وعصبتها، لنرفع الدولة الجامعة التي لا ولاء لغيرها، دون أن نفلّ شوكة العرب على الجملة.. ليت قبائل العرب تعي هذا.

قال المرواني:

- ولكنها لا تعيه، وإن وعته لم تعمل بمقتضاه، فما زالوا على مذهب الحمى والغنيمة، وإن صلّوا وصاموا.. كل ذلك يجب أن يتغير منذ الآن.. انتهى عصر الولاة المتغلّبين.. وبدأ عهد دولة بني أميّة في الأندلس. وقد تعلّم بنو العباس من أخطائنا، والآن نتعلم منهم إذ جعلوا قوام دولتهم وجندهم من الخراسانية دون قبائل العرب.. ثم لم يتركوا رجلاً من كبار دعوتهم ظنّ أنه قسيمهم في الثورة إلّا قتلوه.. أبا سلمة الخلّال، كبير دعاتهم، أبا مسلم الخراساني، صاحب الدولة.. وأخيراً عبد الله بن عليّ عم أبي جعفر.

لم يكن عبد الرحمن قد سمع بمقتل عبد الله بن عليّ، وإن سمع بهزيمته أمام أبي مسلم الخراساني، ثم فراره. فسأل متعجباً:

- حقاً؟ عبد الله بن عليّ، سفّاح بني أمية.

- نعم، ظفر أبو جعفر بعمّه بعد سنوات من التخفّي، فغمّه وجارية له حتى مات، ثم جعلها إلى جانبه فكأنها تعانقه، ثم عرقب البيت فسقط عليهما. أراك متعجباً ولكن، إن شئت، فتعجّب من قولي هذا: لا ألومه ولو كان عمه. فعل ما يجب أن يفعل السلطان. فقد خمد خصومه، يقولون: هذا فِعله بعمّه الذي هزم مروان بن محمد عند الزاب، ومكّن للدولة، وأسرف في قتل بني أميّة، فكيف يكون فعله مع غيره؟ لا.. لا ألومه. ولكني ألومك!

تنبهت ملامح عبد الرحمن متعجباً، وتابع المرواني:

- سمعت أنك أمرت أصحاب الجمعة بالدعاء لأبي جعفر، فكأنك تقرّ له بأنه خليفتك!

- ما فعلت ذلك إلا تأثما لا حباً وكرامة. إذ تعلمت أنه لا يجوز أن يُدعى في الأمة لخليفتين.. فأنا أكَرِم معنى الخلافة بالدعاء لا شخص الخليفة.

- لا أقول: سمّ نفسك خليفة.. ولكن أن تدعو للعدو في المساجد، فتلك لعمر الله قاصمة الظهر.. فكأنك تدعو على نفسك وعلى قومك. لا، ورب الكعبة، ولستُ في مقام من ينازعك الرأي، معاذ الله. ولكني أقسم بالله العظيم إن لم تترك الدعاء له، لأقتلنّ نفسي أمام عينيك. وإن كنت تعرفني حقاً، فإنك تعرف أني أفعل ما أقول!

وكان يعلم ذلك منه حقاً. فقال:

- لا بأس عليك يا أبا عبد الله. حياتك أعزّ عندي. فطب خاطراً. أنت منذ اليوم، شيخ بني أمية في الأندلس، ولا نقطع أمراً بغير رأيك.

كان بدر حاضراً في ذلك المجلس. وكان وجهه يتلّون ممتعضاً وهو ينصت إلى كلام المرواني. ولم يكن ذلك فقط لأن كلامه في البطش والشدّة لم يوافق هواه ومذهبه، ولكن أيضاً لأنه شعر بأن صاحبه في رحلة الفرار والخوف، ثم في تدبير امتلاكه الأندلس، قد لقي أخيراً أهله. وعلى رأسهم هذا الرجل القويّ الجبّار الذي لا ينقصه الصدق والعزيمة، وقوة @الرأي، وإن كانت تنقصه الرحمة! فلا بدّ أن يقدّمه عبد الرحمن عليه، وإن كان له البلاء الأعظم في رحلة سيده إلى الإمارة والتمكّن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يَدْر بدر لماذا أطال الداخل وقوفه بجواره في ذلك البسيط الجميل خارج قرطبة، وهو يجيل بصره فيه. وأخيراً اقترب منه وسأل عن ذلك. أجاب عبد الرحمن دون أن يتحوّل ببصره عن المكان:

- ألا يُذكِّرك بشيء؟

- ليت لي مثل ذكريات الأمير.

- رصافة جدّي هشام.. قد شاهدتها معي.

أرسل بدر بصره في المكان، ثم قال:

- هذه أرض خالية.. فكيف تُذكِّر..

قاطعه عبد الرحمن واستعرض المكان مشيراً بإصبعه:

- فقط.. تخيّل قصر جدّي هنا، وبساتينه وعمائره.. انظر بعين المخيلة والذاكرة، هل تدرك ما أعني؟

تأمل بدر المكان من جديد، وقال:

- أظن ذلك يا سيدي.

قال عبد الرحمن:

- أراني الآن أعْمُرها من مستودع ذاكرتي.. وغداً أجعل الخيال حقيقة.. أبنيها على مثال رصافة جدّي.. نحن، يا بدر، أعلم الناس كيف يتحوّل الخيال إلى حقيقة ماثلة للعيان، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.. بلى.. نحن أعلم الناس.

مرت لحظة صمت وتأمّل، قبل أن يعود بدر للكلام وهو يتأمل سيّده:

- لا والله ما خلا عقلك ولا قلبك من الشام يا سيدي.

- إذن يخلوان من الحياة.. نَسِيَتْني نفسي إن نسيت الشام يوماً.

- ولكنك الآن صاحب هذه البلاد.

- وغريب فيها!

- أيكون الأمير غريباً في بلاد صار صاحبها؟

- حين استدبرت الشام يا بدر، جعلت الذي ورائي أمامي.. فإن لم يكن معاد إلى الشام، فلا معدى من أن نجلب الشام هنا!

ثم انفتل بفرسه منطلقاً، ولحق به بدر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كانت نازلة على ركبتيها تغسل بعض الثياب في فناء بيتها البسيط، في ذلك الحيّ الفقير في فسطاط مصر. وكانت تشعر بوحدة قاتلة منذ رحلت أمها المُعتلّة عن الحياة. وكانت قد عادت قبل قليل من السوق الذي تخرج إليه لتبيع غزلها الذي تتعيّش منه، حين طُرِق عليها الباب. فجذبت كميها المشمّرين على ذراعيها المبلولتين، دون أن تجد حولها ما تجففهما به.

وحين فتحت الباب وجدت رجلاً أخذ ينظر إليها متفحَّصا، كأنه يتعجّب من هيئتها الرثّة، على غير ما يتوقع. ثم قال:

- سيدتي زينب؟

أخذتها الحيرة، وقالت:

- أما زينب فهي أنا.. وأما سيدتك..!!

- أنا قادم إليك من الأندلس يا سيدتي.

ازدادت حيرتها، بينما تابع الرجل:

- أرسلني إليك سيدي الوزير.. بدر.

أخذت ترمقه بنظرات مستطلعة متمعنة حائرة:

- عرفتُ رجلاً اسمه بدر يوماً.. ولكن، أمثالي لا يعرفن وزراء.

قال الرجل مؤكداً:

- هو هو يا سيدتي.

@ - خادم الأمير الأموي؟

- وزيره الآن.. وزير صاحب الأندلس مولانا الأمير عبد الرحمن الداخل.

تجمّد وجهها من الصدمة والدهشة لبضع لحظات، وبدت كأنها تحاول أن تستوعب ما سمعته. ثم لاحت ابتسامتها، وهمست كأنها تحدِّث نفسها:

- إذن.. تحقق حلمه! بل رؤياه الصادقة، وإن لم يرها في منام.

قال الرسول مبتسماً لأول مرّة:

- ويريد أن يستكمل حلمه.

تمعّنت فيه مستطلعة مغزى كلامه.. هزّ لها رأسه هزّة موحية، وقال:

- نعم يا سيدتي، لهذا أرسلني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بدر وثلة من حرسه، ينتظرونها على شاطئ الجزيرة الخضراء. وقد سبق إليه خبر اقتراب وصول مركبها. وإذ نزلت إلى الشاطئ، ترجّل عن جواده وأقبل عليها وتبادلا نظرة حب عميقة صامتة. ثم ذهبت ببصرها إلى حرسه، ثم قالت:

- سيدي الوزير.

- بل قولي: زوجي الوزير.

اهتزت ملامح وجهها فرحاً، وقالت:

- لم أحلم بالزواج من وزير!

قال بدر بلهجة مرحة:

- حلمت بالزواج بي! أليس كذلك؟

هزت رأسها وقد تألق وجهها بالفرح.. وتابع بدر:

- وهاأنذا.. وها أنتِ.. بقي القاضي والشهود.

ثم التفت إلى أصحابه ونادى:

- سيدي القاضي!..

أقبل القاضي مسرعاً وقال بدر:

- خير البر عاجله.. وها أنذا الخاطب.. وها هي المخطوبة. وهي وليّة نفسها..

سألها القاضي:

- هل ترضين بالوزير بدر زوجاً لك؟

هزت رأسها هزة خفيفة بالموافقة.

قال القاضي:

- الثيّب تُفْصح.

هتفت بأسلوب عفوي دون تحفظ:

- أرضى.. أرضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذت تجيل بصرها في قصر بدر في ضاحية من ضواحي قرطبة.. بينما كانت الطبول تُقرَع في ساحة القصر تعظيماً للوزير وقائد الجيش وحرمه. وقادها بدر عبر قاعات القصر ودهاليزه وغرفه وحدائقه.. وبدت غائبة عن نفسها، لا تصدّق ما هي فيه، حتى قالت:

- هل تتحقق الأحلام هكذا؟ أم تراني الآن في حلم؟ إن كان كذلك، فلا أريد أن أستيقظ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

ولكن الأحلام الجميلة لبعض الناس، هي كوابيس آخرين، كما كان حال يوسف الفهريّ، إلّا أن كوابيسه كانت تحاصره وتخنقه في صحوه كل يوم، إذ يخرج إلى مجلس الأمير الداخل ليثبت وجوده وخضوعه وطاعته، ويتجرّع معها كأس المرارة القاتلة على ملكه الضائع.

ولكن الكابوس الأعظم الذي لم يكن يتوقعه، كان ينتظره في ذلك الصباح حين أرسل إليه الداخل يستعجله إليه في غير موعد المجلس. وحين دخل عليه، وجد عنده قوماً يعرفهم بأعيانهم، فداخلته الوساوس من فوره، ولم يتأخر عبد الرحمن في تأكيدها إذ قال:

- هؤلاء قوم قد ادعوا عليك أنك غصبتهم حقوقاً لهم حين كان لك الأمر.

جُنَّ جنون الفهري، ولم يراعِ الأدب مع الأمير هذه المرة في لهجته:

- ألهذا عجلت بي؟ وتصدّق هؤلاء الموتورين وتُشْمتهم بي؟

- لست في محلّ من يصدّق ويكذب. فهذا عمل قاضينا يحيى ابن يزيد التجيبي.. وقد @شهد له القاصي والداني بالعدل والإنصاف. فوالله لو طلبني في مسألة لما تأخرت عنه، والبيّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر. فإن كان عند هؤلاء بيّنة واضحة،قضى لهم، وإلّا برّأك ولم يمسسك سوء.

صاح الفهري:

- بل مسّني السوء من الآن، لمجرد التهمة، وأن أقف موقفاً يُشمت بي العدو، ويُنتقَص قدري.

قال عبد الرحمن بحزم:

- القضاء العادل لا يُنقص الأقدار، إنما ينقصها سلب الحقوق، فإن لم يثبت عليك شيء، رجعت غير منقوص. وهذه خلاصة القول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد شهرين من الوقوف بين يدي القاضي، الذي برّأه من بعض التهم، وقضى عليه في أخرى، دون أن تنقضي الدعوى، دخل على الصميل في بيته وعنده ولده هذيل بن الصميل، وابتدره ببيت من الشعر:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا

إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصَّف

قال الصميل:

- خفّض عنك أيها الرجل.

- الموت أهون يا أبا جوشن، من أن يراني الناس غادياً رائحاً من مجلس القاضي كأني من عتاة المجرمين.. ولا أرى هذا الأمويّ يكف عني حتى يجعلني مطيّة الرعاع، ثم يضعني مقلوباً على حمار، ويدور بي في الأسواق، ويُجرّسني على مشهد من العامة.. لم يُبْقِ لي خياراً.. هل تفهم قولي: لم يترك لي خياراً.

- ما تعني؟ كأنك..

قاطعه الفهري:

- نعم. قد كاتبت أنصاري وقومي في «ماردة».. فأجابوني بما أحب، وقد توافر لي منهم عشرون ألفاً.. فلو خرجت معي والتحق بنا قومك، صرنا في قوة عظيمة.

وقف الصميل وقال مستنكراً:

- لا.. لم تصب في هذه.. أما أنا فلا أخون عهدي للرجل.

- هل خارت عزائم أبي جوشن، صاحب السيف والصولة والجولة والأنَفَة؟

- قل ما شئت.. أنا أعادي كما أصاحب، في وضح النهار. وإن شئت النصيحة، وهذا كل ما أعطيكه الآن، فانزع هذا كله من عقلك، إن بقي لك عقلك. فإنك تُقْدِم على هلاكك، وأقبح منه هلاك ولديك اللذين ينزلان عنده رهينتين.

- إن غلبته استنقذتهما، وإن غلبني وقتلني، لم ينفعه أن يقتلهما ولم يسلّا عليه سيفاً معي.

- هذا ما تسوّغ به لنفسك. ولا أرى إلّا أنك فقدت صوابك. أين يوسف هذا من ذلك الزاهد المتعبد الذي جررناه جرًّا من عزلته في البيرة؟ أما علمت أن العزيمة في ترك السلطان إذ يُغلب المرء عليه، أعظمُ من العزيمة في طلبه وأخذه إذ هو قادر عليه؟

- بل كبرت يا أبا جوشن، وذهب عزمك وخارت قوتك، وضعفت همّتك.. اقُعد هنا كالنساء، وارضَ من بقية عمرك بخمول الذكر والوقوف على باب ابن معاوية.. أما أنا.. فعلى مذهب الملوك: إما القصر، وإما القبر.

ومشى خارجاً، ثم توقف عند الباب، والتفت إلى الصميل:

- لن تفضح عنده أمري! أليس كذلك؟

- ربما خارت قوتي كما تقول.. ولكني لم أفقد مروءتي وشرفي.

خرج الفهري، ونظر الصميل إلى ولده وقال:

- قتل نفسه وولديه.

ولم يخطر للصميل في تلك اللحظة، أنه ربّما قتله معه، وإن أنكر عليه. فحين تيقن عبد الرحمن أن الفهري قد غاب عنه وعن قرطبة، أدرك أنه نقض العهد، وأنه خرج يدبّر لأمر. فواجه الصميل بالسؤال عنه، فأنكر أنه يعرف وجهته وغرضه. وأكّد أنه مقيم على الطاعة والعهد، وأنه لو أراد العصيان لما كان عند الأمير الآن. ولكن عبد الرحمن لم يصدّق معاذيره. وأصرّ على الصميل أن يخبره بما يخفي عنه، بل أمره أن يحضره له، وإلّا عدّه شريكه في الغدر والخيانة.

هنا استشاط الصميل غضباً، وعاودته نفسه الأبيّة وغضباته القيسية، وصاح بالداخل وهو @يهز إصبعه في وجهه:

- اسمع يا هذا.. لقد حفظت عهدي لك، وأنت تخاطبني الآن بهذه اللهجة. اعلم إذن أنه لو كان يوسف تحت قدمي هذه ما رفعتُها لك عنه، فاصنع ما شئت.

أمر عبد الرحمن حرسه، فاقتادوا الصميل إلى السجن الملحق بدار الإمارة. وفي اليوم نفسه، فوجئ ولدا الفهري بحرس يقتحمون عليهما دار الضيافة، فيوثقونهما، ثم يدفعونهما بغلظة، ويقودونهما عبر ساحة القصر إلى سجن الإمارة. ووقفت حلل وعريب على منظرة مطلّة تشهدان المنظر، وتتأملان في تقلّب الأيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاول الفهري بمن تجمّع له من الأنصار أن يحاصر أشبيلية التي تولّاها عبد الملك المرواني. وحين يئس منها، ارتد بجنده عنها يريد قرطبة. ولكن المرواني رأى ألا يمهله حتى يخرج بجنده وراءه، وكتب إلى ولده عبد الله الذي كان والياً على «مورور» أن يخرج بعسكره، حتى يطبقا عليه من الجانبين. بينما خرج عبد الرحمن مع بدر وجيش قرطبة إلى حصن المدوَر، حتى لا يبقى للفهري طريق إلى قرطبة بين تلك الجيوش الثلاثة.

وحين بلغ الفهري أن عبد الملك المرواني قد خرج وراءه، أمر عسكره بالرجوع لملاقاته أولاً حتى يأمن على ظهره إذا لقي الداخل من أمامه.

ما لم يحسب الفهري حسابه أنّ عبد الله بن عبد الملك المرواني كان قد خرج بعسكره من مورور، ويوشك أن يلحق به من جهته. وبينما كان القتال مستحرًّا بين الفهري والمرواني، وصل عبد الله بعسكره، فأطبق على جيش الفهري من ناحيته، فاضطرب هذا بعسكره، واختل نظامه، وكثر فيهم القتل، حتى انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة للفهري، الذي تمكّن من الفرار بنفسه، مع ثلاثة من مواليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لبث الفهري هائماً على وجهه ينتقل من مكان إلى آخر وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى بلغ قريباً من طليطلة. وهناك في منطقة جبلية خالية جلس على صخرة منكّسا رأسه، لا يدري ما يفعل. الآن فقط أدرك صواب رأي الصميل وضلال رأيه وانصبَّ تفكيره على مصير ولديه الرهينتين. ولعنِ اللحظة التي رضي بها أن يكون أمير الأندلس.

لكأنّ مواليه الثلاثة الذين كانوا يقفون على بُعد منه ويرقبونه قد أدركوا ما يدور الآن في خلده. وبدلاً من الإشفاق على حاله، شعروا بالازدراء الشديد له. كيف يفرّط بولديه من أجل المُلك؟ وها قد فرّط بأرواح الألوف ممن خرجوا معه بلا طائل. وما الذي ينتظره بعد الآن؟ إنه هالك لا محالة، ولا ملجأ له ولا مفرّ. والأنكى أن مصيرهم قد بات من مصيره. فلماذا لا يريحونه ويريحون الدنيا منه، ويَحْظَوْن عند الأمير الداخل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما استأذن موالي الفهري على الداخل، ولم يكن يعرفهم، كان أحدهم يحمل صندوقاً وضعه بين يدي الأمير، ثم فتحه وأخرج منه رأس الفهري مقطوعاً، وقال معتداً:

- قد أرحناكم منه يا سيدي.. وأرحنا الدنيا.

كان المنظر مفاجئاً وصادماً للداخل وأصحابه معاً.ثم سأل الداخل:

- عرفتم من هو؟

أجاب أحدهم:

- نعم.. هذا يوسف الفهري.

- وكيف ظفرتم به؟

- نحن مواليه.

هز عبد الرحمن رأسه هزَّة خفيفة، وبينما بدت السعادة على وجوه أصحابه، بقي الداخل عابساً ساهماً، ثم خاطب الثلاثة:

- أنتم لم تحفظوا مولاكم، فكيف تحفظونني وتنتظمون في طاعتي؟

وأشار إلى الحرس:

- خذوهم واضربوا أعناقهم، ثم ارفعوها إلى جانب رأس الفهري ليرتدع العصاة، ويعتبر الخونة.

ولم تُجْدِ توسلاتهم له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وها هي زوج الفهري الآن تستأذن على سيدة القصر التي كانت جاريتها وسامتها سوء العذاب من زمن قصير، وتدخل باكية متوسّلة:

- نشدتك الله يا سيدتي.. فقدت زوجي، فلا أفقد ولَدَيَّ.. وقد جئتك راجية متوسّلة @لتتشفعي فيهما عند الأمير.. إن شئتِ قبّلت يدك.

وانهارت على الأرض تنتحب بشدة.

أشارت حلل إلى وصيفتها عريب أن تخرج بطفلها هشام. ثم اقتربت من زوج الفهري وأخذت بيدها ورفعتها عن الأرض. وفي لحظة واحدة نسيت كل ما لقيت منها، ولم تجد في نفسها إلّا الإشفاق عليها. وقالت زوج الفهري بصوت متقطع من النحيب:

- قد اختار زوجي لنفسه.. ولكن ما ذنب ولديّ؟ لم يستشرهما.. وقد نهيتُه.. ألا والله قد نهيته.. قاتل الله الطمع.. والله لا أغفر لنفسي أبداً، ما كنت لأذلّ نفسي هذا الذل لولا أنهما ولداي.. فلذة كبدي.. وقد صار لك ولد يا حلل، فتعلمين حالي..

ربّتت حلل على كتفها مواسية.. وتابعت زوج الفهري:

- أعلم أني قَسَوْت عليك حين كنتُ.. ولكن الله منّ عليك، وجعلني سبباً في ذلك.

قالت حلل:

- خفّضي عنك.. سأكلمه في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان الداخل يخلع رداءه وقد عاد لتوّه من مجلسه، أخذت حلل تهز طفلها، ثم رفعته إليه:

- ألا تحمل ولدك هشاماً؟ سَمِيُّ جدك الخليفة العظيم.

نظر إليها وإلى طفله مبتسماً، ثم حمل الطفل وقبّله. وقالت:

- أما زلت تقول: إنه يشبه جدّك؟ وهذا في الخلقة.. ولكنه سيشبهه أيضاً في العقل والقدرة، حتى يقال: وَلَدَ الأميرُ جدّه!

أعاد لها الطفل، وقد أدرك أن هذا كله مقدمة لطلب ما. فسأل بلا مواربة:

- ما تطلبين يا حلل؟

تظاهرت بأن السؤال قد فاجأها:

- ما أطلب؟ أنا؟

وحين رأت نظرته العميقة، آثرت الوضوح:

- لا يفوت شيء فطنة الأمير. دخَلَتْ عليّ اليوم زوج الفهري.

هز عبد الرحمن رأسه وقال:

- تتوسّل في ولديها!

- قد علم الله ما لقيتَ منها.. ولم أبغض أحداً بغضي لولدها أبي زيد.. ولكني مع ذلك رثيت لها وأشفقت عليها حين رأيتها تنزل على الأرض باكية متوسّلة، وقد كنت جاريتها من قبل.. وقد أمكنك الله من عدوّك يا أبا هشا..

استدركت بسرعة:

- يا أبا سليمان.. والعفو عند المقدرة.

بعد لحظة صمت وترقّب، قال بهدوء:

- ما كنت أحب أن تتشفّعي في قوم من أهل السلطان.. فلا يقضي فيهم إلّا صاحب السلطان!

- ولكن.. ذهب سلطانهم.

- وهؤلاء أشدّ خطراً إذا تُركوا.ألم يكن سلطان الفهريّ قد ذهب، ثم عاود مخاطراً بولديه؟ وهذان ولداه، إن أطلقتهما، سكنا أَول الأمر، وحمدا الله على السلامة. فما إن يمرّ الوقت حتى ينسيا نعمة النجاة من الهلاك، فيطلبا سلطان أبيهما، وفوقه الثأر له. فإن لم يفكرا بهذا من عند نفسيهما، وجدا من يذكّرهما به من أهل الأطماع والفتن.. لا يا حلل.. السابقة تُوَطِّئ للاحقة.. وكل امرئ، يلقى مصيره.

سُقِط في يدها، وعلمت أنه قد عزم أمره. وظهر بعض الأسى على وجهها، وأخذت تهز طفلها بحنان.. نظر إليها متأملاً ثم قال:

- أما ولدها الأكبر أبو زيد.. فلا عفو.. يلحق بأبيه.. وأما ولده أبو الأسود محمد، فينجيه أنه حدث السن.. ولكن يبقى في السجن إلى ما يشاء الله.

لأول مرّة منذ صارت حليلته ثم أم ولد، ترى جانب السلطان فيه، وهو الجانب الذي لا يظهر في القتال والحروب، ولكن.. في القتل!

وما هي حتى رُفع رأس أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري إلى جانب رأسه أبيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الصميل بن حاتم الذي دوّخ الأندلس منذ نزوله فيها وأعيا شيوخها وأمراءها، يجلس @في حجرته في السجن، حين سمع وقع أقدام يقترب ثم صوت حركة المفتاح وسحب المزلاج. ودخل عليه ثلاثة من الحرس يحملون له إبريق خمر كبير، وطبقاً من النقل: جوز ولوز وزبيب، ووضعوها أمامه بكل هدوء. كان من المعروف أنه لا يتورّع عن شرب الخمرة والإفراط فيها. ولكن أن يؤتى له بالخمر في سجنه!! إن لم يتورّع هو، أفلا يتورّع سجّانه؟

كان يرقب ما يجري أمامه بكل هدوء وصمت، ودون أن يغيّر من جلسته، إلّا أنه استخرج سواكه وبدأ في سوك أسنانه.

التفَ أحد الحرس وراءه واستخرج حبلاً، ثم طوّق به عنق الصميل وأخذ يشدّ بكل قوته. انتفخ وجه الصميل وأخذ يفحص الأرض بقدميه حتى خمدت أنفاسه، وسقط السواك من يده. ثم عمد أحد الحرس فدلق من إبريق الخمر على لحيته وصدره.

دعا عبد الرحمن بعض أهل الصميل ليحملوا جثته ويكرموا دفنه، مدَّعيا أن الحرس دخلوا عليه فوجدوه ميتاً. والأرجح أنه غصّ بالشراب الذي ما زال يسرف فيه، وعزاهم به.

ولما دخل عليه قومه في السجن، نظر بعضهم في إبريق الخمر، ثم في القدح الذي لم يظهر فيه أثر للشراب، وحين شمّه لم يجد شيئاً من رائحة الخمر فيه. أما طبق النُقل فلم ينقُص منه شيء. قال كبيرهم وهو ينظر في جثة الصميل:

- والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها، ولكنك سُقيت الموت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لله درّه من رجل!

التفت بدر إلى سيّده متعجباً:

- من؟ الصميل؟

هز عبد الرحمن رأسه واستأنف:

- ربّ عدوٍّ لك تعجبك خلالُه، وربّ صديق تكره منه بعض صفاته. ولا يمنعني ما كان بيني وبينه أن أمتدح خصاله. لقد صحبني من البيرة فما مست ركبته ركبتي، ولا تقدّم رأس دابته دابّتي، ولا استفهمني في حديث، ولا افتتح حديثاً بغير أن أسأله عنه.

كانا خارجين للصيد، والحرس يحافظون على مسافة خلفهما. ثم قال بدر:

- أحسب أنّا فرغنا من فتن القيسية بموت الصميل، فلا تقوم لهم قائمة بعد.

قال عبد الرحمن وهو يعاين الخلاء والفضاء:

- ولكنّا لم نفرغ من غيرهم.. أعني، ربما زاد خطر اليمنية الآن وقد ظنوا أن الساحة قد خلت لهم بانقضاء خطر القيسية. وهم أكثر العرب في هذه الديار.

وفجأة أشار إلى الأعلى:

- انظر! ذلك الطائر!

وأسرع كل منهما إلى قوسه وسهمه ورميا معاً، ثم دققا النظر. وحين تبيّن لهما أنهم لم يصيبا الهدف، ظهرت عليهما خيبة الأمل. وقال عبد الرحمن:

- أخطأناه معاً!

أخذ على نفسه منذ تولّى الإمارة أن ينزل بنفسه مع بدر والقاضي التجيبي وبعض أصحابه الآخرين إلى أسواق قرطبة وأحيائها فينظر في أحوال الناس ويخالطهم ويستمع إلى حاجاتهم وشكاويهم، دون حرس يحجبونه. وقد أحبه الناس لذلك. فكان معظمهم يلتف حوله دون حاجة، فيتزاحمون على مصافحته، وقد يقبل عليه الصغار بضمائم الزهور، فيربت على رؤوسهم.

وفي ذلك اليوم، أقبل رجل يشق الصفوف بسرعة وتصميم حتى تعلّق بسرج الأمير وقال:

- أصلح الله الأمير. إن أحد قضاتك قد ظلمني، وأنا أستجيرك من الظلم.

قال عبد الرحمن وهو ينظر إلى القاضي التجيبي:

- تُنصَفُ إن صدقت.

وهمّ أن يتابع السير بدابته، ولكن الرجل، أخذ بعنان دابته وشدّها مستوقفاً إياه بغلظة؟

- أيها الأمير، أسألك بالله لما برحت مكانك حتى تأمر بإنصافي وهذا كبير قضاتك معك.

تدخّل أبو عثمان، شيخ الموالي، ونَهَر الرجل:

- يا رجل.. يدك عن دابة الأمير! أين أدبك.

لم يتراجع الرجل، وصاح متحدياً:

- لا والله لا أفعل حتى أُنْصَف، أو تزيحوني بالقوة.

همّ بدر أن يتحرك ليزيح الرجل، فنهاه عبد الرحمن بحركة من يده:

- لا بأس..

ثم تحوّل إلى القاضي التجيبي وقال:

- انظر في مسألة هذا الرجل غداً من أول الصباح، فإن كان ذا بيّنة فأنصفه، ثم أعلمني.

ثم خاطب الرجل:

- إن رأيت بعد ذلك أنك لم تصب حقك، فارجع إليّ مع بيّنتك لأنظر فيها بنفسي.. هل رضيت؟

تنحى الرجل وهو يقول:

- رضيت.. أطال الله عمر الأمير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين سمع عبد الملك المرواني بالخبر، وكان في قرطبة ذلك الحين، دخل على عبد الرحمن الذي كان يناديه «أبي». إجلالاً له، فابتدره بالقول:

- ما خَبَرٌ سمعت به؟ رجل من العامة تعرض إليك بين الناس وتعلّق بركابك لا يتزحزح حتى تقضي له بمراده، ولم يتحشم حين أُمِر بالتنحّي.

قال عبد الرحمن:

- لم يقع سوء.

- بل هو السوء بعينه يا أبا سليمان. إن للإمارة هيبة ومنزلة لا يحسن أن تُبْتَذَل في مخالطة العامة.. وما زلت تخرج كأي رجل فتعود المرضى وتكثر مباشرة الناس والمشي بينهم وحضور الجنازات. وإن هذا الخروج الكثير لا يَجمُل بالسلطان العزيز، وإن عيون العامة تخرق تجلته، ولا تُؤمَن بوائقهم عليه. فليس الناس كما عهدت. هب أن هذا الرجل الذي تعلّق بدابتك كان من عدّوك، أفَما كان بوسعه أن يبلغ منك؟

قال عبد الرحمن وهو يتبادل نظرة مع بدر:

- يا أبا عبد الله! لقد خالطت في طريقي من الشام أنواعاً من البشر ما كنت لأعرف مثلهم في قصر جدي ودار أبي. وقد تعلّمت منهم ما كنت أجهل، فكيف نسوس رعية لا نعرف كيف تفكّر وتشعر وتَألَم وتفرح؟

- أنت أمير البلاد، لا مؤدّب الصبيان، ولا واعظ المسجد، ولا الطبيب المعالج. وهذه الرعيّة التي تظن أنك صرت تعرفها، فيها الصالح والطالح، وفيها العاقل والمجنون. ولا نأمن أن يتوصل بعض عدوّك إلى أحدهم فيُغريه بالدرهم والدينار ليأخذك غيلةً وأنت بين الناس. وقد علمنا أن هيبة السلطان تُلزم بالطاعة، وأن ابتذال مقامه يغري بالمعصية. وأن يهابك الناس خير من أن يحبوك، فإن الأولى تمنعك، والثانية ترديك. فامتنع هداك الله.

وبالطبع، لم يعجب كلام المرواني بدراً. ولكن، ما كان ليفصح أمامه عن اعتراضه عليه، وقد علم شدّته واعتداده برأيه، وأهم من ذلك إجلال عبد الرحمن له وثقته التامة به، حتى كان يناديه «أبي». ولكنه تحيّن الفرصة حين خرج مع عبد الرحمن لينظرا في تقدّم العمل في منية الرصافة، وقد أوشك الفَعَلة والصُنّاع والزرّاع على إتمامها. وبينما كانا يسيران بهدوء على ضفة نهر الوادي الكبير، قال بدر:

- ما رأيك فيما قاله الأمير المرواني؟

- لا أدري، لعلّه محق. ما رأيك أنت؟

- تذكر كلامك لي حينما كنا في المغرب الأقصى بين أخوالك نفزة؟ ما تعلمتَه من مخالطة العامة في رحلتنا الطويلة، وكيف تنوي أن تسوس الناس وأن تخفض لهم جناحك، ولا تحتجب عن الرعيّة؟!

- أذكر.

انتظر بدر أن يزيد، ولما رآه ممعناً في التفكير، قال يستزيده:

- ولكن..؟

- كأن الحقيقة ذات وجوه يا بدر. وإلّا كانت الحياة أسهل.

ثم أشار إلى الأرض أمامه، وتابع:

- كما نعاين هذه الأرض التي أمامنا.. نراها من هنا على هيئة، فإذا وقفنا في موضع آخر منها، رأيناها على هيئة أخرى. أيهما الصواب؟.. كلتاهما. الكلام الذي تُذكِّر به صواب. وكلام عبد الملك المرواني أيضاً صواب. ولكنا لا نختار على وفق ما نحب كأنا نعيش وحدنا، ولكن أيضاً على وفق أحوال الناس، وما يمليه عليك مكانك منهم. كيف يمكن أن ننظر في وجوه الناس، ثم نميّز صاحب المعصية من صاحب الطاعة؟ لا نعلم حتى يقترف صاحب المعصية الشرّ، وعندئذٍ قد يكون الوقت قد فات. فالأوْلى أن نحتاط.. أما الاطلاع على أحوال العامة فنلتمس له طرقاً أخرى.

تردد بدر لحظات، قبل أن يقول:

@ - العفو يا سيدي. ولكن، أيهما أحسن مثلاً؟ هذا، أم عمر بن الخطاب: عدلت، فأمنت، فنمت!!

تنهّد عبد الرحمن، وأجاب:

- وكيف انتهى عمر بن الخطاب يا بدر؟ قتيلاً على يد المتآمرين الخونة.. وهو في محراب رسول الله يؤمّ بالناس. ولكن.. نقلّده في العدل ما استطعنا، ونحاول ألّا نمكّن أحداً منا.

هنا أدرك بدر أَسِفاً أن تغيّر المقام يُفْضي أو يقضي بتغيّر الرأي والمقال! وأستذكر قوله تعالى: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الرأي ما قاله صاحبك المرواني!

رفع عبد الرحمن رأسه عن المائدة ونظر إلى حلل متعجباً، فأردفت:

- لماذا تعجب؟ ألأني كنت في حال أسوأ من حال العامة؟ أنا الآن أم ولد الأمير، صاحب البلاد. فلا أُقدِّم على سلامته وهيبته شيئاً.

ولكن الذي أثار المزيد من العجب، تدخّل القيّمة على حرم القصر، التي كانت تقف على خدمتهما، وهي جارية سوداء كبيرة السنّ تدعى وضحاء. فلم تتردد في القول:

- وأنا أيضاً أقول قول السيدة.

قال عبد الرحمن:

- كذلك أنتِ؟

- لا تستكثر عليّ القول أيها الأمير.. لقد عملت في بيوت الأمراء في مدينة رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- ، قبل أن يؤتى بي إليك. وقد شاهدت وسمعت وعلمت.. إذا تواضع الأمير ظنّوا به ضعفاً ونعتوه بأوصاف النساء، وإذا تجبّر قالوا: متجبّر، إلّا أنه فحل. فأيّ الوصفين تختار؟

ضحك عبد الرحمن وحلل ضحكة خفيفة، واستأنفت وضحاء:

- وقد رأيت من الأمراء من ينادم صاحباً ويأنس به، حتى يصير أقرب إليه من أخيه، ولا يصبر على فراقه ساعة من الليل أو النهار. وما هي حتى يعتدّ النديم بنفسه، ويحسب أنه يستطيع أن يتبسّط مع الأمير مثلما يتبسّط الأمير معه. ولا يفطن إلى أن تبسّط الأمير تواضع وتفضّل وتكرمة، وأن تبسّط النديم بالقدر نفسه هو وقاحة وتكلف وسوء أدب وتطاول. فتكون عاقبته أن ينقلب أميره عليه، فينكبه ويذله. وإذن، فإنك إذ تحتجب وتحفظ هيبة السلطان، فإنك لا تحفظ نفسك إلّا بقدر ما تحفظ الآخرين من عاقبة الجرأة عليك.

المرواني، شيخ بني أميّة، وحلل التي كانت قبل ذلك أَمَة للخدمة، وجارية سوداء.. كلهم اجتمع على رأي واحد! احتجاب الأمير عن العامّة!!

هتفت حلل:

- لله درك يا وضحاء! من أين لك هذا البيان؟

قالت باعتداد:

- نحن أهل المدينة، إلينا انتهت فصاحة الفُصَحاء، وعلم العلماء. وأما أنتم، أهل الأندلس، فإن شئتم أن تبلغوا شيئاً من ذلك فخذوا عنّا.

ثم استدركت وهي تضع يدها على فمها:

-لا أعني الأمير! فهو حديث عهد بالشام والمشرق!

ضحكوا جميعاً.. ثم قال عبد الرحمن وقد اكتسى وجهه بالسهوم:

- إي والله يا وضحاء. لا أنام ولا أصحو إلّا على مشهد الشام في روحي.. على أنه إن لم نسدّد فنقارب.. وفي بضعة أيام إن شاء الله ننتقل إلى منية الرصافة التي جعلتها على مثال رصافة جدّي هشام. فإن شئتِ يا حُلل أن تشهدي شيئاً من أثر الشام ومرابع طفولتي وصباي.. فذلك هو المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

منية الرصافة!

هنا الآن في الأندلس، خارج قرطبة.

بدا غائب الوعي عمّن حوله وهو ينظر متأمِّلا متمعناً، وقد جاشت به الذكريات وغلب عليه الحزن في تلك المناسبة العظيمة.. كان كل شيء في المكان يشبه رصافة هشام: القصر، والدور، والبساتين العامرة بكل أنواع الشجر، ومجاري المياه. ولكن، بخلاف رصافة هشام @كان ثمة نخلة واحد متفرّدة متوحّدة في مكانها.

ثم رأته حلل يمشي كالمسحور نحو النخلة، فتبعته حتى وصل إليها وقال:

- أول نخلة في أرض الأندلس. أمرت أن يؤتى بها من المغرب، وزرعتها بيدي. وما القصور والبساتين والبلاد، إن لم يكن فيها نخلة؟! النخلة عمّة العرب.. وعلى الرجل أن يكرم عمّته.

قال ذلك وهو يتحسس النخلة كما يتحسس حبيباً، ثم وضع خدّه عليها كأنه يسمع نبضها، أو يستمدّ منها بعض نبضه. ثم تراجع قليلاً وأنشد:

تبدّت لنا وسط الرصافةِ نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ

فقلت شبيهي في التغرّب والنّوى

وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبة

فَمِثْلُك في الإقصاء والمنتأى مثلي

أخذت حلل تنقّل بصرها بينه وبين النخلة واختلطت في نفسها مشاعر التعجب والإشفاق على أقوى رجل في الأندلس! كيف لرجل يملك البلاد أن يرى في تلك النخلة مثيله في الوحدة والغربة!

وكان قد زرع النخلة بحيث يستطيع النظر إليها من منظرة القصر. وإذ كان يقف هناك، وقفت حلل وراءه وقالت:

- ما زلت تطيل النظر إلى تلك النخلة!

أجاب دون أن يتحوّل ببصره عن النخلة:

- غريب يواسي غريبة.

ثم همس كأنه يخاطب نفسه:

- قد آن الأوان.

احتارت في مغزى العبارة، حتى أنشد:

أيها الراكب الميمّم أرضي

أقْرِ من بعضــيَ السلامَ لبعضِ

إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ

وفؤادي ومالكيهِ بأرضِ

قُدِّر البينُ بيننا فافْتَرقنا

وطوى البينُ عن جفونيَ غَمْضي

قد قضى الدهر بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف يقضي

أخيراً قضى الله بالاجتماع بعد فراق دام اثني عشر عاماً! وعاد مبعوثو عبد الرحمن بمن خلّف وراءه في الشام من أسرته: ولده سليمان الذي بلغ الآن ستة عشر عاماً، وأخوه الوليد وابنه المغيرة، وابن أخيه عبيد الله بن أبان، الذي قُتِل أبوه، فارس بني أمية، في دمشق، شرّ قتلة. أما أخته أمة الرحمن فكانت قد فارقت الحياة، وأما أخته أم الأصبغ فكانت قد بلغت من العمر عِتيًّا، فما كانت لتقوى على تعب الرحلة الطويلة، فبقيت في دارها في قرية من قرى حمص.

وكان وصولهم عام ست وأربعين ومائة للهجرة.

وحين ظهرت لهم منية الرصافة، هتف الوليد:

- يا الله.. كأنها رصافة جدّنا هشام!

كان عبد الرحمن في انتظارهم أمام قصره، وحين رآه الوليد ترجّل وهرول إليه، وأسرع عبد الرحمن من جهته إليه، وتعانقا بحرارة، ثم نزل الوليد يقبّل يد أخيه، فسحبها بسرعة قائلاً:

- معاذ الله.. أنت أخي الأكبر.

قال الوليد وهو يغالب دموعه:

- بل أنت سيدي ومولاي.

تنحّى الوليد جانباً، وكان سليمان يقف وراءه على بُعد خطوات ينظر إلى أبيه الذي كان قد فقد الأمل في أن يلقاه من جديد، وبدا حائراً فيما ينبغي عليه أن يفعل، حتى قال عبد الرحمن وهو يتأمّله:

- قد كبرتَ في غيبة أبيك أيها الفتى.

@ فجأة اندفع سليمان نحو أبيه وعانقه بحرارة وقبَّل رأسه ويديه. وأخذ عبد الرحمن برأسه يهزه برفق وحنان، ثم يضمه إلى صدره من جديد، حتى أحس بدموعه الساخنة تبلّل ثوبه. فقال:

- لا عليك.. لا عليك.. أنت عندي الآن.

ثم أشار الوليد لولده المغيرة:

- قبِّل يد عمّك يا مغيرة.

ففعل، وضمّه عبد الرحمن إلى صدره. ثم تحوّل إلى عبيد الله ابن أبان:

- عبيد الله. ابن أخي أبان.. الحبيب ابن الحبيب.. تعال عانق عمّك.

وبعد العناق أخذ عبد الرحمن يتأمّل فيه، وقال:

- قد ازددت شبهاً بأبيك، فارس بني أميّة، رحمه الله، فكأني الآن أنظر إليه فيك. فأنت عندي في مكانه..

في هذه الأثناء كانت حلل تقف مع عريب في منظرة القصر، وتراقب المشهد بوجه شديد السهوم.

في الصالة الكبيرة، جلس عبد الرحمن مع أهله، وأجلس سليمان إلى جانبه وهو يطوقه بذراعه. وقال:

- قد طال انتظاري لهذا اليوم.. وأنا الآن أسعد الناس.. ومعاً سوف نستدرك ما فات من أعمارنا في الفراق والبُعد.. وهذا مُلك بني أمية في الأندلس، فتبوّأوا منها حيث تشاؤون.. ولكم عليّ أن أبذل لكم من نفسي ما يعوّضكم عن أيام الرعب والتخفّي.. لا مسوّدة هنا.. فقرّوا عيناً، واستقبلوا معي عمراً جديداً خيراً مما استدبرتم..

ثم التفت إلى عبيد الله بن أبان وقال:

- هل تُحسن لعب الشطرنج كما كان يحسنه أبوك.. قد اشتاقت نفسي..

ولم يكمل إذ سُمِع نشيج الوليد، فقام عبد الرحمن وأخذ يربّت على كتفه. وقال الوليد:

- العفو يا أخي.. ولكن، ذكرتُ إخوتنا أبان ويحيى وعبد الله وعبيد الله و.. ليتهم كانوا معنا الآن ليشهدوا كيف مَنّ الله عليك وعلينا بعد تلك المحنة.

ثم شخص ببصره إلى أخيه، وأعقب:

- تذكر خبر مسلمة بن عبد الملك في رصافة جدّنا هشام؟ وكنتَ فتىً صغيراً.. كنا نسخر من قوله كلما ذكرناه، ورأيناك أكثرنا نحولاً.. و.. لعلّها الغيرة! والآن، نعلم أن الله تعالى قد آثرك لتكون صاحب

السعد والحظ من بيننا. فليت إخوتنا الذين ذهبوا أدركوا هذا، فيكون لهم نصيب فيه، في ظلك وتحت رايتك يا أبا سليمان!

سرح عبد الرحمن لحظة في التفكير والتأمّل، ثم قال:

- لم يكن مجرّد سعد سقط عليّ وأنا قاعد في فراشي يا أبا المغيرة. بل كان وراءه بذل النفس واتصال الحركة وتدبير الليل والنهار. نعم، هو فضل الله يؤتيه من يشاء. ولكن الله إذا أراد شيئاً لأحد، وهبه أسبابه أولاً وجعلها في طبيعته!

هز الوليد رأسه ومسح دموعه. وما كان ليدرك مغزى كلام عبد الرحمن الذي لم يعد ليسرّه أن يُنسَب إنجازه إلى مجرّد الطالع الحسن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تجلس أمام المرآة تأخذ زينتها، وتساعدها عريب التي لحظت طول وجومها، فقالت:

- ما لي أراك تطيلين السهوم والتفكير؟

أجابت حلل بنبرة الإنكار:

- أنا؟ لا شيء.. لا شيء..

قالت عريب:

- دعكِ من هذا.. فوالله لا يخفى عليّ شيء مما يدور في نفسك.

قالت حلل بضيق:

- حقاً؟ وما الذي يدور في نفسي؟

- أعني.. هكذا أنت منذ وصل بِكْر الأمير.. كأنك تفكرين في المستقبل.. ولاية العهد.

هذه المرّة ردّت حلل بجفاء غير مألوف منها:

- ومن أطلعك أنت على القلوب؟ وما شأنك بهذه الأمور التي تخصّ الأمير وأهل بيته؟ انشغلي أنت في عملك، خيرٌ لك من التقحم فيما لا يعنيك.

اكتسى وجه عريب بملامح الصدمة والخيبة، وقالت معتذرةً:

- العفو.

ثم رانَ الصمت، بينما تابعت عريب عملها في تمشيط حلل، وإذ كانت غافلة عن نفسها @فيما أدهشها من غلظة حلل المفاجئة، لم تتروّ في تسْليك عقدة في شعر حلل، فصاحت هذه متوجعة دون تدبر:

- ما هذا، قطع الله يدك.

تراجعت عريب من فورها وشهقت بالبكاء. ما الذي جرى لهذه الفتاة الطيبة الودود؟ أي شيطان مسّها لتتصرف معها الآن تصرّف زوج الفهري معها حين لم تكن غير جارية في خدمتها؟ أهو شيطان السلطان والإمارة لا ينجو منه صاحب حكم؟

على أن التي مرّت هذه الأسئلة في ذهنها بسرعة البرق، كانت «حلل» نفسها. فقامت من مكانها بسرعة وعلى وجهها من تعبير الصدمة أكثر مما في وجه عريب، واحتضنتها بحرارة بالغة، وهي تقول معتذرة:

- يا إلهي. ما الذي جرى لي؟ سامحيني يا عريب.. لا أدري ما الذي حلّ بي.. سامحيني نشدتك الله، وإلّا لم أغفرها لنفسي أبداً.

طاب خاطر عريب، وكفكفت دموعها، ثم قالت حلل بنبرة البوح والاعتراف:

- نعم.. لعلك قلت الصواب.. منذ وصل سليمان وأنا في تفكير وتدبير. هل أنا امرأة شريرة لأنّي أريد ولاية العهد لولدي هشام؟ ولكنني أمُّه، ومن شأن الأم أن تقدّم ولدها. هيا تبسّمي لصاحبتك.. جلّ من لا يخطئ.. غفر الله لي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

▌«لا مسوّدة هنا.. فقرّوا عيناً».

هكذا تحدّث الداخل مع أهله الذين قَدِموا عليه من الشام.

ولكنه سيكتشف قريباً أنه كان مخطئاً!

أما قوله لبدر بعد التخلص من الصميل: «.. ربما زاد خطر اليمنيّة الآن وقد ظنوا أن الساحة خلت لهم بانقضاء خطر القيسيّة، وهم أكثر العرب في هذه الديار»، فسيثبت أنه كان صواباً!

وجماع ما أخطأ في تقديره وأصابه به: يمنيّة مسوّدة في الأندلس تحت لواء أبي جعفر المنصور، ومعه سجّله الذي أعطاه لزعيمهم: العلاء بن مغيث الجذامي!

شهد سقوط دولة بني أمية في المشرق، ومصارع قومه وإخوته، وانزوى عامين كاملين متخفياً، قبل أن يبدأ رحلة فراره الطويلة المليئة بالوقائع المخيفة، ولامَسَ الموت غير مرّة، ومع ذلك بقي هادئ النفس في وجه الهلاك المتربّص به في كل ناحية وشِعب وطريق وقرية ومدينة، مستعصماً بما اعتقد بأنها مواعيده المقدورة له، حتى تحققت تلك المواعيد ومَلَك الأندلس، وأحيا فيها دولة آبائه.

أما أن يظهر المسوّدة الآن في بلده، فقد أخرجه ذلك عن طوره، وبعث فيه أحقاداً وغضبات ونقمات لم يكن يعرف، حتى هو، مداها وعِظَمها..

- مسوّدة في بلادي؟ وقد ظننت أنه انقطع ما بيني وبينهم إلى الأبد؟ ولكن، لا بأس. بل فعل أبو جعفر خيراً.. لم يكن في وسعي أن أقاتل المسوّدة في المشرق، وكان قصارى غايتي النجاة والوصول إلى الأندلس.. الآن، لا فرار ولا اختفاء ولا مطاردة.. الآن هي الحرب صفاحاً، وإني أقسم بالله العظيم أن يختبر المسوّدة مني في هذه البلاد، ما لم يختبروه في المشرق، بل أن يلقوا مني هنا ما لقيه قومي هناك، أو أهلك دون ذلك. لم تنته حرب العباسية والأموية عند الزاب.. ولكن.. نعم، هنا!

لم يكن يعلم قبل الآن أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، قد جعل القضاء على دولة بني أميّة الجديدة في أقصى المغرب في مقدمة غاياته. ولم تقتصر دوافعه على بغض بني أميّة على جملتهم، ورغبته في أن تبسط دولة بني العباس سلطانها على كل بلاد المسلمين، ولكنه كان يريد رأس ابن معاوية بعينه. هذا الأمويّ الفار الذي أفشل كل محاولات المسوّدة للوصول إليه، وتمكن من قطع الفيافي والقفار والبحار برأسه فقط، حتى حاز الأندلس. والمفارقة أنه كان شديد الإعجاب به لذلك كلّه. ولكنه إعجاب العدوّ بعدوّه الذي ملأ الأسماع وشغل الدنيا بإنجازه المتفرّد، فكان الإعجاب مقترناً بالحسد للند المكافئ، أو ربما الأعظم باعتبار الظروف والتحديات والعوائق التي كان على عبد الرحمن أن يقهرها منفرداً ليبلغ غايته. وبذلك صار طلبه لابن معاوية هدفاً خاصًّا إلى جانب الغاية العامّة.

وازداد أمله في تحقيق مطلبه ذاك بعد التحاق ولاية إفريقية بالدولة العباسية. فصار أقرب إلى هدفه. وكان صاحب إفريقية الجديد محمد بن الأشعث الخزامي هو الذي رتّب خروج العلاء بن مغيث الجذامي سرًّا من الأندلس إلى العراق للقاء الخليفة للتدبير معه على @الداخل. وأمدّه أبو جعفر

بالمال، وأعطاه السجل واللواء، ولم يكن في حاجة إلى جهد كبير ليثير فيه نعرات اليمنيّة وأنهم أحق بالأندلس من ذلك الطارئ المارق الآبق. وأكد له أنه لا مطمع له في خراج الأندلس وخيراتها، فهي كلها لهم إذا حازوا الأندلس، ولسوف تبقى في حكمهم ما دامت الخلافة. وكل ما يطلبه في المقابل، إلحاق الأندلس بالخلافة العباسية.. ورأس ابن معاوية! فإذا ظفروا به، حشوا رأسه بالملح والصبر والكافور، ثم أرسلوه إلى أبي جعفر أينما كان.

وحين عاد العلاء إلى الأندلس، لم يلقَ صعوبة في تحريض قومه وجمعهم على غايته. فلبسوا السواد، وأعلنوا الثورة، وتمكنوا في وقت قصير من السيطرة على غرب الأندلس وجنوبها الغربي. ثم جعل مقرّه في قلعة «رعواق». وكان قد عاهد شيخاً آخر من شيوخ اليمنيّة: غياث بن علقمة أن يلتحق به قادماً من شذونة مع قومه من لخم، فإذا تمّ ذلك خرجوا معاً إلى قرطبة في جمع عظيم، لا قِبَل للداخل وأنصاره به.

وإذ عرف الداخل الخطة، صار همّه الأول أن يمنع انضمام غياث بن علقمة إلى العلاء في قلعة «رعواق». فوجّه بدراً إلى شذونة وحاصرها على غياث، قبل أن يخرج منها ثم آثر بدر أن يأخذه بالترغيب والترهيب، فكتب إليه:

«يا ابن علقمة، إني لك من الناصحين. قد غرّكم ابن مغيث وأوهمكم أنه سيملك بكم وتملكون به. ولا والله، بل غرّتْه الأماني، والله مخيّب أمله. وما كان الله لينجي الأمير من سيوف المسوّدة وهو بين ظهرانيهم وحيداً منفرداً، إلّا لأنه كتب له هذه البلاد ليسوس الناس بالعدل والسويّة، ويقيم فيها دولة الإسلام الجامعة. وهو لم يقلب لكم ظهر المجنّ، ولا نقض لكم عهداً، فلماذا تنقضون عهده؟ وقد علمتَ أنه لا مخرج لك الآن من شذونة إلّا أن تلقاني. وما أنت بقادر عليّ ولو اجتهدت، وذلك أن معي جيشاً، لا هم من قيس، ولا هم من يمن. إنما هم جند لم يعرفوا لهم مهنة غير الحرب والقتال، ليس وراءهم أراضٍ يزرعونها فيتعجّلون الرجوع إليها. وليس لهم ولاء ولا انتماء إلّا للأمير. فحياتهم من حياته، وعزّهم من عزّه. وإن لم يكن في وسعك أن تلتحق الآن بذلك المارق لتقاتل معه، فما الذي تُصيبيه من العصيان؟ فإذا ظفرنا به لم يكن لك من دعوته إلّا الخزي والخذلان والهلاك. فهلمّ إذن وارجع إلى الطاعة، وسالمني أسالمك، ولك عهد الله وذمّة الأمير أن تبقى لك شذونة، لا ينازعك عليها أحد».

بلغ العلاء بن مغيث أن غياث بن علقمة قد صالح بدراً على ما أعطاه. فانخذلت نفوس أصحابه ثم خرج بهم قاصداً قرمونة في الطريق إلى قرطبة، حيث نزل الداخل والتحق به بدر. وكان الداخل قد شحن قرطبة من ورائه بقطعة أخرى كبيرة من الجند.

وضرب العلاء معسكره حول قرمونة. وحينما نظر عبد الرحمن من على أسوار قرمونة إلى معسكر العلاء ورأى الرايات السود وجنده الذين يرتدون السواد، ضجّ صدره بالغضب والنقمة. بينما كانت الرايات البيض ترفرف على أسواره. وارتدى هو وجنده البياض في المقابل.

بعد شهرين من حصار قرمونة بلا طائل، بدأ جند العلاء بن المغيث يتململون. فقد أدركوا أن قرمونة عظيمة التحصين، ولا قِبَل لهم بهدم أسوارها إلّا بالمنجنيق الذي لا يملكونه. ونفدت أعطيات الجند،

فألح عليه أصحابه برفع الحصار والتوجه إلى قرطبة. ولكن العلاء أبى، خشية أن يلحق به الداخل بمن معه، فيصير بين جند قرطبة من أمامه والداخل من ورائه. وبينما كان الجدال دائرا في قبته مع قادة جيشه، سمعوا ضجيجاً وجلبة من أطراف المعسكر. فلما خرجوا يستطلعون وجدوا قسماً من الجند قد خلعوا خيامهم، وشرعوا في الرحيل.

قال العلاء:

- اللعنة عليهم.

ثم صاح فيمن حوله:

- يا قوم، إني مقيم هنا حتى لو بقيت وحدي، فمن ثبت معي قطعت له من الأندلس ما يغنيه ويغني ولده إلى يوم الدين.. الصبرَ الصبر، الثباتَ الثبات.

ابتسم عبد الرحمن وهو يرى من على السور رحيل ذلك الشطر من جند العلاء واختلال معسكره، وكان بدر يراقب معه. فقال عبد الرحمن:

- أول النصر إن شاء الله. قد ذهبت الذَّنَب، والحزم أن نتبعه الرأس قبل أن يفيق من صدمته.. بدر!

- سيديّ!

- انتخب لي سبع مائة من فحول الجند وشجعانهم، وأوقد لي ناراً عظيمة عند بوابة المدينة.

@ صاح عبد الرحمن في الجند الذين تم اختيارهم، وهو يحمل سيفه في غمده:

- يا قوم.. هذه ساعة الصبر والجلاد.. يقولون سعدي لا سيفي. فالآن يوم الاختبار، وأنا خارج إلى تلك الجموع خروج من لا يحدِّث نفسه بالرجوع.. وأنتم على الخيار، فمن شاء أن يكون معي فليسُلّ سيفه، وليكسر غمده وليطعمه هذه النار.. فلا غمد إلا أجساد هؤلاء المارقين الخونة.

وسلّ سيفه من غمده، ثم كسر الغمد على ركبته وقذفه في النار. وتابعه الآخرون على ذلك.

فوجئ العلاء ومن بقي معه باندفاع الداخل مع جنده نحو معسكرهم فاضطربوا اضطراباً شديداً، وعجلوا إلى خيولهم وسلاحهم على غير نظام. واصطدم الفريقان وكان لعبد الرحمن فضل المفاجأة. وكان يقاتل بشراسة هائلة قتال الثائر الموتور، عن نفسه، وعن بلده الجديد، وثارات قومه.

ولما رأى سائر الجند الذين خُلِّفوا في قرمونة ما يحدث في ساحة المعركة، ثارت نفوسهم، وصاح صائحهم:

- هل نترك الأمير يقاتل مع سبع مائة رجل، ونحن هنا نراقب من خلفه؟ هل يقال عنا أنّا نَفَلُ عساكره؟ لا، ورب الكعبة.

ثار حماسهم، وما هي حتى التحقوا بالأمير ومن معه. وحمي وطيس المعركة، وكثر القتل في جند العلاء، وما لبث الكثيرون منهم أن بدأوا بالفرار في كل جهة. وكان عبد الرحمن يبحث عن العلاء حتى وجده، وبعد منازلة قصيرة تدحرج رأس العلاء على الأرض. رفعه عبد الرحمن وصاح:

- رأس الفتنة.. العلاء بن مغيث الجذامي! أين صاحبه أبو جعفر المخذول؟

وأخذ يدور بالرأس بين الجند.

انتشرت جثث القتلى في ساحة المعركة.. كانت مذبحة كبرى. ثم وقف عبد الرحمن بجواده على الأسرى، وكانوا زهاء سبعة آلاف، يحيط بهم جنده. لم ينظر في وجوههم، ولم يرَ فيهم إلا كتلة واحدة سوداء، جاءت من الجحيم، وتعود إليه. وصاح فيهم:

- هل وجدتم ما وعدكم العلاء وأبو جعفر حقًّا! فإنا وجدنا ما وُعِدنا حقاً. يريد أبو جعفر رأسي في سفط، فسيأتيه السفط!

جالَ بفرسه قليلاً أمامهم، ثم عاد يصيح:

- لا أسرى اليوم حتى نثخن، فيرتدع العصاة.

ثم خاطب جنده:

- اقطفوا رؤوسهم جميعاً.. لا تبقوا على أحد منهم!

بدا الرعب على وجه الأسرى، بينما انفتل عبد الرحمن مبتعداً، فلَحِق به بدر، وقال:

- نشدتك الله يا أبا سليمان.. هؤلاء ألوف.. وهم أسرى.. وللأسير أحكام أنت أعلم بها.

قال عبد الرحمن بلهجة قاطعة:

- دمهم على من أخرجهم.. هل أردّهم إلى أهليهم ليعاودوا الفتنة؟ أم أتكلف طعامهم وشرابهم في السجون؟ ليس لأصحاب الفتنة إلّا السيف. وتلك كانت قاعدة المسوّدة في المشرق، ننزلها الآن عليهم في المغرب.. والبادئ أظلم.

هَمَّ بدر أن يتابع الحِجاج، فكفّه عبد الرحمن بحركة من يده وتخلّف عنه بدر واجماً عابساً. ثم صاح عبد الرحمن في جمع من الجند:

- أيكم يحبّ أن يحجّ هذا العام، فيقضي الفريضة، ويسوق الهَدْيَ إلى محلّه في مِنى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان الحجيج في منى يلبّون ويكبرون تكبيرات أول أيام عيد الأضحى، خرج أبو جعفر المنصور من قبّته ليؤم الناس في صلاة الفجر، ثم صلاة العيد، وما إن صار على باب الخيمة، حتى التقط بصره سفطاً متروكاً هناك. سأل:

- ما هذا؟

قيل:

- لم نتتبه إليه يا أمير المؤمنين.

ولما فتحوه أمامه، وأخرجوا ما فيه، جفل وارتدّ خطوتين إلى الوراء.. كان هناك سجلّ المنصور للعلاء، ولواؤه الأسود، و.. رأس العلاء محنطاً بالملح والكافور..

انقبض وجه المنصور، ولم يجد إلّا أن يقول:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله.. لقد غررنا المسكين وأوردناه حتفه. الحمد لله الذي جعل @البحر بيننا وبين ذلك الشيطان ابن معاوية!

وفي قابل الأيام، سوف يكون المنصور هو الذي يطلق على عدوّه العظيم لقب «صقر قريش»، الذي سيُعرَف به إلى الأبد! مختصًّا إياه به دون نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتاب الثالث

الملك عقيم: ما لم تخبر به الرؤيا

بعد سلسلة الانتصارات الحاسمة التي حققها الداخل منذ وصوله، والقسوة الهائلة التي عامل بها خصومه، بدا أن الأندلس لم تعد تلك التي كانت قبل نزوله الجزيرة. بدأ بالقيسيّة الذين كانت لهم الغلبة، فأخمدهم مستعيناً باليمنية والموالي في «المصارّة» أولاً، حتى انطاع إليه رئيسهم الصميل، ثم تغلّب على الفهري حين خرج عليه، ورفع رأسه على السور، ثم اغتال الصميل في سجنه على الرغم من أنه لم يواطئ الفهري على الثورة والخروج ونهاه عن ذلك، وسكنت القيسية عن المطالبة بدمه. ثم انتصر على اليمنية الذين ظاهروا عليه الخليفة العباسي وسوّدوا، فقهرهم في قرمونة، وأرسل برأس زعيمهم العلاء بن مغيث في سفط إلى قبة المنصور في منى، وأمر بقتل بضعة آلاف من الأسرى دون أن يرفّ له جفن، على الرغم من توسّلات بدر.

لا، لم تعد الأندلس بعد ذلك كما كانت قبله.

وكذلك عبد الرحمن بن معاوية الداخل نفسه! لم يعد الرجل الذي كان، أو الذي وعد نفسه أن يكون وهو يسعى إلى غايته. فالآن توقف عن مخالطة العامة خشية الغيلة، وتعظيماً لهيبة السلطان الرادعة. فإذا خرج في موكبه أحاط به الحرس يذبّون الناس عن الاقتراب منه، فإذا تجرّأ أحدهم على ذلك ربّما دفعه الحرس بعيداً بغلظة وعنف.

وحين رأت زينب أن بدراً يطيل السهوم والوجوم والتفكير، سألت:

- ما بك؟

- لا شيء.

- بل قل: لا شيءَ أحب أن أفصح لك عنه. وما أدراكِ أنتِ بأحوال القادة والأمراء؟

قال بعد لحظة صمت:

- بل لعلّي أنا أيضاً لا أفهم أحوال القادة والأمراء.

- ولكنك غدوت منهم!

- ربما كانت هذه مشكلتي.. أنا منهم الآن، ولكني ما زلت أعاينهم وكأني مع عامة الناس، فيحتار لبّي في الصواب.

- كأنك قد رأيت من الأمير ما تكره!

- لعلها الإمارة لا الأمير، تفرض أحكامها عليه.. أو.. لعلّي قد ألفته على الصورة التي كان عليها في رحلة الفرار الطويلة، ثم أقارن حاله اليوم بها.. فأراه يتغيّر..

تريّث متفكراً، ثم تابع:

- ولكن، ما أدراني؟ لعل صورة اليوم هي الأصل، وصورة الأمس والرحلة هي الحال العارض. أهذا هو الرجل الذي لبث مهموماً حين اضطر إلى قتل ذلك الدليل الغادر ونحن في طريق الفرار، دفاعاً عن حياته وحياة صاحبيه.. يقول: لم أسفك دماً من قبل. والآن، حين انتصر على العلاء بن مغيث واليمنية الذين سوّدوا معه، أمر بقطف بضعة آلاف من رؤوس الأسرى، دون أن يهتزّ له عرق.. بضعة آلاف ساقهم إلى الذبح كالخراف بعد أن ظفر بهم، وهو الذي رأى من بطش بني العباس في أهله وقومه ما رأى.. بل رآهم بأم عينه يذبحون أخاه الأصغر هشاماً!

أطرق حائراً مغتماً.. وقالت زينب:

- بخلاف ما تظنّ.. لعل هذا من ذاك. البطش لا يلد إلّا البطش، والمغلوب إذا ظفر بخصمه، ربما أنزل فيه من البطش أضعاف ما لقي منه.. هكذا بَطَش بنو أمية بخصومهم، ثم ظفر بهم بنو العباس، فأظهروا من البطش والقسوة ما لم يختبره أحد من قبل.. ثم ها هو صاحبك يقابل خصومه بما قوبل به قومه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا رفاه بلا أمن، ولا أمن بلا حزم. وإما الدولة وإما القبيلة. هكذا تحدث عبد الملك المرواني يوماً لعبد الرحمن.

ولكن ما الحدّ الفاصل بين الحزم وبين البطش؟ وكيف يمكن القضاء على العصبيات القبلية دون إخماد العرب على الجملة، والاعتماد عوضاً منهم على جيش من الموالي وغير العرب، لا يدينون إلّا لصاحب الدولة؟

صدقت زينب بفطرتها التي لم تتلوَّث بأحكام السياسة والسلطان. الدم ينسل دماءً، والبطش لا يلد إلّا البطش!!

وها هو أحد شيوخ اليمنية: سعيد اليحصبي، الذي ناصر العلاء بن مغيث، ونجا من مذبحة قرمونة، وأقام في «لبلة» جنوبي غربي أشبيلية، يذكر في سكرته مصارع قومه، وذبح أسراهم @كالنعاج، على يد الرجل الذي نزل الجزيرة وحيداً فريداً هارباً آبقاً لا يلوي على شيء، فنصروه على الفهري والصميل، وأجلسوه على سرير الإمارة.

وقبل أن يصحو من سكرته، أمر أصحابه أن يأتوه بلوائه ورمحه، فعقد اللواء على رأس الرمح، وقد عزم على الثأر. ولم يستمع إلى نصائح أصحابه الذين اجتهدوا في نهيه. وحين صحا في الصباح من سكرته، تذكر فعلته فخامره الندم، ولكن ما كان ليرجع عن رأيه حتى لا يقال: جبن سعيد اليحصبي، وهو سيد من سادات قومه. وقال:

- سبق القضاء، فإما أن نَقْتل تحت هذا اللواء أو نُقْتل.. لسان العربي حصانه، يطأ به أو يوطأ به.

وكان حظه أن وُطئ به، حين هزمه عبد الرحمن هزيمة ساحقة عند قلعة «رعواق»، وقتله ورفع رأسه، ثم أمر بقتل الأسرى كما فعل من قبل في قرمونة. ولم تُجْدِ مناشدات بدر الذي نهره عبد الرحمن هذه المرّة بلهجة صارمة غليظة:

- لا تراجعني يا بدر حتى أراجعك! هذه إمارة ودولة، وليست خاناً ننزله في الطريق!

نزلت عبارة الداخل على بدر كالصاعقة.

آن له أن يدرك أن الزمن قد تغيّر به وبصاحبه. بلى، هو الآن وزيره وأمير جيشه، ولكن المفارقة العجيبة أن مكانه الآن من أمير الأندلس، دون مكانه منه حين كان خادماً وصاحباً في رحلة الفرار التي وحّدت بينهما على اختلاف المنازل التي جاءا منها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يبقَ الآن من كبار شيوخ اليمنية إلّا أبو الصباح اليحصبي الذي قاد جموع اليمنية مع عبد الرحمن ومواليه في معركة «المصارّة» ضد الفهري والصميل والقيسية، وانتهت بوصول عبد الرحمن إلى سرير الإمارة. وهو الآن والي أشبيلية بعد أن تنازل عن ولايتها عبد الملك المرواني، ليكون إلى جانب الداخل في قرطبة.

ولكن، هل كان سعيد اليحصبي الذي هُزِم وقتِل أخيراً عند قلعة «رعواق» ليعلن الثورة والعصيان، دون أن يراجع قريبه أبا الصباح اليحصبي، ويستمدّ منه؟ نعم، لم يخرج أبو الصباح معه، ولكن لا بدّ أنه علم بخطته، فسكت عنها. وهذه في ذاتها ضرب من التواطؤ والممالأة. لربما زاد على ذلك فأمّده، ثم مكث وراءه في أشبيلية يرقب النتيجة، فإذا رأى في قريبه قوة وفي عبد الرحمن ضعفاً، انحاز إليه، وإلّا تعلّل كما هي حاله الآن بأنه لم يخرج معه. فكيف يبقى بعد الآن والياً لعبد الرحمن على أشبيلية؟!

هذا ما وقع في نفس عبد الرحمن.

وكان أبو الصباح قد علم بالفعل بخطة ابن عمه سعيد اليحصبي، حين جاءه يدعوه إلى الخروج بجنده معه. ولكنه أبى عليه ونهاه بشدة عن خطته. ولكن، ما كان ليفضح أمره وهو من عصبتِه وقرابته.

اعترض أبو عثمان، شيخ الموالي، على رأي عبد الرحمن بعزل أبي الصباح عن ولاية أشبيلية. وذكّره ببلائه معه حين نزل الجزيرة حتى صارت إليه إمارة الأندلس، وأنه بعد ذلك لم يواطئ العلاء بن مغيث، وهو من قومه اليمنية، حين ثار تحت لواء المسوّدة وأبي جعفر المنصور.وكان عبد الله بن خالد، صهر أبي عثمان، أشدّ اعتراضاً.

ولكن عبد الرحمن لم ينسَ لأبي الصباح بعض المواقف القديمة المُنكَرة، ومنها سبقه إلى قصر الإمارة بعد «المصارّة» مع قومه لنهب مال الفهري وخزائنه والتعدّي على حرمه، لولا أن أدركه ومنعه، ليخرج غاضباً يتهم عبد الرحمن بأن عصب المضرية هو ما تحرك به. وأقبح من ذلك أنه ساوم بعض أصحابه على الغدر بعبد الرحمن في اليوم نفسه، ليكون لهم فتحان في فتح واحد، وتكون الأندلس كلها قحطانية!

وبالطبع كان رأي عبد الملك المرواني موافِقاً لرأي عبد الرحمن، وأشدّ منه لهجةً:

- تعلمنا من أخبار الدول أن رجال العهد المنصرم لا يصلحون للعهد الجديد. وأبو الصباح آخر شيوخ اليمنية الأقوياء. فإذا عُزِل ونُحِّي وأُخْمدت ناره، استقامت الأندلس للأمير، ولم ينازع عليها بعدُ قيس ولا يمن. فامضِ على بركة الله يا أبا سليمان، وأنفذ أمرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما كان أبو الصباح ليرضى بعزله عن إمارة أشبيلية بعد بلائه في نصرة عبد الرحمن، فطرد رسوله شرّ طردة، وأعلن العصيان، ودعا بقومه، وتحصّن في المدينة. فتأكد لعبد الرحمن سوء ظنه به. وعرض عبد الملك المرواني أن يسير إليه قبل أن يستفحل أمره.

ولكن، بخلاف المتوقّع، فاجأ عبد الرحمن الحضور بالقول:

- بل نترفّق به، ونطيِّب خاطره، ونحفظ له صنيعه لنا، كما قال صاحبانا أبو عثمان وعبد الله بن خالد.

@ انفرجت أسارير شيخي الموالي، بينما أخذ بدر يتفحّص بنظره وجه سيّده، وقد أحسّ أن الأمير يطوي سريرته على أمر آخر.

واستأنف عبد الرحمن قائلاً:

- نكتب له بعهد الأمان له في نفسه وأهله وماله، على أن يلقانا هنا في قرطبة، فنصالحه ويصالحنا على ما يحب ونحبّ.

هتف عبد الله بن خالد مبتهجاً:

- قد ألهمك الله الصواب يا سيدي.. فهذا هو الرأي. لقد كانت له عندك سابقة عظيمة، ولعله قد ظهرت منه بعض الهنات، فلا نُعين الشيطان عليه..وعفا الله عما سلف.

قال عبد الرحمن:

- نعم، عفا الله عما سلف. وقد انتدبتك يا عبد الله لتحمل له كتابي بالعهد والأمان، لما بينكما من صحبة قديمة.. فطمْئِنه وطيِّب خاطره، وأخبره أن الأمير لا يريد منك إلّا التناصح والتفاهم، وأن يوثّق معك الصلة، ولن يكون منه إلّا ما يرضيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن إقناع أبي الصباح سهلاً على الرغم من العهد والميثاق الذي أعطاه إياه الداخل في كتابه، فقد توجّس أنه يريد أن يغدر به إذا صار عنده، حتى قال عبد الله بن خالد:

- بيني وبينك صحبة قديمة يا أبا الصباح. فهل كنتُ آتيك بعهده لو خامرني أدنى شك في نيّاته. فوالله الذي لا إله إلّا هو، إنه لأحب إليّ أن أترك شؤون الحكم كلها، ثم أعتزل في بيتي وأحتجب عن الناس، على أن أكون طرفاً في تدبير أعلم أنه ينطوي على غش. وقد علمتَ أن ظاهري كباطني. وأنا ضمينك بنفسي.

أخيراً قَبِلَ أبو الصباح منه، على أن يخرج في أربع مائة من أشدّ فرسانه، وقال:

- لا أشك فيك، ولكنّ الحيطة أوْلى. والسعيد من اتّعظ بغيره، ولي في مصير عدوّي الأكبر الصميل بن حاتم عِظة. وإن كان بعض الظن إثم، فإن بعضه الآخر من حُسْن الفطن.

وإذ وصلوا إلى منية الرصافة، خلّف أبو الصباح فرسانه على أطرافها، وقال:

امكثوا هنا، ولا تترجلوا عن خيولكم، فإن دخل المساء ولم أرجع إليكم فاعلموا أنه قد غُدِر بي.

وحين دخل أبو الصباح على الأمير الداخل ابتدره بالقول:

- هات يدك يا أبا الصباح أصافحها على العهد الذي بيننا.

ثم أمر الحضور بأن يتركوه يحادث أبا الصباح في خلوة أولاً. ثم وقع نظر أبي الصباح على اللواء الذي عقده عبد الرحمن على الرمح من عمامة أبي الصباح قبيل المعركة الفاصلة مع الفهري والصميل. وكان الرمح مركوزاً باللواء في ركن من المكان. قال عبد الرحمن:

- اللواء الذي انتصرنا به يا أبا الصباح.. عمامتك.. ما زلت أتيمّن به ولا أخرج إلى حرب بدونه، وسيبقى كذلك عندي وعند ولدي إلى أن يقضي الله.

رانَ الصمت هنيهة من الوقت. ثم قال عبد الرحمن:

- أينا يبدأ بالعتاب يا أبا الصباح؟

- لا يتقدّم أحد على الأمير.

أخذ عبد الرحمن نَفَساً عميقاً ثم قال:

- ما زلت يا أبا الصباح تحدِّث الناس وتقول: جاءنا حدث السنّ، لا يأمن على نفسه من خلفه ولا من أمامه، فلولا أننا نصرناه لما بلغ شيئاً.

ردّ أبو الصباح:

- ألم تنتصر بنا أيها الأمير؟

- بلى، وانتصرتم بي. وإلا فما قولك في «المصارّة» تتهيّأ لقتال الفهري وصاحبه الصميل، وقد رأيت تحتي جواداً نشطاً كثير الحركة: غلام حدث السنّ، فما يؤمننا أن يطير على هذه الفرس فيهلكنا؟ أليس هذا، وإن كان غمزاً بي، إقراراً منك بأن فوزكم بثباتي، وهلاككم بضدّه؟ ثم أنت بعد ذلك تحدِّث أصحابك وتقول: ما مَنَعنا ابن معاوية فيء الفهري ومغانم قصره إلّا أنه ذكر عَصَبَه المضري، فهلمّ بنا فلنقض عليه وهو بعد في أول أمره، فيكون لنا فتحان في فتح، وتغدو الأندلس قحطانية!

هنا قام أبو الصباح مغاضباً وقال:

- ثعلبة الكلب. والله ما نقلها عني غيره. وقد سمعت منك يا ابن معاوية، فأنصت إليّ الآن. نعم، قد بلغت هذا المبلغ بسيوفنا.. أهدفنا صدورنا لرماح القيسية من أجلك.

ردّ الداخل بحنق متصاعد:

@ - بل طلباً لثاراتكم.

- نعم، وقد التقت غايتنا بغايتك، فكان ذلك سبب سعدك.

صاح الداخل منشداً من شعره بقوة وحزم وانفعال:

سعدي وحزمي والمهنّد والقنا

ومقادرٌ بَلَغت، وحالٌ حائِلُ

إن الملوك مع الزمان كواكبٌ

نجمٌ يطالعنا، ونجمٌ آفِلُ

والحزم كل الحزم ألا يغفلوا

أيرومُ تدبير البريِّة غافِلُ

ويقول قوم: سعدُه لا عقلُه

خير السعادة ما حماها العاقلُ

ردّ أبو الصباح:

- تستطيع الآن أن تقول هذا، وقد ملكت. فهل كنت تقوله حين أتيتنا وحيداً شريداً؟ حتى إذا ملكت انقلبت علينا.. ضربت بنا القيسية، حتى إذا أخمدتهم اصطنعت لنفسك جيشاً من الموالي ومن لا نعرف له أصلاً في العرب، فضربتنا به. أما والله لقد كان الصميل على قبحه وسوئه خيراً منك، فقد كان ظاهر العداوة، علم أن الأمر دُولة بين القيسية واليمنية، وأنهم إذا تنازعوها وتقاتلوا عليها، فإنما هو قتال الأنداد، لا قتال الرعاع والسوقة الذين اصطنعتهم.

هنا بلغ الغضب بعبد الرحمن كل مبلغ، فصاح به:

- خسئت وخسئ الصميل. بل فرّقتم الكلمة، وضيّعتم العرب، وفرّطتم في البلاد، وأطمعتم العدو حتى حاز جليقية وبلاد البشكنس، وأخرجنا مما وراء جبال البرتات.

هنا بدا أن الحميّة قد غلبت على عقل أبي الصباح، حتى لم يعد يتمالك نفسه أو يقدِّر العواقب. فمشى نحو عبد الرحمن وقد تهيّأ لأن يصرعه، وهو يصيح:

- أنا يقال لي خسئت؟ أنا أبو الصباح؟ بل خسئت أنت وحَلّ بوارك أيها المارق الآبق الذي أهلك الله قومه في الشام كما أهلك عاداً وثمود.

تراجع عبد الرحمن بجسمه قليلاً، وفي اللحظة نفسها سُمع صوت وضحاء، الجارية السوداء وقد دخلت بآنية الشراب، وهي تكاد تهرول بها، حتى انسكب بعضها، وتقول:

- الشراب الشراب يا سيدي.

وصاح بها أبو الصباح:

- اغربي أيتها اللخناء.. ما هذا وقت الشراب، بل هو وقت الحساب.. رجل لرجل.

ولكن وضحاء كانت قد وصلت إلى عبد الرحمن مستديرة عن أبي الصباح، ودسّت في يده خنجراً، وكان أبو الصباح قد بلغ مكانها ومكان سيدها، فضرب طبق الشراب من يدها فأسقطه على الأرض، وركضت مبتعدة، وإذ أخذ بتلابيب عبد الرحمن عاجله هذا بطعنة في بطنه، وأخرى في صدره، وثالثة في جنبه، فأخذ يترنح، وأقبل عدد من فتيان القصر راكضين، وانكبوا على أبي الصباح بالطعن، ووضحاء تصيح بهم:

- دونكم اللعين، فأجهزوا عليه.

حتى إذا خمدت أنفاسه، مسح عبد الرحمن عرقه، وأرسل إلى وضحاء نظرة امتنان ورضا، ثم خاطب الفتيان:

- اخفوه، واطمسوا آثار دمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذ فرغ الفتيان من عملهم، دعا عبد الرحمن بأصحابه الذين أمرهم بإخلاء المكان حتى يفرغ من مخاطبة أبي الصباح في خلوة. وكان بينهم بدر، وأبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وتمام بن علقمة، ويوسف بن بخت وعبد الملك المرواني.

ولما رأوا المكان خالياً من أبي الصباح، بادر عبد الله بن خالد بالسؤال عنه فأجاب عبد الرحمن:

- تعاتبنا وتصارحنا، ثم دعوته أن يريح قليلاً من وعثاء السفر.

سأل أبو عثمان متوجساً:

- فَلِمَ دعوتَنا يا سيدي؟

- أشاوركم فيه.

قال عبد الله بن خالد، وقد بدأت الشكوك تساوره الآن:

- فيمَ يا أبا سليمان؟ ألم تقل إنكما..

@ قاطعه عبد الرحمن:

- قد أساء الأدب، وظهرت لي منه قبائح صَبَرْتُ عليها، وأنا الآن على يقين من أنه كان يضمر الشرّ، فإذا رجع إلى أشبيلية في فرسانه، واعتصم بعشيرته، فلا سبيل إليه إلا بحرب تخطف الأرواح وتهلك الحرث والنسل.. وقد حصل الرجل عندنا!

اهتزت ملامح عبد الله بن خالد وسأل:

- تشاورنا في قتله وقد أعطيناه العهد والميثاق؟ إني أعيذك من هذا يا أبا سليمان. وقد كنتُ سبيلك إليه، وأعطيتُه ضماني.

تدخل أبو عثمان مؤيِّداً:

- إن لم يكن لهذا السبب فقط، فلفرسانه الذين ينتظرون.. وهم قوم أشدّاء، وقد صاروا عند قصرك.

ارتفعت أصوات الآخرين بتأييد رأي أبي عثمان وصهره عبد الله بن خالد، إلّا المرواني الذي قاطعهم متقدًّما:

- إن كان كما تقول، فاقتله. أما فرسانه، فهم في عرينك. وأنا كفيل بهم.

ثم أنشد بيتاً من الشعر:

لا يَفْلَتَنَّك ، يأتينا ببائقةٍ

اشدُد يديكَ به تَبْرَأْ من السَّقَمِ

نزل الداخل جالساً على سرير الإمارة، مطرقاً ومسنداً رأسه بيده، ثم رفع رأسه وقال:

- قد قتلته!

انقبضت وجوه الحاضرين، وكان أكثرهم انقباضاً عبد الله بن خالد. ثم تابع الداخل شارحاً وهو يرمق عبد الله:

- لم أكن قد بيّتُّ قتله، إن كان هذا ما يظنه بعضكم. وإلّا لأمرت حرسي فكفوني إياه. وما كان معي سلاح، ولكنه اشتد عليّ وفَقَد عقله وهَمّ بي، ولولا أن مدبّرة الحريم المدنية قد دسّت لي خنجراً في اللحظة الأخيرة، لكان أمر آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج عبد الملك المرواني إلى فرسان أبي الصباح ومعه بدر وتمام بن علقمة، وثلة من الحرس، وكان قد اقترب المساء، وبدأ القلق يداخل الفرسان. صاح بهم المرواني بلا مقدّمات:

- ألا إن أبا الصباح قد قُتل، فمن أراد أن يلحق ببلده، فليفعل وله الأمان.

ظهر الارتباك على الفرسان، وازدادوا ارتباكاً إذ رأَوْا المزيد من فرسان عبد الرحمن وحرسه يُقبِلون على المكان من كل ناحية، ويتحشدون في كامل عدّتهم. وحين أدركهم اليأس، أومأ قائدهم بالانصراف والرجوع.

وهزّ المرواني رأسه مبتسماً وهو يشيعهم بأنظاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كانت وضحاء تصبّ له الماء ليغسل يديه في الطست وهي تحدِّثه:

- كنت قادمة بالشراب يا سيدي حين سمعتكما تتصايحان، فتوقفت عند الباب واسترقت النظر، ورأيت الشرّ في عينيه وحركاته، وأنك بلا سلاح ولا حرس. فالتقطت ذلك الخنجر، وكان معلَّقا على الحائط.

أمعن في غسل يديه وهو غائب عن نفسه في التفكير، حتى نبهته حلل، فتوقف يجفف يديه، دون أن يفارقه الشرود. فقالت حلل:

- قد ذهب عدوّك يا سيدي. فلِمَ أراك قَلِقاً؟

أجاب بلهجة تنمّ عن ضيقه وحنقه:

- قد سئمت الناس يقولون: سعده وحظّه.. هما بلغا به إمارة الأندلس. وكأني لبثت قاعداً في بيت أبي في الشام ألعب الشطرنج وأقلّم أظفاري، والمسوّدة تقتل أهلي، وتحوم حولي ولا تراني.. قد ضُرب بيني وبينهم سدّ.. ثم طُوِيت لي الأرضُ طياً، وسُخِّر لي الإنس والجنّ، وإذا أنا في الأندلس جالساً عَلى سرير المُلك! خبر من عِلم الحدثان قاله مسلمة بن عبد الملك حين كنت صبيًّا، سخّرته لغايتي وجعلته مطيّتي.. من كان معي وأنا أقطع القفار، وأختفي بين الأخيار والأشرار، وأصل الليل بالنهار، وآكل زواحف الصحراء، وأكابد الأهوال؟.. لا أنكر فضل الله عليّ، ولا أقول ما قال قارون (إنما أوتيته على علم مني)، فأحمد فضل الله. ولكن الله إذا قضى لرجل أمراً هيّأ له أسبابه. وأول أسبابه العقل والقدرة والإرادة يركّبها الله فيه. أما آبائي الخلفاء فأورثوني هِمّة عالية، ولكنهم لم يورثوني مُلْكاً، إنما أورثوني سيوفاً طلبت @دمي من الشام إلى أقصى المغرب. فمن من البشر يمنّ عليّ بعد الله؟ يبدو أن عليَّ أن أحذر الذين ناصروني ليفوزوا معي أول الأمر، لأنهم لن يكفوا عن المنّ والتجمّل والادّعاء بأنهم كانوا أسباب سعدي وملكي! وما حالي الآن إلّا كحال أعدائي بني العباس.. لم تخلص لهم دولتهم حتى تخلّصوا من كل من ناصرهم ثم تطاول عليهم وطلب ما في أيديهم.وما أشبه حال أبي الصباح اليحصبي في هذا، بحال أبي مسلم الخراساني!

وما أشبه أحوال الناس في مشارق الأرض ومغاربها، بل ما أشبه حال العدوّ بعدوّه!

كان قد بلغ المنظرة، وفي ضوء القمر بدت له نخلته المنفردة في مكانها، فأطال النظر فيها كعادته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

[redacted] لم يكن بدر أقل منه سهوماً وتفكّرا وهو مضطجع على أريكته. وأخذت زينب تمسح على ذراعه، وقالت:

- لعلّه كما قال.. لم يبيّت الغدر به، ولكن دفع عن نفسه.

- ربّما.. لم نكن معه حين صار الذي صار.

- لقد رافقته كل ذلك الطريق الطويل، وخبرت منه ما لم يخبره أهله. هل علمتَ منه قولاً غير الحقيقة؟

أطلق تنهيدة حائرة، ثم قال:

- يا زينب. الكذب عند العامة لا عند السلاطين. فما يُعَدّ كذباً عند العامة هو خدعة الحرب وفطنة السياسة وحزم التدبير عند السلاطين. وهم أصحاب التأويل.. يتأولون آيات الله نفسها بما يوافق أغراضهم، فكيف بما سواها من الكلام والمعاني؟ يُعرَف الحق بهم، ولا يُعرفون بالحق.. قتلاهم في الجنة، وقتلى خصومهم في النار.. هم قَدْريّة يقولون بالاختيار، إذا حاسبوا الناس، ليكون حكمهم فيهم عدلاً. فإذا ساءلهم الناس صاروا جبريّة، يقولون: مُلْكُنا من مشيئة الله القاهرة، فمن ساءلنا فكأنما يسائل أمر الله وإرادته.. القويّ لا يملك السيف فقط، وإنما يملك إنزال المعاني والأحكام على الوقائع.. هذه هي القاعدة.. القوّة هي الحق!

نفض جسمه واعتدل جالساً:

- أستغفر الله.. أستغفر الله. والله ما أقول هذا إلا حُبًّا له وإشفاقاً عليه.. وقد علم الله أني لا أحبه حب البطانة لصاحب الأمر، ولكنه حب الأخ لأخيه، وإن كان سيدي وأميري.. ولكني أراه كلما كسب شيئاً من قوة السلطان، خسر شيئاً من نفسه وقلبه وروحه.

قالت زينب:

- ألا تعينه على نفسه كما تعينه على خصمه؟

- أحاول.. أحاول يا زينب.. ولكني لم أعد الصاحب المنفرد على ما كنا عليه في رحلة الطريق.. ثمّة الآن غيري. عبد الملك المرواني، وهو الوحيد الذي شجعه على البطش بأبي الصباح، ولما تبيّن لنا أنه قتله لم تظهر عليه الدهشة. وكان مستعداً بجنده.. فما يدرينا أنه أخفى عنا تدبيره، وبيّته مع المرواني دوننا؟ وهذا المرواني رجل شديد لا يعرف الرحمة.. يفعل، ثم يقول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما عبد الله بن خالد، فكان أكثر أسفاً وضيقاً، وهو الذي أعطى ضمانه ومواثيقه لأبي الصباح. حاول أبو عثمان أن يخفف عنه فقال:

- إنما الأعمال بالنيّات، ولكل امرئ ما نوى.

ردّ عبد الله:

- وما تجدي نيّاتنا إذا كان عملنا مرتهناً بنيّة الأمير، ونحن لا نعلمها؟ فإن لم نَشْرُكه في النيّات، فكيف نشركه في العمل وعواقبه عند الله؟ إذن، فلينفرد صاحب النيّة بعمله، ليكون له وحده، أو يكون عليه وحده.

رمقه أبو عثمان مستطلعاً، وقال:

- كأنك تريد..

قاطعه عبد الله:

- نعم، أعتزل في بيتي.

- لا تفعل!

- بل عزمت، ولا رجوع.

@ - وتتركني وحدي؟ لقد كنا دائماً معاً.

- كل نفس بما كسبت رهينة.

- لقد بذلنا في هذا الأمر مهجنا، فهل نُخْليه الآن لغيرنا؟

- بذلنا المهج، فلا نبذل الدين.

- ولكن، هذا من طبائع الحكم والسياسة والسلطان، تلتبس أحواله أحياناً فلا نتبيّن فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

- ربّما.. وربما لم يكن هذا هو العمل الذي قُدِرت له من أول الأمر. وعسى الله أن يقبل توبتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاح عبد الرحمن بعبد الله بن خالد:

- ماذا؟ تعتزل عملي؟ عمل أميرك؟

أجاب بهدوء:

- ما أعتزله إلّا لأني قد علمت أني لا أصلح له.

- ومن يحكم بذلك؟ هاه؟ أنا الأمير.. وأنت من موالي الأمير، وهو وحده الذي يحكم فيك، هل تصلح أم لا تصلح.

- أشكرك على الثقة يا سيدي، ولكن..

قاطعه عبد الرحمن:

- الثقة! ومن ذكر الثقة؟ إنما أتحدث عن رسوم الإمارة وقواعدها. موالي الأمير لا يتنحّون عنه حتى يُنحّيهم بنفسه وأمره. يلزمون ركابه، ويقيمون عند حاجته.. يعيشون معه، ويموتون معه. وإلّا فكيف يكونون مواليه؟

- العفو يا سيدي.. ولكني استنفدت طاقتي، فما بقي عندي شيء أعطيه، وأريد أن أقضي بقية عمري في العبادة.

- وهذا الذي نحن فيه، أليس عبادة؟ إننا نقيم دولة قوية للإسلام في هذه الأصقاع البعيدة.. دولة.. لأول مرّة منذ الفتح. ماذا تسمّي هذا؟ والآن وقد انطاعت القبائل لدولتنا وسكنت عن حروبها وفتنها، فقد آن الأوان لنوجه جهدنا إلى تأديب الجلالقة الذين ضربوا بجذورهم في جليقية وبلاد البشكنس وأشتوريس وألبة والقلاع، في غفلة من العرب والمسلمين. كي يعلموا، كما علم الناس عندنا، أنه عهد جديد. فكل الذي مضى كان مقدمة لهذا.. أليس الجهاد ذروة سنام الإسلام؟

- بلى يا سيدي. ولك عليّ، إذا دعا النفير، أن أخرج للجهاد على الثغور، كأيّ جندي يحتسب عمله لله، دون لقب ولا منصب.

هنا صاح عبد الرحمن بغضب جارف:

- اذهب إذن أنّى شئت. لا نختار من اختار علينا، ولا نرغب فيمن رَغِب عنا، ولا نبسط يدنا لمن قبضها.

انحنى عبد الله انحناء قصيرة، ومضى خارجاً. وأطرق عبد الرحمن وقد بدا شديد الانقباض، بينما كان بدر يرقبه مُتمعِّناً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يفارقه انقباضه من موقف عبد الله بن خالد، وهو يتجوّل مع بدر في بساتين منية الرصافة. وقال:

- هل كان يظنّ أنه إذا تركني فقد عاقبني؟ يحسبني في حاجته؟ لست في حاجة أحد لا يرى أن حاجته من حاجتي، وأن عزّه من عزّي وفضله من تفضّلي.

آثر بدر الصمت، حتى جلسا على مقعد رخامي وسط البساتين.. وبعد هنيهة، قال بدر كأنه يحادث نفسه:

- رحمه الله. حياً كان أم ميتاً.

التفت إليه عبد الرحمن مستغرباً:

- من ؟

- أبو شجاع.. صاحبنا في شطر من الطريق.

- ما الذي ذكرك به الآن؟

- نظرت فيما نحن فيه الآن، فذكّرني بما كنا فيه قبل سنين.. كانت أياماً جميلة على ما لقينا فيها.. أعني.. كانت الغاية واضحة لا لبس فيها، والعدوّ معروف غير مشتبه.. والصديق كذلك.. هل الحلم أروع من الحقيقة يا سيدي؟

@ أطرق عبد الرحمن صامتاً متأمِّلا. وبعد لحظات من الصمت والسكون، سمع صفير بدر على عادته القديمة، ولم يكن قد سمعه منذ سنين. رمقه عبد الرحمن، وبدت على وجهه ابتسامة شاحبة خفيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا كانت مقارعة الأعداء في الداخل، مما يمكن أن يُداخله بعض الملابسات والشبهات كما ألمح بدر، فإن عدوّ الأمّة بجملتها واضح غير مشتبه. وصَدَق عبد الرحمن وعده. فالآن وقد فرغ من أعداء الداخل وسكنت القبائل المتناحرة، وأدركت أن حروبها السابقة صارت من الماضي، وأن عليها الخضوع لسلطان الدولة القويّة، واستباق الخيرات في إعمار البلاد، آن الوقت لتأديب جلالقة الشمال وردعهم، ليعلموا أن سيد قرطبة، هو سيد الجزيرة كلها. وإذا لم يعد في الوسع إجلاؤهم عن الجزيرة والاستيلاء على إماراتهم، فلا أقلّ من ردع غزواتهم أولاً، ثم غزوهم في عقر دارهم وكسر شوكتهم، وحملهم على أن يدينوا بالطاعة لسيد قرطبة، فيكون مرجع أمرهم إليه فيما يدبّرون أو يختصمون فيه.

وتولّى بدر قيادة الجيش، فردّهم على أعقابهم، ثم توغّل في أراضيهم وعاث فيها وأثخن فيهم حتى ألزمهم طلب السِّلم.

وليس كالنصر سبباً في ائتلاف الناس حول أميرهم والتمكين له ولدولته. وفي المقابل، ليس كالهزائم المتتالية سبباً في انقسام الأمراء وأهل الحكم واختلال دولتهم. وهذا ما وقع لأمراء جليقية ونبارّة (بلاد البشكنس)، حتى اضطروا إلى التسابق للقاء الأمير الداخل وطلب عونه ومؤازرته، بعضهم ضد بعض. وأخيراً قَبِلَ منهم السِّلم لخمس سنوات، على أن يقدّموا له في كل سنة عشرة آلاف مثقال ذهب، وعشرة آلاف قطعة فضية، وعشرة آلاف من الخيل، ومثلها من البغال، وألف حلقة من الزّرد، ومثلها من الخوذ، وألف رمح من خشب المرّان. واشترط ألا يقطعوا بأمر كبير حتى يراجعوه فيه أولاً، ليقضوا فيه معاً،وإلّا عَدَّ ذلك عصياناً ونقضاً لعهد السلام، فصار عليه أن يوطئ خيوله ديارهم.

ولم يكن لهم بدّ من الخضوع وقبول الشروط. وكان الداخل يعلم أن شروطه تلك لن تبقي لهم قوة يعتدّون بها، وأنه سيكون عليهم أن يفرضوا على رعاياهم المزيد من الضرائب والمغارم ليؤدوا ما عليهم لقرطبة، وأن ذلك سوف يفضي إلى المزيد من حركات العصيان والتمرد والصراعات بينهم. وقد كان كما توقّع، وبينما التأم شمل الأندلس أخيراً حول الداخل، دخل الجلالقة والقشتاليون والبشكنس في صراعات وحروب داخلية، كتلك التي كانت بين قبائل الأندلس من قبل، والتي أغرتهم

بغزوها والتوسع في أراضيها. قد انقلب الحال الآن، وغدا عبد الرحمن الداخل حقاً، سيد الجزيرة بلا منازع.

تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى. هذا ما كان يردده فيهم.وقد عرف منذ نزوله الجزيرة وإحاطته بأحوالها، أنهم، بخلاف ما كان يظنّ، لم يكونوا أمة واحدة حين نزل الفاتحون المسلمون الجزيرة. وإنما كانوا أخلاطاً من الأعراق والأقوام، تتابعوا عبر الأزمان على غزو الجزيرة وحكمها، وقد انساحوا إليها من أصقاع مختلفة: قبائل متبربرة جاءت من بلاد الجرمان وشرقها: آلان وسالان ووندال، ومن الوندال جاء اسم الأندلس، ورومان لبثوا فيها قروناً وبقي كثيرون منهم فيها واختلطوا بغيرهم، بل سبقهم الفينيقيون وقائدهم هنيبعل إليها وعمّروا فيها مدناً ما تزال تحمل أسماءهم، وكان القوط آخر الغزاة الذين سبقوا الفتح وقهروا أهلها وساسوهم بالدم والنار، حتى ظن كثيرون من العرب أنّ أهل الجزيرة كلهم من القوط. ولعل ذلك الاختلاف كان سبباً في تيسير الفتح بتلك السرعة العجيبة. ولكن خطر الفاتحين المسلمين هو ما جمع بينهم في شمال الجزيرة، حتى بدا أنهم من أصل واحد. وما هم كذلك. بل إن البشكنس في شمال شرق الجزيرة كانوا أشدّ عداوة أحياناً للجلالقة، من عداوتهم للأندلسيين. وها هم الآن، قد ألزمتهم قوة الداخل أن يتفرّقوا شيعاً وإمارات متناحرة من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

صار بوسع عبد الرحمن أن يقضي الآن وقتاً أطول بين أهله. وكان شديد الحرص على تكريم أخيه الوليد وابنه المغيرة، وابن أخيه عبيد الله بن أبان. فقطع لهم ضياعاً ودوراً عظيمة وأغدق عليهم من أمواله وهداياه. وإذ كانوا جالسين على مائدة الطعام، سأل عبد الرحمن:

- هاه! كيف يقضي عبيد الله والمغيرة أوقاتهما في قرطبة؟

تردّد الشابان في الإجابة، فأجاب الوليد عنهما:

- بين لعب الشطرنج والصيد، والتنزه في الرياض.

لم يكن جواب الوليد بريئاً من الغرض، إنما أراد أن يمهّد بذلك الطلب أن يستعملهما عبد @الرحمن على بعض عمله.

قال عبد الرحمن:

- أكاد أغبطهما على ذلك. ليت عندي من الفراغ ما يُمكّنني من التمتع والاسترواح.. ولكن، حتى الصيد، لا أجد له وقتاً.

قال الوليد بشيء من الحذر والتحفظ:

- أعانك الله يا أبا سليمان.. شواغل الإمارة كثيرة: بين تدوين الدواوين، ورفع الأواوين، وضبط الخزانة، وعقد الألوية، وتجنيد الأجناد، وإقامة آلة الملك، وترصّد الخصوم وأهل الغدر.. وكل ذلك ما يحتاج معه الأمير إلى معين أمين يحفظه حفظه لنفسه.

تريّث لحظة، ثم تابع:

- ومن أولى بأهل الأمير بأن يشدّوا أزره، ويحملوا عنه بعض أثقاله. وهذا ابن أخيك عبيد الله بن أبان، وابني المغيرة، هما الآن في ريعان الصبا وأوج العافية، وهما أحرص الناس على خدمة عمّهما الأمير. فإن رأيت أن تستعملهما في بعض عملك، كانا طوع بنانك، ودرعك الذي تتقي به.

توجه عبد الرحمن بنظره إليهما، وتحاشى أن يظهر عليه شيء من القبول أو الرفض، ثم قال:

- لكل شيء أوان. وهما مني بمكانة الولد. ولهما عندي ما يشاءان من المال والضياع.. لا يشكوان عندي من قلة إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين خرجا يتمشيان وحدهما في بساتين منية الرصافة، قال عبيدالله ابن أبان مجيباً عن تساؤل المغيرة:

- ما معنى جوابه؟ أليس هذا واضحاً؟ إنه الرفض بلفظ متلطّف. ارعوا في مرابعي كما ترعى الأغنام، ولكن لا تتطلعوا إلى شيء من أعمال الدولة، فليس لكم قسمة فيها.

- ولكنه قدّم بعض أقاربه الأباعد.. عبد الملك بن عمر المرواني مثلاً، وأبنائه!

- ذلك لأنهم أباعِد. فلا يخشاهم على حظه من الإمارة.

- ويخشى منا؟ من أبناء إخوته؟

- ولِمَ تعجب؟ هذه إمارة أموية حتى قبل نزوله فيها، ألم تكن تتبع أجدادنا؟ وقد حمله السعد وحُسْن الطالع إليها قبل أبيك. أما أبي فقتلته شجاعته في التصدّي لبني العباس، وكان الأشهر والأبرز بين إخوته، حتى لُقِّب بفارس بني أميّة. فلو طال به العمر، واختار السلامة والفرار، ووصل إلى هذه الديار، لكان أجدر من غيره بها.

توقف المغيرة بن الوليد، ونظر في ابن عمّه عبيد الله بن أبان، وقال عابساً:

- ما هذا الذي تقوله يا عبيد الله؟ إنه عمّنا أمير البلاد الذي أحسن وفادتنا، ورعانا كما يرعى الرجل ولده. وتكلّف كل ذلك الجهد حتى أتى بنا من الشام.

قال عبيد الله:

- لا أطعن في عمّي، ولا أقول فيه سوءاً، معاذ الله! لقد أكرم مثوانا عنده.. ولكن إذا كان هذا مُلك بني أميّة، ونحن جميعاً من ولد هشام، فهل يعطينا إلّا من إرث آبائنا؟ وهل إرث آبائنا المال والضياع فقط؟

قال المغيرة:

- لا يسمعنَّ أحد منك هذا الكلام، فيتغير قلب عمك عليك.

قال عبيد الله:

- لم يسمعه أحد غيرك، فإن علم به فأنت الواشي! وعلى كل حال، لأراجعنّه في الأمر صراحاً حين يحين الوقت. ولعل ذلك أن يكون قريباً.

وقد كان.

فبينما كان عبد الرحمن مع أهل بيته في نزهة بين بساتين منية الرصافة، وقد وُضِعت لهم البسط ومدّ أمامهم سماط طعام وشراب وفاكهة، والخدم يقومون على خدمتهم، وعازف عود يضرب على عوده ضرباً خفيفاً وكان الجو ربيعياً رائعاً، ذكر الوليد أيام رصافة هشام، ثم قال وهو يستنشق الهواء العليل ومعه عبق الزهور:

- من كان يتصوّر ونحن في الشام، أننا سنقضي الشطر الثاني من أعمارنا في هذه الديار البعيدة أقصى الغرب؟

ثم انقلبت ملامحه إلى شيء من الحزن إذ ذكر إخوته الذين قَضَوْا هناك، فلم يدركوا ما أدركه. وسأل:

- هل يطّلعون علينا يا أبا سليمان؟

@ قال عبد الرحمن:

- الله أعلم يا أبا المغيرة.. ولكن لم يمت من أعقب ذرية صالحة.. وهذا عبيد الله، إذا نظرت إليه فكأني أنظر إلى أخي أبان، فأحسّه حاضراً معنا.

قال ذلك وهو يتأمّل عبيد الله بنظرة مفعمة بالحب والعطف.

ولكن عبد الرحمن غلبته الذكرى الحزينة، وظهر ذلك في وجهه، وأومأ إلى ضارب العود أن يتوقف.

قال الوليد معتذراً:

- ما أردت أن أثير الشجون ونحن في هذا النعيم.. ولكن..

هزّ عبد الرحمن رأسه ساهماً، ثم وقف، ومشى وحده بخطى هادئة وقد ضم ذراعيه وراء ظهره، حتى وقف عند شجرة النخيل المتوحّدة.. وأخذ يتأملها كعادته:

يا نخلُ أنتِ غريبةٌ مثلي

في الغربِ نائيةٌ عن الأصْلِ

فابكي، وهل تبكي مُكَيَّسَةٌ

عجماء لم تُطْبَعْ على خَبْلِ

لو أنها تبكي، إذن لَبَكت

ماء الفراتِ ومنبتَ النخلِ

لم يخرجه من تأملاته الحزينة إلا صوت ابن أخيه عبيد الله بن أبان الذي لحق به من ورائه:

- عمّاه!

التفت إليه عبد الرحمن مستطلعاً. وأطرق عبيد الله لحظةً وبدا عليه التردد قبل أن يفصح:

- ألا تستعملني يا عمّاه على بعض أعمال الإمارة؟

ابتسم له عبد الرحمن ابتسامة خفيفة، ثم أحاطه بذراعه ومشى معه بهدوء:

- هل نقص عليك شيء يا ابن أخي؟

- لا والله يا عمّاه.

- ولماذا تريد أن تشقي نفسك في شؤون الحكم وأوزاره؟

- أتقول هذا يا عمّاه وأنت أمير البلاد؟

- وما أدري هل أخرج منها بخير أو بشرّ. وما عدت أدري هل صنعتها بيدي أم صُنِعتَ أنا لها؟ هل تأخذ مني لنفسها، أم آخذ منها لنفسي؟ على أن هذا طريقي الذي قُدِّرتُ له، ولا مخرج لي منه. أحياناً يُخيَّل إليّ أنني مثل راكب في سفينة، ولا يعلم أنه فيها، ويرى دنياه حدود غرفته فيها، لا يرى ولا يدرك شيئاً خارجها. فهو يدبّر ويقرّر، وينازع غيره على حيّزها، فيذهب إلى شمال، وهم إلى يمين، ثم إلى أمام، وهم إلى خلف، يدافعهم ويدافعونه، حتى يكون له الأمر. ولا يدري أنه في سفينة ماضية إلى وجهتها وغايتها، لا يُغيّر منهما تدافع من في داخلها بين يمين وشمال، وأمام وخلف.. نعمل ونريد يا عبيد الله فيما تدركه أبصارنا، وتطاله تدابيرنا.. ولكنّ الله وحده هو المحيط!

قال عبيد الله:

- قد عرفت طريقك الذي قُدِرت له يا عمّاه، فكيف أعرف طريقي؟

- ستعرفه حين تراه. فهو صورة ما في عقلك وفؤادك. وقد أخذنا حظنا من الحكم والإمارة، بخيرهما وشرّهما. وهلك فيها من هلك، وأنا أضَنّ بك من نفسك، وأنت بقية أخي أبان.. فلماذا لا تجرّب الانصراف إلى العلم، لنجمع في أسرتنا بين المجدَيْن، وهذه الأندلس، لماذا تظنّ أني لا أهدأ الليل والنهار في مقارعة الخصوم وتوطيد الدولة؟ هل تحسب أني أحب القتال لذاته؟ كل ما أشقى به الآن وسيلة لغاية، قد لا أدرك إلّا أولها: أن تقوم للإسلام في الأندلس دولة عظيمة، تصبح منارة الدنيا ومهوى الأفئدة، يأتيها الناس من كل حدب وصوب يطلبون العلوم والفنون من كل نوع، حتى تبزّ قرطبة بغداد التي ابتناها أبو جعفر في العراق لتكون حاضرة ملكه.. بل حاضرة الدنيا كما يرجو. تلك هي الغاية يا عبيد الله، فلماذا لا تترك الوسيلة لعمّك بكل تكاليفها المرهقة، وتنصرف من الآن إلى الغاية. تولَّ إنشاء الكتاتيب في كلّ ناحية، وتتبّع أخبار المشرق ومن يبرز فيها من العلماء والفقهاء والشعراء وأهل الموسيقى، فأرسل إليهم من يحملهم إلينا، وأعْظِم قدرهم وبالغ في تكريمهم. وقد طالت خصومتنا مع بني العباس.. لا نحبهم أبداً ولا يحبوننا أبداً..فلتكن خصومتنا استباقاً في الخيرات، وتنافساً على العمران والعلم والعلماء.. فلعل هذه الخصومة التي كانت حتى الآن شرًّا كلها، أن تصير تدافعاً في طرق العمران والخيرات، كما يُخرِج الله اللبن من بين فرث ودم. ألا ترى ذلك يا عبيد الله؟

ولكن كل هذا الكلام لم يكن ليعني عبيد الله في شيء. ولكنه أدرك أنه لا جدوى الآن @من متابعة الجدال في طلبه. ألم يقل له عمّه: «ستعرف طريقك حين تراه، فهو صورة ما في عقلك وفؤادك»؟ لا بأس إذن، إنه يعرف ما في عقله ورغبته، وهو غير ما اقترح عليه عمّه. ولسوف يجد الطريق إلى ذلك يوماً، كما عرف عمّه طريقه من قبل!

نعم، خمدت القبائل أخيراً فانصاعت لحكم عبد الرحمن ودولته. وبعد حين من الدهر سوف تختلط أنسابها ويرضى أصحابها من الغنيمة بالضِّياع والمال وشرف الألقاب المعنويّة التي لا تدل على شيء من مراتب الحكم. وخضعت إمارات الشمال لسيد قرطبة، فلا تطمع بغير السلامة.

ولكن ذلك كلّه لا يعني أن الأندلس الجديدة ستنعم منذ الآن بالأمن والسلام، وأن الأمير الداخل سيقضي بقية عهده في إعمار البلاد على سعة من أمره. فقريباً سيواجه أعتى ثورة في عهده تدوم

عشر سنين، وتكاد أن تذهب بكل ما أفنى عمره حتى الآن في تشييده! ثورة من نوع جديد قوامها بربر المناطق الجبلية الريفية شمال شرقي الأندلس، ومنبتها في قرية صغيرة مجهولة بالقرب من مدينة «شنت بريّه» (Santaver)، وزعيمها معلم صبيان في أواسط العشرينات من عمره. شاب طويل أشقر غريب الأطوار، سريع البديهة، دائب الحركة، لا يراه الناس إلّا مسرعاً في مشيه، غافلاً عما حوله، فإذا استوقفوه لسؤال ما نطق بسرعة دون أن يتوقف عندهم، وكان كلامه مفعماً بالتهكم والازدراء الذي لا يلتقطون معانيه. وكان يعيش منفرداً بنفسه، فلا أسرة ولا أقارب له في القرية. فقد هاجر إليهم من بربر مكناس بالمغرب. ولأنه كان الوحيد الذي يتقن القراءة والكتابة في تلك القرية الصغيرة فقد افتتح كُتَّابا لتعليم الصبيان، لقاء ما يجود به أهاليهم عليه من الأجر. ومعرفة القراءة والكتابة تعني العلم بالدين. فأطلقوا عليه صفة الفقيه، وكانوا يسألونه في أمور دينهم، وقد يتبركون بدعائه. وكان يُرى ماشياً إلى كُتّابه وقد علّق جراباً من القماش، ينزل من كتفه الأيسر إلى جانبه الأيمن، يضع فيه بعض الطعام وقطع النقود ومصحفاً، وأشياء أخرى لا يعلمها غيره.

شقنا بن عبد الواحد.. كان هذا اسمه الذي سيتردد قريباً عبر الأندلس، ويهزّ أركان قرطبة، ودار الإمارة فيها.

في صباح ذلك اليوم، وقف يطوف ببصره في الطبيعة الجبلية الريفية التي تحيط بقريته، ويستنشق نسيم الصباح العليل المفعم بروائح الزهور والأعشاب البريّة. ولكن بصره توقف عند مجموعة من الفتيات في ثيابهن التقليدية يرعين الغنم على سفح الجبل، وكان اهتمامه منصباً على واحدة منهن على نحو خاص، فتاة جميلة في ريعان الصبا اسمها عائشة. أحب أن يطيل النظر، ولكن كان عليه أن يتابع سيره إلى كُتّابه، مخترقاً طرق القرية بمشيته السريعة.

- كيف أصبحتَ يا شقنا؟

حيّاه بذلك أحد العابرين.. فأجاب على الفور دون توقف:

- بخير.. حتى لقيتُك!

ضحك الرجل لما عدّه بعض التظرف، وقبل أن يبتعد شقنا أتْبَع الرجل بالقول:

- انظر عمامتك، فهي متّسخة. وواظب على السواك.. أسنانك مصفّرة.

وتابع السير، حتى اعترضه رجل آخر:

- كيف تجد تعليم الصبيان يا شقنا.

أجابه:

- كيف تجد زراعة الملح؟

- الملح لا يُزرع.

- وكذلك تعليم صبيانكم.

وما هي حتى هرول إليه آخر:

- ولدي.. كيف يصنع عندك؟ هل وجدت له عقلاً؟

- كعقل أبيه.

ظنها الرجل ثناءً فقال:

- الحمد لله.

وأردف شقنا:

- الذي لا يُحمَد على مكروه سواه.

ولم يتفطن الرجل للمغزى حتى كان شقنا قد تجاوزه، فالتفت وراءه عابساً.

وقبل أن يبلغ الكُتّاب، أقبل عليه شيخ كبير يدفع صبياً في نحو العاشرة من عمره، ونادى الرجل:

- سيدي الفقيه.. سيدي الفقيه!

@ وصل إلى شقنا لاهثاً، وقال:

- هذا ولدي محمد.

ولم يفوّت شقنا فرصة التهكم والسخرية:

- ولك صبي بهذا العمر، وقد بلغتَ من الكبر عتيّا؟

أجاب الشيخ باعتداد:

- وعندي من هو أصغر منه.

- ولدك أيضاً؟ أنت على يقين؟

أرسل إليه الشيخ نظرة عتاب لا غضب فيها:

- شقنا!

- لا بأس. يُحيي العظام وهي رميم.

- لا تحسد فحولتي، فوالله لو وجدت من يزوّجني بكراً ذات خمس عشرة سنة، لفعلت.

- استَفْتِح أبواب الجنة.

ٍ

- ولِمَ تعجب؟ قد رزق الله زكريا ولداً على كبر وشيخوخة، وكذلك إبراهيم عليه السلام.

- لا حول ولا قوة إلا باللهّ! وتخلط نفسك بالأنبياء؟ واحسم رأيك أيها الرجل: فحولة أم كرامة خارقة؟

ابتسم الشيخ، بينما تحرك شقنا متابعاً السير، يلاحقه الرجل مع ولده:

- ولدي يا شقنا.. أريد أن تعلّمه.. أريده فقيهاً.

قال شقنا ضاحكاً:

- فقيهاً؟ نعم.. ربما في أحكام النكاح!

اعترضه الشيخ من جديد لاهثاً:

- لا تسخر يا شقنا.. إنه ولد نبيه.. و.. هاك..

واستخرج من جيبه صرّة نقود صغيرة، وبدأ يعد بعضها ليعطيه منها، فأسرع شقنا بالقول:

-إنك لا تحسن العدّ والحساب.. هات.

وخطف منه الصرّة كلها، وقال:

- عندما يتعلم ولدك الحساب، سيعلم كم أنفقتَ فيه.

ثم نظر إلى الصبي وأردف:

- وإن كنت أرجّح أنك تخسر مالك بلا طائل.

لأول مرّة تدخل الصبي الذي كان كارهاً للذهاب إلى الكُتّاب، وقال لأبيه:

- ألم أقل لك؟ لا أصلح له.

ضربه أبوه على ذراعه:

- اصمت أنت.

قال شقنا:

- لقد فهم مغزى كلامي. إي والله لقد فهمه. ربما كنت مخطئاً وكان فيه بعض الرجاء.. هيا..

دفع شقنا الصبي أمامه نحو الكُتّاب.. وصاح الشيخ من ورائه:

- أحسن تعليمه يا شقنا، واحمله عليه حملاً، والعصا لمن عصى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كالعادة في كل مكان، فإن حال الصبيان إذ ينصرفون من الكتّاب صاخبين متدافعين مهرولين على الضدّ من حالهم حين يأتونه على تثاقل واغتمام. ولم يكن شقنا ليهتم بأحوالهم إقبالاً أو إدباراً، إلا أن يطيعوه في الدرس ويلتزموا أوامره.

وإذ وقف أمام كُتّابه بعد خروج الصبيان، ذهب ببصره إلى جهة معيّنة وقد تنبهت حواسه كلها. كانت عائشة بين فتيات أخريات يحملن جرار الماء ليملأنها من العين التي تسقي القرية وزرعها.

ثم أخذ يمشي ساهماً غافلاً عما حوله دون أن يتحوّل ببصره عن الفتيات. وما هي حتى أقبلت عليه امرأة عجوز طاعنة في السنّ، منحنية الظهر، تتوكأ على عصا، وتقود صبياً صغيراً:

- سيدي الفقيه.. سيدي الفقيه.

لم يلتفت إليها، إذ بقي منشغلاً بالنظر صوب الفتيات، حتى هزّته من كتفه، فألقى عليها نظرة سريعة زائغة، دون أن يفارقه شروده.

وقالت العجوز:

@ - هذا الصبيّ، ولد ولدي، أصابته الحمّى، وأعيانا وأعيا الطبيب. فهل تُرقيه، ولك الأجر عند الله.

بقي غائم النظرات مستغرقاً في أفكاره، حتى نبهته مرة أخرى. ولكي يتخلص من إلحاحها المزعج وضع كفه على رأس الصبي بغير تركيز، وغمغم قليلاً، وذهب ببصره من جديد نحو الفتيات. ثم مضى مبتعداً عن العجوز. وحين صار على بُعد خطوات منها نظر في يده، وقال كأنه يحدِّث نفسه دون أن يلتفت إلى العجوز التي خلّفها وراءه:

- إنه محموم! نار الله الموقدة!

ثم أردف بصوت أعلى:

- تودّعوا منه!

وتابع مشيه مبتعداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملأت عائشة قدرها الفخاري من نبع الماء، وحين همّت أن ترفعه إلى رأسها، امتدت يدان قويتان ورفعتا القدر دون عناء، لتثبتاه على رأسها. وتقابلت عيناها بعينيي شقنا عن قرب في نظرة سابرة عميقة، وأحسّت عينيه تطلقان شواظاً من نار يُغلِّف جسدها ويوقد دواخلها، فوقفت متجمدة في مكانها غافلةً عما حولها.

ثم استدار شقنا ومضى مبتعداً، بينما بقيت عائشة متسمّرة في مكانها، كأنه قد طاف بها طائف من السحر. وإذ لحظت إحدى صويحباتها حالها ذاك، هتفت بها:

- ما بك أيتها الفتاة، ما الذي ألمّ بك حتى تجمّدت أطرافك؟

همست أخرى:

- قد خبلها ذلك الفقيه! وأي فقيه يفعل ذلك!

بقيت شاردة التفكير وهي تشارك الفتيات بعد ذلك في تنقية الحبوب، حتى تجرأت إحدى صاحباتها على القول:

- ما صنع بك ذلك الفقيه؟ هل سحرك؟ أجل والله قد سحرك بسحره.. هيه.. ألا تسمعين؟

التفتت أخيراً إليهنّ دون أن يفارقها السهوم، وقالت:

- لعله يعمل في السحر حقاً.

قالت إحداهنّ:

- إذن نأتيك بمن يفك سحره!

ردّت بسرعة وبغير تدبّر:

- لا.

ضحكت صويحباتها، وأردفت:

- إن كان هذا هو السحر، فلا نجّاني الله منه.

ارتفعت أصواتهن بالضحك، وقالت إحداهن:

- حدّثينا.

قالت وهي ترسل بصرها إلى البعيد:

- هو حال لا يصفه الكلام.. كيف يوصف طعم لم يتذوقه السامع؟

قالت السائلة:

- قاربي.

- لسان من النار اخترق عينيّ، ونزل إلى روحي، وأضاء تلك القيعان الخفيّة البعيدة والخواطر المكتومة التي لا يطّلع عليها غير صاحبها.

قالت إحدى الفتيات ضاحكةً:

- خواطر مكتومة؟ تخجلين أن يطلع عليها أحد؟ إذن، فنحن كلنا سواء!

تضاحكت الفتيات من جديد، بينما دفعت عائشة صاحبتها:

- قومي عني، خيبك الله.

قالت أخرى:

- وابن عمك الذي خطبك؟

اكتسى وجه عائشة بالوجوم، وقالت:

- ذلك الأحمق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل الغروب، جلس شقنا على حصير بيته الطينيّ البسيط، وأخذ يقطع حبة فاكهة بسكينه وهو ما يزال شارد التفكير.. قرّب قطعة الفاكهة من فمه، ثم ردّها.. وفي غمرة شروده وغفلته @أخذ يتحسس ويفرك نصل سكينه بأصابعه.. وفجأة تنبه إلى السكين، فوجدها قد لانت وانثنت تحت أصابعه لكأنها العجين.. نظر منذهلاً.. ثم قذف السكين من يده منتفضاً، وأخذ يتأمّل في يده وأصابعه.

ولم يفق من صدمته وحيرته إلا على لغطٍ يتعاظم في الخارج أمام بيته. ثم سمع صائحاً يقول:

- سيدنا الفقيه.. اخرج إلينا.

حين خرج من بابه، وجد جمعاً من الناس، تتقدّمهم تلك العجوز التي اعترضته مع حفيدها ليُرقيه من الحمى.. وارتفع لغط الحشد لرؤيته وهو في حيرة وذهول، وصاحت العجوز بحفيدها:

- قبّل يد الرجل المبارك الذي كان السبب في شفائك، بأمر الله.

أقبل الصبي من فوره وقبّل يد شقنا الذي ازداد حيرةً وذهولاً، بينما تابعت العجوز متلفتة فيمن حولها:

- كما أخبرتكم.. والله ما هي إلا أن وضع يده على رأسه، حتى شفي الصبي وذهبت عنه الحمّى، بعد أن كدنا نيأس منه.

وما هي حتى تزاحم الناس عليه يطلبون بركته ودعاءه ورقيته.. بين من يطلب الرزق الذي انحبس عنه منذ زمن، ومن يطلب الخِلْفة التي حُرم منها حتى الآن، ومن يطلب تزويج بناته اللواتي تأخر عنهن الزواج، حتى اعتقد بأن هناك من عَقد لهن سحراً مانعاً.. وغير ذلك من الحاجات والأماني.. وشقنا يدور بينهم وقد زاد ذهوله وحيرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وما الذي غيّر رأيك في ابن عمّك؟ كنتِ أحب الناس له!

سألها أبوها بحضور أمها، فأجابت عائشة:

- القلوب تتغيّر.

قال الأب:

- لا تتغيرّ بغير سبب. هل سمعتِ عنه مكروهاً؟ هل رأيتِ منه ما يعيب الرجل؟

أجابت:

- لم أرَ ولم أسمع.. ولكن قلبي قد انقبض عنه.

صاح بها الأب:

- ولكني لن أقبض يدي عنه، بعد أن بسطتها له.

- لا أريده.

- أنا أريده، وهو يريدك، وكفى! سوف تتزوجينه، شئتِ أم أبيت. وسأعجِّل عقد القران حتى أقضي هذا الأمر.

وخرج، مُخلِّفاً عائشة تنتحب بحرقة. ربّتت أمها عليها مواسية، وقالت عائشة وهي تشهق بالبكاء:

- الموت أهون يا أماه.

قالت الأم:

- ألم يكن ابن خالتك أفضل؟ ولكنك رغبتِ عنه إلى ابن عمك.. والآن، لا تريدين هذا ولا ذاك! فمن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين وصل أبو زيدون، والد عائشة، إلى بيتِ شقنا، رأى بعض الناس يخرجون من عنده، وهم يلهجون بشكره والدعاء له أن يزيده الله بركةً وكرامة ونفعاً لعباده. وأخذ أبو زيدون يتلفت فيهم مستغرباً، حتى دخل على شقنا:

- أبا زيدون! أهلاً بك.. ما جاء بك؟

سأل أبو زيدون وهو في حيرة مما شاهد من الناس:

- ما هؤلاء الناس الذين يطلبون دعاءك وبركتك؟

قال شقنا وهو متربع على الحصير، وأمامه مصحف على قاعدة خشبية:

- هل عندك حاجة كحاجاتهم؟

رمقه أبو زيدون مستنكراً:

- عندي حاجة عند الفقيه، لا عند صاحب الكرامة والبركة!

- لا تصدّق؟

- أصدّق ما أراه بعيني، وما جاء في كتاب الله.. والمعجزة للأنبياء.

@ - المعجزة للأنبياء، والكرامة لمن اجتبى الله من عباده الأولياء.

- (قل لا تزكوا أنفسكم).. على كل حال، ليس هذا ما جئت به. أريد أن تَقْدُم على بيتي غداً ضحى لتعقد قران ابنتي عائشة على ابن عمها.

اهتزت ملامح شقنا. وأطرق إطراقة طويلة، قبل أن يقول:

- لن يحدث هذا.

انتفض أبو زيدون، وقال مندهشاً:

- كيف قلت؟

- لم تُقدَّر ابنتك لابن عمّها.

رد أبو زيدون منفعلاً:

- وما أدراك أنت بالذي قُدِّر لها؟ أو لغيرها؟

أجاب شقنا بهدوء وثقة:

- أعرف.

ارتفع صوت أبي زيدون وقد تعاظم استنكاره:

- هل تصدّق حقاً أنك قد أوتيت موهبة من الله حتى كُشفتْ عنك الحجب؟ لا تكون قد خرجت من الفقه وتعليم الصبيان إلى عمل السحرة!

ردّ شقنا بهدوء تام:

- لم أخرج مما في نفسي.. وهو كما قلت: لم تُقَدَّر لابن عمّها.

ثم أغمض عينيه، وبدا كأنه يستلهم، ثم أردف:

- وأرى أنها ليست راضية به.

هنا أخذ العجب بأبي زيدون:

- كيف علمت؟

اكتفى شقنا بابتسامة الثقة. واستدرك أبو زيدون على نفسه:

- لعلّك قد أدركت من وجهي وتعجّلي وتلهفّي.

قال شقنا:

- ولا تُزَوّج المرأة حتى تُسْتَأذن.. الرضا شرط الزواج.

- اترك هذا لي.

- قد سمعتَ قولي..

قال أبو زيدون متهكماً هذه المرة:

- فإن لم تُقدَّر له، فلمن قدِّرت يا صاحب الكرامة؟

أجاب شقنا دون تردد:

- لي!

بدا أثر الصدمة على وجه أبي زيدون:

- أنت؟

هز شقنا رأسه، وبدا عليه برود اليقين.

قال أبو زيدون متشككاً ومستنكراً:

- كأنك قد تعرَّضت لها؟ آه.. هذا هو السبب إذن.

- كل الأسباب ترتد إلى قدر الله.

هنا هزّ أبو زيدون يده في وجه شقنا وقال:

- أنصت يا شقنا.. أنا لا أعرف من أنت ومن أبوك.. قدمت علينا من مكناسة في المغرب، لا نعرف لك أصلاً ولا نسباً.. شقنا بن عبد الواحد.. هذا كل ما عرفناه عنك، وقد أكرمناك وأنزلناك فينا لِما رأينا من علمك.. والآن، لا أدري ما الذي أصدّقه فيك.. أما ابنتي فسوف تتزوج ابن عمها، وإن تعرَّضت لها حتى ذلك الحين، فهو مصرعك.

وخرج مسرعاً وهو يتمتم:

- هه! فقيه! قد ذهب تعليم الصبيان بعقلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كانت القرية منشغلة بالاحتفال بعرس عائشة وابن عمها زكريا في ساحة القرية الواسعة بين زغاريد النساء ونفخ المزامير وضرب الدفوف، والرقص التقليدي، وترقيص الخيل، وتوزيع الشراب والحلوى على الحضور، كان شقنا في بيته مقرفصاً أمام طاولة واطئة، يجرّب قدرة عجيبة جديدة اكتشفها في نفسه، وهي القدرة على تحريك الأشياء الصغيرة دون أن يمسّها، إلّا أن يوجه كفّه إليها ويمعن في التركيز. ولما نجح من جديد انتفش وانتشى @وارتجف جسده، كأنه قد خاف من نفسه. ثم رفع رأسه يصغي إلى أصوات العرس التي تتاهت إليه، فانقبض وجهه.

كان الاحتفال قد بلغ أوجه، حين التقط بصر أبي زيدون شقنا يقف على بُعد ممتطياً بغلته يراقب بهدوء. وبينما ارتسمت ابتسامة غامضة عريضة على وجه شقنا، لم يستطع أبو زيدون أن يدافع شعوراً بالتوجس داهمه على رغمه. ثم رأى شقنا يبتعد ويغيب.

في ساحة الاحتفال، عمد بعض أصحاب زكريا إلى جذبه ليعتلي جواداً مزَّينا ويشارك في ترقيصه. وإذ فعل ذلك، ارتفعت أصوات الزغاريد مختلطة بالتصفيق وصوت المزامير والدفوف. وأخذ زكريا يُرقّص الجواد بمهارة فائقة.

فجأة اضطرب به جواده كأنه قد مسّه طائف من الشيطان. حاول السيطرة عليه بكل ما يملك من قدرة وجهد. وبُهتَ الناس، وتوقفت الزغاريد وأصوات المزامير والدفوف، وتصاعدت أصوات الخوف، وعمّ اللغط، وازداد الجواد جنوناً وهو يتقلّب براكبه ويشب من أمام ومن خلف حتى ألقى أخيراً براكبه إلى الأرض، وركض مبتعداً يصهل. هبّ أبو زيدون وآخرون إلى موضع زكريا، قَلَبه أبو زيدون.. فوجده قد مات ودُقَّت عنقه!

تحوّل العرس إلى عزاء. وعمّ الحزن القرية على الشاب الذي كان يحظى بمودة الجميع واحترامهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام، طرق باب شقنا، وكان عاكفاً على خط رقعة بريشته. وصاح من مكانه دون أن يرفع رأسه عن الرقعة:

- ادخل يا أبا زيدون!

دخل أبو زيدون بوجه ينم عن الدهشة البالغة أن ناداه شقنا بكنيته قبل أن يراه، فسأل من فوره:

- هل رأيتني من النافذة؟

رفع شقنا رأسه بهدوء، وجالَ ببصره في جدران الغرفة، ولم يكن فيها غير نافذة صغيرة واحدة في الخلف، لا تطلّ على الطريق إلى البيت. وفهم أبو زيدون المغزى. وبدا متردداً مضطرباً، ثم قال:

- لا أدري إن كنتَ ساحراً أم رجلاً آتاه الله موهبة وكرامة.. ولكن.. هذا أو ذاك.. لا أريد المزيد من الأذى لأهل بيتي.

- لم أوذِ أحداً يا أبا زيدون.. ولا رادَ لقضاء الله.. رحمه الله وأحسن الله عزاءكم فيه.

صمت أبو زيدون من جديد هنيهة وهو مطرق يغالب نفسه على ما يريد قوله:

- ويبدو أن ابنتي عائشة.. أعني.. قد وَقَعْتَ في نفسِها.. ولا أحسبها ترضى بغيرك أبداً.

لم يَبْد على شقنا أدنى أثر للمفاجأة. وقال:

- كلٌّ يصيب حظه المقدور له.. فلا هو بقادر على اكتساب ما لم يُكتب له، ولا على ردّ ما كتب له.. رُفعت الأقلام.. وجفّت الصحف.

قال أبو زيدون:

- إذن، نذعن لمشيئة الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم الزواج، وحُمِلت عائشة إليه، وكان قد جدّد متاع البيت وفرشه.. وحين التقت نظراتهما، قال:

- أردتك منذ وقعت عيناي عليك. وأنا آخذ ما أريد.

ثم أجالَ بصره في المكان، وتابع:

- ليس هذا بالمكان الذي يَسَعني ويَسَعُك.. بل ليست هذه القرية بالتي تسعنا.. غداً تعلمين ويعلم الناس أن حدود داري هي حدود الرؤيا لا الرؤية.. حيث تصل الريح، ويبلغ السحاب، وتطوف الفكرة.. إذا وقع الاختيار، لم تضرّ النار.. هاتي يدك.

أخذ بيدها وضغط قليلاً.. همست:

- إنها ساخنة.

قال مردداً:

- إذا وقع الخيار، أطاعت النار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يوماً معتماً مكفهراً بالغيوم السوداء، وكان البرق يضيء القرية بين الفينة والأخرى والرعد يزلزلها، حين احتشد أهل القرية جميعاً في ساحتها في انتظار خروج شقنا إليهم في أمر @عظيم، كما نادى مناديه.

وأخيراً أقبل شقنا على بغلته البيضاء التي أسماها «الخلاصة»، يحيط به من الجانبين اثنان من خاصّة مريديه هما أبو معن، داود بن هلال، وكنانة بن سعيد، وكل منهما يمسك بطرف السرج من جانبه.

وإذ توقف ببغلته أمام الحشد، صاح أحد الرجال:

- لِمَ دعوتَنا أن نجتمع لك أيها الفقيه شقنا.

صاح شقنا:

- شقنا؟ من شقنا؟

ارتفع لغط الناس وقد بدت عليهم الحيرة. ثم رفع يده فسكتوا وشخصوا بأبصارهم إليه. وصاح من جديد:

- أيها الناس. قد جئتكم من مكناسة منفرداً لأمرٍ عظيمٍ قد قُدِر. وأخفيت حقيقتي حتى أنظر في أحوالكم، وأعاين صبركم، وأمتحن صدقكم، فإن وجدتكم أهلاً للمهمة العظيمة المقدورة، والدعوة المباركة المنذورة، أظهرت لكم حقيقتي ونسبي.. وهذا وقت الحقيقة، قد أذن زمانها.. إذن فاعلموا أن شقنا بن عبد الواحد ليس اسمي على الحقيقة.. إنما هو عبد الله بن محمد، أبي محمد، وأمي فاطمة. وأنا الفاطميّ من عطرة رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-، من ولد الحسين بن علي -رضي الله عنهما- فلما كنت في مكناسة رأيت في المنام هاتفاً يقول: امضِ إلى الأندلس، فانزل في أهل المغرب هناك، قوم طارق ابن زياد، فهم أهل نخوة وعزيمة وبأس، وأحبّ الناس لآل بيت رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-، وامكث فيهم زمناً، ثم أظهر دعوتك وادعهم إليها.. فإنهم منصورون بك، وأنت منصور بهم.. وهو أمر مقدور، وكتاب مسطور: أن تملك الأندلس ويملكها معك أصحابك وأتباعك من دون الناس إلى يوم الدين. وقد بلغ الكتاب أجله، فصار حقاً عليّ أن أدعوكم إلى أمري الذي فيه صلاح أمركم، وصار حقاً عليكم أن تدخلوا في دعوتي، فنحوز الأندلس من ذلك الأمويّ الأعور الكذاب: عبد الرحمن بن معاوية. وإن كان بعضكم في شك، فانظروا..

رفع أمامهم رقعةً طويلة، وتابع:

- هذا سجل نسبي قد وقع عليه الشهود العدول من أيام جدّ أبي حتى أبي..

لوّح بالرقعة، ثم قال:

- وقد أعطاني الله علامات أُعرَف بها..

استلّ خنجراً غليظاً شديد الصلابة وعرضه على الناس، ثم دعا أحدهم أن يتقدم فيأخذ الخنجر، ثم طلب منه أن يواجه الناس، وأن يفرك النصل بأصابعه، ثم يحاول ثنيه. وحين عجز الرجل عن إحداث شيء به، استرده منه، وسأل:

- كيف وجدتَه؟

قال الرجل:

- غليظاً صلباً، لا تثنيه إلا مطرقة.

أخذ شقنا يفرك النصل أمام الناس، وما هي حتى لانَ الحديد وانثنى كأنه العجين. وارتفعت شهقات التعجب، ثم قذف النصل ليلتقطه بعضهم وينظر فيه.

ثم نادى رجلاً آخر أن يتقدم إليه وأن يرفع عمامته ويكشف عن شعره، وضع شقنا كفه تحت إبطه هنيهة من الوقت، ثم قرّبها من شعر الرجل دون أن يمسّه، فانتصب كأنه مسامير دقيقة. وتصاعدت أصوات الدهشة، حتى صاح أحدهم:

- الله أكبر.. الله أكبر.

رفع شقنا يده ليسكت الناس. ثم نزل عن بغلته وصاح:

- هذه بغلتي «الخلاصة». قد شملتها البركة، ونُذِرَت للنصر.

ابتعد عنها حتى وقف على مسافة منها ودعاها قائلاً:

- أيتها «الخلاصة» تقدّمي!

فتقدمت من الفور حتى صارت عنده.

ثم أمرها أن ترجع راشدةً، فارتدت راجعة دون أن تستدير. ثم أمرها أن ترفع طرفيها الأماميين ففعلت. وبينما تعالت أصوات الدهشة من جديد، امتطى بغلته، وعاد يخاطب الحشد:

- يا معشر المسلمين.. قد بلغتكم دعوتي، وقامت عليكم حجتي، فمن يتبعني حتى نقاتل الأموي المارق، فنغلبه ونلحقه بمصير قومه في المشرق، فنفوز بعاجلة الدنيا: جنة الأندلس، ونفوز بالآجلة: فردوس السماء؟!

دوّت أصوات التكبير والتهليل، ورجّعت الجبال المحيطة صداها. وتدافع الناس نحوه @يتمسّحون به وببغلته المباركة! بينما تتابع البرق والرعد ليضفي على الموقف هالة أسطورية زادت الناس خشوعاً وخضوعاً وانقياداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمضى الشهور التالية يطوف القرى بأتباعه في تلك النواحي الجبلية الممتنعة من شمال شرق الأندلس. فلا يخرج من قرية إلا تضاعف أتباعُه حتى بلغوا الألوف، بل عشرات الألوف. فالكثرة تستدعي الكثرة. وكان للرجل سحر عجيب على الناس، وجاذبية لا تقاوم، وقدرة هائلة على الإيحاء والتأثير في العقول، فينقادوا إليه انقياد القطيع دون مساءلة. بل إن أحدهم ليغبط نفسه أن اختصه الله بأن يدرك زمانَه ويكون من أتباعه. أما إذا خصّ أحدهم بالخطاب أو الأمر، فيرى في ذلك منحةً عظمى من الله.

وحين اجتمع له خلق عظيم على سفح أحد الجبال، وشخصوا بأبصارهم نحو الأعلى ينتظرون ظهوره لهم، برز لهم من وراء الذروة مع مُريدَيْه المقرَّبيْن داود وكنانة، فارتفعت التكبيرات المدوية تردد

صداها الجبال والوديان. وغلب البكاء والنحيب على كثير منهم. ثم رفع داود وكنانة أيديهما فسكنت الأصوات فلا تسمع لهم حسًّا. وكان شقنا قد أطال شعره حتى نزل على كتفيه، فزاده ذلك مهابة وغرابة وتأثيراً، وكانت الريح تحرّك شعره، فبدا كأنه قد جاءهم من أزمنة الملاحم الغابرة. ثم خطب في الناس:

- (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله فبذلك فليفرحوا. هو خير مما يجمعون). (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنا عليكم بوكيل).

أيها الناس! يا معشر المسلمين! رجل ورث وصيّة آبائه الأئمة المهديين، وانتهى إليه علمهم، وأنار الله بصيرته بمشكاة الحق، ليبصر بها ما لا ترى العين، ويسمع بها ما لا تسمع الأذن، ويدرك بها ما لم يخطر على قلب بشر، حتى لكأنه يرى أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار يتصايحون، فهل يخفيها في نفسه، ويحجبها عن أهل دعوته، أم يخرج بها إلى الناس بشرى لمن ألقى السمع وهو شهيد؟ هيهات، هيهات. ما كان لمأمور أن يردّ الأمر على الآمر. وقد أُمِرتُ فأجبت، ونوديت فناديت، وخوطبت فخاطبت، وكوشفت فكاشفت. فلكم البشرى. فوالله لا تطأون معي موضعاً، ولا تقطعون وادياً، ولا تصعدون جبلاً إلّا كتب لكم به أجر الآخرة وغنيمة الدنيا. فأبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. ولا تتعجلوا فيتأخر النصر عليكم. ووطّنوا أنفسكم على الصبر والمجالدة واحتمال الأذى. فتلك سنن الأنبياء والصديقين. (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم نبأ الذين خلوا من قبلكم، مستهم السراء والضراء، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله. ألا إن نصر الله قريب).

وردّد:

- ألا إن نصر الله قريب.. ألا إن نصر الله قريب.

وبينما أخذ الناس يهتفون بالتكبير، مختلطاً بأصوات البكاء والنحيب، رفع يديه إلى الأعلى، والتمع البرق في الأفق من خلفه حتى أضاء المكان، وزمجر الرعد، كأنهما الوعد والوعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان أول فتوحه بلدة شنت بريّة، حاضرة الإقليم. ولم يستمع إلى توسلات عاملها أن يحقن دمه. ولما أدرك أنه مقتول لا محالة صاح صيحته الأخيرة:

- لعنك الله أيها الأفّاق الدجّال الدعيّ!

ثم دخل دار الوالي مع مريدَيْه داود وكنانة، وأخذ يتجوّل فيه ويعاين متاعه الفخم وهو يتلو:

- (كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين).

وإذ وقع بصره أخيراً على ستة من الجواري والوصائف يقفن مطرقات بسكون وخضوع، استعرضهن بنظرات متفحّصة، ثم قال وهو يشير إلى إحداهن:

- هذه سبيّة لك يا داود.

ثم أشار إلى أخرى:

- وهذه لك يا كنانة. واشكرا الله على نِعَمِه، واستعينا على قضاء حوائجكما بالكتمان. كاد الحسد أن يسبق القدر. واتركاني الآن أتعبد الله وأحمده على نصره وفضله، ثم أرى نصيبي من الدنيا، فإنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

لم يكن في حاجة إلى أن يُخضِع الجواري الأربع اللواتي استبقاهنّ لنفسه بقوة السلطان والغلبة. فما هي حتى ألقى عليهن سحره الطاغي الذي أخضع أعناق الرجال. فأقبلن عليه @يتنافسن على ودّه وإغوائه. وإذ جلس أمام مائدة غنية بالطعام والشراب والفاكهة، أحطن به يتلمّسنه. قالت إحداهن وهي تضغط ذراعه، بدلال وغنج:

- إنك لقويّ.

- ذلك مما آتاني الله.

قالت أخرى بأسلوب الأولى وهي تميل برأسها إليه:

- كم قوتك؟

أخذ يعدّهنّ بإصبعه، ثم أجاب بأسلوب ذي مغزى مبطّن:

- قوة أربع رجال.. من ذوي البأس!

تضاحكن وقد أدركن المغزى، وزاد بالقول:

- وإن شئتُ فقوة ثمانية رجال.. في الليلة الرائقة.. وإن زاد الحمل زادت قوتي!

تضاحكن من جديد.ومالت إحداهن وألْقمته من خصلة عنب، قال متلذذاً:

- الله.. كأنه عنب الجنة.

قالت:

- كيف تعرف عنب الجنة وأنت لم تذقه، حتى تشبّه به عنب الأرض؟

مالَ نحوها واخترق عينيها بنظرة نارية شهوانية:

- بل ذقته.

ثم اعتدل في جلسته، وأكمل بلهجة الوليّ المكاشف:

- إذا كُشف الحجاب، رأى المخصوص المُجتبى في الحياة، ما لا يراه الناس إلّا بعد الموت.

ثم تلا قوله تعالى: (وكشفنا عنك غطاءك. فبصرك اليوم حديد).

سألت إحداهنّ:

- ألك زوج أيها الإمام؟

- نعم، طلعة البدر.

ثم تلفت فيهن وأردف مبتسماً وعيناه تلتمعان ببريق الشهوة:

- ولكن جمال البدر، لا يصرف عن النجوم الطوالع!

قالت إحداهنّ:

- والنجوم ألمع ما تكون، حين يغيب القمر!

نظر إليها بإعجاب وقال مع ابتسامة عريضة:

- قد كُشف عنك الحجاب أنت أيضاً!

قالت:

- من عموم بركة الإمام!

وقالت أخرى:

- إذا كانت قد عمّت بغلته كما قيل، فلماذا لا تعمّ جواريه؟

قال بنبرة موحية:

- أصبتِ. وانتظرن حتى الفجر، لترى كل منكنّ أي بركة قد حلّت بها!

تبادلن النظر مبتسمات وقد أدركن المغزى. ثم قال:

- هيا.. فلتهيّئ كل منكنّ مخدعها حتى أوافيها.

حين فرغ المكان إلّا منه، تناول كأس الشراب الذي كان أمامه ونظر فيه:

- شراب الورد! هه..شراب العامّة.

ونهض إلى خزانة في المكان، وفتحها واستخرج منها إبريق خمر، تشمّمه منتشياً وحدّث نفسه:

- هذا هو الشراب الذي يحجب أبصار العامة، ويكشف عن بصائر الخاصة. إذا وقع الاختيار، سقط الاختبار، وإذا حلّ الاصطفاء، ذهب الابتلاء.. للعامة أحكام الظاهر والأسباب.. ولخاصة الخاصة أحكام الباطن والغايات.

وأخذ يشرب بشراهة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من «شنت بريّة» تحرّك إلى مدينة «ماردة» التي دخلها بالحيلة والخدعة، ومن ماردة إلى بلدة «قوريّة». وفعل فيهما مثل الذي فعل في «شنت بريّة»، فوضع السيف في عُمّالهما وجندهما وأباحهما لأتباعه، ونهب كنوزهما. ثم ارتد راجعاً إلى «شنت بريّة». وكان حليفه الأعظم وعورة تلك الأصقاع الجبلية، وقدرته على التنقّل السريع عبر الشعاب والمسالك التي @يعرفها وأصحابه، كما لا يعرفها غيرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

- ما هذا الزمان الذي نعيش فيه؟ أفكلما طمع رجل بالمُلْك اخترع حديثاً أو نسباً أو نبوءة أو رؤيا تجلّت له، أو هاتفاً يخاطبه، ثم حشد الناس عليه، وجعل الدين سوقاً والدعوة مطيّة؟

كان عبد الرحمن يتميّز غيظاً وهو يحادث كبار أعوانه في أمر ذلك الدجّال، وفيهم بدر، وأبو عثمان، شيخ الموالي،وتمام بن علقمة، وثعلبة بن عبيد. ثم أردف:

- لا والله لنبرئن الدين من أمثاله، فإذا ظَفِرتُ به لأصلبّنه على جذوع الشجر حتى يكون عبرةً ومَثَلاً.

أين من هذه الفتنة الدهماء التي لم تخطر على بال، صراعات القيسية واليمنية.. قد هانَ أمر الصميل واليحصبي السابق أمام هذا الأفّاق الساحر الذي لا يقاتل زحفاً، وإنما يعبر من مكان إلى آخر كالريح العاصف، مخلِّفاً وراءه الدمار والخراب. ثم تبحث عنه فلا تجده. وكانت تلك خطة شقنا التي أفضى بها لكبار أعوانه: كر وفرّ.. ثبات الحركة، وحركة الثابتين! فالذي يثبت في مكان واحد، لا يكون حظه إلا ذلك المكان: فوقه أو تحته! أما الذي يتقمّص الريح، فيصل حيث يشاء ولا يصل إليه أحد.. يحيط بالجميع، ولا يحيط به أحد. وما انتصر ابن معاوية على كل خصومه حتى الآن، إلّا لأنهم قاتلوه على وفق خطته، في الزمان الذي يريد، والمكان الذي يختار.. جيش لجيش.. أما القائد الموهوب والإمام الملهم، فيلزم عدوّه أن يقاتله على وفق خطته هو، وبالطرق التي يحسنها أكثر من خصمه، حتى يصير جيش الداخل الذي لا يقاتل إلّا زحفاً واصطفافاً عبئاً عليه، وهو ثقيل بحاجة الجند وأقواتهم وآلاتهم. أما طريقة شقنا فهي الغارة الخاطفة على غير موعد، ثم يروغ مع جماعته إلى معاقلهم في الشواهق، حتى يرهق العدو، ويبقى في خوف، لا يدري متى يحاط به!

كانت تلك خطة شقنا وطريقته. وقد ثبتت نجاعتها فحين أتمّ الداخل زحفه إلى «شنت بريّة» وجد أنه قد أخلاها. ثم أدركه وهو معتصم مع بعض أصحابه على أحد الجبال التي يتعذّر على جيش الداخل صعودها، بينما تفرق سائر أتباعه في الجبال الأخرى. فوقف الداخل بجنده أدنى الجبل. وتقدّم ينظر إلى الأعلى، حتى برز شقنا له وكانت المرة الأولى التي يراه فيها. وصاح شقنا متهكماً، وأعانه الصدى على تضخيم صوته:

- لماذا لا يصعد الأمير إلينا فنكرمه؟

صاح عبد الرحمن:

- لماذا لا ينزل الدعيّ الدجّال، ليُشهِْدنا على كراماته؟

- وأي كرامة أعظم من أن أكون أعلى الجبل، ويكون الأمير أدناه تحت قدميّ، هو يسمو إليّ بنظره، وأنا أنظر إليه من عَلٍ.

وأطلق ضحكة مجلجلة.

صاح عبد الرحمن:

- وكم ترجو أن تبقى معتصماً بالشواهق؟

- بقدر ما يصبر الأمير على الحلول في بطون الوديان، بعيداً عن عاصمته، وأنا بعد ابن الشواهق.. فهي داري.

تنشّق الهواء بنفس عميق، ثم أردف:

- لا تدري يا ابن معاوية، ما الذي يفوتك من هواء هذا المكان.

صاح عبد الرحمن مخاطباً أصحاب شقنا:

- أنتم الذين خدعكم هذا الدجّال. كيف صدّقتم زعمه أنه من آل بيت رسول الله؟ هل خفي ذلك عن الناس في مكناسة حتى أعْلَن به هنا بينكم؟ أولئك قوم يعرفهم الناس ويحفّون بهم أنّى حلوا.

اختلطت صيحاتهم بالتأييد والتعظيم لصاحبهم. ثم صاح شقنا:

- أنصت يا ابن معاوية.. قد يتشابه الضدّان، وعلى ما بيني وبينك فإن أحدنا ليشبه الآخر في أمور ظاهرة، وإن كنتَ أنت على الباطل، وأنا على الحق. كلانا قطع البحر ونزل هذه الجزيرة وحده، وكلانا طلب الغاية البعيدة برؤيا يقصّها على الناس.. إلّا أن رؤياك من تلبيس الشيطان، ورؤياي رؤيا الحق وعهد الأئمة المهديين.

- كذبت أيها اللعين. بل أنت الذي أطغاك شيطانك، وألبستَ على من حولك. هيا أيها الشقيّ، فليكن كما قلت.. هو إذن أمر بيني وبينك.. ولْنَحقِن دماء الآخرين. اهبط إليّ وحدك وجالدني وحدي، واستعمل عليّ خوارقك، واجلب عليّ بكراماتك المزعومة. فإن قتلتني @صَدّقك الناس جميعاً.. ولك عليّ عهد الله ألا يجالدك غيري.

توجه أصحاب «شقنا» بأنظارهم إليه، فبدا عليه الحرج، ثم أجاب:

- إن شئت فاصعد أنت إليّ إن استطعت.. وإني لا أصدق لك عهداً. ثم إني لم أؤمر بذلك، حتى أعجزك وجيشك معاً، فتقوم عليك الحجة، فإذا مرّت الأعوام ولم تقدر عليّ، فقد ظهر عجزك، وانكشف خوارك، وحلّ بوارك، وعلم الناس أنك ما عجزت عني، وأنت من قهر بجنده صناديد العرب وعتاة القبائل وملوك الجلالقة، إلّا لأنني محفوظ بأمر الله ووعده. فانتظر، إنا معك منتظرون.

أطلق ضحكة ساخرة، ثم ارتد مع أصحابه حتى غابوا وراء قمة الجبل.

سُقِط في يد عبد الرحمن. وما كان بوسعه أن يقيم طويلاً بين تلك الجبال في انتظار شبح لا يظهر إلّا على هواه، ويترك قرطبة خالية منه. وما إن عاد إلى قرطبة، حتى رجع شقنا واستولى على «شنت بريّة» من جديد.

كان يجلس على بساط، وقد أغمض عينيه، متظاهراً أنه مستغرق في التأمّل والاستلهام، حين دخلت زوجه عائشة عليه لأول مرة في دار الإمارة في «شنت بريّة». وكان قد أرسل من يصحبها إليه. وأخذت تُنَقّل بصرها بينه وبين الدار العظيمة.

فتحِ شقنا عينيه وابتسم لها، ثم أومأ إلى الأتباع أن يخرجوا. ثم نهض وأقبل نحوها، وهي ساهمة يغلِّفها الذهول مما آلَ إليه أمر زوجها.

سأل:

- عسى أن رحلتك كانت هيِّنة؟

- أهذا كلّه لك؟

- لنا.. ومعها هذه المناطق بين نهري التاجُه ووادي يانة.. ثم الأندلس كلها إن شاء الله.

ثم تنبهت إلى مجموعة من الجواري يقفن ويختلسن النظر عند فم الدهليز وهن يتهامسن مبتسمات. وإذ تفطّن شقنا إلى الموقف، هتف في الجواري:

- أليست طلعة البدر كما وصفتُها؟ هيا، أقبلن وسلّمن على سيدتكن، لتكتمل صورة السماء: قمر ونجوم!

لم يستخفّها إطراؤه، وانقبض وجهها لرؤية الجواري. وبقيت على ذلك حين اختلى بها. فقال إذ رأى آثار غيرتها:

- رجل سيقت له هدية من رجل عظيم، أمن الأدب أن يردّها على صاحبها؟ فكيف إذا كانت الهدية هبة الله وقسمته لعبد ه. هل يردّ الأمر على صاحب الأمر، والنعمة على المُنْعِم، والفضلَ على المتفضّل؟ إذن فقد أساء الأدب وجحد النعمة، واستحق النقمة. اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت. وقد حُبِّب إليّ النساء، وأعطيت طاقة لم يُؤْتها رجل مثلي، إذا انحبست أضرّت. وما أوتيتُها إلّا لأصرفها. وهن بعد وصيفات لك. وأنتِ المقدمة عندي، فطيبي خاطراً، وقرّي عيناً.

تريّث لحظات وهو يتفحّصها ليرى أثر كلامه فيها، ولكنها مكثت على وجومها وإطراقتها، فاستأنف قائلاً:

- والغيرة ضلال ومفسدة، وحالقة للدين. وهل أهلك إبليس، لعنه الله، إلّا الغيرة والحسد من أبينا آدم، فأبى السجود واستكبر، فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله إلى يوم الدين.. وأعيذك يا عائشة من تلبيس الشيطان.. هيا إذن، ارفعي رأسك وانظري في عينيّ، واشكري الله على ما آتاك من فضله، حين اختصّك بي زوجاً دون نساء العالمين، لتشهدي معي تحقق الرؤيا، وتكوني صاحبتي في جنة الأرض، ثم في فردوس السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ستة أعوام ولم نبلغ منه شيئاً، وقد مضى عليّ سبعة عشر عاماً منذ نزلت الأندلس، فوالله ما لقيت من عدو قبل الآن مثل الذي ألقى منه، أرسل إليه الفيالق إثر الفيالق، فيتعّلق بالشواهق، ويركب الوعر، ويتحصّن بالجبال. فإذا رجع الجند، عاد إلى الإغارة والإفساد، واشتد أمره، وطار ذكره وظنّ ضعاف العقول أن عجزنا عنه دليل على صدق دعواه. والأنكى من ذلك كله أنه يتشبّه بي.. بل

يَسْتلهمني زوراً وبهتاناً.. يلمح إلى خبر مسلمة بن عبد الملك، إلا أن رؤياه التي يدّعيها هي الحق الذي سيغلب به باطلي، كما يقول. أنا عدوّه ومثاله، خصمه ومرجعه. ولكن ما أتى به السحر، إن الله سيبطله بسيفي الذي سيقطع إفكه.. جاهدت أولاً بنبوءة امتطيتها سبباً إلى غاية. فكافحت لغايتي كفاح رجل يُقبِل على يقين. أما الآن، فقد صار عليّ أن أحارب النبوءة وأقتلها من أصلها، بعد أن صارت عبئاً عليّ، يتوسّلها كل كاذب أفاق، أو أحمق مجنون، كهذا الدعيّ شقنا الذي جعل نفسه عبد الله بن محمد. ولقّب نفسه بالفاطمي.

@ كانت «حلل» تنصت إليه باهتمام بالغ، وأهمّها أن تراه على ذلك النحو من الضيق والاغتمام والغضب.

مسحت على ظهره بحنو، ثم التمع في ذهنها خاطر، فقالت:

- هؤلاء القوم الذين غرّر بهم فاتبعوه.. قد جاءهم فرداً من مكناسة، فهانَ عليه أن يدّعي له نسباً في آل البيت. ولكن، ألم يخلّف أقارب له في مكناسة؟ أباً، أماً، أخاً، ابن عم؟

اكتسى وجه عبد الرحمن بملامح التفكير، ثم رفع رأسه إلى حلل بنظرة إعجاب وتقدير:

- بلى والله لماذا لم يخطر هذا لي؟

قالت مبتسمةً:

- لتعرف فضلي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجع رسل عبد الرحمن من مكناسة بشيخ محنيّ الظهر، زائغ النظرات، لم يكن غير أبي شقنا، عبد الواحد.

قام إليه عبد الرحمن يتفحّصه، ثم قال:

- قد علمت أيها الشيخ لماذا بعثنا إليك من جاء بك من عدوة المغرب.

هزّ أبو شقنا رأسه وقال:

- لا أدري ما الذي حلّ بولدي أيها الأمير، قد اجتهدت في تربيته ما استطعت، ولم أرج إلا أن يكون فقيهاً ومعلّماً. قد أطغاه الشيطان يا سيدي فصرفه عن الحق، وإنه ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، ويحتال لكل رجل على قدره وَحَدّ حاله. فيا لتعسي بولدي شقنا! كيف أطاع شيطانه!

قال عبد الرحمن:

- بيدك أنت أيها الشيخ أن تردّه عن ضلاله، وتصرفه عن باطله، وبذلك تنجيه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وتحقن دماء المسلمين.

- أنا رهن أمرك يا سيدي.

أحاط عبد الرحمن حصوله على والد شقنا بالكتمان الشديد، وبدأ زحفه من جديد إلى المناطق التي يسيطر عليها شقنا. وكان يعلم أنه كعادته لن يتلبث في «شنت بريّة» حين يعلم باقترابه.

ولم تكن أخبار زحف الداخل لتغير من عادات شقنا في التمتع بخيرات فردوسه الأرضي وحورياته، قبل أن يخرج من دار الإمارة في «شنت بريّة» إلى الجبال في الوقت المناسب. فإذ كان يسير في أحد الأروقة متوجهاً إلى غرفة زوجه عائشة، انفتح باب جانبي، وامتدت يد ناعمة جذبته إلى الداخل، في اللحظة التي أطلّت فيها عائشة من آخر الرواق، لتشهد المنظر. وزادها ضيقاً أن تسمع ضحكة الجارية من وراء الباب.

قال شقنا للجارية:

- هذه ليلة زوجي.

أجابت الجارية بدلال:

- أنت كالدنيا، لمن غلب.

قال:

- والعدل؟

قالت:

- انظر إليّ، ثم اعْدِل إن شئت!

بعد لحظة صمت قال:

- هذا إكراه الجمال والفتنة. ولا إثم على من أُكرِه.

وأطلقت الجارية ضحكة أخرى:

- ليس أجمل مني إلّا فقهك يا سيدي!

الآن، ضحكا معاً.

سمعت عائشة ذلك كلّه، ولما عادت إلى غرفتها، انطرحت على السرير تنتحب.

لما دخل عليها شقنا أخيراً بخفة وهدوء، كان الصبح قد تنفّس. وكانت مضطجعة على جنبها الآخر بحيث لا يرى وجهها. أرسل إليها نظرة. وبعد لحظات صمت قالت دون أن تتحوّل إليه:

- إنه الفجر.

قال:

@ - نعم. أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين.. ولكن.. كأنك لم ترقدي!

- كيف أرقد وأنا أنتظر سيدي.

- آه، نعم. شغلني أصحابي بالسؤال والفتوى، فما تفطنت حتى كان الليل قد انقضى، فقمنا للصلاة.. ثم..

قاطعته:

- عمّ كانوا يسألون؟ فتنة الدنيا؟ وحكم المُكْرَه؟

فهم المغزى، ولكنه تجاهل الأمر،وقال:

- أريد أن أرقد قليلاً.. قبل الخروج.

استدارت بجسمها نحوه لأول مرّة:

- الخروج؟ إلى أين؟

- ابن معاوية.. عاود الزحف إلينا..

اعتدلت جالسة:

- وإلامَ نبقى هكذا، لا نلبث في مكان حتى نخرج منه؟

- البركة في الحركة.. ومن زادت خطواته زادت حسناته.

قالت وهي ترمقه بنظرات مشوبة بالشك:

- وربّما زادت عثراته!

قال متضجّرا:

- لا تكثري السؤال. فما أهلك من كان قبلنا إلّا كثرة السؤال، والراحة في التسليم.

- لمن؟

- لله، وللإمام الذي استودعه الله سراً وحكمة لا يحيط بهما غيرُه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحاط عبد الرحمن وعسكره بالجبل الذي اعتصم به شقنا بين جبال منطقة بلنسيّة عام ست وخمسين ومائة للهجرة. وكان مع عبد الرحمن بدر وأبو عثمان. وصاح شقنا من على الجبل وقد أحاط به عدد

من أصحابه:

- هل خيبك الله يا ابن معاوية؟ هذه ستة أعوام ولم تصنع شيئاً. خرجت لي بنفسك مرة إثر مرة، ثم أخرجت صاحبك هذا المدعوّ بدراً، فلم يكن حظه خيراً من حظك.. ثم أخرجت لي شيخ مواليك أبا عثمان الذي وطّأ لك هذه البلاد، فأفْسدتُ عليه عسكره، ثم حزت معسكره بكل ما فيه من المال والمتاع.. (كذلك وأورثناها قوما آخرين). وبذلك ثبت للناس عجزك كما وعدت، وثبت لهم صدقي، وقام عليه دليل الزمن.. أفلا تقرّ بالحق وتصدع به، وتبايعني؟ فإن فعلت، ربما ترفقت بك، وعفوت عنك، وأذنت لك بالخروج من بلدي إلى عدوة المغرب بأهلك ومالك. فما قلت؟

صاح عبد الرحمن:

- حين دخلنا الدار التي تنزل فيها في «شنت بريّة»، وجدنا إناء خمر. فلمن هذه الخمرة يا شقنا؟

ردّ شقنا مصححاً.

- عبد الله بن محمد.

- كما تشاء.. ما تفعل بتلك الخمر.

تلفت أصحاب شقنا فيه مترقبين جوابه، ولكن شقنا دارى حرجه، وصاح:

- هذه بقية خمر ولاتك الذين أقاموا في الدار ودنّسوها بفسقهم.

رد عبد الرحمن:

- لو كان ذاك، أفما كنت تستطيع أن تطهّر مكانك من الدنس، وأنت كما تزعم الإمام الفقيه؟

كان ردّ شقنا حاضراً:

- ما كانت عيني لترى الحرام.. قد حجب الله سمعي وبصري عنه.

هزّ عبد الرحمن رأسه يميناً وشمالاً، ثم صاح من جديد:

- قلت: عبد الله بن محمد، من آل بيت رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-.

- على رغم أنفك.

- وما دليلك؟

- قد أشهدت الناس دليلي. رقعة ورثتها عن آبائي فيها سلسلة نسبي حتى الحسين بن عليّ، وعليها توقيع الشهود.

@ هنا التفت عبد الرحمن إلى أصحابه وراءه، وأومأ لهم، وما هي حتى أبرزوا أبا شقنا عبد الواحد الذي كانوا يخفونه من ورائهم.. وقدمه عبد الرحمن أمامه وصاح:

- فمن هذا الرجل؟

دقق شقنا النظر من مكانه، ولأول مرّة لا يستطيع أن يداري اضطرابه الشديد، وبدا كأن صاعقة قد ضربته. وأخذ أصحابه ينقّلون البصر بينه وبين الشيخ المحني الظهر الذي يتوكأ على عصا، أدنى الجبل أمام عبد الرحمن وصحبه.

صاح عبد الرحمن من جديد:

- لماذا تصمت الآن؟ أليس من دين الرجل إذا لقي أباه أن يحسن تحيته؟

سمع شقنا غمغمات أصحابه من حوله، فزاد ارتباكه، بينما تابع عبد الرحمن:

- أبوك.. عبد الواحد.. يا شقنا بن عبد الواحد. بعثنا من جاءنا به من مكناسة، ليكشف ضلالتك، ويردّك عن غيّك، ويدعوك إلى التوبة إشفاقاً عليك. فإن أجبت عفونا نحن عنك، وأذنّا لك بالخروج إلى عدوة المغرب آمناً مع أبيك.

بقي شقنا متجمَّدا في مكانه لا يحير قولاً. بينما خاطب عبد الرحمن والده:

- أيها الشيخ، نحن على عهدنا لك. أخبر هؤلاء الناس الذين أضلّهم ولدك أنك عبد الواحد.. وأن ولدك هذا اسمه شقنا.. وأنكما من قبيلة مكناسة في المغرب.. هيا انصحه وانصحهم، لتنجيهم من عذابنا في الدنيا، ثم من عذاب الآخرة.

تقدّم والد شقنا بضع خطوات، وأرسل بصره إلى الأعلى. وران الصمت على الجميع مترقبين. ثم استجمع الشيخ كل ما بقي عنده من قوّة وصاح بصوت قويّ لا يتناسب مع ضعفه وكَبْرته:

- يا ولدي.. يا عبد الله بن محمد.. اثبت يا ولدي على الحقّ، فإنك منصور، ولقد ابتلي من كان قبلك بالسّراء والضراء فما وهنوا وما استكانوا.

انقلب الحال في لحظة واحدة، فبدا عبد الرحمن الآن كالمصعوق، وبينما ارتفع اللغط من حوله ومن خلفه، وأدركوا أن الشيخ قد خدعهم دون أن يباليَ بالعاقبة، ارتفعت التكبيرات من صوب شقنا وأصحابه، تُرَدِّد صداها الجبال، تلاها هتاف عارم:

- ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

لم يسكتوا إلّا حين رأوا عبد الرحمن يومئ لبعض جنده ليدفعوا الشيخ ثم ينزلوه إلى الأرض على ركبتيه، وأخذ شقنا ينظر وقد اعتراه القلق الآن. وصاح عبد الرحمن:

- كان عهدنا إليه أن يهديك فيحييك، فغلب عليه شيطانه وشيطانك. والآن وقد نكص على عقبيه، وأرانا أن الثعبان لا يلده إلّا ثعبان، ندعوك أنت يا شقنا أن تحيي أباك إذا شئت. فقد علمت أني قاتله بعد نقضه العهد.. ولكن اعترِف بكذبك، وأعْلِن التوبة والطاعة الآن، وأنا أعفو عنك وعنه، وتنقذ أباك.

رانَ صمت طويل.. وبقي شقنا في مكانه وقد تصلب وجهه، وتجمّدت عيناه.. ولما يئس عبد الرحمن منه أومأ إلى أحد الجند، فأهوى بسيفه على الشيخ عبد الواحد، فتدحرج رأسه أمامه.

حاول شقنا أن يسيطر على عضلات وجهه التي أخذت ترتجف على الرغم منه. و أخيراً صاح:

- دم أبي لعنة عليك.

ردّ عبد الرحمن:

- بل لعنة عليك إلى يوم الدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أشبه بمن يتخبّطه الشيطان من المسّ، أو عرض له عارض من الجنون، وهو يضرب برأسه على الحائط في غرفة من غرف حصن «شيطران» فوق أحد الجبال، وكان من الحصون التي يعتصم بها في تنقلاته الدائبة. وكانت آنية الخمر متفرّقة في المكان وقد أفرغها جميعاً في جوفه. وما زال يطرق رأسه بالحائط حتى تلطخ بدمه وهو يخاطب نفسه خطاب من ضيّعت الخمرة وجنون الفاجعة عقله:

- أبي.. أبي.. ما الذي فعلتَه يا شقنا؟ كيف أسلمتَ أباك للقتل؟ ولكن.. هل كان بوسعي أن أعترف بالحقيقة وأنه عبد الواحد وأنا شقنا بن عبد الواحد، فأنقض في لحظة واحدة كلّ ما صنعت، ولا ينفضّ الناس من حولي حتى يتناهشوني بسيوفهم قبل أن أسلم نفسي لابن معاوية؟ ولكن، أليس أبي هو من أرادني أن أثبت على زعمي حين أقرّني عليه، وهو يعلم أنه يُهلِك نفسه بذلك؟ بلى.. هو كذلك.. قدّم نفسه للقتل وهو يعلم أنه شيخ كبير قد استوفى أجله على كل حال، لكي يسود ولده بعد فقر وخمول.. كان ذلك خيارك يا أبتِ، وأنا أطعتك. @ولكني أعدك ألا يذهب دمك هدراً، سأقتل ابن معاوية وأقطعه إرباً وأوزع أشلاءه بين الجبال لتأكلها الطير. دم ابن معاوية اللعين بدم أبي عبد الواحد!

أحس حركة، فالتفت نحو الباب ليلمح عائشة تطلّ منه وتسمع وترى. وإذ رأت أنه تنبّه إليها أسرعت في الاختفاء.. ولَحِق بها مترنحاً. ورآها تهرول في آخر الرواق، حتى غابت في حجرتها فاندفع داخلاً وراءها وهو يتعثّر، فوجدها ملتصقة بالحائط تنظر إليه بعينين جامدتين من الرعب.

- تتجسّسين عليّ وأنا في خلوتي؟

أجابت بصوت مرتجف:

- أردت أن أطمئن عليك.. لم.. لم أسمع ولم أرَ شيئاً.

أمسك بذراعها وضغط بشدّة حتى انقبض وجهها من الألم، واقتحم عينيها بنظرة قوية وقد انتفخت عيناه المحمرّتان:

- بالطبع، لم تسمعي ولم تَرَيْ شيئاً. هاتان العينان الجميلتان لم تخلقا لتبصرا غير الظاهر. والظاهر حجاب الباطن.. الظاهر منتهى علم العامّة، والباطن علم الواصلين الذين وقع عليهم الاجتباء والاصطفاء. وإذا حصل الاصطفاء، سقطت تكاليف الابتلاء. فللعامة أحكام الظاهر، وللعارفين أحكام الباطن.. وعِلْمنا علم الصدور، يأخذه الحيّ عن الحيّ؛ وعلمكم علم السطور يأخذه الحيّ عن الميّت.. فهل يستويان؟ هه.. هل يستويان؟

قال ذلك وهو يهزّها بشدة، وهزّت رأسها بالموافقة خوفاً وهي منكمشة على نفسها.. وتابع:

- ومن أمعن منكم النظر في ضوء الشمس، عشي بصره، وكان النور عليه عمىً، ومن تقحّم نارنا، ولم يأخذ لها عدتها، احترق بها. فهي عليكم سعير، وهي علينا برد وسلام. ومن غطس في بحرنا، ثم تكلم شرق بالماء واختنق! هل تفهمين؟ شرق بالماء واختنق.

هزّت رأسها بالموافقة من جديد، وقد أدركت معنى التهديد والوعيد في كلامه، كان ما يزال يمسك بذراعها بقوة.. ثم تغيّرت ملامح وجهه وانفردت أساريره مبتسماً.. وأفلت ذراعها، وقادها من كتفها إلى السرير:

- والآن، أعطيك قبساً من ناري التي لا تحرق إلا لتضيء، ثم أنْزل بك إلى أغوار بحري لتَرَيْ من عجائبه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت.. فقط أسلمي نفسك للماء، وتعلّقي بي.. ودعي السؤال والكلام.

ألقاها على السرير، وخلع رداءه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربع سنوات أخرى على ثورة شقنا، وما زال سيد تلك الجبال الشاهقة. وها هو الآن يجلس على بساط غليظ جلسة العارف المتنسّك، أمام جمع من أتباعه ومريديه من الرجال والنساء في وسط ساحة في حصن «شيطران»، وكانت النساء يجلسن وراء صفوف الرجال. وقد تغيّر الآن سمت «شقنا» فطالت لحيته واعتراه بعض الشيب، حتى غلب مظهر الهيبة على الوسامة. وكان قد خصّص يوماً في الأسبوع لدرس يلقيه على الرجال والنساء معاً في ساحة الحصن.

-.. والعقل حجاب العامّة، فقد صُنِع لمعرفة الظاهر، والظاهر ستار، فإذا مات ابن آدم، كشف عنه حجابه، فأدرك الحق بغير واسطةٍ من سمع أو بصر. أما العارف الذي اختصّه الله، فينكشف حجابه في الحياة قبل الموت. وإذا كانت هذه الكرامة خاصّة به دون العامّة، فقد صار على مريديه وأتباعه أن يَكلوا أنفسهم إليه، يرى لهم ما لا يرون، فقوله وفعله الحق الذي يدور معه أنّي دار، فبه يعرف. وكان على مريده ألّا يسأل، وألّا يُنزل على سيّده العارف حكم الظاهر فيضلّ ويشقى، ويتسلل الشيطان إلى قلبه من جهة سؤاله، وما يزال به حتى يوقعه في الشك. فإذا وقع فقد هَلَك. أرأيتم إلى صاحب موسى عليه السلام كيف قال له: (فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا). ثم خرق السفينة، ثم قتل الصبي، ثم وجد جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه، وذلك في قرية أبى أهلها أن يطعموهما. وكل ذلك مخالف لحكم الظاهر. ولذلك أنكر عليه موسى عليه السلام ، حتى

أحدث له صاحبه منه ذكراً، فبيّن له أنه لم يفعله عن أمره، وفي هذا حكمة بالغة، ومعنى بعيد الغور، لا يدركه إلّا سعيد محفوظ.

في أثناء كلامه، كان قد وقع بصره على امرأة بارعة الجمال بين النساء، وكانت ترتدي ثوباً أصفر اللون.

مضى شقنا على بغلته «الخلاصة». وكان مريده داود يمسك بلجامها، ومريده الآخر كنانة متعلّق بطرف السرج. وكلما مرّ بهم بعض أهل الحصن توقفوا عن المشي ونكسوا رؤوسهم تعظيماً حتى يجاوزهم.

وكان لبعض الناس نصيب من بركة بغلته، فإذا ألقت بروثها تسارعوا وتدافعوا لالتقاطه!

@ فجأة سأل شقنا مريده كنانة:

- تلك المرأة التي كانت تجلس إلى الطرف من جمع النساء! وكان عليها ثوب أصفر. كانت تحسن الإصغاء، ويظهر عليها الخشوع. وقد رأيت فيها علامات القبول والصفاء.. هل تعلم من هي؟

بدا الارتباك على وجه كنانة، قبل أن يجيب:

- إنها زوجي يا سيدي.

-أم م.. ما سألتك إلّا وكنت أعرف الجواب! كما قلت، وقع عليها القبول والاصطفاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في غرفة معتمة من غرف الحصن، جلس شقنا على الأرض، وقد ضم ساقاً على الأخرى، وأغمض عينيه فيما بدا أنه في حال من التأمّل والرياضة الروحيّة.

دخل كنانة بهدوء تام، ووقف منتظراً. وبعد هنيهة، فتح شقنا عينيه ونظر إليه، قال كنانة:

- طلبتني يا سيدي؟

- تعال يا كنانة.. اجلس هنا.

وأشار أمامه مباشرة. فلما جلس كنانة حيث أشار، قال شقنا:

- قرّب ركبتيك إلى ركبتيّ.

زحف كنانة حتى لامست ركبتاه ركبتي شقنا. ثم نظر شقنا في عينيه بنظرة خارقة، وقال:

- ماذا ترى يا كنانة؟

- أرى الحق يا سيدي.

- عَرَفتَ، فالزم!

مرت لحظة صمت مهيبة، قبل أن يتابع شقنا:

- أرَأيتَ لو أني أمرتك أن تَفْديَ شيخك بنفسك؟ هل تفعل؟

- من فوري يا سيدي.. مُرْني، فداك أبي وأمّي.

- أرأيت إلى القتال يا كنانة! أُمِرنا به وهو كرهٌ لنا. فهل نعصي أمر الله ونفرّ من الكريهة طلباً للسلامة؟

- بل نصدع بالأمر، ونقاتل.

- وإن كان كرهاً لنا. قل لي يا كنانة: هل أعزّ من المال والأهل والولد؟

- لا يا سيدي، إلّا طاعة الشيخ.

- صدقت. قل لي يا كنانة: هل يصح الإيمان إلّا بالصبر على الابتلاء؟

- لا يا سيدي.

- وهل يقع الابتلاء إلّا فيما نحب؟

- لا يا سيدي.. بل فيما نحب.

ثم تلا كنانة قوله تعالى: (ولنبلونكم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات).

قال شقنا:

- وما جزاء من أُمِر فأطاع، وإن كان في طاعته ابتلاء ومكروه؟

- جزاؤه الرضا والجنة، وما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- إذن سألقي عليك يا كنانة قولاً ثقيلاً. وهو على نفسي أثقل، وفيه ابتلاء لي أكثر مما هو لك. ولولا أنه الحق لضاق به صدري وناء بحمله ظهري، ولكني أصدع به. لقد رأيت يا كنانة رؤيا حق.. زوجك.. قُضِيَ أن نجمك لا يوافق نجمها، وأن دمك لا يخالط دمها إلّا كما يخالط الزيت الماء، فإن بقيت على ذمتك كانت وبالاً عليك، وكنتَ وبالاً عليها. وإذا أعقبت منها على هذه الحال ولداً، خرج بعاهة تلازمه. وإذْ قُضي أن تطلّقها رحمةً بنفسك وبها وبعقبك، فقد قُضي أيضاً أنها لا تصلح بعدك لرجل دونك، إلّا أن يكون رجلاً فوق منزلتك. وأنت أعلى أصحابي وأشياعي في الرتبة والمنزلة!

تأمله من جديد متفحَّصا، ثم أعقب:

- تعلم إذن من قُضِيت له بعدك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت بأن الأرض تنشقّ من تحتها وتهوي في جب عميق مظلم، قبل أن تنطرح على الأرض، تنتحب وتولول وتضرب صدرها وركبتيها:

- لا أصدّق هذا.. كذِّب سمعي يا كنانة.. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. قل: إني في حلم مخيف.. أيقظني منه قبل أن ينقطع نَفَسي وينخلع قلبي ويُجْهَزَ عليّ!

بقي كنانة صامتاً واجماً مشيحاً عنها. وعادت تتوسّل:

@ - قل شيئاً يا كنانة.. إنني زوجك.. وأنت أحب خلق الله إليّ.

قال أخيراً بصوت مختنق:

- وأنتِ والله أحب شيء في الدنيا إليّ.. ولكننا مأمورون.. وهي المشيئة.

- مشيئة من؟

- مشيئة الله.

- كيف نعرف مشيئة الله ولا يُوحى إلينا؟

- الإمام أعلم. رؤياه حق وأمر.. وإنه ابتلاء الإيمان واليقين.

- الموتُ أهون.

- الابتلاء على قدر الإيمان.

- تتخلّى عني يا كنانة؟ عن زوجتك «سميّة»؟

- بل أفارق قلبي ونفسي والدنيا كلّها.

التفت إليها، ونظر بوجه مفعم بالحزن والمحبة والإشفاق.

- سميّة! والله لو كان غير هذا لقاتلت أهل الأرض كلهم عنك. ولكن..

أطرق لحظة، ثم رفع رأسه وقال:

- أنت طالق.

ارتفع نحيبها، وخرج من المكان بسرعة.

وإذ وصل إلى مكان خالٍ من الناس في الحصن، نزل جالساً، ووضع رأسه بين يديه، ثم غلبه النحيب والنشيج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كان شقنا في حجرته الخاصة يرتدي ثياباً جديدة حسنة، اقتحمت عليه عائشة وقد طغى عليها الانفعال الشديد:

- فعلتها يا شقنا؟ غرّرت بصاحبك وغلبته على زوجه؟

تطاير الشرر من عينيه وهو يحدّق فيها:

- شقنا! تقولين شقنا!

كان قد بلغ بها الآن أن تحرّرت من خوفها منه، ولم تعُد تأبه ما يصنع بها:

- ليس عليّ يا شقنا.. إنني أعلم سرّك.

دفعها بعنف إلى الحائط، وضغط على صدرها:

- ومن باح بالسرّ اختنق به!

قالت متحدية:

- هيا اقتلني إن شئت.. قد ذهب سحرك عني.. هيا.. افعل بي ما شئت.. ألا تعلم أن الناس بدأوا يتساءلون ويتهامسون؟ وما يلبث أول الشك أن يصير يقيناً.. عجّل بذلك عليهم واقتلني.. غلب صاحبه على زوجه، وقتل زوجه..

ثم تحوّلت بلهجتها إلى التهكم:

- وكل ذلك من أمر الغيب الذي حُجب عن الناس، وكُشف للإمام! ولكنه لا يحتجب إلى الأبد إذا كثر السؤال وزادت أسبابه، وذهب السحر، وانقشع الوهم.

زاد من ضغطه على صدرها، ثم ما لبث أن أرخى يده.. وهزّ إصبعه في وجهها:

- لكل أجل كتاب.. لكل أجل كتاب.

وخرج مسرعاً، وهي تشيّعه بنظرات مفعمة بالحقد والازدراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

في منية الرصافة بقرطبة، اجتمع عبد الرحمن بأعوانه وأهل مشورته، وفيهم بدر، وتمام بن علقمة، وثعلبة بن عبيد، ويوسف بن بخت.

وقد دخل الآن عام ستين ومائة للهجرة. ومضى على حكمه في الأندلس نحو اثنين وعشرين عاماً، وعلى ثورة شقنا عشرة أعوام كاملة، كادت تشغله عن خططه في عمران البلد. وكان يتمشّى في المكان ويدور على نفسه حانقاً:

- لِمَ تعجزني قيس ولا يمن.. ولا الجلالقة، ولا المسوّدة أنفسهم.. فهل أقول: أعجزني دعيٌّ دجّال كان معلِّماً للصبيان؟

تدخل بدر قائلاً:

- ربما الذي أعيانا منه أنه عدو ليس كغيره من الأعداء.. الرجل له فتنة وسحر.. خلب عقول أصحابه.. فشطْرُهم صدّق دعواه وضلالته واعتقدوا حقاً بأباطيله، فهانت عليهم نفوسهم، وظنوا أنهم إذا قُتِلوا تلّقتهم الملائكة، ورأوا منازلهم من الجنة، وأحاطت بهم حورياتهم.. وأما..

قاطعه عبد الرحمن معلّقا:

- هؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم: (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

أكمل بدر:

- أما الشطر الآخر، فوافقت دعواه أهواءهم وأغراضهم. وهم يرون تلك الأنحاء ديارهم، وهم أحق بحكمها.

قال عبد الرحمن:

- ألا يعون أنها جزء من الأندلس؟

رد بدر:

- تغريهم الجبال الشاهقة بالخروج عن الطاعة. فكلما وجّهنا إليهم بعثاً تركوا القرى واعتصموا بالوعر والجبال، فإذا عدنا عنهم عادوا.. ولا قِبَل لنا بأن نقيم الجيوش هناك طوال العام، فتتكشف الثغور، ويطمع الطامعون في الحواضر.

هنا سُمِع صوت هشام بن عبد الرحمن من جهة الباب:

- عدو مُختلف، يحتاج إلى خطة مختلفة.

التفت الجميع صوبه وهو يدخل ويتقدّم، وأكمل بنبرة واثقة:

- لعل هذه كانت جهة ضعفنا، وجهة قوته. وقد عرفها منذ أول أمره، فعمل بمقتضاها. جيش الدولة لا يحارب إلّا زحفاً ووجاهاً وصفاحاً.. جيش لجيش.. وصف لصف.. وهو يحارب بالغارة السريعة.. نخلي فيتقدم.. نتقدم فيخلي.. فكيف نبلغ منه؟

سأل عبد الرحمن:

- وإذن؟ ما الرأي؟

أجاب هشام:

- لا نبلغ منه حتى نفسد عليه أمره من داخل أصحابه!

انصبّت أنظار الحضور على هشام يرقبون المزيد من البيان والإيضاح.

وقال عبد الرحمن:

- ولكنهم يعظّمونه ويرفعونه فوق البشر.

قال هشام:

- هذه قوته.. وهي كذلك ضعفه. فلأنه عندهم فوق البشر، ولأنهم يرونه معصوماً من الخطأ، فإنه لو ظهر منه لهم مرَّة واحدة خلافَ ذلك، ووقع في نفوسهم الشك، لانهار بناؤه في لحظة واحدة وانقشع الوهم عن عيونهم، وزال السحر، فتحوّل تقديسهم له إلى نقمة جارفة، إذ خدعهم كل تلك السنين عن أنفسهم، وسلبهم أعمارهم في دعوة كاذبة. فإن الناس قد يصفحون عن الرجل منهم، لأنهم يتوقعون منه الغلط، ولا يبرّئون أنفسهم منه. ولكنهم لا يصفحون عمن رفعوه إلى مقام الصدّيقين، حين يتبيّن لهم ضد ذلك.

قال عبد الرحمن:

- وكيف السبيل إلى كشف كذبه وباطله؟ وقد حاولنا وجئنا بأبيه، فكان شرًّا منه، وانقلب مكرنا به علينا!

قال هشام:

- كما قال أمير الجيش، بدر. هم نوعان: مَن سُحِر لُبُّه فصدّق الدعوى؛ وصاحب غرض يرى أن أهل تلك الأنحاء أحق بها. وهم من قبائل المغرب، وكان لآبائهم سهم عظيم في فتح الأندلس مع طارق بن زياد. فأما هذا النوع الثاني، فنعطيهم ما يطلبون. نختار كبيرهم في شرقيّ الأندلس، ونولّيه تلك الأنحاء، ونطلب منه أن يستخلصها من الدعيّ له ولقومه. فإذا رأى القوم أن غرضهم قد تحقق برجل يعرفون صدقه ومنزلته وتقدّمه، لم يسعهم إلّا أن يلحقوا به، وينْفَضّوا عن ذلك الدجّال.

هز عبد الرحمن رأسه متفكراً:

- هلال المديوني.. هو كبيرهم شرقيّ الأندلس. وهو رجل عاقل ومقدّم في قومه.. قد والله أصبت يا هشام.

تابع هشام:

- فإذا انفضّ عنه هؤلاء وقاتلوه مع هلال المديونيّ لاستخلاص الولاية منه، صار من همّهم @أن يتتبعوا عوراته، ويكشفوا كذبه، ويُشهدوا على ذلك الشهود. وما يلبث الآخرون الذين بقوا معه أن يتساءلوا: إذا كان مؤيَّداً بالحق، فكيف يخذله كل أولئك الناس؟ وإذا بدأ التساؤل، فهو أوّل نهايته.

ارتسمت على وجه عبد الرحمن ابتسامة عريضة، معتدًّا برأي ولده وحكمته، فربّت على كتفه:

- هذا ولدي هشام!

قال هشام مداعباً:

- لا تُعَظِّم توقعاتك مني يا أبتِ، فإذا أخفقتْ خطتي حاكمتَني بقدرها!

بقدر ما شعر عبد الرحمن بالفخر والاعتزاز بولده هشام، لم يسعه في أعماق نفسه إلّا أن يقارنه بأخيه الأكبر سليمان الذي كان على الضدّ منه في كل شيء، فيفضّل مجالس اللهو والسمر مع أصحابه وأبناء عمومته، على مجالس العلم والرأي والسياسة التي يلزمها أخوه. ولم تفلح محاولات عبد الرحمن المكرورة في نصحه وتوجيهه وحمله على طريقة أخيه. فخلّف ذلك في نفسه شعوراً دائماً بالأسف والأسى والإشفاق عليه. فقد كان يحبه حباً جماً زاده أنه حُرِم منه بضع سنين حين خلفه وراءه في الشام، قبل أن يرسل من جاء به مع سائر أهله. فأراد أن يعوِّض نفسه ويعوِّضه عن سني الغياب والفُرقة. ولكنه لم يجد منه ما كان يؤمّله، وبدا أن بينهما فجوةً لا يردمها شيء من الحنان والعطف والرعاية. وها هو أخوه هشام يثبت في كل يوم جدارته وجِدِّه وحكمته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت الخطة التي اقترحها هشام تؤتي ثمارها. فقد انحاز معظم الناس في تلك الأنحاء إلى واليهم الجديد هلال المديوني، وهو منهم والمقدَّم فيهم، وقد عرفوا صدقه وحرصه على قومه وسداد رأيه. وما هي حتى بدأ الكثيرون من أتباع شقنا ينفضّون عنه، ويلحقون بشيخهم وأميرهم المديوني الذي تمكّن من السيطرة على معظم تلك الأنحاء، ودخلت في طاعته وطاعة من ولّاه إياها: أمير الأندلس، عبد الرحمن الداخل. وكان مما شجعهم على مفارقة شقنا أنهم ملّوا حياة التنقل الدائب معه من موضع إلى آخر، فلا يتلبثون في مكان حتى يأتيهم الأمر بالخروج. واشتاقت نفوسهم بعد هذه السنين إلى الاستقرار في منازلهم وقراهم، وفي أهلهم وبنيهم. فطريقة الحياة مع شقنا ليست بالتي تصلح للأهل والولد.

وبذلك ضاقت تلك الديار بشقنا، وضاقت حركته، حتى انحصر في حصن «شيطران» مع من تبقّى معه، أو تباطأ عمن سبقوه وهو يحدِّث نفسه بالخروج. فبدت ساحات الحصن كئيبة موحشة. وبينما كان بعض الرجال يجلسون في جانب منزوٍ من الحصن، يتهامسون في أمر الخروج منه، ظهر من

بعيد كنانة يمشي وحده وقد تبدّل حاله، حتى كأنه اكتهل مرة واحدة. وبدا في حالة مزرية، يمشي حاني الظهر، وقد تشعثت لحيته وشحب وجهه، واتسخت ثيابه، واشتعل رأسه شيباً في بضعة شهور.

وكلّما مرّ قريباً من بعض الرجال، تحاشى نظراتهم، وسمع تهامسهم، فإذا تجاوزهم تناهت إلى سمعه بعض الضحكات المنفلتة، فازداد وجهه انقباضاً وبؤساً.

أما جماعة الرجال الذين كانوا يتهامسون جالسين فيما آلت إليه أحوالهم، ويتبادلون الرأي في مفارقة الحصن، فقد توقفوا عن الكلام وذهبت أبصارهم إلى كنانة الذي بدا لهم أنه قد ضيّع عقله، وبدأ يحدِّث نفسه. فرأوا فيه حجة أخرى على إمامهم الكذّاب، وعلى ضرورة مفارقته. وإذ مرّ كنانة قريباً منهم، قال أحدهم:

- وهذا حجة أخرى.. فإن الرجل منا لم يعد آمناً على حُرَمِه.

سمع كنانة كلام الرجل، فازداد همًّا وبؤساً، وكان صاحبه داود قد لحق به وسمع الكلام، فصاح بالقائل:

- اصمت، قطع الله لسانك.

قال أحدهم:

- والله، ما نحن إلّا مشفقين على صاحبك.. وهو كذلك صاحبنا.. انظر إلى حاله؟ أهذا أثر البركة؟

وقال آخر:

- إن الله غيور على حرم دينه، ويحب الغيور من عباده على حرمه.

صاح داود من جديد:

- قلت لكم اصمتوا، واتقوا الله. لا يسمع الإمام بنفاقكم، فيلعنكم لعنة تلزمكم إلى يوم الدين، وقد تصيبنا معكم.

قال أحدهم بأسلوب تهكمي مبطّن:

@ - أما النفاق فقد ظهر مكانه. وأما الإمام فلا تخشَ أن يسمع بحديثنا، فمنذ بنى بطليقة صاحبك، لم يعد يخرج إلينا إلّا لماماً.. قد استغنى بها وخصّها ببركاته!

هنا هجم كنانة على الرجل وقد جنّ جنونه، وعلى الرغم من ضعفه ونحوله الطارئ، استجمع كل قوته ليبطش به، لولا أن الآخرين حالوا بينهما، ودفعوه بعيداً فسقط على الأرض، وأسرع داود وأخذ بيده ورفعه واقفاً على الرغم من اهتزاز ساقيه. وقال أحد الرجال:

- دعوه. إن كان سعيداً بهذه الحال، فذلك شأنه. لا نكون أغْيَر منه على صاحبته. والآن قُضِيَ الأمر.. أنا خارج بنفسي من هذا الحصن الكئيب، فمن شاء لحق بي.

وقام، ولحق به الآخرون. وتخلف داود وكنانة الذي وضع راحتيه على عينيه، وغلب عليه البكاء. ربّت داود على كتفه مواسياً:

- لا تترك كلامهم يؤثر في نفسك فتشقى.

قال كنانة:

- وهل بعد هذا الشقاء شقاء؟

رفعه داود متلطفاً ليتابعا السير وأسنده إليه.

وحين بلغا مكاناً قريباً يتصل بزقاق ضيق، سمعا صوتاً أنثوياً هامساً يستوقفهما دون كلام.

كان ثمة امرأة منتقبة لا يظهر وجهها، فأخذتهما الحيرة، حتى كشفت عن وجهها. هتف داود متعجباً:

- زوج الإمام عبد الله؟

همست عائشة:

- تعني شقنا بن عبد الواحد.. نعم، زوج شقنا بن عبد الواحد التي اطَّلعت على سرّه وتخلّصت من سحره، وعرفت حقيقته وخباياه التي خَفِيت عليكما، لا سيما هذا المسكين!

وأشارت إلى كنانة الذي تنبهت ملامحه الآن، وقويت نظراته.

أعادت تغطية وجهها بالنقاب، وتلفتت حولها، ثم استخرجت من جراب معها رقعة نشرتها أمامهما:

- انظرا ودققا النظر. ما هذا؟

بعد أن حقق داود النظر، قال:

- هذا كتاب من الإمام إلى بعض أصحابه في «شنت بريّة»، قد كتبها أمامي.

قالت عائشة:

- إذن، قد عرفت خطّه.

ثم استخرجت رقعة ثانية طويلة، هي رقعة النسب التي لَفّقها شقنا. ونشرتها كالسابق:

- ما هذه؟ انظرا.

بعد لحظة تدقيق ونظر، قال داود:

- رقعة نسبه!

ثم عرضت الرقعتين معاً أمامهما، وسألت:

- ما الذي تلحظانه أيضاً؟

دققا النظر من جديد، ثم قال داود، وقد فطن إلى واقع الحال:

- خطّه! الخط نفسه!

قالت عائشة بارتياح:

- أخيراً كُشِف عنكِ الحجاب حقاً. ولكنه ليس حجاب العقل كما يقول، بل الحجاب الذي ضربه هو على العقل. نعم.. خَطُّه بنفسه، لا كما يقول بأنه ورثه عن آبائه، أباً عن أب، حتى انتهى إليه.

تبادل داود وكنانة نظرة عميقة وقد تجمّدت ملامحهما من أثر الصدمة وانقشاع الوهم الطويل، بينما تابعت عائشة:

- أما الخمرة المحرّمة التي لا يرتوي منها في سرّه، فسأريكهما إياها الليلة، حين يوغل الليل، ويصرعه السُّكْر، وينام الرقيب، فأدخلكما من الباب الذي هو خلف الدار.

وقبل أن يخرجا من الصدمة الصاعقة، كانت قد انصرفت مسرعة، وغابت عن أنظارهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في سكون الليل وعتمته، وصل كنانة وداود إلى الباب الخلفي، وهما يمشيان على رؤوس أصابعهما، وانشقّ الباب، ودخلا.

قادتهما عائشة بخفة وهدوء تامَّيْن عبر الرواق إلى حجرة شقنا الخاصة وشقّت الباب بحرص.

@ كان شقنا نائماً على الأرض، مضطجعاً على جنبه إلى الجهة الأخرى من الباب، وقد ذهبت السُّكرة بحواسّه كلها.. وكانت آنية الخمر إلى جانبه.. وحين اقترب الرجلان منه، رفع داود إبريق الخمر وشمّه، ثم قرّبه من أنف كنانة..

في هذه اللحظة، انقلب شقنا على جنبه الآخر، وفتح عينيه، فسقط إبريق الخمر من يد داود.. دقق شقنا النظر، ثم قال بلسان ثقيل:

- أنتما؟ ما تفعلان هنا؟ من أدخلكما عليّ؟

ثم التقط بصره عائشة واقفة عند الباب، تنظر إليه مع ابتسامة غامضة.

أخذ شقنا ينقل بصره بنظرات زائغة، مرتبكاً حائراً يحاول أن يتعقّل الموقف. ثم سمع صوت داود يأتي من مكان بعيد:

- جئنا لنريحك يا سيدي.. لا أرى وسادة تحت رأسك.

أخذ داود وسادة، وجلس القرفصاء عند شقنا..

- أرح رأسك على هذه الوسادة يا سيدي.

جاهد شقنا ليرفع رأسه قليلاً، ولكن بدلاً من أن يضع داود الوسادة تحت رأسه، وضعها فوق وجهه، وأخذ يضغط بكل ثقله. وفي الوقت نفسه، استلّ كنانة خنجره.. وللحظات قصيرة ارتجفت يده متردداً، ثم نزل بالخنجر على شقنا الذي كان يقاوم ويرفس بساقيه. وتوالت طعنات كنانة بأسلوب جنوني وهو يبكي وينتحب، كأنه لا يكتفي من الطعن في كل جزء من جسم شقنا، حتى استوقفه داود، وقد سكن جسم شقنا تماماً.

- كفى.. شبع موتاً.

توقف كنانة أخيراً. والخنجر بيده يقطر دماً..

وفجأة رفع شقنا رأسه بعينين جاحظتين مرعبتين، كأنه يتحدّى الموت ويدافع عن خرافته. ومن الفور نزل داود بالوسادة على وجهه يضغط بأقصى قوّته، بينما استأنف كنانة الطعن بوحشية أعظم من السابق. وغرق جسم شقنا في بركة من الدم. وأخيراً توقفا.. وأخذ داود يرفع الوسادة ببطء وكأنه يتخوّف أن يفزّ إليهما من جديد. ولكن عيْني شقنا كانتا الآن جامدتين جاحظتين..

ظلّا لحظات أخرى جالسين عنده ينظران ويرتجفان. ثم حملا نفسيهما على الوقوف بصعوبة. وتقدّمت عائشة ووقفت على جثة شقنا تتأمّله، ثم قالت:

- إنه ينزف ككل الناس.. ويموت مثلهم..ولكنه كان يحتاج إلى امرأة مكلومة مهانة كي تكشف الحجاب!

هنا سمع الجميع صوت امرأة أخرى تقول بصوت مرتجف:

- ما الذي فعلتموه؟

رأوا سميّة عند الباب تنظر مصعوقة إلى حيث جثة شقنا، بوجه متصلّب وعينين جامدتين.

هتف كنانة:

- سميّة! انقضى الأمر، وذهب الوهم.. كشفنا حقيقته.. كنا.. كنا.. غرّر بنا الشيطان فسلب عقولنا.. الآن ظهر الحق وزهق الباطل.. قتلناه.. قتلته.. انتهى الكابوس الذي توهّمنا أنه رؤيا الحق.. سامحيني.. أنت الآن لي.. ستعودين معي..

في أثناء كلامه، بدت غافلة تماماً عنه وهي تمشي كالمسحور إلى جثة شقنا.. وفجأة نزلت عليه تصيح وتبكي وتولول، وتضمّه إليها حتى تلطّخ وجهها وثوبها بدمه، وتردد:

- عبد الله.. عبد الله.

لم يصدّق كنانة سمعه وبصره وطغى عليه الارتباك والحيرة والصدمة ، وصاح بها:

- إنه شقنا.. لا عبد الله.. قد ثبت لنا ذلك بالدليل القاطع.

استمرت تضمّ شقنا إلى صدرها وتهزّه وتنتحب:

- عبد الله.. شقنا.. لا يهمني.. قتلتم زوجي وسيدي وحبيبي!

ألقى داود نظرة حائرة على كنانة الذي وضع كفيه على رأسه، وبدا الآن أكثر تعاسة وانحطاماً مما كان عليه قبل الآن. قتل شقنا بخنجره، وها هي زوجه الحبيبة التي فارقها مأموراً، فكأن كلًّا منهما فارق الحياة بفراق الآخر، ها هي تقتله الآن بلا سيف ولا خنجر. أم يمكن القول إن شقنا هو من قتله مرتين: حيًّا وميتاً!

وحدها عائشة لم يدهشها الموقف. فقد كانت أعلم الناس بسحره، وقد عاش به، ومات الآن به! ومن يدري، ربما لو خصّها بسحره من دون النساء، لما همّها هي أيضاً أن يكون شقنا عبد الواحد أم عبد الله بن محمد!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

@ أخيراً ها هو رأس شقنا عبد الواحد الذي أعيا الداخل ودوّخ جنده. عشر سنين يطلّ عليه بعينيه الجاحظتين الباردتين في الصندوق الذي حمله إليه داود وكنانة ووضعاه ثم كشفاه أمامه وعند قدميه! وما جاءا به وهما يرجوان الجائزة، إلا جائزة الإمعان في التشفّي في الرجل الذي سلبهما أعز أيام شبابهما!

كان الجوّ احتفالياً حين جلس عبد الرحمن إلى سماط المائدة العظيمة التي صُفَّت عليها أطايب الطعام والفواكه والشراب، ومعه أهله: ولداه سليمان وهشام، وأخوه الوليد، وأبناء أخويه:المغيرة بن الوليد، وعبيد الله بن أبان، وآخرون من بني أمية. وقال عبد الرحمن:

-.. في يوم واحد، صنعت الخيانة بالشقيّ الدعيّ ما لم نصنعه به طوال عشرة أعوام.

علّق هشام مبتسماً:

- الخيانة! تسمّي فعل صاحبيه خيانة بعد أن انكشفت لهما أباطيله؟

وإنما أراد أن يلمح إلى مشورته، وإذ تنبه عبد الرحمن إلى المغزى، استدرك على نفسه قائلاً:

- صدقت.. بل هي الخطة والتدبير.. والفضل في ذلك لهشام.. تالله لكلٍّ من اسمه نصيب.. ولك نصيب من حكمة جدّ أبيك الذي سُمِّيت باسمه.. هشام بن عبد الملك، آخر الخلفاء العظام من بني أميّة.

حاول سليمان أن يداري غيرته، واستَرق ابنا عمّيه المغيرة وعبيدالله النظر إليه، فتحاشى نظراتهما. فلطالما كانا يلمحان له بتقدّم أخيه الأصغر عليه عند أبيه، وقد يصرحان أحياناً، على الرغم من أنهما كانا أكثر من يستدرجه إلى مجالس اللهو والسمر معاً.

كانا يميلان إليه حقاً، فقد نشأوا جميعاً معاً في الشام قبل أن يؤتى بهم إلى الأندلس. ولكن، كان لهم أيضاً مآرب أخرى. فها هو قد بلغ نحو الثلاثين من عمره، وهو الابن البكر، ومع ذلك لم يسمِّه أبوه ولياً للعهد، ولم يأخذ له البيعة بذلك. فما الذي يؤخّره إلّا أن يكون حائراً بينه وبين أخيه هشام؟ وإنهما ليدركان أن حظهما مع سليمان إذا تولّى بعد أبيه أعظم من حظهما مع هشام الذي لا يكنّان له أي مودة، وهو كذلك آثر أن ينأى بنفسه عنهما وعن مجالس لهوهما التي لا توافق مزاجه. فظلّا ينظران إليه نظرتهما إلى الغريب.

علّق الوليد على كلام أخيه الأخير:

- نعم، جدّنا هشام آخر الخلفاء العِظام من بني أميّة في المشرق، أما في المغرب، فأنت أولهم يا أبا سليمان.

قال عبد الرحمن:

- إلّا أنني الأمير، لا الخليفة.

- فما الذي يمنعك منها في بلادك هذه؟

- على ما بيننا وبين بني العباس، لا يجتمع في الأمّة خليفتان.

همّ الوليد أن يعترض، فأردف عبد الرحمن:

- كما قلت، نُجلّ الخلافة ومعناها، ونكره صاحبها.

هز الوليد رأسه مستسلماً، وقال:

- على أي حال، قد انتهى عدوّك في هذه الجزيرة.. القيسية، ثم اليمنية، ثم ذلك الدجّال شقنا.. فهي لك ولولدك إن شاء الله إلى يوم الدين.

ذهب عبد الرحمن في التأمّل قبل أن يقول:

- أرجو ذلك يا أبا المغيرة.. أرجو ذلك. فإنك لا تدري من أين تُؤتى، ولا تدري من أين يأتي عدوّك، ولِمَ وكيف، وأين؟ فالدنيا حبلى دائماً بالذي نتوقع ولا نتوقع.. هكذا علمتني الأيام والتجارب.. وقد قيل «من مأمنه يؤتى الحذر».

حدّق عبيد الله بن أبان في طبقه بنظرة غائمة غامضة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بينما كانا يتجولان في حدائق منية الرصافة القرطبيّة، قال بدر:

- قد اشتاقت نفسي للصيد معك يا سيدي. ولا أراك تُقبِل عليه إقبالك في الزمان الفائت.

تنهد عبد الرحمن وقال:

- أعدني للزمان الفائت أولاً يا بدر.

-أليس من العجيب يا سيدي أنك حين كنت فارًّا من سيوف المسوّدة، وقد خلّفت وراءك مُلْكاً ضائعاً كان لآبائك، وخلّفت أهلك وولدك، ولم تصحب معك إلاّ همّتك وغايتك و.. @خادمك بدراً أيضاً!

قال عبارته الأخيرة بأسلوب استدراكي متحبب، وتابع:

- أليس من العجيب وأنت على تلك الحال، أنك لم تكن تلتفت وراءك. كنت تقول: قد جَعَلْت الذي ورائي أمامي، والآن وقد ملكتَ الأندلس، وقهرت أعداءك، ووطّدت الدولة، أراك تكثر الالتفات إلى الزمان المنصرم القديم.

توقف عبد الرحمن عن المشي، وأرسل بصره في البعيد متأمًّلا:

- كذا الحياة يا بدر.. كذا الحياة..

تابعا المشي، وبعد وقت، قال عبد الرحمن:

- قل لي يا بدر.

رمقه بدر مستطلعاً.. واستأنف عبد الرحمن:

- قد تعاظمت عليّ أعباء الإمارة وكثرت دواوينها، وبين الحرب والسلم هناك ما ينبغي أن نقيمه من العمائر والطرق والمساجد والكتاتيب وترع الماء وتحسين الزرع وتكثير الغرس، واستقدام العلماء والفقهاء والأدباء وأهل الصنائع في المشرق.. هذا مع العناية بتعظيم الجيش وآلاته، وحفظ الثغور. ولعله قد حانَ الوقت كذلك لصناعة السفن وشحنها بالسلاح والمقاتلة لحفظ السواحل. وما زلت حتى الآن أباشر هذا كلّه بنفسي حتى ثقل العبء عليّ. وقد صرت في حاجة إلى حاجب يحمل عني عبء المتابعة والمراجعة في مجموع تلك الأمور ويطلعني على خلاصتها، ويرتب دخول من يرى لزوم دخوله عليّ برأيه، ويتولّى بنفسه غيرهم..

كانت ملامح بدر وحواسه قد تنبّهت كلها، وانفردت أسارير وجهه وقد توقع أنه المقصود.

لكن، كانت تنتظره خيبة أمل عظيمة على قدر توقعاته الكبيرة، إذ تابع عبد الرحمن:

- وما زلت أقلّب أصحابنا في رأسي لأختار منهم. فرأيت أن أشاورك في الأمر، فأنت تعرفهم كما أعرفهم، فبمن تشير عليّ؟

أطرق بدر ساهماً، ولما تأخر جوابه، قال عبد الرحمن:

- لم تجبني.

حمل بدر نفسه على الخروج من غور الخيبة التي التقفته. وقال:

- الأمير أعلم برجاله يا سيدي.

- فلماذا الشورى إذن؟

- قد فاجأني سؤالك يا سيدي.. أحتاج إلى بعض الوقت لأُروّي في الأمر.. فهذا أعظم المناصب بعد الأمير.

- نعم، ولذلك يجب أن أحسن الاختيار.. أعني: أبو عثمان قد صار رجلاً كبيراً.. وقد ساءني منه أن يمكر به ذلك الشقيّ شقنا لعنه الله حين أخرجته إليه، فأفسد عليه الجند دون أن يدري، ثم غافله ودهم المعسكر، فلم يُحسِن غير الفرار، وحاز الشقيّ كل ما كان معه في ذلك المعسكر. ولعلك قد لحظت أني منذ ذلك الحين لم أعد أنتدبه كثيراً للمهمات الكبيرة. إلا أننا أحسنّا إليه ورددنا له جميله فينا، فهو لا يشكو من قلة ضياعه وماله. وما زلنا ندعوه لمشورتنا وبعض أعمالنا على قدر همّته، حتى لا يستوحش ويظن أنا قد نبذناه. ولكل زمن رجاله.. أليس كذلك؟

- القول ما يقول الأمير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يجد بدر غير زوجه زينب يفيض لها بخيبة أمله. فمن أوْلى منه بالمنصب بعد الذي أبلى به معه في طريق الفرار ثم في التمهيد له في الجزيرة حين سبقه إليها، حتى إذا نزلها وجد أنصاره وعساكرهم في انتظاره. ثم قاتل معه في كل حرب خاضها، وقاد جنوده في كل ناحية. فإن لم يجعل حاجبه أبا عثمان كبير الموالي، ولم يكن هو، فمن يكون غير رجل دونهما سنًّا وبلاءً؟ أم أن عليه الغُرم، ولغيره الغُنم، كمن يشقّ الترع ليسقي غيره؟

قالت زينب تواسيه:

- بلى والله، قد فعلت ذلك كلّه معه ولكنه أحسن مكافأتك.. أعني الضياع والمال والدور، وإمارة جيشه.

قال:

- قد كسبت ذلك كله بجهدي وعملي.. خرجنا معاً، ولم يكن في يده وهو الأمير أكثر مما في يدي وأنا الخادم والمولى.. ثم صنعنا كل شيء معاً. أفلا أستحق بعد ذلك أن أكون حاجبه؟

قالت:

@ - تقول: خرجتما معاً، ولم يكن في يده أكثر مما كان معك.. ولكن.. بلى.. كان معه أكثر مما كان معك.. كان معه خادمه بدر! أميري الذي لا يسمو عليه أمير.

ثم ربتت على ظهره بمحبة، وقالت:

- هل لامرأة كانت تحتال على المسافرين في الفسطاط أن تنصح أمير الجيش، فتقول: لا يسمعك أحد تقول ما قلت، فيفسد ما بينكما. فمهما يكن بلاؤك معه، فإن الأمراء والسلاطين يكرهون أن يَمُنّ عليهم أحد بعمله، فيذكِّرهم به. فإن ذلك ينتقص من هيبتهم وجهدهم.. وقد سمعت منك الكثير، فتعلّمت. ألم يكن أبو سلمة الخلّال وأبو مسلم الخراساني هما القائمين بأمر الدعوة لبني العباس؟ فكيف انتهى أمرهما؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينتظر عبد الرحمن أن يرجع عليه بدر بالمشورة في اختيار الحاجب، وما كان بدر ليفعل على أي حال، وفي نفسه من الأمر ما وقع فيها.

تمّام بن علقمة، أحد الموالي الذين خرجوا مع بدر من الأندلس إلى عدوة المغرب لاستقدام عبد الرحمن بعد تدبير الأمور له. هذا هو الحاجب الذي اختاره الداخل. وإذا كان بدر قد وجد في نفسه أن المنصب قد صُرف عنه فقد كان أبو عثمان أكثر حنقاً ونقمة واندفاعاً. فهو شيخ الموالي، وتمّام هذا كان يعمل تحت إِمرته.

مشى أبو عثمان مندفعاً لا يلتفت في الرواق المؤدي إلى مجلس الداخل، حين تلقاه تمام بن علقمة مرحِّباً ومعترضاً في آن:

- تريّث يا أبا عثمان واجلس في ديواني حتى يفرغ الأمير من قاضيه وقائد شُرَطه، ثم أستأذن لك.

صاح به أبو عثمان غاضباً:

- ماذا؟ أنت تستأذن لي الدخول على الأمير؟

- هذا بعض عملي يا سيدي.

- وقد كبر الأمر في نفسك؟ أنا أبو عثمان شيخك ورئيسك. وأنت مهما تبلغ، تبقى تمام بن علقمة، أحد صبيياني.. أم نسيت؟

- معاذ الله يا سيدي أن أنسى فضلك وسبقك. ولكني أطيع الأمير الذي ينبغي لنا جميعاً أن نطيعه.

أزاحه أبو عثمان بيده:

- تنحَّ.. هذا آخر الزمان.

وتابع اندفاعه إلى مجلس الأمير، ودخل دون استئذان، وكان تمّام بن علقمة خلفه، وأومأ إلى الأمير معتذراً، بينما قال أبو عثمان:

-أخْلِني نفسك ساعة أيها الأمير.

حين خرج الجميع، ابتدر أبو عثمان بالقول:

- هل قصّرت في حقك يا سيدي دون أن أعلم؟ هل وقع مني ما تكره؟

قال عبد الرحمن:

- معاذ الله يا أبا عثمان. بل نذكر لك صنائعك.

قال أبو عثمان دون تلطف:

- كيف تذكرها وقد أدنيت الصغير، وجعلته حاجبك وصاحب دولتك، وأبعدت الكبير وحططتَ من قدرته؟

انقبض وجه عبد الرحمن انقباضاً شديداً، وقال بجفاء:

- هو تكليف لا تشريف يا أبا عثمان.. وقدرك كبير عندنا.

- سبحان الله.. تكليف لا تشريف! لماذا لا يقال هذا إلّا لمن صُرف عن التكليف؟ أما والله ما هو بعزاء ولا سلوى. فإن كان تكليفا فنحن أحقّ به، وليذهب تمام بن علقَمة بتشريف الخمول والقعود في داره، كما أقعدتني في داري منذ حين.. وكأني مطيّة شاخت وذهبت قوتها، ولم تعد تصلح إلّا للطعام والشراب حتى ينقضي عمرها.

هنا ارتفع صوت الداخل مؤنباً:

- أحق الناس بالتكليف يا أبا عثمان هو من اختاره الأمير، لا من اختار نفسه. وطاعة الأمير هي قبول رأيه وأمره. وما كنت لأرجو أن أسمع هذا منك. فقد شططت وأسرفت. وما كان هذا طبعك.. وقد سمعت منك ما لا أطيقه من غيرك، إلّا أن صنائعك تشفع لك. فلا تمتحن من صبري أكثر مما رأيت!

كانت لهجة عبد الرحمن قاطعة حازمة، فلم يملك أبو عثمان إلا الخروج مسرعاً.

@∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إنك لا تدري من أين تؤتى، ولا تدري من أين يأتي عدوك.. فالدنيا حبلى دائماً بالذي نتوقع ولا نتوقعّ.. هكذا علمتني الأيام والتجارب. وقد قيل: من مأمنه يُؤتى الحذر».

هذا ما قاله عبد الرحمن لأخيه الوليد على مائدة الطعام، وهم يحتفلون بنهاية شقنا بن عبد الواحد.

وها هو أبو عثمان، كبير الموالي، يخرج من عنده ساخطاً يحدِّث نفسه بأمر خطير: نحن صنعناه على أعيننا، والذي أعطى ينبغي أن يأخذ على قدر ذلك!

ولكن الذي ما كان ليعبر في خاطر عبد الرحمن، حين قال قولته تلك، أن ينقلب عليه أحد أهل بيته الذين جاء بهم من الشام، وضمّهم تحت جناحه، وأغدق عليهم من ماله وعواطفه كما يغدق الأب على الولد!

كانا يتمشيان في روضة من رياض قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير، ويتحادثان، في نهار ربيعي مشمس، حين توقف المغيرة بن الوليد فجأة، وقد اكتسى وجهه بأثر الصدمة لما سمع من ابن عمه عبيد الله بن أبان، فقال:

- هل ذهب عقلك أيها الرجل؟ إنه عمّي.

أجاب عبيد الله بنبرة الغضب:

- وعمّي أيضاً.

- وكذا يدبّر الرجل على عمّه؟

- قد سألته حقي في ميراث أبي.. أخيه أبان.. فلم أجد منه جواباً.

- وما ميراث أبيك في الأندلس؟ أبوك قضى في دمشق، رحمه الله.

- أيها الجاهل! هل تصدّق حقاً أن رجلاً واحداً ينزل الأندلس، فيحوزها بجهده لتكون مُلكه وملك أبنائه من بعد؟ بل أخذها بحق آبائه وآبائنا بني أميّة. وهؤلاء الموالي الذين دبّروا له الأمر ووطأوا له الوعر، وحملوه إلى سرير الإمارة، كيف يسمّون؟ موالي عبد الرحمن بن معاوية، أم موالي بني أميّة؟ هم موالينا.. موالينا جميعاً. ولو سبقه إليها أي رجل منا لصنعوا له مثلما صنعوا لعمّي. ولو كان أبي حياً، لتقدّمه عليها.

- ولكنه ليس حيًّا.

- أنا حيّ. وأنا ولده ووريثه. فإن كان عمّي قد أبى أن يقسم لي حق أبي، فأنا آخذه، وبالوسيلة التي أخذ بها الإمارة: موالي بني أميّة وشيخهم أبي عثمان.

- أبو عثمان معك في هذا؟

صمت عبيد الله ورمق المغيرة بنظرة توحي بالجواب.

تراجع المغيرة بضع خطوات وهو يهز إصبعه ويتحدث خائفاً:

- أنا لم أسمع شيئاً.. ولا أعرف شيئاً.. هل تفهم؟ أنا أصمّ وأعمى.. ستكون في هذا التدبير وحدك.. لا شأن لي بك.. لا شأن لي إطلاقاً..

واستدار وولى عنه مسرعاً فيما يشبه الهرولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيراً قرّر عبد الرحمن أن يخرج للصيد. وكان يظن أن بدراً سوف يخف إلى صحبته. ولكن بدراً حين رأى تمَّاما معه، تعذّر ببعض أعمال الجيش كيلا يخرج معهما. وعلى الرغم من أن بدراً قد امتنع لما كان في نفسه من أمر تمّام، فإن تخلّفه عن سيّده في قرطبة سيكون مثلاً آخر على حُسْن طالع الداخل!

فبينما كان عبد الرحمن يقضي أياماً في براري الأندلس، كان قصر عبيد الله بن أبان يعجّ ببني أميّة ونفر من مواليهم، على رأسهم أبو عثمان. بينما وقف عبيد الله يحرّضهم:

- بلى إنه عمّي، وكنت أجدر الناس بحفظه ورعاية حقه، لولا أنه حرمني حقي وحق أبي عنده، كما حرمكم أنتم حقوقكم.. ألستم من بني أميّة؟ أليست هذه البلاد إرث آبائكم وأجدادكم؟ فما كان نصيبكم منها؟ بضع ضياع ودور تتعيشون بها؟ ومنذ متى كان بنو أمية يرضون بما يرضى به التجار وأهل الضياع، إلّا أن يكون لهم نصيب من إرث الخلافة والمُلك والسلطان؟ وهؤلاء الموالي.. موالينا.. موالي بني أميّة.. وهذا كبيرهم أبو عثمان الذي وطّأ لعمي وأجلسه على سرير الإمارة.. وإني أنشدك الله يا أبا عثمان أن تجيبني: هل كنت تعرف عمّي قبل أن توصّل إليك بكتابه، هو في عدوة المغرب، وأنت في الأندلس؟

قال أبو عثمان:

- اللهمّ، لا.

- فلِمَ نصرت رجلاً تجهله؟

@ - لأنه أمير أمويّ، ونحن موالي بني أميّة.. وهذا عهدنا لهم.

هتف عبيد الله في الحضور:

- هل سمعتم؟ ومع ذلك، ما كان حظ الموالي الذين نصروا عمّي وتعرّضوا للهلاك دونه؟ أما عبد الله بن خالد الذي كان قسيم أبي عثمان في لواء الموالي، فقد اعتزل شؤون الحكم منذ أعوام طويلة. ولِمَ ذاك؟ لأن عمي قد غرّه واستعمله للمكر بأبي الصباح اليحصبي بدون علمه، ثم غدر بأبي الصباح وخفر ذمة عبد الله بن خالد ونقض عهده لأبي الصباح. وأما أبو عثمان..

ذهب ببصره إلى أبي عثمان وتابع:

- فقد علمتم جميعاً كيف جزاه بجميله وصنائعه. أخّره وقدّم صبيانه، ثم أقعده بيته وأخمل ذكره. فهل هذا جزاء الرجل الوفيّ؟ الخطة إذن واضحة.. أعني خطة عمّي سامحه الله: أن يستعمل الرجال، ويضرب بعضهم ببعض، ثم يُسقِطهم كما يُسقِط الرجل متاعَه القديم: يضرب القيسية باليمنية، حتى إذا فرغ من القيسية مالَ على اليمنية فكسر شوكتهم بالموالي الجدد الذين استكثر منهم وجاء بهم من

المغرب ومن أسرى حروب الروم. ثم عمد إلى كبراء الموالي القدماء، فأخملهم، حتى لا يبقى معه رجل له عليه منّة وفضل، إلّا عبد اشتراه أو مولى اصطنعه لنفسه.

تريّث لحظة وتابع:

- ولكن هذا لن يطول بعد الآن، وهذا أبو عثمان الذي دبّر له يدبّر معنا. والذي انتصر به عمّي سننتصر نحن به، إلّا أننا لن نتنكر له كما فعل عمّي. ونحن والله لا نريد أن نؤذي عمي في نفسه وأهله، فهو عمّي على كل حال. ولكن، نأخذ حقنا، ونواسيه بمثل ما واسانا به، ونحمله إلى عدوة المغرب بأهله وماله.. والآن هو الوقت، وقد خرج إلى الصيد يمكث فيه أياماً.

كان في تلك الأثناء منشغلاً بالكلام، وكان الحضور منشغلين بالسماع، فلم يتنبه أحد إلى أن فتىً من الموالي قد تسلل من المكان، واحتال للخروج من القصر. ثم انطلق بجواده بأقصى سرعته إلى مقر بدر في قيادة الجيش. وقبل أن ينفضّ المؤتمرون من قصر عبيدالله، كانت ثلة من الجيش قد أحاطت بالقصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجع عبد الرحمن من البر إلى دار الإمارة متعجِّلا إذ وصله رسول بدر. وما هي حتى أُدخِل عليه عبيد الله بن أبان موثَّقاً منكّس الرأس. وكان مع الداخل ولداه سليمان وهشام، وبدر، وتمّام بن علقمة.

أمر عبد الرحمن الحارس أن يفك وثاقه. ورانَ صمت ثقيل على الجميع ولم يستطع عبيد الله أن يرفع رأسه ليواجه نظرات عمّه، الذي سأل أخيراً بصوت هادئ مفعم بالأسى والحسرة:

- لماذا؟.. أين قصّرت في حقك؟ ألم أتعّهدك بعد مقتل أبيك ونحن نختفي في الشام وواسيتك بكل ما عندي كأنّك ولدي؟ ألم أرسل إلى الشام من حملك مع ولدي سليمان لتكون هنا تحت جناحي؟ ألم أنزلك هنا قصراً منيفاً وأجريت لك مالاً وقطعت لك ضياعاً، لتعيش في نعمة وعافية؟ لماذا إذن؟

بقي عبيد الله على إطراقته وصمته..

وهنا صاح عبد الرحمن به صيحة مدويّة أجفلت بعض الحضور:

- لماذا؟

أجاب عبيد الله من فوره بصوت قويّ متدفق أثار دهشة الحضور:

- لأنني أريد أكثر من العافية.. أبي لم يطلب العافية حين آثر الموت على الفرار.. وأنت لم تطلب العافية حين طلبتَ المُلك.. فلماذا أقنع أنا بعافية الخمول؟ وقد راجعتُك مراراً وتكراراً، بلا جدوى. وهذا المُلْك إرث بني أميّة.

- أيها الشقيّ التعس. لقد واللهِ كسرت قلبي.. إي والله لقد كسرت قلبي، فلا يُجْبَر بعد الآن أبداً. كنت أدّخرك لمستقبل الأيام، وأَبَيْت إلّا أن تتعجّل.. عليّ بشقوة العمر، وعلى نفسك.. بالموت!

اضطربت ملامح عبيد الله، وزاغت عيناه.. وكذلك تحفّزت وجوه الآخرين بملامح الدهشة والصدمة. وقال عبيد الله بصوت مختنق:

- تقتلني؟

قال عبد الرحمن بلا تردد:

- هذه هي القاعدة.. علامَ كنتَ تُعوِّل أيها المسكين؟

- تقتل ابن أخيك؟ ابن أبان؟

@ - الخيانة ليس لها دين ولا جنس ولا نسب.. ولها حكم واحد.

- أنا ابن أخيك يا عمّاه ألا تذكر عهدك له في ولده إذ ودّعته آخر مرّة؟

- لماذا لم تذكر أنت ذلك؟ لم تخنّي إلّا بقدر ما خنتَ ميراث أبيك. ولو كان أبوك حيًّا لتَبَرّأ منك وقتلك بيده.

انكسر عبيد الله مرّة واحدة وتقدّم إلى عمه متوسلاً، ونزل على ركبتيه يحاول تقبيل يده:

- العفو يا عمّاه، نشدتك الله.. لا تقتلني. أطغاني الشيطان.

سحب عبد الرحمن يده منه، وتراجع عنه خطوات:

- الشيطان لا يُطْغي إلّا من طغى..وشيطان النفس أطغى من الشيطان.

- الرحمة يا عمّاه.. الله تعالى يقبل التوبة.

- إذن، تب إليه قبل أن تلقاه، وأنا أيضاً سأدعو لك بالمغفرة. لعلّه يبعثك على غير ما فارقت عليه الدنيا.

ثم أشار إلى الحرس ليأخذوه، بينما هرول عبيد الله إلى سليمان وتعلّق به متوسًّلا:

- سليمان.. تشفّع لي نشدتك الله..

حافظ سليمان على وجومه وتراجع مبتعداً عنه.. وإذ جذبه الحرس دخل في تلك اللحظة الوليد بن معاوية مسرعاً، فانفلت عبيد الله وتعلّق بعمّه:

- عمّي الوليد.. تشفع لي يا عمّاه.. بكرامة أبي أبان عندك. لا أريد أن أموت.

هَمَّ الوليد أن يتدخل وهو يرسل نظرة توسّل إلى أخيه، لكن عبد الرحمن أومأ له بخلاف ذلك. فأطرق حزيناً، بينما تابع الحرس عملهم في دفع عبيد الله وسحبه إلى الخارج، وهو يصيح:

- الرحمة يا عمّاه.. الرحمة.. إكراماً لأبي أبان.. الرحمة.

ولكنَّ المُلْكَ عقيم!

وقفت حلل في المنظرة ترسل نظرها إلى عبد الرحمن وقد جلس على ركبتيه ملاصقاً لعمّته النخلة الوحيدة في منية الرصافة القرطبيّة... وبدا كأنه يخاطبها ويبثّها همّه وشعوره المتعاظم بالغربة والوحدة والوحشة التي تماثله فيها. لقد جاءت من منبت النخل الذي نبت فيه، ولم يفارق خياله يوماً. وعقله الآن يضجّ بالذكريات التي تكاد أن تنسيه مكانه وزمانه: منية رصافة هشام، مجلس جدّه هشام، والده معاوية، أمه راح، مجالسه مع إخوته يلعب الشطرنج مع أبان، مسلمة بن عبد الملك يتحسّسه ويطلق نبوءته، رحلات الصيد.. أين ذهب هذا كلّه؟

لقد أراد أن يستجلب إليه قطعة من الشام والدنيا التي أَلِفها، حين أنشأ منية الرصافة هنا على مثال رصافة هشام، ثم جاء بمن استطاع من أهله ليكونوا في جواره، ويشم بهم رائحة الشام وزمانها الجميل، فلم يجد من بعضهم إلّا رائحة الخيانة والجحود! فزادوه وحشةً على وحشة. وليس بين القسوة المفرطة والحزم في مذهب السلطان إلّا كالشعرة التي تختفي أخيراً. والمسافة بين المودّة المفرطة والاستيحاش من الناس، تبدو كبيرة جداً في أوقات العافية، ولكنها تتلاشى بالسرعة التي تتلاشى فيها عافية البدن مع الداء المفاجئ الطارئ. وفي يوم واحد فقط تحوّلت مشاعره تجاه أقاربه الذين جاء بهم من الشام من المودّة الخالصة والإشفاق عليهم، إلى الريبة والشك، والاستيحاش منهم حتى امتدّ ذلك إلى أخيه الوليد وولده المغيرة!

لنيعرف أحد ما الذي همست به عمته النخلة له، ولكن حلل رأته يسند رأسه عليها أخيراً.. ولم يكن في وسعها أن تلحظ من مكانها أنه كان ينتحب عليها بنشيج حار طويل، ويسقيها بدموعه الغزيرة.

إذا كانت خيانة عبيد الله قد أوحشت عبد الرحمن من أقاربه، فإن المصير الذي انتهى إليه قد خلف في نفوس الكثيرين من أقاربه ما هو أعظم من ذلك: الكره والنقمة! وكان أشدّهم مقتاً ونقمةً المغيرة بن الوليد. فقد كان عبيد الله بمثابة الأخ فضلاً عن كونه الصاحب، وقد نشآ معاً وتشاركا في الحلّ والترحال، والمنشط والمكره، فبكاه بكاءً حاراً.

- أي رجل هذا الذي يقتل ابن أخيه دون أن يطرف له جفن، ولم يَرْعَ فيه ذمة أبيه؟ أهكذا يفعل السلطان بالرجال؟ يجرّدهم من كل عاطفة ويرُدّهم إلى غرائز السبع؟

لم يكن أبوه الوليد أقل حزناً وأسفاً. بل كان يشعر أيضاً بالصَّغار أنه لم يملك أن يتشفع في عبيد الله عند أخيه عبد الرحمن، وهو أصغر منه سناً. فاختلطت في نفسه مشاعر الأسى والمهانة والعجز معاً. ومع ذلك أراد أن يواسي ولده الذي بدا محطَّما، وربما كذلك أن يواسي نفسه، فقال:

- إن كان هذا ما يفعله السلطان، فقد فعله بابن عمّك. وهل دعاه إلى أن يأتمر بعمّك إلّا طلب السلطان لنفسه؟ فقد شرب المسكين من الكأس التي أراد أن يسقيها لعمّه!

قال المغيرة:

@ - ربّما أراد قسمته من السلطان، ولكنه لم يكن يبيِّت قتل عمّي!

تحفّزت ملامح الوليد، وقال:

- وما أدراك أنت؟

استدرك المغيرة على نفسه بسرعة:

- إنما عنيت.. لا أعتقد أن عبيد الله قد بيّت ذلك.

- لن نعرف هذا معرفة اليقين أبداً.

نزل الوليد جالساً مطرق الرأس:

- أما والله إن قلبي ليتفطّر حزناً وأسى.

التفت إليه المغيرة:

- ألم يكن في وسعك أن تتشفّع له؟

- ليته كان ذاك.

رفع الوليد عمامته ومسّد شعره ساهماً متفكِّرا:

- أخي عبد الرحمن.. جئنا من صلب واحد.. وما زلت، منذ كان صبيًّا، حائراً فيه. كنت أحبه وأهابه وهو أصغر مني.. كان إخوتنا يحسبون حياءه وقلة كلامه ضرباً من الضعف. وكنت أرى وراء ظاهره نفساً عظيمة، وهمّة عالية، واعتداداً شديداً. أجْوَد الناس إذا أعطى فكأنه الريح المرسلة، وأكثرهم ثباتاً في وجه المحن.. لا يغلبه الغضب فيندفع اندفاع النزق الطائش الذي لا يقدِّر العواقب.. ولكنه يصبر ويصابر، ولا يبدي ما في نفسه، حتى يحين الوقت وتحصل الأسباب.. أكثر الناس وفاءً لمن صنع له صنيعاً، ولكنه لا يغفر الزلّة إذا وقعت من صاحبها ولو مرّة واحدة.. وهذا ما لم يدركه عبيد الله ومن واطأه من بني أميّة.

- فلماذا صفح عن أبي عثمان؟ ألم يكن ابن أخيه أحق بالصفح؟

- لم يقتله، بلى. ولكن يصفح عنه؟

هز رأسه يميناً وشمالاً بمعنى النفي. وكان محقًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أبو سلمة الخلّال. هذا أنت يا أبا عثمان.. أبو سلمة الخلّال، إلّا أنه كان صاحب بني العباس، وأنت صاحب الأمويّ عبد الرحمن ابن معاوية. لم تختلف أقدارنا وأقدارهم إلّا بقدر ما اتفقت. إلّا أني لست

أبا العباس السفاح ولا أبا جعفر المنصور. فلا يقال: قتل صاحب دعوته كما فعل أولئك. والآن تعرف مبلغ عرفاني لصنيعك القديم الذي أفسدته، وجميلك الذي نقضته. فهل بقي لك بعد ذلك فضل تمُنّ به عليّ وقد وهبتك دمك الذي لم أهبه لابن أخي؟ الآن فقط أتحرّر أخيراً من مِنّتك. الآن لا يسعك ولا يسع غيرك أن يقول: لولانا لما ملك الأندلس. الآن أستطيع أن أقول: قد ملكتها على رغمكم لا بمعونتكم، على رغم القيسية الذين انتزعتُ منهم السلطان ثم أخمدتهم وأطفأت نارهم، وعلى رغم اليمنية الذين ما نصروني إلّا لأغراضهم، ثم ثاروا بي مرة تلو المرة حتى كسرت شوكتهم إلى الأبد، وعلى رغم أنف كبير موالينا الذي نصرني أول الأمر ثم تآمر عليّ وأفْسَد عليّ ابن أخي وطلب هلاكي، بل على رغم أنوف ذلك النفر من قومي الذين تنكّروا لي، فصاروا والمسوّدة سواء! وهل الموت بيد العشير أهون من الموت بيد العدوّ المقيم على العداوة، أم هو أشدّ وأنكى؟ اذهب يا أبا عثمان.. دمك هبتي، وحياتك عطيتي.. والزم بيتك، لا أسمع لك ذكراً بعد اليوم.

خرج أبو عثمان مطرقاً كسيفاً كما دخل. وجلس عبد الرحمن على سرير الإمارة وحيداً مطرقاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لبث أياماً بعد مقتل عبيد الله منفرداً بنفسه، يأبى أن يلقى أحداً، ويقلّب في ذهنه الأفكار والأسئلة التي فرضها عليه تقلّب الأيام نفسها. ولكن حزنه العميق على مصير ابن أخيه الذي أمر بقتله، لم يورثه ندماً، إنما هو الأسى على حبيب قتل نفسه! هذا ما وقر في نفسه المعذّبة. كان قبل أن يُبتلى بنعيم السلطان وجحيمه، يتّهم أصحاب المُلك والسلطان، ويذكر قول العرب: «المُلك عقيم»، ويحسب القول تهمة، والآن يجده دفاعاً لا اتهاماً! نعم، المُلك عقيم، ولا ينبغي له أن يكون غير ذلك، إذا كانت الغاية حفظ الدولة من أن يتنازعها أهل بيت السلطان، كأنها غنيمة حازتها العشيرة في بعض غاراتها، أو ضيعة أو حمى يتنازعون على ميراثه! دولة بني أمية في الأندلس؟ نعم، ولكنها دولة في المقام الأول، يحكمها رجل واحد منهم يعقبها لمن هو جدير بحفظها من ولده. فمن خرج عليها فهو العدو، سواء أكان رجلاً من العامة أم رجلاً من العشيرة الأقربين. وحين تساءل في وقت سابق: من أين يأتي العدو القادم، لم يخطر له في بال أنه سيكون من أهل بيته مع نفر من عشيرته أحسَنَ إليهم. والآن، إذ يعاوده السؤال فإنه يثير رعبه، لا رعب الخائف، ولكن رعب المشفق المستوحش؛ من التالي؟ @ومن بقي بعد عبيد الله بن أبان؟ أخوه الوليد؟ المغيرة بن الوليد؟ بدر، مولاه ورفيق رحلته وقسيم آماله وأحلامه؟ لِمَ لا؟ لا تكتمل سيرة المرء إلّا بالموت، وما دام الإنسان حيًّا فلا تُؤْمَنُ بوائقه.. فكل شيء ممكن..

هكذا كان يحدّث نفسه.. وحين بلغ هذا الموضع في تفكيره داهمه شعور آخر شديد الثقل. فإذا كان هذا كلّه أدْعى إلى حيطة السلطان، وأحفظ للدولة التي هي أكبر من مجموع ناسها، فما الذي يتبقى للسلطان من روحه وقلبه وحاجته للأنيس الذي يشاطره حزنه وفرحه وشوقه وهمّه وسرّه؟ هل يجب أن تكون روح الإنسان ثمناً لحفظ السلطان؟

هنا أقرّ لنفسه: قد ضلّت حكمتي، وكنت أظنّ أني أعرف لكل سؤال جواباً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ثلاثون عاماً مرّت منذ نزل عبد الرحمن الداخل الجزيرة ومَلَكها. وفي هذه المدّة توسّعت المدينة وزادت عمائرها وأسواقها ومساجدها وكتاتيبها وازدحمت بالسكان الذين يبحثون عن حظوظهم حيث تتزاحم الأقدام في حاضرة الإمارة: عرب وبربر ومولّدين ونصارى من أهل الذمّة. وبدأت قرطبة تشب عن الطوق وتتهيأ لتكون عروس الغرب، ودرّة الدنيا، إذ تكتمل مواعيدها في زمن قريب مقبل.

وفي ساحة واسعة لبيع الخيول العربية الأصيلة، جذب البائع زمام جواد عظيم الرشاقة والجمال، وتحرّك به أمام الناس مستعرضاً إياه. ثم صاح:

- جواد عربي أصيل، معروف النسب، سابق لا يلحق به جواد.. انظروا خدّه كصفحة السيف، وجبينه كغرة الصبح، وأسنانه كالفضة المجلوّة. فمن يزيد على مائتي درهم؟

وتتابع الحضور على الزيادة، حتى بلغ الثمن أربع مائة. وهتف البائع:

- أربع مائة.. من يزيد؟

هنا سُمِع صوت يهتف:

- عليّ بست مائة.

اتجهت الأبصار إلى صاحب العرض الأخير.. كان المغيرة بن الوليد. وتهامس باسمه من عرفوه. وما كان لأحد أن يزيد على الأمير ابن أخي الداخل، أمير الأندلس. فسكنت الأصوات. ولكن البائع هتف من جديد:

- ست مائة درهم؟ هل من مزيد؟ ست مائة درهم.. إذن..

قبل أن يتم عبارة البيع، سمع صوت رجل آخر يصيح:

- عليّ بألف درهم.

ارتفعت همهمات الدهشة والتعجب، واتسعت ابتسامة البائع، بينما التفت المغيرة إلى صاحب الصوت حائراً وقد علته الدهشة.

وهمس أحد أصحاب المغيرة:

- أي أحمق هذا الذي يدفع ألف درهم في جواد، مهما يكن.

وهمس آخر:

- بل أي أحمق هذا الذي يزيد على بيع الأمير؟

مضى المغيرة مبتعداً من فوره، ولحق به أصحابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل مساء ذلك اليوم، دخل الخادم على المغيرة بن الوليد في قصره، يخبره أن رجلاً يستأذن أن يلقاه في ساحة القصر، وأنه لا يسعه الدخول.

فوجئ المغيرة بما لم يكن يتوقعه أبداً.

كان الرجل الذي زاد عليه وحظي بالجواد، يقف هناك وهو يمسك بزمام الجواد نفسه.

- أنت؟ ما جاء بك؟

- سيدي الأمير!

ثم تحسس الجواد وقال باعتزاز:

- والله لو زيد عليه ألفان، لزدت. أما والله إنه لأجمل من الجارية الحسناء، إلّا أنها قد تخون صاحبها، وهو لا يخون.

قال الأمير متبرِّماً:

- ألهذا جئت وأخرجتني من داري؟ تعدِّد عليّ فضائل جوادك؟ أم ظننت أن تعرضه عليّ فأربحِك عليه؟ لو شئت لزدت عليك هناك. امض الآن..

@ وإذ همّ المغيرة أن يدبر عنه، سمعه يقول:

- ألم يقل رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- «تهادَوْا، تحابّوا»؟ وكان يقبل الهديّة. وما كنت لأزيد على الأمير، لولا نيّتي أن أجعله هدية له..

التفت المغيرة إليه متعجباً:

- ولِمَ تهديني وأنا لا أعرفك!

- ولكني أعرفك يا سيدي. وأي رجل لا يعرف الأمير ابن الخلفاء: المغيرة بن الوليد بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

تعمّد أن يسّميه بآبائه، يريد أن يذكّره بنسبه في خلفاء بني أميّة لأمر في نفسه.

ازداد المغيرة تعجباً:

- وأنت؟

- هذيل بن الصميل بن حاتم!

- تعني.. ؟

- نعم.. ابن الصميل نفسه..

- ذلك كان عدوّ عمّي.

- لم يكن كذلك حين قضى نحبه. وعلى أي حال، هل يبقى في ميت عداوة يا سيدي؟ وأنا بعد، لست عدوّك، بل أطلب صداقتك، إذا تفضّل بها عليّ الأمير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد تردّد، وافق المغيرة على دعوة هذيل لزيارته وحضور مجلس سمره. أعانه على ذلك الفضول، وربّما خالطته رغبة خفيّة في النكاية بعمّه الذي قتل أقرب الناس إليه، ثم هجره وأباه، فلم يعد يدعوهما إلى قصره ومائدته منذ حين.

وكان مجلساً يليق بالأمراء. وبينما كانت الجواري يرقصن على إيقاع العازفين وأنغامهم، مالَ هذيل إلى المغيرة وهمس:

- من أعجبتك منهنّ، فهي لك أيها الأمير.

ومنذ ذلك الحين توثّقت الصحبة بين الرجلين. وكان هذيل قد ورث عن أبيه الكرم وقوة الرأي والعزيمة، التي ساد الصميل بهما قومه، واعترف له بها أعداؤه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

لم يكد بدر يصل إلى داره عائداً من رحلة طويلة لتفقّد الثغور، حتى أخذ يعد نفسه للخروج للقاء الأمير الداخل. وحاولت زينب أن تثنيه عن عزمه، على أن يراجعه في اليوم التالي بعد أن يريح من وعثاء السفر. ولكنه أبى، وبدا متعجّلاً. ولما رأى إلحاحها أبدى استغرابه، ولكنها احتجت بحاجته إلى بعض الراحة، فهو ما يزال يتنقل من مكان إلى مكان، ولا يرجع من سفر مع الجند حتى يخرج إلى غيره.

وحين كان يمشي في الرواق نحو صالة الحكم، تلقاه يوسف ابن بخت. وبعد التحيّة فوجئ به يطلب منه الانتظار في ديوان الحجابة، حتى يفرغ الأمير من ضيوفه. كانت دهشته مزدوجة، فإن كان لا بد، فهذا عمل الحاجب تمّام بن علقمة، ثم إنه لم يكن ليُحْجَب عن الأمير مهما تكن الدواعي. ولم يطل الوقت حتى علم أن يوسف بن بخت قد صار الحاجب بدلاً من تمام بن علقمة الذي عيّنه الداخل والياً على كورة البيرة.

ضجّ رأسه بطنين غريب، وقد بلغ منه الحنق وخيبة الأمل، حتى كاد ليبدي بهما. ولكنه تمالك نفسه وتابع سيره إلى ديوان الأمير، فاعترضه يوسف بن بخت من جديد:

- العفو يا بدر. ولكن الأمير مجتمع برسول قارلة الأكبر.

- قارلة! ملك الفرنج؟!

وكان «قارلة» هو الاسم الذي أطلقه العرب على شارلمان. وكان قبل سنين قد عبر جبال البرتات وغزا سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى، بتواطؤ مع بعض شيوخها العرب الذين دعوه لنصرتهم على واليها، على أن تكون له غنائمها وأن يقطعوا له أموالاً عظيمة وإتاوات سنويّة إذ يأخذون المدينة ويستقلّون بها عن صاحب الأندلس. ولكن المدينة صمدت لحصاره شهوراً، ووصلته أخبار من بلده تلزمه الرجوع. ولما وصل جبال البرتات التي تفصل بين الأندلس وبلاد الفرنج، عبر من ممر ضيق بين جبلين متقاربين قائمين. فكان على جيشه أن يعبر في صف مستطيل. وإذ تقدّم هو وبعض جنده وخرج من المعبر إلى الجهة الأخرى، انهالت الصخور الضخمة الهائلة من أعلى الجبلين القائمين، فحالت ما بينه وما بين مؤخرة جيشه التي ظلت وراءه. ولم تكن تلك الصخور حدثاً من أحداث الطبيعة. إنما كانت خطة اجتمع @عليها المسلمون والبشكنس (أهل نافار أو نبارّة كما يسميها العرب) وكان شارلمان قد أثخن في البشكنس في طريقه إلى سرقسطة ونهب ديارهم، فالتقى العرب معهم لأول مرة على الثأر. وها هي ساعتها، وما هي حتى تدفق العرب والبشكنس من مكامنهم وهاجموا المؤخرة المتخلّفة وراء شارلمان، وأمعنوا فيهم قتلاً. وكان قائد المؤخرة الفرنجية «رولان». وإذ كان شارلمان يدرك خطورة العبور من الممرّ الضيق، فقد كانت خطته أنه إذا هوجمت المؤخّرة بعد عبور الملك ومقدمة جيشه، فإنّ على رولان أن ينفخ البوق، فيُعلِم الملك ويرتد لنصرتهم. ولكن رولان إذ رأى شدّة الهجوم وبسالة الأعداء وكثرتهم، أدرك أن رجوع الملك يعني هلاكه. فآثر أن يقذف بوقه، وقاتل مع جنده ببسالة اليائس، حتى فني جميعهم عن آخرهم، ومعهم رولان نفسه. وقد استقرت تلك الملحمة العظيمة في وجدان الفرنج، تمجيداً لبطولة رولان وتضحيته في سبيل مَلِكه، وخلّدوها في أنشودة ملحمية عُرفت باسم «أنشودة رولان».

بعد ذلك يئس شارلمان، أعظم الملوك في بلاد الفرنج وما حولها، من أن ينال من الأندلس شيئا. وإذ أدرك قوة الأندلس، آثر أن يوفد إلى أميرها عبد الرحمن سفارة لعقد السِّلم والمصالحة. وها هم الآن عنده. وبدر في الرواق محجوب عن المشاركة في اللقاء، وهو أمير الجيش.

قال بدر ليوسف بن بخت:

- ألستُ أولى الناس بأن أكون معه في هذا الشأن؟

أجاب يوسف بحزم:

- لا تفعل يا سيدي. قد أمرني ألّا يدخل عليه أحد حتى يفرغ.

قال بدر:

- ربّما لأنه لم يعلم بوصولي من الثغور!

- بل يعلم.. ويتوقّع قدومك عليه. ونحن خدم الأمير، ليس لنا إلّا ما يعطينا من نفسه.

- أعنده أحد غير رسل قارلة؟

- ولده الأمير هشام، وعبد الله بن عبد الملك المرواني، وثعلبة ابن عبيد، وحسان بن مالك، وقاضي قرطبة.

هنا لم يتمالك بدر نفسه من الانفعال:

- كل هؤلاء، وأنا أُحْجَب عنه؟

- تفضل واجلس في ديواني حتى يفرغ الأمير، ثم أُدخِلك عليه.

أطرق بدر لحظة، ثم ارتد خارجاً من القصر كله دون أن ينتظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأته زينب عائداً بعد وقت قصير من خروجه وقد انقبض وجهه انقباضاً شديداً، خلع عمامته وعباءته وقذفهما جانباً، وفكّ حزام سيفه وألقاه. همّت أن تتكلم، فأسكتها بقوله:

- اتركيني يا زينب. أريد أن أختلي بنفسي.

صمتت زينب بضع لحظات وهي ترمقه، ثم قالت:

- يوسف بن بخت.. حاجبه الجديد!

التفت إليها مستغرباً، فقالت:

- نعم، كنت أعلم. قد تحدّث الناس بذلك.

- ولذلك كل ذلك الإلحاح أن أؤخر لقاءه حتى الغد؟

- لم أرد أن تتكدّر لحظة وصولك.

- أتكدَّر؟ ولماذا أتكدّر ولم يتأخر عليّ طعامي ولا نَفَقَتْ بغلتي؟ أتكدّر؟ أهكذا يشعر الرجل الذي أفنى عمره من أجل صاحبه، ثم طُعِن في ظهره؟ يجب أن تكون هناك ألفاظ أخرى.. قولي: غاضب.. حانق.. بل هي خيبة الأمل ومرارة الخذلان. سكتنا حين قدّم علينا تمّام بن علقمة، وسكتنا حين ولّى هذا إشبيلية، وهذا طليطلة، وهذا برشلونة، وهذا بلنسيّة. لهم مغانم الإمارة وعليّ مغارمها.. لا أتلبّث في مكان، ولا أجلس إلى أهل، ولا أرتاح على فراش، وأقول: لا بأس،نتعب أولاً لنستريح أخيراً، وقد استراح الجميع بما وطّأنا لهم، ولم نرتح.. وهذا يوسف بن بخت كان متأخراً عن الجميع.. والآن: «انتظر في ديواني حتى يفرغ الأمير فأستأذن لك»! وعند الأمير أهل مشورته! أهل مشورته دوني! لا، لم أعد أحتمل هذا الحال، وليسْمَعَنّ مني.

- تريّث يا بدر حتى يسكن غضبك، ويهدأ خاطرك. ولا تغترّ بالصحبة القديمة.. إنه الأمير، سيّد البلاد. ومهما يكن قربك منه في سالف الأيام، فإن هذا لا يغيّر من صفته وصفتك.

- نعم.. الأمير والخادم. الأمير المصطفى بالقَدَر النافذ، والخادم المسخّر لخدمته بالقَدَر نفسه. ولذلك لم تذكرني نبوءة مسلمة بن عبد الملك، وذَكَرتْه وحده، فأنا مجرّد تابع.. والتابع @تابع، يذهب في أصل البيع دون أن يُسَمّى.

وهنا طُرِق الباب. ودخل الخادم يعلمه أن رسول الأمير قد جاءه بالأمر أن يقصد إليه من فوره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ما منعك أن تنتظر حتى أراك؟

قالها عبد الرحمن بأسلوب أقرب إلى التوبيخ. أجاب بدر:

- حاجبك الجديد..

صاح عبد الرحمن:

- حاجبي لم يأمرك بالرجوع عنّي. إنما طلب أن تنتظر حتى أفرغ من رسل قارلة. وكان هذا أمري له. وليس من آداب الإمارة أن يرجع عنا أحد عُمّالنا على غير أمرنا.

- ولِمَ كان عليّ أن أنتظر حتى تفرغ من رسول قارلة؟

- هل أتركه لأختلي بك وأسمع منك؟

- لا يا سيدي.. ولكن، كنت أظن أني في أهل مشورتك كالذين كانوا معك، فأسمع كما يسمعون، وأشير كما يشيرون. أم صار أولئك كلهم مقدّمين عليّ؟

اقتحمه عبد الرحمن بنظرة صارمة قوية:

- أوَتُحاسِب أميرك يا بدر على رأيه وحكمه؟

- العفو يا سيدي.

- الأمير أعلم أين يضع رجاله. وإلّا ما هو الأمير؟ ولكلٍّ نصيب وعمل وجهد. ولا تجتمع الأعمال كلها إلّا في ذات الأمير. أم تريد أن تكون أميراً للجيش وحاجباً وواليًا وصاحب شورى معاً؟

-لا.. ولكن..

قاطعه عبد الرحمن:

- لا، ولكن، إنما تعبنا أولاً لكي نستريح أخيراً، وما أرانا الآن إلّا في أشد مما كنا!

اهتزت ملامح بدر من الصدمة إذ ردّد عبد الرحمن بعض ما كان يقوله حقاً. وتابع عبد الرحمن:

- أوَتظنّ أني غافل عما يدور حولي، وما تتناقله الألسن؟ قد علَّمتني التجارب أن الملك الحازم لا يتتبع خبر خصومه أكثر مما يتتبع خبر أصحابه، فمن مأمنه يؤتى الحذر، وقد أوتيت من بعض أهلي. فكيف أغفل عمّن دونهم؟ وأنت ما تزال تبث الشكوى منذ حين، وتُذكِّر بصنائعك كما ذكَّر بها أبو عثمان من قبلك: «أنا الذي مهّد للأمير قبل نزوله الجزيرة، أنا الذي عقد له العهود. أنا الذي وطّأ له»، أليس هذا ما تقوله؟ فإن لم تقله بلسانك الذي في فمك، قاله لسان حالك. والآن خرجت من الشكوى بين الناس إلى الاعتراض على أمري وحكمي.. ترجع عني بغير إذن، وتنقم أني عيّنت ابن بخت حاجبي، وتعترض على أهل مشورتي.. هل تريد أن تحكم مكاني؟

- معاذ الله يا سيدي.

- ماذا تريد إذن؟ الحجابة؟ ولاية من ولايات الأندلس؟

- في طاعة مولاي.

- وأنت الآن في طاعة من؟ إن كان هذا ما تريده حقاً.

استجمع بدر شجاعته وقال:

- فليكن يا سيدي.. ألا يحق لي بعد الذي أبليته..؟

قاطعه الداخل صائحاً:

- لا يحق لك إلّا ما أعطيك.

- وأنا لم آخذ حتى أعطيت، ما الذي أعطاه تمّام بن علقمة ويوسف بن بخت أكثر مما أعطيت ليستحقّوا..

قاطعه من جديد وقد تصاعد غضبه:

- لم يقعدوا للشكوى ولا للمنّ عليّ في كل مطرح.

- وما معنى أن يُذكِّروا ببلاء لم يبلوه، وما حاجتهم إلى الشكوى وقد أخذوا فوق ما صنعوا.

- ها أنت تمنّ على مولاك من جهة، وتتهم أحكامه من جهة أخرى.

- يا أبا المطرّف.. يا أبا سليمان.. ما يفعل الرجل إذا نُسِي عمله؟ ألا يُذَكِّر به؟ فلماذا إذا ذكّر به سُمِّي ذلك منًّا؟ وماذا يُسمّى نسيان بلائه وجهده؟

انتفض عبد الرحمن حين سمع العبارة الأخيرة؟

@ - ماذا؟ أوَقد بلغت بك الجرأة أن تتهمني بالجحود؟

- العفو يا مولاي.. لم أقصد.

- فماذا قصدت إذن أيها المسكين؟ من يَمُنّ على الآخر؟ ومن يجحد الآخر؟ تمنّ عليّ أنك جبت معي القفار وركبت الوعر وقاسمتني الإناء نفسه! ومن يتفضل على الآخر حين يقاسمه الإناء نفسه؟ السيد أم الخادم؟ الأمير أم المولى؟ أنا خرجت من الشام أميراً، ودخلت الأندلس أميراً، وأقمت فيها أميراً..وأنت خرجتَ من الشام خادماً، فأين بلغت معي؟ أمير الجيش.. ضياع وأموال وخدم وحشم، وطبول تُقرَع بين يديك.. من إذن يمنّ على الآخر، ومن هو الجاحد؟

أطرق بدر، وقد سقط في يده، وانتهت حججه.

وحين كان يمشي في الرواق خارجاً، كاد في غفلته أن يصطدم بعبد الله بن عبد الملك المرواني الذي كان داخلاً.

وكان عبد الله قد حلّ مكان أبيه عبد الملك المرواني بعد وفاته. وكان عبد الرحمن قد زوّج ولده هشام من أخته «كنزة»، محبةً وتقديراً له ولأبيه على ما كان من وفائهما وتفانيهما في الذبّ عنه وعن دولته دون كلل. وكان عبد الله أشبه الناس بأبيه. وقد ورث عنه حزمه وصلابته وصراحته في نصح الأمير بلا مواربة، وكان كأبيه يستعلي بنسبه المرواني.

- كان أبي يقول: إذا فسد عليك خادمك، فاصرفه، فإنه لا يصلح لك أبداً بعد!

- إنه أمير جيشي يا عبد الله!

- يغيّر الرجل منزله، ولكنه لا يغير جلده الذي وُلِد به.. ولقد سمعت أبي رحمه الله يقول: أخطر الرجال، من وُلد في منزل وانتهى إلى منزل أعظم من منزل آبائه.. يختبل عقله، ويختلط حكمه،

وتأخذه سطوة الضعيف إذا استقوى، والعبد إذا تسيّد، والمملوك إذا مَلك. وقد قيل: سمّن كلبَك يأكلك. وإن شئت الحقّ يا أبا سليمان، فإن أبي رحمه الله لم يرضَ يوماً بتقديمك لخادمك هذا.. بدر.. حتى بلغ ما بلغ عندك، وإن كان يقرّ له بالموهبة والقدرة، ويذكر صنائعه معك. ولذلك لم يصارحك برأيه. والآن بعد الذي رأيت من سوء أدبه معك ومنِّه عليك، كما سمعت منك، تتبيّن حكمة أبي.

- قد سمع مني كلاماً غليظاً يردّه إلى عقله.

- بل ربما زاده خبالاً ونقمة، وما هي حتى تتصرف النقمة إلى العمل. ولك عبره فيما فعل كبير مواليك أبو عثمان. وهذا بعد أقدر منه على الفعل. فهو أمير الجيش، عمل معك في بنائه من الموالي والرقيق والمولِّدين. ومن يدري، ربما انصرف ولاؤهم له لطول مخالطته لهم. فإذا أفسد عليك جندك، أفسد عليك مُلْكك. وإذا خلع طاعتك، لم تجد من تحاربه بهم.. لا القيسية ولا اليمنية الذين كسرت شوكتهم وأخمدت نارهم، ولا الجيش الذي صنعته ليكون عماد الدولة.

ذهب عبد الرحمن في التأمّل والسهوم:

- أوَقد يفعل؟

- لِمَ لا يفعل وقد أغلظت عليه وأوغرت صدره؟ ولِمَ تعجب وقد ائتمر بك بعض خاصة أهلك؟ ابن أخيك عبيد الله ومن كان معه.. لا تجرح الذئب الذي له أنياب حتى تخمده، فإنه أشد ما يكون خطراً وهو جريح.. ولكن اخلع أنيابه ومخالبه، لتأمن بوائقه. هذا أيضاً ما كان يقول أبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كثرت الزيارات بين المغيرة بن الوليد وهذيل بن الصميل. وبينما كان الثاني في زيارة للأول، قال:

- لم ترَ منيتي بعد بظاهر قرطبة. لا يزيد عليها إلّا منية الرصافة. ولولا مكانة الأمير، والخشية أن ينفسني إياها لجعلتها خيراً من منيته. وقد أمرت الخدم أن يعدّوا في الغد سماطاً عظيماً بين رياضها، نأكل ونشرب، وتعزف لنا القيان، و..

قاطعه المغيرة دون أن يلتفت إليه:

- ما الذي تريده مني يا هذيل؟

فوجئ هذيل بالسؤال، ورمق المغيرة بنظرة حائرة:

- لا أريد إلّا..

قاطعه المغيرة من جديد:

- لا تقل صحبتي. ما الذي ترمي إليه؟ أعني.. حقاً!

@ تريّث هذيل متفكراً، ثم زحف بجسمه مقترباً من المغيرة:

- ما الذي تريده أنت يا سيدي الأمير؟

- أنا؟

- نعم أنت. هل تريد أن تبقى قعيد بيتك، ليس لك من الأمر شيء إلّا الطعام و الشراب والقيان والإماء والسماع؟

تفحّصه المغيرة بنظرة عميقة، وتابع هذيل:

- لماذا كلما جئتك على غير ميعاد وجدتك في دارك؟ وأنت الأمير ابن الخلفاء. لماذا لا تكون في صحبة عمك الأمير؟ لماذا لم يولِّك عملاً من أعماله، وقد ولّى من لم نكن نعرف لها سماً؟ وأبوك.. أبوك الوليد بن معاوية، أخوه، ماذا يفعل؟ ثم لم يكتفِ عمك بإقصائكما عن أعماله، حتى أقصاكما عن زيارته ومخالطته أخيراً.. والناس يتحدثون بهذا.

هز المغيرة رأسه، ثم قال:

- هذا هو إذن. تريد أن تغريني بعمّي، كما فعل ابن عمّي عبيد الله بن أبان. وأين هو الآن؟

- ذلك لأنه لم يذهب إلى حيث القوة والنّصير.. نفر من بني أميّة المغمورين الذين لا يعرفون أحداً في الأندلس، وأبو عثمان الذي كان قد كبر وذهبت قوته.

نهض المغيرة وتمشّى منصرفاً عن هذيل، وقال بضيق:

- لا أريد أن أسمع هذا. اخرج من عندي.. إنك تتحدث عن عمّي أيها الرجل.

- عمّك! لماذا لم تمنعه عمومته من قتل ابن أخيه عبيد الله بن أبان؟ أي عم هذا الذي يسقط دمه وينسى عهد آبائه في أهله؟ هل يقال: قد تآمر عليه ابن أخيه وبيّت خلع الطاعة؟ كذلك فعل أبو عثمان، ووفر دمه. لا والله لا رَحِمَ للسلطان إلّا سلطانه... نعم، أصابت العرب: «المُلْك عقيم».. كذلك هو عنده.. وكذلك ينبغي أن يكون عندك!

قال المغيرة:

- أنت رجل موتور، تطلب ثأر أبيك، وتريد أن تستعملني فيه.

ردّ هذيل بقوة وبلا تردد:

- نعم، أنا رجل موتور. ولا والله ما مات أبي بتلك الخمر. بل دَسَّ له من خَنَقه في محبسه. وما قتله لجرم ارتكبه، بل هو الغدر. أنا أعلم الناس بأبي الصميل.. كان أصرح الناس عداوةً، وقد صرّح بعداوة عمّك حين روجع في أمره، ومع ذلك كتم أمره عن الفهري. برًّا بوعده. فلما ظفر عمك بالإمارة، وتعاهد مع أبي والفهري على الطاعة، حفظ أبي العهد، ونقضه الفهري. ولقد سمعته ينهى الفهري ويقول: لا تفعل، قد أعطينا الرجل عهودنا، ولا ننزع أيدينا حتى ينزع. فخرج الفهري، ومكث أبي على عهده. ومنعته الشهامة والمروءة من أن يفشي بسرّ الفهري وإن لم يطاوعه. ومع ذلك كان مصيره من مصير الفهري وولده أبي زيد عبد الرحمن. فنعم إذن، أنا موتور. ولكني لا أريد أن أستعملك لثأري، إلّا أن تستعمل حاجتي للثأر من أجل حاجتك. فتفوز أنت بالإمارة، وأنا أعرف أخيراً طعم النوم. ألا ترى إذن؟ قد ورثتُ عن أبي صراحته، وها قد فضحت لك ما في نفسي قبل أن أسمع ردّك، فلو شئت الآن وشيت بي لعمّك.ولو فعلت، فلا والله لا آسف. فما العيش بعد أبي الصميل وأخي جوشن؟

أطال المغيرة الإطراق والتفكير، قبل أن يسأل:

- ولماذا ننجح نحن فيما أخفق به الآخرون؟

تبسّم هذيل لِما شعر بأنه تحوّل في موقف المغيرة.

- كما قلت لك. لم يذهب ابن عمّك وصاحبك عبيد الله إلى حيث الشوكة والقوة. ولو أن أبي لم يحفظ عهد الأمير وخرج مع الفهري، لغلب عمّك بقومه. ولكنه آثر العهد. وهل تحسب أني، منذ صُرع أبي غدراً، قد انصرفت إلى ضياعي ومالي؟ بل ما زلت أعدّ العدّة، وورائي قوم يطيعونني طاعتهم لأبي. وهم أهل الحرب والكريهة. إلّا أنني كنت أبحث عن أمير أموي نثور بدعوته ونقاتل تحت لوائه. أليس هذا ما فعلته اليمنيّة حين نصروا عمّك علينا؟ أمير أموي وعصبة يمانية موتورة. والآن، أمير أمويّ أيضاً، هو أنت، وعصبة قيسية. فما أشبه الليلة بالبارحة. بل أكثر من ذلك، فبعد الذي فعله عمّك بأنصاره اليمنية، فإنا والله لو دعوناهم معنا عليه هذه المرّة لأجابوا. ألا ترى إذن؟ لا وجه إطلاقاً للإخفاق!

نظر إلى المغيرة متفحَّصا وَقْعَ الكلام عليه وتابع:

- وحتى لو كان هناك قدر من المجازفة، فهل فاز من فاز، وساد من ساد إلّا بركوب الخطر؟ هذا إرث آبائك، وكذلك إرث آبائي. لا نعيش عيشة الخمول، ولا نموت كما يموت البعير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يَشِ المغيرة لعمّه بما سمع من هذيل بن الصميل! وإذ مرّت أيام على ذلك أدرك هذيل أن المغيرة يحدِّث نفسه بالأمر، ويراود نفسه عليه. وكان محقاً.

@ فبعد أيام من ذلك اللقاء، حدث ما كان يرجوه. وها هو المغيرة قد جاءه بوجه مختلف.

وبعد يومين، كان هذيل يقوده إلى مجلس اجتمع فيه عدد من شيوخ القيسية. قاموا له احتراماً إذ دخل عليهم. وقال هذيل:

- هؤلاء شيوخ القيسية من مختلف بطونها وفروعها. ووراءهم ألوف تنتظر إشارتهم. وقد اجتمعوا لك اليوم ليبايعوك على السمع والطاعة وعلى ألّا ينازعك أحد الأمر الذي أنت له أهل.. فطب خاطراً يا سيدي.

وأجلسه على سرير خاصّ يليق بالأمير في صدر المجلس.

وبدا أن هذيل قد أحكم التدبير، واجتمعت عليه بطون القيسية كما كانت لأبيه..

ولكن الذين فاته أن أيام أبيه قد انقضت، وأنه يحاول الآن أن يمسك بذيول زمن فات، تغيّرت بعده النفوس.. بعضها، إن لم يكن جُلّها، وأن العصبة القبلية بدأت تتراخى أمام قوة الدولة، من جهة، وإغراءات الرخاء والاستقرار التي أثمرت عنه للجميع من جهة أخرى. وبدأ روح الأندلس يسري عبر البلاد والعباد، يميّزون به أنفسهم عن سائر الأمصار والأقطار. وما شعور الجماعة بالاختلاف عن الآخرين، إلّا الوجه الآخر لشعورهم بالائتلاف فيما بينهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخل المغيرة داره، فوجئ بأبيه الوليد في انتظاره.

- أبتِ!

- قد تأخرت عن زيارتي أياماً.ما صرفك عن أبيك؟

- لا يصرفني عنك شيء يا أبتِ.. بعض المشاغل.

- أي مشاغل هذه التي لا أعلمها؟ قد كُفيتَ العمل.

رد المغيرة:

- هه! كفيتَ العمل! قل: مُنِعتَه.

- لن نعود إلى تلك اللهجة المتبرّمة.

ثم ابتسم أبوه، واستأنف بلهجة مختلفة:

- على أيّ حال. ربّما صار لك عمل يليق بك أخيراً في إمارة عمّك.

حدّق به المغيرة مستطلعاً، وأكمل الوليد:

- هذا ما جاء بي إليك الآن. عمك الأمير أرسل في طلبك.

اشتدت دهشة المغيرة:

- طلبني؟ لم يفعل هذا منذ زمن..لا يطلبني ولا يطلبك.

- أعانه الله يا ولدي على مشاغله.. الإمارة عبء عظيم.. هيا لا تتأخر عنه فإنه يستعجلك، وما أظنه يستعجلك إلّا لأمر يسرّ قلبك وقلب أبيك.

- ألا تخرج معي للقائه؟

- طلبك وحدك.وأنت بعد رجل ذو ولد، لا تحتاج إلى أب يرافقك. هيا.. إني لأشعر بفأل حسن. وفألي لا يخيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد الرحمن في انتظاره حين دخل عليه. وحين حاول أن يقبّل يده، تفلّت عمّه مبتعداً، واستدار عنه.

- كيف تصنع يا مغيرة؟

- أنا بخير ما دام الأمير بخير.

ردّ عبد الرحمن بهدوء ونبرة غامضة:

-ولكني لست بخير يا مغيرة.. لست بخير أبداً.

- عداك السوء يا عمّاه!

ثم رانَ صمت ثقيل، وبقي عبد الرحمن مستديراً عنه وقد ضمّ ذراعيه إلى ظهره. وأخيراً تحدّث من جديد دون أن يلتفت إلى ابن أخيه:

- رجل وفى بذمّته، ووصل رحمه، وحملهم في البر والبحر حتى يكونوا في عهده وحماه.. كانوا خائفين فأمّنهم من خوف، ومرّت عليهم سنين عجاف، فأطعمهم من جوع.. فما حقه عليهم؟

هنا بدأ المغيرة في التوجّس وأحسّ بنذر الشر. فأجاب:

- الشكر والوفاء والدعاء.

هزّ عبد الرحمن رأسه، ومرّت لحظة صمت أخرى قبل أن يستأنف:

- ورجل جَحَد النعمة، وخانَ من أنعم عليه، وتربّص به الدوائر، وتآمر عليه، وقطع رحمه، @ولم يَعتبِر بمن سبقه.. ما جزاؤه يا مغيرة؟

هنا انقطع الشك باليقين في نفس المغيرة، فانقبض وجهه انقباضاً شديداً. وكرّر عبد الرحمن السؤال:

- هه! ما جزاؤه يا مغيرة؟ لماذا لا تجيب الأمير؟

ثم صفّق، فبرز رجل من وراء الستار. ميّزه المغيرة من الفور، فقد رآه في اجتماعه بشيوخ القيسية، مع هذيل بن الصميل. زاغت عيناه ونكس رأسه.

قال عبد الرحمن وهو ينقل الآن بصره بين الرجل والمغيرة:

- هل تحتاج إلى تذكرة؟ مجلس هذيل بن الصميل ومن اجتمع إليه.. وهذا العلاء بن حميد القشيري.. غير أنه أدرك ما لم يدركه الآخرون، أن زمن العصب القبلية قد تولى.. وأن هذه دولة الإسلام في الأندلس.

ثم أشار إلى العلاء بالخروج.وحدق في ابن أخيه الذي لم يستطع أن يواجه نظراته:

- أهذا هو إذن حقي في الشكر والوفاء والدعاء؟ إلّا أنك لم تجبني يا مغيرة، ما جزاء من جحد نعمة مولاه الأمير، وقطع رحمه؟ وقد قيل: السعيد من اتّعظ بغيره، والشقيّ من اتعّظ بنفسه. ولكن، حتى شقاء الاتعاظ بالنفس، لن تناله. هيهات، هيهات. إنما الاتعاظ للحيّ، لا للميت!

هنا وقد أدرك المصير، انتصب بجسمه على غير المتوقع وتحدّث بنبرة قويّة لا يخالطها شيء من الجزع:

- لن أتوسّل إليك كما فعل عبيد الله. فعجّل بي. فقد قتلتني حين قتلت عبيد الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع الوليد بن معاوية مهرولاً في الرواق حتى دخل على أخيه فزعاً مذعوراً متوسًّلا:

- ولدي يا أخي.. نشدتك الله.. لحمي ودمي.. لحمك ودمك.

قال عبد الرحمن مشيحاً عنه:

- إنه ليس ولدك.. إنه عمل غير صالح!

- نعم.. نعم.. هو والله ولد عاق.. عقك وعقني وعق آباءه.. ولكنه ولدي.. فلذة كبدي.. هبه لي.. أنا أخوك.. خرجنا من صلب واحد.. جلسنا على وطاء واحد.. ألا تذكر؟ أبونا معاوية، كيف كنا نلتف حوله؟ دارنا في بيت حَنا.. رصافة جدّنا هشام..

بقي عبد الرحمن على جلسته مشيحاً عنه وقد اتكأ بيده على رأسه ونزل الوليد على ركبتيه أمامه:

- نشدتك الله. هات يدك أقبّلها.

سحب عبد الرحمن يده ووقف وخرج من المكان مخلِّفاً أخاه وحده وقد نزل برأسه على سرير الإمارة الفارغ وانخرط في نشيج طويل.

في غرفة معتمة أُسدلت ستائرها، جلس عبد الرحمن وحده غارقاً في حزنه ووحشته. ثم سمع صوت حلل:

- أبا سليمان! إنه ابن أخيك.

- كذلك كان عبيد الله.

- لا تكسر قلب أخيك الوليد وهو حيّ.

- ولده كسر قلبه.. وقلبي.

- أنت أب، وأنا أم.. ونعرف معنى أن يفقد الأبوان ولداً لهما.

- أنا الأمير.. وذلك خائن.. ولا شيء بعد ذلك.

- هذا هو المخيف يا أبا سليمان.. ألّا يكون شيء بعد ذلك.

- لا تتشفّعي به.

- إنما أتشفع بك.

طرف ببصره إليها مستطلعاً مغزى العبارة، وأردفت:

- لم يبقَ حولك أحد من أصحابك وأهلك الأقربين.. أعني غير ولدك وحرمك.

- هكذا السلطان.

- لماذا يجب أن يكون السلطان هكذا؟ هل يلزم السلطان أن يتجرّد من..

توقفت عن إتمام العبارة تحرَّجا.. فقال:

- قوليها.. لن أضرب عنقك.. من عواطف الإنسان! نعم.. هكذا هو.. إلّا أنه لا يتجرّد، وإنما يُجرَّد، على رغم أنفه.

- إذن فهو محكوم وإن كان حاكماً.

@ هز رأسه بأسف، وردد بنبرة تأمليّة:

- محكوم وإن كان حاكماً.. مملوك وإن كان مالكاً.

- إنه لثمن باهظ يا أبا سلمان.. ربما كان أعظم من السلطان.

- هو كذلك يا حُلل.

- وندفعه؟

- ونحن راغمون. قد جُعِل لنا خيار قبل المُلك، فإذا صرنا فيه فلا خيار. إما أن يكون السيف لنا، أو يكون علينا.. حتى لو استعظمنا الثمن، ورجونا أن نعود أدراجنا فلا لنا ولا علينا، أبى الآخرون علينا. وإذا بالدم الذي أردنا تجنبه قد صار دماء. فلا نحن نجونا، ولا نجت الدولة، ولا نجت الرعيّة. وإنما خرجنا من الإفراط الذي نخشاه إلى التفريط الذي فيه هلاكنا وهلاك الأمة.

- والعفو عند المقدرة يا أبا سليمان؟

- حين توجد المقدرة على العفو.

- يا لتُعس السلطان إذن.

ردد مع تنهيدة عميقة:

- يا لتعس السلطان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين هوى السيف على عنق المغيرة، كان عبد الرحمن ينظر عبر زجاج النافذة إلى نخلته الوحيدة، بينما كان أخوه الوليد يجلس وحده في بيته وينتحب، وقد أصحب قلبه فارغاً مثل وادٍ موحش غير ذي زرع في ليلة دامسة.

لم يتقبل العزاء في ولده. وحبس نفسه في غرفة معتمة لا يرى أحداً، لولا زيارة غير متوقّعة من يوسف بن بخت، حاجب أخيه، الذي وجده حطاماً بائساً، وقد احمرت عيناه وانتفختا من كثرة البكاء. قال يوسف مُعَزًّيا:

- لله ما أخذ، ولله ما أعطى.. اصبر يا أبا المغيرة.

بقي مطرقاً لحظات، قبل أن يخرج صوته ضعيفاً كأنه يحادث نفسه:

- ليتنا ما خرجنا من الشام، ولا نزلنا هذه الجزيرة. حَسِبنا أننا نخرج من الخوف إلى الأمن، ومن الضيق إلى السّعة، ومن ضياع المُلك إلى تجديده، فما نالنا منه إلّا فقد الولد، وفتّ الكبد، وتقطع

الرحم.. لو بقيت في الشام لكفاني من الدنيا أن يرعاني ولدي، وأسمع بأخبار أخي وقد صار أمير الأندلس. كنت أقول: ليت إخوتي أبان وعبد الله وعبيد الله ويحيى لم يقضوا نحبهم بسيوف بني العباس، حتى يشهدوا مُلك آبائهم يتجدد في الأندلس، وينعموا فيها بالذي دخلنا فيه. والآن، أغبطهم جميعاً على ميتة بيد العدو، هي أهون من ميتة بيد الأخ والعم، وفوقها حسرة الأبد.

رمقه يوسف تعاطفاً.. ثم قال:

- لم يعد من المناسب يا سيدي أن تجاور أخاك في الأندلس، بعد الذي كان.

رفع الوليد رأسه ونظر إلى يوسف:

- هو أمر بذلك؟

هز يوسف رأسه:

- سيكون ذلك شديداً عل نفسه، بقدر ما هو شديد عليك. يقول: كيف يجتمع بصره ببصري بعد!

هز الوليد رأسه هزة خفيفة:

- صدق.. كيف يجتمع بصري ببصره بعد!

استَخْرَج يوسف صرّة مال كبيرة:

- هذه خمسة آلاف دينار منه، وأمرني أن أجهز لسفرك إلى عدوة المغرب، تقيم فيها أنّى شئت.

قال المغيرة:

- أما عدوة المغرب، فكما أمر.. وأما المال..

هز رأسه يميناً وشمالاً بالنفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف عبد الرحمن أمام نخلته الوحيدة متأملاً بوجه حزين.. ثم خاطبها:

- لم يبقَ غيرنا. أنا وأنت.. غريب يعزّي غريبة.

ثم أنشد من شعره الذي قاله فيها من قبل:

@ تبدّت لنا وسْط الرصافة نخلةٌ

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ

فمثلك في الإقصاء والمُنْتأى مثلي

ولكن من يدري؟ ربما لو كنت تعقلين وتتحركين، لكنت قد خنتِني كما خانني غيرك، وكنتُ قد قتلتك كما قتلتُهم.. خير لي ولك إذن أن تكوني عجماء ثابتة.

صمت هنيهة، وأوغل في التفكير والتأمل والذكرى، ثم عاد يخاطبها:

- أوَ تعلمين؟ أخي هشام، رحمه الله.. منذ صُرِع أمام عينيّ، قبل ما ينيف على خمس وثلاثين سنة.. لم أغمض عيني لحظة واحدة إلا وتصوّرته يُذبَح على عيني.. ثم يتصوّر لي في المنام.. الدم يشخب منه، وفي عينيه عتاب وتهمة.. لا أدري، هل كان بوسعي أن أفتدي دمه؟ أم أني افتديت دمي به.. الآن فقط لم يعد يراجعني في منامي. من يدري؟ ربما لو عاش وبلغ معي الأندلس، لانقلب عليّ كما فعل غيره. فكان عليّ أن أصرعه بنفسي.. لعلّ الذي وقع له هو أهون الشرّين، لكي أبقى محبًّا له إلى الأبد.. ويبقى وفيًّا لي إلى الأبد!

ثم أجالَ بصره في المكان وهتف لنخلته:

- ما الذي نفعله أنا وأنت هنا بحق الله؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يتهيّأ للخروج إلى مقر عمله في ديوان الجند، حين تفطّن إلى سكون الأصوات والحركة خارج البيت، على غير المألوف من الموكب الذي يخرج معه إلى الديوان. وحين أطل من النافذة، لم يجد أحداً في انتظاره، فهرول خارجاً يتلفت يميناً وشمالاً ويستقصي ببصره، ويحاول الفهم، حتى أقبل عليه أحد خدمه، فابتدره بالسؤال عن الحرس والموكب.

أجاب الخادم:

- لا أدري يا سيدي.. حين خرجتُ لم أجد أحداً.

امتطى جواده على عجل، وانطلق إلى ديوان الجند بأقصى سرعته. وحين دخل حجرة القيادة وجد ثعلبة بن عبيد جالساً مكانه مع بعض القادة. سأل بحيرة وتعجب:

- ثعلبة! ما الذي يجري في ديواني؟

أجاب:

- يؤسفني أنه لم يعد ديوانك ياسيدي.. وأنا خادم الأمير وأصدع بأمره فيما يستعملني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دار الإمارة بمنية الرصافة، كان يمشي مسرعاً في الرواق نحو مجلس الأمير، حين اعترضه يوسف بن بخت، صاح به بدر:

- تنحَّ عني.

وحاول أن يزيحه جانباً، ولكن يوسف ثبت في مكانه، وقال بلهجة قاطعة:

- لا تزد الأمور سوءاً يا بدر.. الأمير لا يرغب في رؤيتك.

- لن تمنعني من رؤيته؟

- بلى، مهما يقتضِ الأمر.

هنا برز عدد من الحرس وراء يوسف، ووقفوا مستعدّين.. وأدار يوسف رأسه قليلاً يومئ إلى الحرس وراءه، دون أن يرفع بصره عن بدر، كأنه يحذّره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذت زينب تمسح على شعره:

- لا بأس عليك يا سيدي.

- وأي بأس أشدّ من هذا البأس. أنام أميراً للجيش.. وأصحو لا شيء.. لا شيء.. ثم يمنعني من لقائه، ويرتّب الحرس عند بابه.

- أنت عندي كل شيء.. كنت أميراً، وتبقى أميرا.. وقد صنعتَ ما وجب عليك صنعه.. والآن نستطيع أن نعيش عيشة مريحة بعيداً عن أوضار الحكم وهموم الإمارة

- إنك لا تفهمين.. لا تفهمين شيئاً..

تريّث قليلاً، ثم تابع بنبرة تأمّلية:

- كنت في قعر الوادي، لا أملك إلّا أن أنظر نحو الأعلى.. وكان نظري بعيداً لا يتوقف دون الذروة.. وكنت أعلم أني لا أملك النسب ولا الإرث، ولكني كنت أحسّ في أعماقي @أنني أملك القدرة على الصعود إلى حيث وجد بعض المحظوظين أنفسهم بلا جهد، إلا إمارة موروثة.. والآن وقد خبرت العيش عند الذروة لا يسعني أن أرجع إلى قعر الوادي. فإن أشار إليّ الناس وقالوا: كان.. فتلك مصيبة، وإن لم يتفطن إليّ أحد كأني لم أكن، فتلك مصيبة أعظم. ألا ترين؟ قد فعل بي أكثر مما فعل السفاح بأبي سلمة الخلّال، ومما فعل أبو جعفر بأبي مسلم الخراساني.. رجلان سيذكرهما الناس على كل حال ويُعظّمون أمرهما حباً أو كرهاً. ولكنه آثر أن يطعن روحي لا جسمي.. أذاك الذي يقيم في منية الرصافة هو الفتى الذي قاسمته الطريق الطويل، والحلم البعيد؟ أهذه هي نهاية بدر؟ ألا يبقى من قصته وقصتي إلّا أن تروى سيرته دون سيرتي؟ وإلّا أن يقال: واصطحب معه خادمه بدراً! هل استدار الزمان على نفسه، فالأمير هو الأمير، والخادم هو الخادم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن إذلال بدر لم يتوقف عند عزله عن منصبه. فلم يمضِ وقت طويل حتى أمر عبد الرحمن بتجريده من ضياعه ودوره، بعد أن ضاق ذرعاً برسائله المتوالية التي يستعطفه بها، فلم تزده إلّا استيحاشاً منه وحنقاً. وها هو الآن يجلس إلى طاولة وضيعة في بيت وضيع، يحبّر رسالة أخرى:

«... أما كان جزائي في قطع البحر وَجَوْب القفر والإقدام على تشتيت مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي. وأظن أعداءنا بني العباس، لو حَصَلتُ بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا. فإنا لله وإنا إليه راجعون».

رفع عبد الرحمن رأسه عن الرقعة بعد أن قرأ ما فيها، وقد اشتد انقباضه، وقذف الرسالة جانباً:

- الشقيّ! من يظن نفسه حتى يجعل بني العباس أعداءه هو، فيجعلنا وإياه سواء؟ هل انتزع بنو العباس مُلك أبيه، أم كان شريكنا في ملك المشرق؟

ثم أملى رده على كتابه:

«وَقَعْتُ على رقعتِك المنبئة عن سوء خطابك. والعجب أنك حين أردت أن تمدّ لنا حبلاً أتيت بما يقطع كل حبل، ويهدم كل بنيان مشيّد مما تمنّ به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفس

إعادته».

سألت زينب حين رأت رقعة الجواب في يده:

- بِمَ أجاب.

طوى الرقعة ودسّها في جيبه، وقال متظاهراً بصوت مرتبك:

- بِمَ أجاب؟ نعم.. سيروّي في الأمر، ويراجع رأيه.

رمقته متشككة بصدق كلامه. وتعاظم شعورها بالأسى الشديد لما آل إليه حاله، ولم يكن ذهاب المنصب والجاه والمال ما أورثها ذلك الشعور. ولكنه ما تراه من بؤسه وتذلّله وانهيار روحه وعزيمته وصبره. وقد بدا ذلك كله في مظهره الرثّ البئيس، وكأنه كبر عشر سنين مرة واحدة، ليس هذا الرجل القويّ المفعم بالحياة الذي عرفته من قبل. أما هو فكان يحدّث نفسه: «فقط لو أستطيع الوصول إليه.. ربما إذا رآني ذكر عهدي القديم معه، فرقّ قلبه وراجع نفسه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان موكبه العظيم يعبر طرقات قرطبة بعد أداء صلاة عيد الأضحى، يتقدّمه قارعو الطبول وضاربو الصنّاج، ويحيط به ولداه سليمان وهشام وحاجبه يوسف بن بخت وعدد من كبار القضاة والوزراء والأعيان، ويحف به على الجانبين خطان من الحرس يمنعونه من اقتراب الناس الذين احتشدوا على جانبي الطريق يلوحون بأغصان الزيتون والأعلام البيض، وينثرون الزهور، ويهتفون بتحايا العيد والدعاء. وفي موضع ما شوهد رجل رث المظهر بلحيته الطويلة وشعره الأشعث يخترق الصفوف، محاولاً الوصول إلى الموكب. فتلقاه الحرس بغلظة ودفعوه إلى الخلف. حاول مرات عدّة وهو يقول:

- أريد أن أخاطب الأمير..

ضاع صوته بين هتافات الحشد، وأخيراً دفعه أحد الحرس بشدة أعظم حتى كاد يستلقي على ظهره، لولا أن تلقاه الحشد من ورائه. وصاح به الحارس:

- ارجع أيها الأحمق.

ولم يكن ذلك الرجل التَّعِس إلّا بدر نفسه، أمير الجيش سابقاً، الذي لم يميّزه الآن أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس مطرقاً حزيناً في بيته. ثم رفع رأسه وقام ومشى نحو منضدة الكتابة، وجلس يخطّ رقعة جديدة:

@ «قد طال هجري، وتضاعف همّي وفكري. وأشدّ ما عليّ كوني سليباً من مالي. فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي، وأبيت في معزل، لا أشتغل بسلطان، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت..».

في هذه اللحظة امتدت يد زينب والتقطت الرقعة قبل أن يتمّها، وعركتها بيدها ثم قذفتها بعيداً. نهض واقفاً وصاح بها:

- ما هذا؟ ماذا فعلتِ؟ جُننتِ؟

قالت بقوة غير مسبوقة:

- لا والله لا تكتب له بعد ولا تتوسّل إليه. كفى رُقَعاً، ما تنتهي من واحدة حتى تبدأ بأختها.

صاح بها:

- أنا من يقرّر ذلك. أنا صاحب الأمر هنا.

- نعم، هكذا يجب أن تكون.. كما كنت دائماً.. صاحب الأمر هنا وهناك، وفي كل مكان تكون فيه، وكل حال تكون عليه.

- وهل بقي لي من الأمر شيء هناك بعد الذي فعله بي؟

- بقيت لك نفسك، وعزّتها. فإن ملكتها فأنت صاحب الأمر فيها، أميراً كنت أم فقيراً.. انظر إليك كيف صرت!

أشار إلى الحجرة الوضيعة وقال:

- انظري حولك.. كيف صار حالنا؟

- هذا ليس نحن كائناً ما كان.. قصراً كان أم غرفة كراءٍ وضيعة. أما نحن، فكما نصنع بأنفسنا.

ثم أشارت إليه بإصبعها:

- ليس هذا هو الرجل الذي عرفته في فسطاط مصر، وقد عمل حمَّالا ليُقيت نفسه وصاحبيه، ومع ذلك كان أميراً.. أميراً في نفسه وهمّته وعزة نفسه ومناقبه.. وهو الذي خَلَب لبيّ وأعطاني سبباً للحياة الكريمة. ولقد رأيتك في مصر وأنت خادمه، وليس معكما شيء، فما كان أحد ليميّز بينكما: أيكما الأمير وأيكما الخادم. بل ربّما لو سئل من لا يعرفكما لترجّح عنده أنك الأمير دونه! نعم، سَمَوْت بالمنصب وسما بك، وذلك بجهدك وعملك، ثم ذهب المنصب والمال بأمر السلطان وسطوته.. ولكن.. هنا..

دَقَّتْ الآن على صدره، وتابعت:

- لا، لم تكن في قعر الوادي كما تقول، ثم سموت إلى الذروة، ثم رجعت إلى القعر..

تابعت الدقّ على صدره:

- هنا.. كنت سامياً أول الأمر وأنت الخادم، وبقيت سامياً بعدئذٍ وأنت أمير الجيش. بيدك أنت، لا بيد الأمير، أن تظلّ سامياً إن شئت، أو ترمي بنفسك إلى هاوية ليس لها قرار.. هذا أمر لا يستطيع السلطان أن يعطيه لأحد، أو يسلبه من أحد. إنما يرفع السلطان من كان مفتقراً إلى السمو بنفسه، ويُسْقِط من ليس له غير ما ينزله السلطان فيه. فلتذهب منازل السلطان ومِنَحُه إلى جهنم.. وتبقى أنت أنت.. زوجي وسيدي وحبيبي. وأكثر من ذلك: سيد نفسك وأمير روحك.. هذا يبقى بأمر صاحبه، لا بأمر أحد!

نزل جالساً مطرقاً يفكّر.. ثم رفع رأسه ونظر إليها بمحبة غامرة ثم نظر إلى دواة الحبر والرقع الموضوعة للكتابة عليها.. وفجأة ضربها جميعها بيده فأطارها..

وارتسمت على وجه زينب ابتسامة شاحبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا الآن في مظهر جيد مختلف، وقد اغتسل وهذّب لحيته وشاربيه وارتدى ثياباً نظيفة. وإذ وقفت زينب تتمعّن به في هيئته الجديدة، أضاء وجهها بالرضا. وسألت:

- هل تعرف أين سننزل في تلك الأنحاء؟

- نلتمس مكاناً قصياً عن الحواضر وازدحام الأقدام.. كوخاً صغيراً في ريف الثغر الأقصى، حوله أرض صغيرة نزرعها معاً ونتعيّش منها.

قالت مبتسمةً:

- سيكون معنا وقت طويل نتحادث فيه عن سيرتنا الأولى.. أنت في الشام، وأنا في مصر، وأقُصُّ عليك ما لم تعرفه من قصص احتيالي.

- وهناك قصص غير التي سمعتها؟

- ادّخرت عنك أكثرها ظرفاً وطرافة.

@ قال مداعباً:

- ليس أمراً تفخرين به!

- هو أقلّ ضرراً من بطش بعض الكبراء المتجبّرين.. وهو الذي جمعني بك على كل حال.

حدّق فيها متأمِّلا ثم قال:

- لستِ نادمة؟

- على أي شي؟

- أني أتيت بك من مصر ؟

- بل أندم على سنوات عمري التي مرّت قبل أن يجمع الله بيننا، ولو ذهبتَ إلى آخر الدنيا، أو نزلتَ القفار، لما أحببت إلّا أن أكون معك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين صارا على مسافة من عمران قرطبة، توقف فجأة ببغلته، واستدار ليلقي على قرطبة نظرة الوداع الأخيرة؛ لم يكن شاعراً، ولكنه كان في تلك اللحظة ممتلئاً بالشعر:

- وداعاً يا قرطبة! قرطبة الغويّة التي تضيء وتحرق.. ملتقى الأضداد، ومفترق الأحباب، ومجمع الجنة والجحيم.. مثوى التائه الطريد، وطاردة المطمئن المقيم.. قرطبة: المبتدى والمنتهى.. أول الزمان وآخره.. وداعاً لا لقاء بعده!

كانت زينب تنظر وتسمع.. ثم ارتد بوجهه إلى الأمام، وتابعا السير على دابتيهما، وكان يجرّ وراءه بغلة أخرى وضع عليها متاعهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قضى عبد الرحمن الشهور التالية في التخطيط والإعداد لبناء جامع قرطبة الكبير، الذي أراده أن يكون مفخرة قرطبة وشعارها على مرّ الزمان. فكان يصل نهاره بليله مع البنائين والمهندسين للنظر في خطط الجامع وشكله ومواده. وجيء له بعيّنات من أنواع الرخام من أنحاء الإمارة: رُخام أبيض من جبل قرطبة، ورخام موشّى من «باغة» بكورة البيرة، تجتمع فيه الحمرة والصفرة، ورخام مُجَزّع يجمع بين السواد والبياض. واتفق الرأي على أن يكون للعمود رأس من الرخام وقاعدة، ثم يعقد بين الأعمدة بأقواس متوالية. أما القبلة فتُزيَّن بالفسيفساء وتُطلَى بماء الذهب. وأما الصومعة فتكون مائة ذراع: ثمانين ذراعاً إلى موضع وقوف المؤذِّن، وعشرين ذراعاً أخرى إلى أعلاه. وأمر البنّائين والفعلة بالسرعة والإتقان معاً، وبدا متعجِّلاً، يرجو أن تُكتَب له الصلاة فيه قبل انقضاء أجله.

وفي اليوم الذي بدأ فيه حفر الأسس، أصرّ أن يكون أول من يضرب بالفأس، بينما احتشد أهل قرطبة ينظرون..

- بسم الله. اللهم تقبل منا إنك أنت التواب الرحيم.

ونزل بفأسه، وارتفعت الأصوات بالتكبير، وانخرط الفَعَلَةُ في الحفر، وتابع عبد الرحمن معهم. ولما قال له يوسف بن بخت:

- قد بدأت الحفر باسم الله.. ألا يكفي ذلك منك يا سيدي؟

أجاب:

- هذا الذي لا يُكتفَى منه يا يوسف.

ثم صاح بالفعلة والمتطوعين بالعمل تقرُّباً من الله:

- أفلا يرجز أحدكم كما فعل أصحاب النبي -صلّى الله عليه وسلم- ، حين شرعوا في بناء مسجد المدينة، فننشط في العمل؟

قادهم أحد الشيوخ الوعّاظ الذين آثروا المشاركة في أجر العمل في المسجد، فرفع صوته بالرجز الذي يحفظه، بينما أخذ الآخرون يرددون من ورائه:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدّقنا ولا صلينا

فأنْزِلَنْ سكينةً علينا

وثبِّت الأقدام إن لاقينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس وحده على مقعد رخامي في حدائق الرصافة، وذهب ببصره إلى البعيد، وقد بدت عليه الآن آثار أعباء السنين..

ثم أحسّ يد حلل تربت على كتفه:

@ - قدأجهدت نفسك كثيراً في أعمال الجامع الكبير.. ألم يئن الوقت أن تريح قليلاً، وقد كفاك البنّاؤون والفَعَلَةُ والمتطوّعة؟

أجاب بصوت هادئ:

- قد أجهدنا أنفسنا فيما لا نعلم خيره من شرّه. فلماذا لا أجهد نفسي في بيت الله، فلعله يشفع لي عند ربي. والأجل لا يتأخر يا حلل، ولا أدري هل أصّلي فيه، أم يُصلَّى عليّ فيه؟ أم يفوتني منه هذا وذاك.

- لا تقل هذا يا سيدي.. أطال الله في عمرك.

وعاد ينظر في الفضاء البعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الفضاء البعيد كان بدر ينظر وهو جالس إلى مقعد خشبي أمام كوخه القائم على تلة في أطراف قرية جبلية نائية في الثغر الأعلى الشديد البرودة، وقد وضع غطاءً على ساقيه. وكانت سلاسل الجبال تحيط به، تتخللها بسائط خضراء. وكان قد مرّ عامان على مغادرته قرطبة إلى تلك الأصقاع.

وبينما كان غارقاً في تأملاته، تناهت إليه حركة خيل.

تنبهت حواسه وأرسل نظره ولكنه لم يرَ شيئاً أول الأمر، فقد كانت الطبيعة الجبلية تحجب الرؤية وتضخم الصوت، حتى بدت له أخيراً من بعيد أدنى التلّة كوكبة من الفرسان الذين توقفوا بعد إشارة من أحدهم.

دقّق النظر، ولكن الأيام كانت قد ذهبت بقوة بصره، لم يتبيّن الأشخاص، حتى بدأ كبيرهم الذي أشار إليهم بالتوقف، يصعد التلّة بجواده وحده.

أهذا حقا أميره عبد الرحمن بن معاوية المشهور بلقبي الداخل وصقر قريش؟ ضغط جفنيه يغلقهما ويفتحهما بضع مرات ليدقق النظر. نعم، إنه هو. ليس هذا من الوهم أو أحلام اليقظة. الأمير.. بلحمه ودمه. وها هو يقترب منه صاعداً، حتى وصله وترجّل عن جواده، ومشى نحوه. ولكن بدراً لم يقم إليه، ولم يبدِ شيئاً من الحركة والنشاط لمقدمه المفاجئ. كل ما فعله أن ألقى عليه نظرة سريعة، ثم عاد ينظر في المدى، وقال:

- نهار رائق.. وهواء عليل!

ثم أردف:

- اعذرني يا سيدي أني لا أستطيع القيام لك وخدمتك.. مفاصلي.. هذه بلاد شديدة البرودة.

تقدّم عبد الرحمن بهدوء وجلس إلى جانبه، وأخذا ينظران معاً في الفضاء. ومرت لحظات صمت، قبل أن يسأل عبد الرحمن دون أن يلتفت إلى بدر:

- أين زينب؟

أدار بدر رأسه إلى جهة معيّنة من الحديقة الصغيرة التي تحيط بكوخه. كان ثمة قبر هناك. فَهِم عبد الرحمن، وقال:

- رحمها الله.

تلا بدر قوله تعالى: (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا. وما تدري نفس بأي أرض تموت)..

هز عبد الرحمن رأسه ساهماً، وقال:

- لو كان للمرء أن يختار موضع قبره، لاخترت أن يكون في الشام.

- الشام! ما أبعدنا عنها!

- وما أقربنا منها.

مرّت لحظات صمت وتأمل أخرى، قبل أن يعود عبد الرحمن للكلام:

- تذكر الطائر الذي أصابه سهمانا معاً في الشام؟

- وأذكر الطائر الذي أخطأناه معاً في الأندلس!

أطرق عبد الرحمن متأمًّلا، ثم تحدث من جديد بنبرة بوح ذاتي:

- نبوءة مسلمة بن عبد الملك. أخْبَرَتْ أنني سأجدّد مُلك بني أمية في المغرب البعيد، بعد زواله في المشرق.. وقد فعلت. إلّا أنها لم تخبر عن الثمن الباهظ الذي سأدفعه.. كأنها كانت خدعة وفخاً.. هل كان الأمر يستحق كل ذلك العناء، وكل ذلك الثمن الذي دفعتُه من روحي؟

قال بدر:

- ولو علمتَ الثمن في ذلك الحين هل كنت تحجم عن كل شيء؟

@ هز عبد الرحمن رأسه حائراً، ثم قال بعد لحظات تفكير وتأمّل:

- لو كانت سيرة المرء مُنْبَتَّةً عن سِيَر غيره، فلربما كان له خيار. ولكن.. أبو مسلم.. أبو سلمة.. الأمام محمد بن علي.. الإمام إبراهيم بن محمد.. الوليد بن يزيد.. مروان بن محمد.. بلج القشيري.. عبد

الملك بن قطن.. أبو الخطار الكلبي.. الصميل بن حاتم، يوسف الفهري.. هؤلاء وآخرون لا أحصيهم ولا حتى أحيط بهم.. وحتى الثعلب الذي صرع أبي وهو يطارده، ففاتته خلافة جدّي.. كل أولئك كانوا ينسجون خيوطهم وخيوطي معاً.. يكتبون ما يُمْلون أو يُملي عليهم من سيرتي وسِيَرهم معاً. مثلما كنت أنسج خيوطهم وخيوطي، وأكتب سيرتي وسيرهم معاً.. ونحن ندري ولا ندري.. كأنها شبكة الصيّاد!

قال بدر:

- ألم تنسَ واحدا يا سيدي؟

التفت إليه عبد الرحمن متسائلاً، ثم بدا كأنه تفطّن:

- نعم.. وبدر.

- إن كنت قد نسيت بهذه السرعة، فكيف بكتبة التاريخ والأخبار؟

ثم هزّ رأسه وابتسم ابتسامة باهتة وأردف:

- واصطحب معه خادمه «بدراً».

أطرق عبد الرحمن، وبعد هنيهة أخرى من الصمت عاد يتحدّث بلهجة تجمع بين التأمل والبوح والمكاشفة:

- هلتصدّق؟ لم يبقَ في نفسي ضغينة على بني العباس.. أعني، لم أعد أنقم عليهم لأنهم طلبوا المُلك، ولا لأنهم استعملوا من أجله كل تلك الوسائل، ولكن لأنهم غَلبوا وغُلبنا.. طلبوا المُلك كما طلبه آبائي.. فغَلبنا أول الأمر، ثم غُلِبنا كما غلبنا.. فما الفرق؟ لا والله ليس المغلوب في معيار الحق والدين أحسن من الغالب، ولكنه كذلك في معيار نفسه ومعيار من هم في طاعته.. ألم يأتمر بي خاصّة أهلي؟ ابن أخي عبيد الله أولاً، ثم ابن أخي المغيرة ثانياً، فأنزلت بهم حكم الغالب، وتلقوا حكم المغلوب؟ وهل كان بين بني أمية وبني العباس إلّا هذا؟ فأين الحق، وأين الباطل؟! حقك هو الباطل عند خصمك، وحقه هو الباطل عندك. فما الذي يجعل حقك أثبت وأصحّ من حقه؟ ذلك أمر لا يحكم به إلّا الله يوم القيامة. أما في هذه الأرض، فالقوة هي الحَكَم.. القوّة..

هز بدر رأسه يميناً وشمالاً تعبيراً عن أسفه واعتراضه:

- إذن، فهي غابة السِّباع.. إلّا أن تكون شورى، ويكون الاحتكام إلى شرعة غير شرعة السلاطين.. والخَلْق.. الخَلْقُ شهود الحق.

ذهب عبد الرحمن في التفكير والتأمل من جديد، قبل أن يقول أخيراً:

- ألا تعود معي إلى قرطبة، فتكون من شهود الحق؟

ألقى عليه بدر نظرة خاطفة، ثم قال:

- قد تأخّر الوقت.

التفت إلى قبر زوجته، ثم عاد ينظر في المدى أمامه:

- وقد أَلِفت الوحدة هنا.

ردد عبد الرحمن بنبرة ذاتية كأنه يحدّث نفسه عن نفسه:

- الوحدة!

بعد هنيهة أخرى من الصمت.. وقف عبد الرحمن، وتبادل مع بدر نظرة عميقة، ثم مشى بهدوء عائداً إلى موضع جواده.. وإذ صار على مسافة من بدر سمعه يهتف بقوة:

- قد صنعناه معاً.. أنا وأنت.. عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وبدر!

أرسل إليه عبد الرحمن من مكانه نظرة طويلة غامضة.. وهز رأسه، ثم امتطى جواده.. وإذ هَمَّ أن يبدأ في الانحدار عن التلّة.. سمع صفير بدر القديم واضحاً قوياً جميلاً كما كان قديماً.. التفت عبد الرحمن صوبه فرآه يمشي مرتدًّا نحو كوخه بخطى ثابتة قويّة لا توحي أبداً بما ادعاه من ألم المفاصل الذي أعجزه عن القيام للأمير عند وصوله!

وبينما تابع صفيره، أخذ يحجل على إحدى قدميه إمعاناً في إظهار خفّته.

تابعه عبد الرحمن بنظراته إلى أن دخل كوخه وأغلق الباب وراءه.

ثم استدار عبد الرحمن بجواده، وبدأ الهبوط من التلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مُلتقى البحرين..

كنت في قعر الوادي, لا أملك ّإلا أن أنظر نحو الأعلى.. وكان نظري ًبعيدا لا يتوقف دون الذروة.. وكنت أعلم أني لا أملك النسب ولا الإرث, ولكني كنت ّ أحس في أعماقي أنني أملك القدرة على الصعود إلى حيث وجد بعض المحظوظين أنفسهم بلا جهد, إلا إمارة موروثة.. والآن وقد خبرت العيش عند الذروة لا يسعني أن أرجع إلى قعر الوادي. فإن أشار إلي الناس وقالو: كان.. فتلك مصيبة, وإن لم يتفطن ّإلي . أحد كأني لم أكن, فتلك مصيبة أعظم. ألا ترين؟ قد فعل بي أكثر مما فعل السفاح بأبي سلمة ّ الخلال, ومما فعل أبو جعفر بأبي مسلم الخراساني.. رجلان سيذكرهما الناس على كل حال ويعظمون أمرهما ًحبا أو كرها. ولكنه آثر أن يطعن روحي لا جسمي.. أذاك الذي يقيم في منية الرصافة هو الفتى الذي قاسمته الطريق الطويل, والحلم البعيد؟ أهذه هي نهاية بدر؟ ألا يبقى من قصته وقصتي ّإلا أن تروى سيرته دون سيرتي؟ وإلا أن يقال: واصطحب معه خادمه ًبدرا! هل استدار الزمان على نفسه, فالأمير هو الأمير, والخادم هو الخادم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

الكتاب الأول

الفرار الكبير

الكتاب الثاني

في الأندلس

الكتاب الثالث

الملك عقيم: ما لم تخبر به الرؤيا

مُلتقى البحرين..